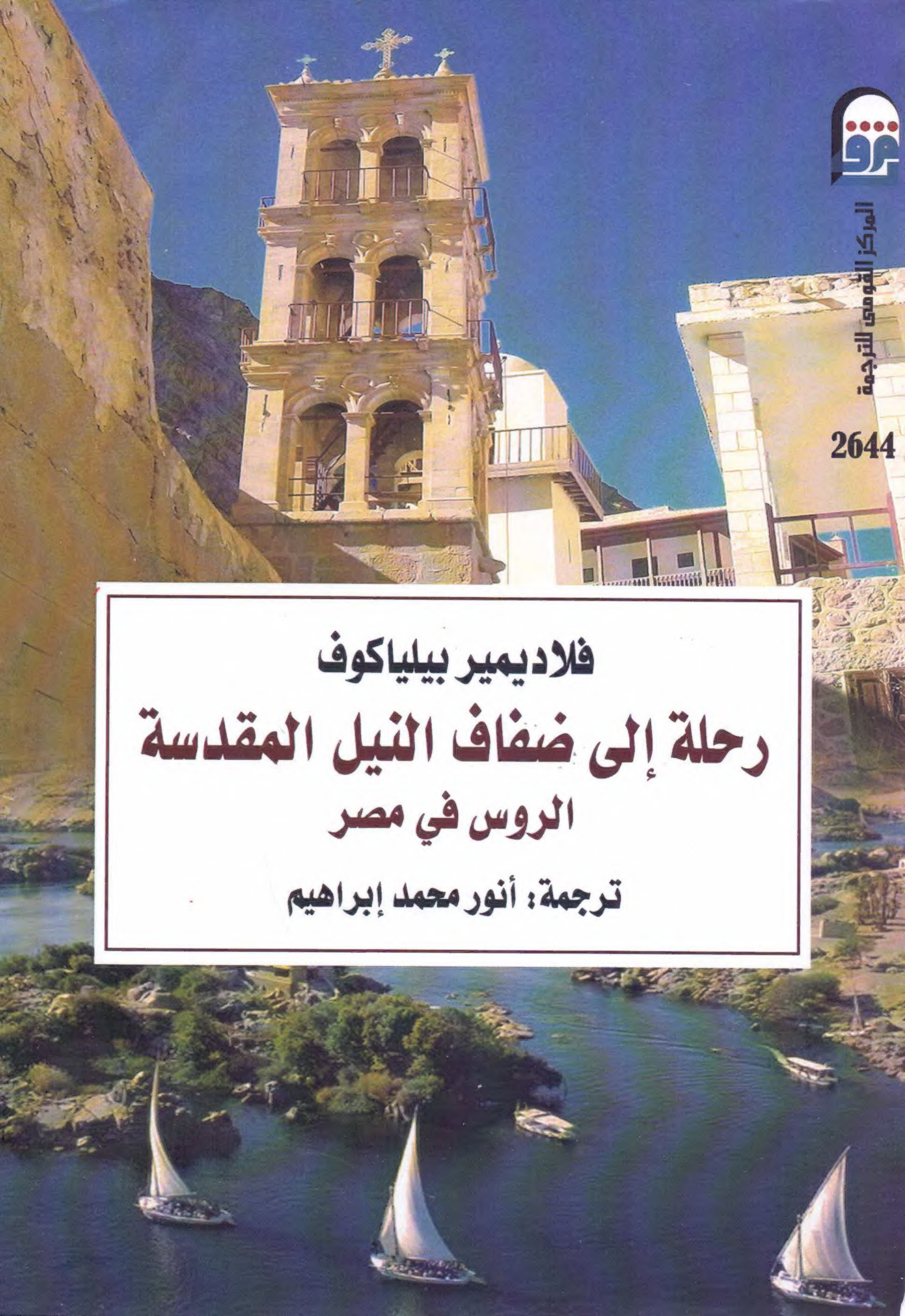

المركز القومي للترجمة
2644
فلاديمير بيلياكوف
رحلة إلى ضفاف النيل المقدسة
الروس في مصر
ترجمة: أنور محمد إبراهيم

هذا الكتاب مُكرّس للعلاقات الإنسانية بين روسيا ومصر، ويتناول بين دفتيه عددًا من الموضوعات، مثل: التقاليد التي كان يمارسها الحجاج الروس المتوجهون لزيارة الأماكن المقدسة في سيناء، ونشأة وتطور السياحة المدنية إلى مصر في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين وانعكاساتها في الثقافة الروسية. وكذلك تكوين ووضع الجالية الروسية في مصر في النصف الأول من القرن العشرين. إن الجزء الأكبر من المادة الواقعية الواردة في هذا الكتاب تُطرح للمرة الأولى في صياغة علمية رصينة، بما في ذلك تلك المادة التي جرى جمعها عن طريق البحث الميداني في مصر؛ حيث عاش المؤلف في جنباتها منذ عام 1986 وحتى عام 2000.

تصميم الغلاف: هاني الشناوي

رحلة إلى ضفاف النيل المقدسة
الروس في مصر

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2644
- رحلة إلى ضفاف النيل المقدسة: الروس فى مصر
- ڤلاديمير بيلياكوف
- أنور محمد إبراهيم
- اللغة: الروسية
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة كتاب:

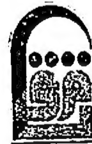
«К БЕРЕГАМ
СВЯЩЕННЫМ НИЛА...»

Русские в Египте
BY : В.В.Беляков

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

رحلة إلى ضفاف النيل المقدسة
الروس في مصر

تأليف : فلاديمير بيلياكوف
ترجمة: أنور محمد إبراهيم



2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

بيليا كوف ، فلاديمير .
رحلة إلى ضفاف النيل المقدسة: الروس في مصر / تأليف: فلاديمير بيلياكوف؛ ترجمة: أنور محمد ابراهيم.
ط١، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦
٤٣٢ ص، ٢٤سم
١- مصر – العلاقات الخارجية – روسيا.
٢- روسيا – العلاقات الخارجية – مصر.
(أ) ابراهيم ، أنور محمد (مترجم).
(ب) العنوان ٣٢٧,٦٢٠٤٧

رقم الإيداع ١٩٨٨٥ / ٢٠١٤
الترقيم الدولى : 978-977-718-872-2

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

كلمة المترجم 9

الفصل الأول: الأماكن المقدسة في سيناء باعتبارها نقطة انطلاق لنمو العلاقات الروسية المصرية 13

- الكنيسة الأرثوذكسية في سيناء - حارس الأماكن المقدسة السيناوية 15
- الحجاج الروس في سيناء 24
- روسيا وكنيسة سيناء 40
- الروس روّاد البحث في سيناء 62

الفصل الثاني: مصر في الثقافة الروسية في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين 81

- نجاح علم المصريات وتزايد اهتمام الروس بالتراث التاريخي لمصر 84
- "الأسلوب المصري" في العمارة والفن - إنشاء المجموعات المصرية 96
- نشأة حركة السياحة 109
- مصر في إبداع الأدباء الروس 125

الفصل الثالث: نشأة الجالية الروسية في مصر ووضعها في مطلع القرن العشرين 145
– نشأة الجالية الروسية 148
– المهاجرون الروس والحركة السياسية في مصر 159
– البحارة الروس في مصر 173
– الجالية الروسية في مصر إبان الحرب العالمية الأولى 188
الفصل الرابع: "الروس البيض" في مصر 197
– اللاجئون الروس في مصر في الفترة من ١٩٢٠ وحتى ١٩٢٢ 198
– المعسكر الروسي في سيدي بشر 221
– الوضع الاجتماعي والاقتصادي للمهاجرين الروس وتأسيس الجالية الروسية (العشرينيات والثلاثينيات) 237
– الجالية الروسية في مصر أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية 259
الفصل الخامس: إسهام ممثلي الجالية الروسية في الثقافتين المصرية والعالمية 279
– الدبلوماسيون القيصريون السابقون، الأرستقراطيون والعسكريون 279

– المثقفون والفنانون 293

– المؤرخون وعلماء المصريات 306

– الأطباء والمهندسون 318

خاتمة: 325

ملحق: 331

تعليقات الروس في سجلات زوّار دير سيناء 333

– أبو الهول 339

– تقرير لجنة طاقم السفينة "بيريسيفيت" إلى كيرينسكف وزير الحربية والبحرية والمؤرخ ٢١ يوليو عام ١٩١٧ 340

– ديمتري فلامبورياني: الروس على التراب المصري (مقال تاريخي) 344

– الكسندر بيانكوف (١٨٩٧ – ١٩٦٦) 354

– إحياء لذكرى الذين رحلوا . ب.أ. فريدمان – كليوزيل ... 359

بيليوجرافيا: المصادر والمواد الأرشيفية 363

المراجع في اللغات الأوربية 419

كلمة المترجم

تعد مصر واحدة من البلاد، التي جذبت انتباه الروس إليها منذ بداية العصور الوسطى. ويعود الاهتمام بها إلى وجود بعض الأماكن المقدسة المسيحية على أرضها، مثل جبل موسى وشجرة العليقة الملتهبة. وعلى الرغم من أن الحج إلى سيناء لم يبلغ إطلاقًا مبلغ الحج إلى فلسطين من ناحية أعداد الحجيج، فإن تقاليد الحج إلى سيناء تعود، كما يبدو، إلى نفس الفترة التاريخية، أي إلى القرن الأول بعد تعميد روسيا.

وبعد مرور قرون طويلة، وفي نهاية القرن الثامن عشر، أضافت روسيا اهتمامها السياسي بمصر، إلى جانب اهتمامها الديني بها. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر قامت بين البلدين العلاقات الدبلوماسية والتجارية والثقافية بصورة كاملة، وعلى ضفاف النيل راحت الجالية الروسية تتشكل.

وعلى الرغم من قِدم العلاقات بين روسيا ومصر واتساعها على نطاق كبير، فإن هذه العلاقات لم تصبح حتى الآن موضوعًا للبحث المنهجي، لا من جانب الباحثين الروس، ولا من جانب نظرائهم المصريين.

وقد سعى المؤلف بقدر ما إلى سد هذه الثغرة. وفي هذا السياق فقد كثّف اهتمامه بأقل الجوانب دراسة في هذه العلاقات وهي العلاقات الإنسانية. ونحن نعنى بالعلاقات الإنسانية هنا العلاقات الفردية غير الرسمية، التي جاءت نتيجة الاهتمام الشخصي، الديني في بعض الأحيان، وليس المهني. وعلاوة على ذلك، فإن العلاقات غير الرسمية التي يعقدها الدبلوماسيون

والتجار والصحفيون مع السكان المحليين في البلد الآخر تعد في جوهرها أيضا علاقات إنسانية. على أن هذه العلاقات لا يتم عادة تسجيلها، ومن ثم لا تخضع للدراسة.

و العلاقات الإنسانية فى رأينا أن يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أشكال أو مستويات. الشكل الأول هو المراسلات التي تمت بين ممثلي مختلف القوميات، وفى حالتنا هذه على سبيل المثال، تلك التي جرت بين ليف تولستوي والإمام محمد عبده مفتى الديار المصرية. الشكل الثاني وهو يمثل مستوًى أعلى في العلاقات الإنسانية وهو السياحة، ويتمثل في السفر إلى البلد الآخر لمدة محددة. والغرض من هذه الأسفار يمكن أن تتعدد صوره ما بين الحج، والتعرف على الآثار، والاستجمام، والاستشفاء، إلى زيارة الأهل والأصدقاء وهلم جرا.

وقد تُحقق رحلة واحدة كل هذه الأهداف دفعة واحدة. وإلى هذا الشكل من العلاقات الإنسانية يمكن أن نضيف أيضا اللاجئين، أولئك الذين أُجبروا على الإقامة مؤقتا في بلد غريب. على سبيل المثال، ما حدث في مصر عام ١٩١٧ لبحارة الفرقاطة الروسية الغارقة "بيريسفيت". والشكل الثالث من العلاقات الإنسانية، وهو الأعلى مستوًى بين كل الأشكال، هو الهجرة والاستقرار الدائم في البلد على مدى زمني طويل، والتكامل مع الحياة الاقتصادية والاجتماعية فيه، والحصول على جنسيته في أحيان كثيرة.

إن القيام بالبحث المنهجي للشكل الأول من العلاقات الإنسانية يعد من الناحية العملية أمرًا مستحيلاً، وذلك بسبب الطابع الشخصي المحض لهذه العلاقات، ومن ثم صعوبة الحصول على قدر كبير من المواد المكتوبة، ولهذا فإن هذا الكتاب لا يتناول بالبحث هذا الشكل. لقد ركز المؤلف اهتمامه بالشكلين الثاني والثالث من العلاقات الإنسانية، وهما السياحة والهجرة وأثرهما على الثقافة الروسية أيضًا.

إن أهمية العلاقات الإنسانية في تطوير العلاقات بين الدول والشعوب لها جوانب متعددة، وهي في رأينا، لم تُدرس بشكل وافٍ في علم التاريخ الوطني في بلادنا. فعلى سبيل المثال، لا توجد هناك دراسة كاملة تتناول نشأة وتطور العلاقات الإنسانية بين روسيا وأي من البلدان العربية. وفي الوقت ذاته، فإن هذه العلاقات هي أقدم وأكثر السبل ثباتًا في تعرف الشعوب بعضها ببعض، وفى التبادل الثقافي والحضاري فيما بينها. وعلى هذه العلاقات ترتكز أيضًا العلاقات السياسية، والعلاقات التجارية والاقتصادية، والعلاقات الثقافية.

لقد تشكلت العلاقات الإنسانية الروسية المصرية على مستويات ثلاثة. ففي البداية احتلت السياحة الدينية مركز الصدارة. وفي القرن التاسع عشر ازداد نشاط أشكال السياحة الأخرى، بعد أن اتخذت طابعًا جماهيريًّا في الأعوام التي سبقت ثورة ١٩٠٥. وبعد الهزيمة التي منيت بها الثورة الروسية الأولى، انتقلت إلى بلاد النيل مجموعة من الثوريين، الذين سعوا للنجاة من ملاحقة السلطات القيصرية لهم. وفي مطلع العشرينيات انضم إليهم بضعة آلاف من اللاجئين القادمين من روسيا استقر المقام بالجزء الأكبر منهم في مصر بعد ذلك باعتبارهم مهاجرين.

تبدأ الحدود الزمنية لهذا الكتاب بفترة النمو السريع للعلاقات الإنسانية بين روسيا ومصر في الثلث الأول من القرن التاسع عشر. على أن الكتاب يتعرض أيضاً على نحو موجز لأكثر تقاليد الحج الروسي عراقة إلى سيناء. أما فيما يتعلق بنهاية هذه الحدود، فتقع في منتصف القرن العشرين، زمن انهيار ثم اختفاء الجالية الروسية المنظمة في مصر.

عند إعداد هذا الكتاب تم استخدام مختلف المصادر وعلى رأسها المواد الخاصة بالأرشيف الروسية والمؤلفات العلمية التي سبقت الثورة. على أن أهم ما يميز هذا العمل يتمثل في أن الجزء الأساسي فيه يحتوي على المادة الحقيقية التي جمعها المؤلف عن طريق البحث الميداني على أرض مصر، حيث عمل فيها منذ عام ١٩٨٦ وحتى عام ٢٠٠٠. وقد قام المؤلف إبان جمعه للمادة العلمية بنشر نتائج بحوثه في الدوريات الروسية والمصرية. وقد تم جمع هذه النتائج أخيرا في كتاب "على خُطى "بيريسفيت" – الروس في مصر" (القاهرة، ١٩٩٤)، ثم في الطبعة الأكثر اكتمالا في كتاب "أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار. الروس في مصر" (موسكو، ٢٠٠٠)، وكذلك في كتيب تحت عنوان "مدينة موتى روسية في مصر" (موسكو، ٢٠٠١).

وأخيرا، فإن مصطلح "الروس" في عنوان الكتاب لا يعني إطلاقًا أن الكاتب يتناول وجود الأعراق الروسية فقط على أرض مصر. العكس تماما، فالحديث يدور هنا حول كل مواطني الإمبراطورية الروسية، بغض النظر عن قومياتهم.

الفصل الأول

الأماكن المقدسة في سيناء باعتبارها نقطة انطلاق لنمو العلاقات الروسية المصرية

جاءت المعلومات الأولى عن مصر وحضارتها العريقة إلى الروس منذ البدايات المبكرة لقيام نظام الدولة في كل منهما. وكان المصدر الأول لهذه المعلومات هو ترجمة السجلات البيزنطية إلى اللغة الروسية السلافية القديمة. وكانت مؤلفات يوحنا مالال (القرن الرابع)، وجيورجي سينكل (القرن الثامن) والراهب السكندري جيورجي أمارتول[١] (القرن التاسع) هي أكثر المؤلفات شعبية في روسيا.

وفي عام ١٠٠١ ميلادية، أي بعد ثلاث عشرة سنة فقط على اعتناق روسيا للديانة المسيحية، أرسل الأمير فلاديمير أول سفرائه إلى مصر. وقد ورد في مخطوطة نيكونوفسكايا[٢] أن: "فلاديمير استقبل في الصيف سفراءه الذين بعثهم إلى روما، كما أرسل آخرين إلى القدس ومصر وبابليون، ليتعرفوا على بلادها وعاداتهم". لا توضح المخطوطة بالمناسبة،

---

(١) بتروفسكي ن. س. معلومات تاريخية عن مصر القديمة في روسيا في الفترة من القرن التاسع إلى القرن الثامن عشر. في كتاب: زامارو فسكي، ڤويتيخ. الأهرام العظيمة. موسكو، ١٩٨١. ص ٤٢٠،٤٢١.

(٢) المجموعة الكاملة للمخطوطات. المجلدان ٩،١٠. البطريركية أو مخطوطة نيكونوفسكايا. موسكو، ١٩٦٥، ص ٦٨.

إن كان هؤلاء السفراء قد وصلوا إلى الأماكن التي عُينوا فيها، وإذا كانوا قد وصلوا فماذا رأوا هناك، وهل عادوا بعدها إلى الوطن سالمين.

"تعرفوا على بلادها وعاداتها"، على هذا النحو جرت صياغة مهمة السفراء. من الواضح هنا أن المقصود ببابليون هي بابليون المصرية. وتشير جغرافيا السفارات إلى روما والقدس ومصر، ما يعني بداهة أن السفراء كانوا في مهام كنسية بالدرجة الأولى، أي أنهم لم يكونوا في مهام تجارية أو لأغراض سياسية، إذ لم يكن من الممكن تبرير تجهيز هؤلاء السفراء للذهاب إلى هذه الأصقاع البعيدة عن روسيا لأسباب سياسية.

وعن الأهمية الدينية لمصر، مثلها في ذلك مثل القدس وروما، تحدث القساوسة البيزنطيون إلى الصفوة الروسية وإلى رجال الدين بشكل محدد. فمصر هي الدولة الوحيدة التي جاءت إليها العائلة المقدسة لتنجو بنفسها من اضطهاد الملك هيرود. وعلى تخوم الألفية الثانية، وعلى الرغم من عملية نشر الإسلام، التي بدأت بعد فتح مصر على يد العرب عام ٦٤١ م، كان الأقباط المسيحيون يشكلون نصف السكان. الحقيقة أن الكنيسة البيزنطية، ومعها المواطنون الروس، كانت تعتبر أن الأقباط هم مهرطقون منشقون، حيث إنهم لم يعترفوا بقرار مجمع خلقدونيا الذي عقد عام٤٥١م، والذي كوّنوا بعده كنيستهم الخاصة. لقد أعطت أرض مصر للعالم المسيحي هؤلاء القديسين مثل أنطونيوس العظيم ومكاريوس المصري وبولص الطيبي وماريا المصرية وكاترين السكندرية. ويعد بطريرك الإسكندرية (اليوناني) وسائر أفريقيا، من الناحية التاريخية، هو الثاني من حيث الأهمية في الترتيب الأرثوذكسي بعد بطريرك القسطنطينية العالمي. لكن الأهمية الدينية لمصر كانت ولا تزال تتمثل في الأماكن المسيحية المقدسة على أرض سيناء.

الكنيسة الأرثوذكسية في سيناء

حارس الأماكن المقدسة

شبه جزيرة سيناء هي موطن ديانات التوحيد الثلاث، اليهودية والمسيحية والإسلام. وعلى أرضها وقعت أحداث ورد وصفها في العهد القديم في سفر "الخروج". وفي سيناء تجلّى الله للمرة الأولى على نبيه موسي عند الشجرة الملتهبة. وعبر صحراء سيناء خرج بنو إسرائيل من الأسر المصري إلى كنعان، أرض الميعاد، حيث أنزل الله على موسى، وهو في الطريق إليها، الألواح عند جبل سيناء.

لم يتفق العلماء حتى الآن على رأي واحد بالنسبة إلى خط السير الذي قطعه اليهود. كما لا توجد هناك أية معلومات حول أن طبوغرافيا الكتاب المقدس قد جرت دراستها قبل المسيحية. ويبدو أن المسيحيين الأوائل، الذين فرّوا إلى أعماق سيناء هربا من اضطهاد الرومان الوثنيين ربطوا بين الأسماء الواردة في الكتاب المقدس وبعض الأماكن فيها. ومن ذلك الحين اشتهرت هذه الأماكن بصورة تقليدية بقدسيتها. على سبيل المثال، إلميرا (إيليم)، حيث حوّل موسى الماء الأجاج إلى ماء قراح، ويعرف هذا المكان الآن باسم عيون موسى، ويقع شمال شرق ساحل خليج السويس، "ثم جاءوا إلى إيليم وكانت هناك اثنتا عشرة عين ماء وسبعون نخلة" (الخروج، ١٦: ٢٧)، وهي الآن مدينة الطور، عاصمة محافظة جنوب سيناء، أما ريفيديم، حيث انتصر اليهود على من فيها من العماليق، فهي فيران أكبر واحة في سيناء. وفيما يتعلق بجبل حوريب، أو جبل سيناء، فيشتهر في الوقت الحالي باسم جبل موسى. وتوجد عند سفحه ثلاث عيون مائية. بالقرب من إحداها تنمو عليقة كثيفة، وهذه العليقة هي ذاتها الشجرة الملتهبة، وغير بعيد عنها العين، التي سقى منها موسى قطيع حماه يثرون، عندما تجلى الله له للمرة الأولى.

تقع فلسطين على حدود مصر، ومن ثم فقد كان من الطبيعي تماما أن تكون مصر من أوائل البلاد التي دخلتها المسيحية. ويعد الراهب مرقص الإنجيلي هو مؤسس الجماعة المسيحية في مصر، وأول بطريرك لها، وهو الذي كرَّز للمسيحية في الإسكندرية، حيث قتله الوثنيون في عام ٧٦٨ م. وقد فرَّ جزء من المسيحيين الأوائل من الوادي المكتظ بالسكان ومن دلتا النيل إلى الصحراء طلبًا للنجاة من اضطهاد السلطات الرومانية. استقر البعض بالقرب من عيون الماء الصغيرة في الصحراء الشرقية، الواقعة بين نهر النيل والبحر الأحمر، بينما ذهب البعض الآخر إلى صحراء النطرون الواقعة غرب الدلتا، وتعرف الآن بوادي النطرون، بينما شد البعض الآخر رحاله إلى سيناء.

مصر صاحبة حضارة زراعية نشأت في وادي النيل ودلتاه. وعلى الرغم من أن حكام مصر كانوا يفرضون سيطرتهم على شبه جزيرة سيناء، فقد ظلت سيناء دائما طرفًا بعيدًا قليل السكان، تمثلت السلطة فيها في عدد قليل من الحاميات تتركز عند الطرق الرئيسية للقوافل، وكانت هذه الحاميات تتحرك بصفة أساسية بامتداد شواطئ المتوسط، ولهذا فقد فر المسيحيون الأوائل إلى المناطق الجبلية الوعرة في جنوب سيناء، وعن ذلك تحدث الأسقف ديونيسي السكندري[٣] نحو عام ٢٥٠ م. وقد تكونت جماعة مسيحية كبيرة العدد في واحة فيران (أو فاران كما كان يطلق عليها قديمًا). وفي نفس الوقت استقر المقام بمجموعات صغيرة من المسيحيين حول جبل موسى[٤].

---

(٣) أومانيتس أ. رحلة إلى سيناء مع ملحق يتضمن مقتطفات عن مصر والأراضي المقدسة. سان بطرسبورج، ١٨٥٠، جـ٢، ص١.

(٤) هذا ما أكدته الحفريات الأثارية التي أجريت منذ فترة غير بعيدة في واحة فيران انظر: Grossman, Peter. Die Antike Stadt Pharan. Cairo, 1998. وانظر أيضا: بابايوانو، يفانجيلوس. دير سانت كاترين. ترجمها عن الإنجليزية فلاديمير بيلياكوف. طبعة دير سانت كاترين، ١٩٩٦، ص٧.

وفي عام ٣١٣ م اعتنق الإمبراطور قسطنطين الديانة المسيحية، وأعلن حرية العقيدة، وسرعان ما تقدم المسيحيون، الذين استقروا في سيناء إلى هيلانة، والدة قسطنطين، بطلب المساعدة. وبناء على أمر منها أقيمت في عام ٣٣٠ بالقرب من مكان شجرة العليقة الملتهبة كنيسة صغيرة وبرج باعتبارهما ملجأ يحتمون به من هجمات البدو الرحل[٥].

وقد تركت لنا امرأة إسبانية شهيرة تدعى إيجيريا أول وصف للأماكن المقدسة في سيناء، وكانت قد زارتها في عام ٣٨٣م: "كان هناك عدد كبير من القلايات مخصصة للرهبان، وكنيسة تقع في نفس مكان الشجرة". بينما استقر أعلى جبل موسى مُصلي، "وهناك توجد كنيسة صغيرة، لأن المكان ذاته، أي قمة الجبل، لم يكن متسعا". وعند سفح الجبل، حيث عاش النُسّاك، كانت هناك حديقة صغيرة. "وعلى الرغم من أن جبل سيناء المقدس نفسه كان صخريًا، ومن ثم لم تكن تنمو عليه عشبة واحدة، فقد كان هناك أسفل الجبل، عند منتصفه، وحوله، نهير صغير: وهنا راح النُسّاك المقدسون يزرعون الأشجار والحدائق وبساتين الخضروات بحماس شديد، ويبنون قلاياتهم بالقرب منها". هذا ما كتبته إيجيريا[٦].

بحلول منتصف القرن السادس الميلادي أمر الإمبراطور جوستينيان ببناء أسوار هائلة من الجرانيت المحلّي حول الشجرة الملتهبة والبرج، وبناء كنيسة جديدة داخل الأسوار، بدلاً من الكنيسة القديمة. وهكذا ظهر الدير الموجود على حاله منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا.

---

(٥) المرجع السابق.
(٦) رحلات الحج إلى الأماكن المقدسة في نهاية القرن الرابع الميلادي. "المنتخب الأرثوذكسي الفلسطيني"، الإصدار ٢٠. سان بطرسبورج، ١٩٨٩. ص ١٠٨، ١٠٦.

من السهولة بمكان التعرف على تاريخ إنشاء المجمع المعماري للـــدير، حيث يشهد بذلك النقش الموجود عُلى إحدى عوارض الدير، والـــذي يمجـــد جوستينيان (توفي عام ٥٦٥ م) ويحتفظ بذكرى زوجته تيودورا، التي توفيت عام ٥٤٨ م. ويعني هذا أن الدير تم بنـــاؤه مـــا بـــين عـــامي ٥٤٨ و٥٦٥ ميلادية[٧].

في البداية تم تصميم الكنيسة على يد المعماري ستيفان من مدينة أيلـــة (العقبة حاليًا) على طراز الكنائس الرومانية الكلاســيكية (البازيليكـــا) ذات ممرات ثلاثة، وقد كُرِّس الدير في الحقيقة للعذراء مريم، ووفقا لتفسير الآباء القديسين، فإن الشجرة الملتهبة ترمز إلى البشارة، فالشجرة توهجت، ولكنهـــا لم تحترق، وبعد أن وهبت مريم الحياة للمسيح ظلت بتولاً كما كانت[٨]. وفى نهاية القرن السادس الميلادي زينت الحنية الشرقية في صدر الكنيسة جدارية رائعة من الفسيفساء تصور التجلي الرباني. ومنذ هذا التاريخ ســميت هـــذه البازيليكا بكنيسة التجلي.

كان الهجوم المتكرر من جانب البدو هو الدافع وراء ضـــرورة بنـــاء أسوار دفاعية حول الدير. وبدوره يؤكد بروكوبي، مـــؤرخ جوســـتينيان، أن الإمبراطور "بنى قلعة حصينة، بحيث لا يتمكن البرابرة ــ البدو من التـــسلل خفية إلى فلسطين"[٩]. على أن من المستحيل أن يكون هذا التأكيد صـــحيحًا، فحوائط الدير بلا أبراج، وفي الواقع لا توجد بها مزاغل، مثل تلك التي تميز

---

(٧) Forsyth, George. The Church and Fortress of Justinian. In: Galey, John. Sinai and the Monastry of St. Catherine. Cairo, 1985. P. 42.

(٨) باباإيوانو، يـــفـــانجيلوس، مصدر سابق. ص ٨.

(٩) الاستشهاد من: Mango, Cyril. Justinian's Fortified Monastery. In: The Monastery of Saint Catherine London, 1996. P 74.

المنشآت العسكرية، لكنها مرتفعة بشكل كاف – من ١٠ إلى ٢٠ مترًا ــ تبعًا لتضاريس المكان ــ لحماية الرهبان من الضيوف غير المرغوب فيهم. ويدل المسقط الأفقي للدير على طابعه المدني البحت. وهو على شكل شبه منحرف أبعاده نحو ٩٠ x ٧٥ مترًا، وهذا الشكل غير المألوف يمكن تفسيره بأن هــذه الأسوار كان ينبغي أن تحتوي داخلها على شجرة العليقة الملتهبــة وعيــون موسى القريبة من الوادي، حيث يتدفق تيار من الماء الموسمي. وهذه المعالم تقع في أكثر أجزاء الدير عمقًا عند سوره الــشمالي، أمــا جانــب الكنيــسة المحتوي على المذبح فهو ملاصق لشجرة العليقة الملتهبة. ولمّا كان محــور الكنيسة مُوجهًا بدقة من الشرق إلى الغرب، في حين تفرض تضاريس الموقع اتجاه الأسوار، فقد أصبحت الكنيسة مائلة بزاوية بــسيطة بالنــسبة للــسور الشمالي وأعلى منه قليلاً. وفي نفس الوقت تقع قلايــات الرهبــان ومبــاني الخدمات أعلى من ذلك.

لا توجد هناك أية أدلة على أن حامية عسكرية ما أقامت داخل الــدير. على أنه من المعروف بشكل قاطع، أن جوستينيان أمر بإقامة مائتي أســرة بالقرب من الدير لحراسته وخدمة الرهبان. ويذكر أحد المراجع أنه استجلبهم من الشاطئ الشمالي للأناضول ومن الإسكندرية[١٠]، بينمــا تــرى مراجــع أخرى أنهم كانوا من السلاف[١١]. وقد اختلطت هذه العائلات فيما بعد بالبدو واعتنقت الإسلام وشكلت أساسا لقبيلة تعرف في الوقت الحالي بقبيلة الجبالية (نسبة إلى جبل موسى).

---

(١٠) بابايوانو، يــفانجيلوس. مصدر سابق. ص ٤٤.
(١١) Mango, Cyril. Op. cit.. P. 75.

ظل الدير منذ نشأته يتمتع إداريًا بالاستقلال بناء على أمر من الإمبراطور. وكان رئيس الدير برتبة أسقف ثم أصبح فيما بعد رئيسا للأساقفة. والأرجح أن الوضع الخاص الذي اكتسبه الدير جاء نتيجة بعده عن مراكز الأرثوذكسية، وكذلك لمكانته المهمة بوصفه حارسًا للمقدسات المسيحية.

لا يزال الدير محتفظًا باستقلاله حتى اليوم، وقد وصف كورت فايتسمان، أكبر المتخصصين في سيناء، والأستاذ بجامعة برينستون، وقد ترأس في الفترة من ١٩٥٦ إلى ١٩٦٥ خمس بعثات استكشافية إلى الدير، وصف كنيسة سيناء بأنها كنيسة مستقلة. ولكنه أشار في سياق ذلك إلى أن عملية تنصيب رئيس الأساقفة يقوم بها عادة بطريرك القدس[١٢]. ويصنف المؤرخ الإنجليزي البارز للأرثوذكسية، القس تيموثي وير، كنيسة سيناء باعتبارها كنيسة ذات إدارة ذاتية، لا باعتبارها كنيسة مستقلة[١٣]. وهذا الرأي نفسه يجد تأييدًا جوهريا له أيضا من جانب رئيس الأساقفة الحالي دميان السيناوي. وفي معرض تأكيده على أن عملية تنصيب رئيس الأساقفة يقوم بها بطريرك القدس، وهو ما يعني أهمية العلاقة بين الكنيسة السيناوية وبطريرك القدس، يشير إلى أنه بموجب وضع الإدارة الذاتية للدير، فإن رئيس الأساقفة السيناوي لا يُعد عضوًا في المجمع المقدس للبطريركية[١٤]. ولمّا كانت الإسكندرية مركزًا للمسيحية المبكرة في مصر؛ فضلاً عن أنها كانت تعد أيضًا في تلك الحقبة مدينة يونانية بامتياز، فإن العديد من المسيحيين الأوائل كانوا في الحقيقة من اليونانيين لا المصريين. لقد كان نمط الرهبانية السيناوية في تلك الكنيسة، التي بنيت عند جبل موسى بأمر من

---

(١٢) Weitzman, Kurt. The History. In : Galey, John. Op. cit.. P. B.

(١٣) Ware. Timothy. The Orthodox Church. New Edition. London. 2001. P. 6.

(١٤) Damianos. Archbishop. Introduction to: The Monastery of Saint Catherinr. London. 1996. P. 14.

الإمبراطور البيزنطي، نمطًا يونانيًا وسيبقى كذلك. وبالتدريج بدأت الكنيسة في اكتساب أتباع وممتلكات وأراض تابعة لها في مصر ذاتها وفي اليونان وقبرص وبعض البلدان الأخرى.

صادف القرن الأول على وجود الدير أزهى عصور ازدهاره. آنذاك كانت مصر جزءًا من بيزنطة، التي قام أباطرتها برعاية الدير. وفي هذه الفترة برز من بين الآباء السيناويين عدد من رجال الكنيسة النشطين، الذين تركوا أثرًا جليًا في تاريخ المسيحية، القديس يوحنا السُلَّمي (نحو ٥٧٠ – ٦٤٩م)(*)، رئيس الدير ومؤلف كتاب "سُلَّم الفضائل"، وهو كتاب يضم إرشادات للرهبان، الذين يبتغون الوصول إلى الكمال الروحي.

لم يكن للفتح العربي لمصر عام ٦٤١م، وانتشار الإسلام فيها أثر ملموس على الدير السيناوي، في البداية واستنادًا إلى بعض المراجع، فقد زار النبي محمد، وكان يعمل بالتجارة، الدير في شبابه، وعندما بلغت الرهبان شائعات تفيد بأنه يقود حركة دينية قوية، أرسلوا إليه في المدينة في عام ٦٢٥م، وفدًا يطلب منه حمايته للدير. وقد وُهبت هذه الحماية للدير في صورة عهد أمان، جاء فيه؛ أن المسلمين سوف يحمون الرهبان، كما جرى أيضًا إعفاء الدير من دفع الضرائب. ويحتفظ الدير بصورة من معاهدة النبي محمد. أما الأصل فقد نقله الأتراك إلى إسطنبول في القرن السادس عشر الميلادي، عند غزو العثمانيين لمصر(١٥).

(*) يوحنا السُلَّمي: رجل دين مسيحي، ولد في القسطنطينية، جاء إلى مصر وعمره ١٦ عاما وعاش بدير سانت كاترين حتى أصبح رئيسا له، وهو من كبار آباء الكنيسة الشرقية، لكتابه "سُلَّم الفضائل" شهرة كبيرة في القرون الوسطى. ترى بعض المراجع أنه وُلد في عام ٥٢٥ م وتوفي في عام ٦٠٦ م. (المترجم).

(١٥) أومانيتس أ. مصدر سابق. الجزء الأول، ص ٩-٢١؛ بابا يوانو، يفانجيلوس. مصدر سابق. ص ١٠.

ومع ذلك فقد تعرض الدير وسكانه في نحو السنة الألف للميلاد إلى خطر داهم، عندما قرر الخليفة الفاطمي الحاكم، وكان يتميز بالقسوة والتطرف الديني، القضاء على حصن الكفار في سيناء، وأرسل إليهم جيشه لهدم الكنيسة. عندئذ قام الرهبان على الفور بتحويل أحد المباني إلى مسجد، وعندها اضطر الحاكم للانسحاب، حيث إن المكان الذي يوجد به مسجد يعد مكانًا مقدسًا عند المسلمين[١٦].

بعد تقسيم المسيحية إلى أرثوذكسية وكاثوليكية، ظلت كنيسة سيناء أرثوذكسية شرقية، دون أن تقطع صلاتها، التي نشأت في مطلع القرون الوسطى، مع الكنائس الغربية. ولهذا السبب مرت الكنيسة في الفترة من ١٠٩٩ إلى ١٢٧٠، فهي فترة الحملات الصليبية، نهضة تعود إلى ما حظيت به من رعاية من جانب الطائفة السيناوية الصليبية[١٧].

ويعود نقل رفات القديسة كاترين إلى كنيسة الدير، على ما يبدو، إلى نفس هذه الفترة. ووفقا للتقاليد، فقد حملت الملائكة جثمان المُعذَّبة العظيمة بعد إعدامها، والتي لم تتخل عن عقيدتها المسيحية، من الإسكندرية إلى قمة جبل سيناء. وهي موجودة الآن إلى جوار جبل موسى، ويسمى الآن بجبل سانت كاترين، حيث اكتشف الرهبان رفاتها هناك فأقاموا عليه مُصلًى[١٨].

وفي مطلع القرن الحادي عشر الميلادي أحضر أحد الرهبان الصقليين ويدعى سيمون بنتاجلوسوس أثرًا يمثل أجزاءً من رفات القديسة كاترين إلى

(١٦) Weitzmann, kurt. Op. cit .. P 13.

(١٧) بابايوانو، يفاجيلوس، مصدر سابق. ص ١٠.

(١٨) Graves, Eve. The Monastery of Saint Catherine and the Tradiotion of Pilgrimage. In: The Monastery of Saint Cathrine. London. 1996. P. 61.

مدينة روان الفرنسية، حيث وضع في كنيسة الدير. وقد قام بنتاجلوسوس إبان رحلته بالرعاية للقديسة. وفي روان ظهرت معجزات هذا الأثر[١٩]. وسرعان ما أسهمت هذه الأخبار في الارتفاع السريع لشعبية القديسة، الأمر الذي ترك أثرًا مزدوجًا على دير سيناء. فمن ناحية، دفع ذلك الرهبان لكي ينقلوا الرفات إلى كنيسة التجلي، وأن يطلقوا على الدير اسم القديسة كاترين وبذلك عملوا، على الأرجح، على تعضيد القيمة الدينية للكنيسة، ومن ثم، زيادة المساهمات والتبرعات لها. راحت هذه المهمة تزداد حدة أمام الآباء السيناويين وخاصة بعد الفتح العربي لمصر، عندما فقد الدير رعاية بيزنطة القوية له، فالدير يقع في صحراء جبلية قاحلة تبعد ٤٥٠ كيلومترا عن وادي النيل، حيث تحمل القوافل إليه من هناك كل ما يلزم حياة الرهبان. ومن جانب آخر، فقد بدأ البعض، على ما يبدو، في اختلاس بعض من الرفات المقدسة. والأرجح أن الرهبان سمحوا، مرة أخرى بسبب الحاجة الماسة، بخروجها بمقابل كبير، ولذلك لم يتبق من رفات القديسة سوى رأسها وكف يدها، وُضعا معًا في حوض خاص في كنيسة الدير.

يورد أ. أومانيتس، الذي زار سيناء عام ١٨٤٣، في كتابه رواية أخرى جاءت على لسان بعض الرهبان عن الكيفية التي ضاع بها الجزء الأكبر من رفات القديسة كاترين. يقول أومانيتس: "ظل جثمان القديسة المُعذَّبة مسجًى بكامله في الدير، وذات يوم، وبسبب المطر وذوبان الجليد وقع فيضان هائل أغرق جزءًا من الدير، وحيث إن المعبد الكبير يقع أسفل المباني الأخرى، فقد تجمعت المياه فيه على نحو أكثر من الأماكن الأخرى، حتى إنها نفذت إلى الحوض الموجود به الرفات. وعندئذ قام كبير الأساقفة آنذاك بجمع

---

(١٩) Damianos, Archbishop. Op. cit. P. 13; Graves, Eve, Op. Cit. P.p. 61-63.

الأجزاء السليمة ووضعها بعناية فائقة في حوض من المرمر. فيما بعد اقترح العم قنسطنديوس (قنسطنطيوس ـ المؤلف) رئيس الأساقفة الأسبق على نظيره الحالي بانتقاء الرأس والكف، من بين بقايا الرفات، حيث كانا لا يزالان بحالة أفضل، وأمر بحفظهما في حوض بمكان مرتفع وجاف، أما ما تبقى من رفات فقد وضعه في مخزن وأوصى بعدم إخراجه مطلقا"[٢٠].
بالمناسبة، فإن هذه الرواية لا تتناقض مع تلك التي قيلت لنا، والتي تفترض أن جزءًا من الرفات تعرض للسرقة من قبل الحجاج. وعلى أكثر تقدير، فإن العديد منهم كانوا يسعون للعودة إلى أوطانهم مصطحبين معهم أثرًا مقدسًا، وليؤكدوا على قيامهم بالحج، وباعتبار هذا الأثر ضربًا من التعاويذ. وفي العادة كانوا يأخذون معهم أغصانًا من شجرة العليقة الملتهبة.

على هذا النحو رأي الحجاج الروس الأوائل دير سانت كاترين في سيناء ورهبانه أيضًا، الذين كانت مهمتهم حماية المقدسات المسيحية. فلنحاول الآن أن نتبين ماذا حدث.

الحجاج الروس في سيناء

يعتبر الحج إلى الأراضي المقدسة من السمات الأساسية للأرثوذكسية. وهو يستهدف خلاص الروح. ولذلك فإن الملايين في كل العصور والأزمان يتجشمون المصاعب ويذهبون مخلصين إلى المقدسات المسيحية.

وتوجد وثائق يمكن بفضلها تحديد الزمن، الذي ظهر فيه الحجاج الروس الأول في سيناء على نحو قاطع. ويؤكد المؤرخ يوري بياتنيتسكي،

---

(٢٠) أومانيتس أ. مرجع سابق. الجزء الأول، ص ٢٣٤،٢٣٥. مسجل على الحوض تاريخ عام ١٦٨٠. انظر: الرحلة الثانية.

أن البداية كانت في مطلع القرن التاسع الميلادي، لكنه لم يدعم تأكيده بمصدر من المصادر العلمية(٢١). على أية حال، فمن المنطقي أن نفترض أن ذلك قد حدث منذ ألف عام خلت، عندما بدأ الناس في روسيا، في عهد الأمير فلاديمير يعرفون الأهمية الدينية لمصر.

يذكر الرحالة الشهير في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أ. ف. يليسييف، أن من المحتمل أن يكون الحجاج الروس قد ظهروا في أراضي الشرق المقدسة قبل أن يشرق نور المسيحية على العائلة السلافية الروسية بأسرها"(٢٢). ويذكر المؤرخ الروسي الشهير ن. م. كارامزين، في كتاباته عن الحج في القرن الحادي عشر: "إننا نعرف استنادا إلى معاصرين آخرين، وعلى أدلة موثوق بها، أن الروس في القرن الحادي عشر كانوا يتوجهون بالدعاء للسماء كي يشاهدوا بأعينهم أراضيها المقدسة (فلسطين – المؤلف)"(٢٣). أما ب. م. دانتسيج فيذكر، اعتمادا على كتاب "سيرة القديس فيودوسي" الصادر في عام ١٨٥٦، أن القديس فيودوسي الكهفي التقى في عام ١٠٢٢ في كورسك بجوّالين قادمين من "الأراضي المقدسة"، ومن ثم فقد عقد العزم على أن يزور فلسطين(٢٤). لا يمكن تصور أن يقطع أحد الحجاج الروس في القرن الحادي عشر الميلادي هذا الشوط الطويل إلى فلسطين، ثم لا يذهب لزيارة سيناء غير البعيدة عنها.

---

(٢١) Sinai. Byzantium. Russia. Orthodox Art from the Sixth to the Twentieth Century. London, 2000. P. 20.

(٢٢) يليسييف أ. ف. مع الحجاج الروس في الأراضي المقدسة ربيع عام ١٨٨٤. سان بطرسبورج، ١٨٨٥. ص١.

(٢٣) كارامزين ن. م. تاريخ الدولة الروسية. موسكو، ٢٠٠٢. ص ١٣١.

(٢٤) دانتسيج ب. م الشرق الأوسط في العلم والأدب الروسيين (فترة ما قبل ثورة أكتوبر). موسكو، ١٩٧٣، ص٧.

ويؤكد هذا الاستنتاج وجود مخطوطة لكتاب المزامير في مكتبة دير سيناء وردت إليه من روسيا، وقد أرجع باحثوها الأوائل تاريخها إلى مطلع القرن الحادي عشر الميلادي(٢٥). ثم نسبت فيما بعد إلى نهاية القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر الميلاديين(٢٦). وإن كان من المُرجَّح أن يكون الكتاب قد وصل إلى سيناء بعد ذلك ببضع سنوات لا أكثر.

كان عدد الحجاج الروس في سيناء أقل دائما من عددهم في فلسطين. ويشير أ. ف. يليسييف إلى أن آثوس وسيناء والأماكن المقدسة في فلسطين كانت، منذ زمن بعيد، أماكن يؤدي فيها الحجاج الروس مناسك الحج. وكانت آثوس هي أكثر الأماكن زيارة لقربها النسبي؛ بينما لم تكتسب سيناء أفضلية لدي هؤلاء الحجاج لعزلتها عن العالم، بسبب وضعها الجغرافي بوصفها صحارٍ موحشة (٢٧).

وتعود أكثر الكتابات المبكرة المعروفة لنا الآن، والتي نوَّهت عن الحج إلى سيناء، إلى عام ١٣٧٥ ميلادية تقريبا. أما صاحبها فهو الأب أجريفيني أرشيمندريت دير أفراميفسكي في سمولينسك. وتتميز مذكرات هذا الحاج بأنها شحيحة للغاية، فهي لا تحتوي على أي وصف للأماكن المقدسة في سيناء، سوى المسافة بينها وبين فلسطين: "من غزة إلى مصر مسيرة اثني عشر يومًا، ومن مصر إلى الإسكندرية ستة أيام، وإلى جبل سيناء خمسة عشر يومًا. ومن غزة إلى جبل سيناء خمسة عشر يومًا، ولا يزال المسيحيون الأرثوذكس يقطعون هذه الرحلة حتى يومنا هذا، ولا يذهب المسيحيون الأرثوذكس أبعد من ذلك"(٢٨).

---

(٢٥) Altbauer M., Lunt H. G.. An Early Slavonic Psalter From Rus. Harvard, 1978.

(٢٦) Trananidis I.C. The Slavanic Manuscripts Discovered in 1975 at St. Catherine's Monastery on Mount Sinai. Thessaloniki. 1988. P. 109.

(٢٧) يليسييف أ. ف. مصدر سابق. ص ٩.

(٢٨) مسيرة الأرشيمندريت أجريفيني. المحرر الأرشيمندريت ليونيد. "المنتخب الأرثوذكسي الفلسطيني"، الإصدار ٤٨. سان بطرسبورج، ١٨٩٦. ص ٢.

لا يتضح لنا من هذا النص شديد الإيجاز إن كان أجريفيني نفسه قد ذهب إلى سيناء. ليس بعيدًا أن يكون قد عرف ذلك من المعلومات التي قدمت إليه في فلسطين. على أن الأرشيمندريت من سمولينسك يتحدث عن زيارة الحجاج الأرثوذكس إلى سيناء، على أقل تقدير، حديثه عن أمر ما مألوف تماما.

وهذا الاستنتاج يؤكده البحث الذي قدمه منذ زمن غير بعيد عالم روسي لإحدى المخطوطات المحفوظة في مكتبة دير سانت كاترين. ففي عام ١٩٩٥ تعرَّف ي. ن. شابوف على مخطوطة ترجع إلى القرن الثاني عشر الميلادي، اعتبرت آنذاك مخطوطة صربية. وقد توصل الباحث إلى استنتاج مفاده؛ أن هذه المخطوطة، التي تصور الحواري أبراكوس مع التقويم الأرثوذكسي، هي مخطوطة روسية قديمة. وعلى حوافها حواش بأسماء. يؤكد شابوف قائلا: إنه "ليس هناك شك في أنه وبسبب ورود هذه الأسماء، فإن هذا الكتاب نفسه قد تم إحضاره إلى الدير السيناوي المقدس من روسيا، ومن ثم فإن الذي قام بذلك لا بد وأن يكون عضوًا من نفس المنزلة، جاء بها بعد وفاة صاحبه، وهو يعود على الأرجح إلى القرن الثالث عشر الميلادي"(٢٩). تعود الملاحظات البحثية الأولى حول زيارة الحجاج الروس إلى سيناء إلى عهد الأمير إيفان الثالث. وكان الراهب فارسونوفي قد وصل إلى دير سانت كاترين في مطلع العام ١٤٦٢، وقام بوصف الدير تفصيلاً: المعبد الرئيسي فيه، وهو كنيسة التجلي، شجرة العليقة الملتهبة وشروق الشمس على جبلي موسي وسانت كاترين. كما وصف فارسونوفي أيضًا الآثار المسيحية في مدينة القاهرة. وفي "سيرته" التي كتبها، يأتي للمرة الأولى في الأدب الروسي على ذكر الأهرامات المصرية(٣٠).

---

(٢٩) شابوف ي. ن. ثلاثة أيام في سانت كاترين السيناوي. مجلة "جيناديوس". منتخب مقالات بمناسبة الذكرى السبعين لميلاد الأكاديمي ج. ج. ليتافارين. موسكو، ١٩٩٩. ص ٢٨٧.

(٣٠) مسيرة فارسونوفي إلى مصر وسيناء وفلسطين. كتاب المسيرات. موسكو، ١٩٨٤. ص ٣٤٥-٣٤٩.

وعلى الرغم من أن الحجاج في العصور الوسطى كانوا عادة من المثقفين، فإن قليلاً منهم من ترك مذكرات يتحدث فيها عن رحلته التي قام بها. وبحلول منتصف القرن التاسع عشر، بدأ الرحالة الباحثون في الظهور في سيناء، ورغم ذلك فإن مَن وصف منهم رحلته إلى هناك لم يتعد عشرة أشخاص، ولم يكونوا بطبيعة الحال من الحجاج التقليديين. على أن هذا لا يعني، بطبيعة الحال، أن كتابة هذه المؤلفات اقتصرت على الحجيج فقط، الذين لا شك أن أعدادهم كانت أكبر بكثير من غيرهم، على الرغم من أن الروس قد بدأوا في التوافد، على الأرجح، إلى سيناء في مجموعات صغيرة، وإن لم يواظبوا على الحضور كل عام.

في عام ١٥٤٧ زار دير سانت كاترين في أوقات مختلفة اثنان من رجال الدين الروس: الأب جريجوري والراهب سوفروني. وكلاهما لم يترك وصفًا تفصيليًا لرحلاتهما، وإنما ذكريات موجزة عن الأماكن التي اتفق أن زاراها(٣١).

وقد ترك لنا التاجر فاسيلي بوزنياكوف وصفًا شيقًا للرحلة التي قام بها إلى سيناء وفلسطين في عام ١٥٥٨ ميلادية(٣٢). على أنه ولأسباب غير معلومة لم يلق هذا الوصف التقييم الواجب من جانب الباحثين الروس. أما مصير مذكرات التاجرين تريفون كوروبينيكوف ويورى جريكوف، اللذين زارا سيناء في عام ١٥٨٢، فتكاد تمثل تكرارًا لما سجله بوزنياكوف في مذكراته. وفي منتصف القرن التاسع عشر يذكر إ. ساخاروف "أن ما

(٣١) Volkoff. Oleg. Voyageurs Russes en Egypte. Cairo. 1972. P.p. 5. 7.

(٣٢) رسالة القيصر إيفان فاسيليفيتش إلى يواكيني بطريرك الإسكندرية، والتي أرسلها مع التاجر فاسيلي بوزنياكوف ورحلة بوزنياكوف إلى القدس وإلى بعض الأراضي المقدسة الأخرى في عام ١٥٥٨. موسكو، ١٨٨٤.

ورد من وصف لرحلتهما يحظى بشعبية منذ زمن بعيد"، وهذه الرحلة معروفة في مئات المراجع(٣٣). تجدر الإشارة إلى أن "تريفون كوروبينيكوف" الذي سجل بقلمه هذه الرحلة إلى الأراضي المقدسة، كان حسن الطويّة، عندما استند إلى أجزاء كبيرة من مذكرات بوزنياكوف وأدمجها حرفيا في مؤلفه، ويؤكد إ. زابيلين في مقدمته "لرحلة" بوزنياكوف، "أن بوزنياكوف حذف الأسطر غير المناسبة لاختلافها مع الزمن، وأضاف عبارات جديدة خاصة به في بعض الأحوال النادرة"(٣٤). لا شك أن هذا العمل الأدبي عكس شغف الروس بالأراضي المقدسة في الشرق، والأرجح أنه أصبح أكثر شعبية وانتشارًا بعد عهد بوزنياكوف.

وقد ترك لنا كل من فاسيلي جوجارا (١٦٣٤م) وإيبوليت فيشينسكي (١٧٠٨م).

وفاسيلي جريجوريفيتش – بارسكي (١٧٢٨ م) وكير برونيكوف (١٨٢١ م) وصفًا مفصلاً لرحلاتهم إلى سيناء(٣٥).

---

(٣٣) حكايات شعبية روسية، جمعها إ. ساخاروف. الجزء الثاني. سان بطرسبورج، ١٨٤٩. ص ١٣٦.

(٣٤) رسالة القيصر إيفان فاسيلييفيتش ... ص ١١١.

(٣٥) رحلة فاسيلي جوجارا في عام ١٦٣٤. في كتاب: حكايات شعبية روسية، جمعها إ. ساخاروف. الجزء الثاني. سان بطرسبورج، ١٨٤٩، رحلة حج أو الحج المبارك للأب إيبوليت فيشينسكي. موسكو، ١٨٧٧؛ المشاء فاسيلي جريجوريفيتش – بارسكي – بلاكا ألبوف، الأوكراني الأصل، القس بكنيسة أنتيوخسكي، رحلة إلى الأماكن المقدسة في أوربا وآسيا وأفريقيا، التي جرت في عام ١٧٢٣ وانتهت في عام ١٧٤٧. سان بطرسبورج، ١٧٧٨؛ رحلة إلى الأماكن المقدسة في أوربا وآسيا وأفريقيا، التي جرت في عامي ١٨٢٠ و ١٨٢١ إلى قرى بافلوف والتي قام بها كير برونيكوف. موسكو. ١٨٢٤.

وصل كير برونيكوف إلى دير سانت كاترين قادمًا من فلسطين عبر غزة والسويس ضمن مجموعة من الحجاج قوامهم عشرة أشخاص، ستة منهم من الروس، من بينهم يجور ميخايلوفيتش بيساروفيتش، الضابط من بطرسبورج والأب بايبسي، رئيس دير سافينيسكي الأسبق. وقد قابلا اثنين من الرهبان الروس في دير سيناء، أحدهما تعود أصوله إلى مالوروسيا (أوكرانيا حاليا ــ المترجم)، والآخر من محافظة كالوجا[٣٦].

في مطلع القرن التاسع عشر بدأ الآباء السيناويون في تخصيص كتاب لتسجيل زوّار سانت كاترين، على أنهم لم يلزموا الزوار بالتوقيع فيه، ناهيك عن أن عددًا كبيرًا من الزوار لم يكن باستطاعتهم أن يفعلوا ذلك، ولو أرادوا، بسبب أميتهم. يقول أ. أومانيتس، الذي زار الدير في عام ١٨٤٣: "ما زلت أشعر بالأسف أنني لم أستطع، لضيق الوقت، أن أستنسخ توقيعات الروس. كان هناك توقيع لفت انتباهي، وهو لواحد من الحجاج جاء من سيبيريا بصحبة زوجته لإقامة منسك الحج في الأماكن المقدسة في فلسطين، بعد أن زار سيناء من قبل في العشرينيات، ثم ليعود من هناك إلى وطنه سيبيريا"[٣٧].

يعد أ. أومانيتس أول من جاء إلى هنا على رأس كوكبة من الناس، لا باعتبارهم حجاجًا، وإنما بوصفهم من الرحالة – الباحثين. ولم يكن كتابه يحتوى على مجرد ملاحظات على رحلة، بقدر ما احتوى على مادة ثرية مُحْكمة عن تاريخ الدير وعن كنوزه الثقافية. وصل أومانيتس إلى مصر لا بوصفه حاجًا، وإنما باعتباره عضوًا في لجنة الحجر الصحي، التي أرسلت إلى هناك "للقيام بخبرات لتطهير الأشياء المؤثرة وذلك بواسطة

---

(٣٦) برونيكوف، كير. مصدر سابق. ص ٨٨ – ١٢٤.
(٣٧) أومانيتس أ. مصدر سابق. ص ٢٧٥، ٢٧٦.

الحرارة الشديدة". وحيث إنه مثقف واسع الاطلاع، فقد استطاع أن يوفر خمسة عشر يومًا في رحلته إلى دير سانت كاترين، كما استخدم، إبان إعداده لكتابه، المواد التي نشرت عن رحلات الروس الذين سبقوه؛ فضلاً عن المكتبة الغنية التي كانت ملكًا للباحث الشهير أ. س. نوروف، الذي تولى فيما بعد منصب وزير المعارف الشعبية. وفي عام ١٨٦١ قام نوروف بالسفر إلى سيناء، وهي الرحلة، التي حكي عنها أومانتسيف في كتابه الشيق أخيرًا[٣٨].

ظل الحج إلى فلسطين، ثم إلى سيناء بطبيعة الحال، بمثابة مأثرة حقيقية باسم الإيمان. كان الحج يستمر شهورًا وأحيانا سنوات. ولم يكن يقدر على تكلفته سوى أفراد يُعدون على الأصابع. وقد بدأ هذا الوضع في التغير بعد أن قامت شركة الملاحة والتجارة الروسية في عام ١٨٥٨، وكانت قد تأسست قبل عامين من هذا التاريخ، بإنشاء خط ملاحي دائري. يربط بين الموانئ التالية: أوديسا ـ القسطنطينية، بيريه، سميرنا[*] ـ رودوس ـ الإسكندرونة ـ بيروت ـ يافا ـ الإسكندرية. وفي العام الأول وحده قامت البواخر الروسية بعمل اثنتين وأربعين رحلة على هذا الخط، ونقلت ١٢٫٤ ألف راكب معظمهم من الحجاج. وفي العام التالي تضاعف عدد الركاب[٣٩].

في عام ١٨٨٠ ظهرت إمكانية أخرى للوصول إلى وسيلة منتظمة للانتقال من روسيا إلى مصر، عندما بدأ الأسطول التطوعي، الذي تأسس

---

(٣٨) المصدر السابق. ص ٥؛ القدس وسيناء. مذكرات الرحلة الثانية إلى الشرق. أ. س. نوروف. سان بطرسبورج، ١٨٧٨.

(*) سميرنا: إزمير حاليًا (المترجم).

(٣٩) مصر في عيون الروس في منتصف القرن التاسع عشر – مطلع القرن العشرين. منتخب من الوثائق. إعداد وتقديم وملاحظات ج. ف. جورياتشكين. موسكو، ١٩٩٢. ص ١٦-١٧.

قبل عامين من التاريخ المذكور، في القيام برحلات منتظمة على خط السير أوديسا ــ فلاديفوستوك. كانت بواخر الأسطول تتوقف في بورسعيد، حيث يتم تزويدها بالفحم[٤٠]. وفي مطلع القرن العشرين كانت هناك رحلتان شهريا. فعلى سبيل المثال، غادرت البواخر ميناء أوديسا في صيف ١٩١٠، يومي العاشر والخامس عشر من مايو، والحادي والعشرين من يونيو، والخامس عشر من يوليو، والعشرين من أغسطس[٤١].

وقد جاء في التقرير الذي كتبه إ. أ. ليكس، القنصل العام لروسيا في مصر عام ١٨٨١، أن "عدد الحجاج الروس، الذين مروا عبر الإسكندرية، لا يزال يزداد عامًا بعد الآخر. ولكن أغلبيتهم يذهبون إلى القدس، بينما يتجه الباقون إلى سيناء؛ وقد بلغ عدد الحجاج في عام ١٨٨٠ سبعة وثمانين حاجًا، أما في عام ١٨٨١ فبلغ ستين حاجًا[٤٢]. فإذا ما قارنا هذا العدد بعدد الحجاج، الذين كانوا يرغبون في زيارة فلسطين (لم يأت ليكس على ذكر عددهم) فإن هذا العدد من ستين إلى ثمانين شخصًا على الأرجح، كانوا بالفعل "قلة قليلة". أما إذا عقدنا مقارنة بين هذه الأعداد وحجاج مطلع القرن التاسع عشر، فسنرى أن عدد الذين كانوا يزورون سيناء من بينهم يعد على الأصابع، ويمكن القول؛ إن الحجيج الذاهبين إلى هناك اكتسبوا طابعًا جماهيريًا.

لا بد أن نضع في اعتبارنا أيضا، كما أشار إلى ذلك الباحث المصري نعوم بك شقير عام ١٩١٦، أن "غالبية الروس كانوا يأتون إلى سيناء عبر

---

(٤٠) بوجينول م. دراسة حول نشأة ونشاط الأسطول التطوعي على مدى خمسة وعشرين عاما على وجوده. سان بطرسبورج، ١٩٠٣ ص ٥٦ -٥٧.

(٤١) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ٨٢٠/١، وثيقة ٥٧٤، صحيفة ٣٢٦.

(٤٢) مصر في عيون الروس (مرجع سابق). ص ١٢٥.

القدس"[٤٣]، والأرجح أن جزءًا من هؤلاء، كما حدث في حينه، عندما سافر كير برونيكوف ورفاقه، جاءوا من فلسطين إلى دير سيناء عبر غزة والسويس. ولو أن هؤلاء الحجاج عادوا إلى الوطن عبر الإسكندرية، لقام ليكس بتسجيلهم في إحصائه. فضلاً عن ذلك، فإن بعضًا من الحجاج تحديدًا جاءوا من فلسطين إلى سيناء مباشرة عبر صحراء النقب. وقد توصل كاتب هذه السطور إلى هذا الاكتشاف، عندما عثر على صخرة عند الكيلو الستين شمال شرق الدير، على طريق القوافل القديم القادم من فلسطين، في وادي خضر، ترك عليها الرحّالة نقشًا بالأحرف الروسية التي كانت مستخدمة قبل الثورة يقول: "الطريق إلى سانت كاترين"[٤٤]. ومن ثم يمكن القول؛ إن عدد الحجاج الروس، الذين دأبوا على زيارة سيناء في الربع الأخير من القرن التاسع عشر بلغ أكثر من العدد الذي أورده الدبلوماسي الروسي في تقريره.

في مطلع القرن العشرين ازداد تدفق الحجاج، ويؤكد نعوم بك شقير ذلك بقوله: "في أيامنا هذه قليلون هم الذين يقومون بالحج إلى الدير، إذا لم نحسب الروس، الذين يعرفون باسم الموسكوفيين، كل عام يأتي منهم إلى هنا رجال ونساء، يبلغ عددهم مائتي شخص في المتوسط سنويًا، وأحيانًا أكثر من ذلك. وهؤلاء عادة ما يقضون ثمانية أيام في الدير، يلقون خلالها نظرة على ما حوله"[٤٥].

نفس هذا العدد، من مائتين إلى ثلاثمائة، من الحجاج الروس، الذين يزورون الأماكن المقدسة في سيناء، أورده أيضًا السفير الروسي أ. أ.

---

(٤٣) نعوم بك شقير. سيناء وتاريخ العرب. القاهرة. ١٩١٦. ص ٢٢٧ (باللغة العربية).
(٤٤) بيلياكوف، فلاديمير. مصر طولا وعرضًا. دليل تاريخي. موسكو. ٢٠٠١. ص ٢٦٩.
(٤٥) نعوم بك شقير. مرجع سابق . ص ٢٢٧.

سميرنوف، الذي زار دير سانت كاترين في عام ١٩١٠، ليكتب إلى وزارة الخارجية الروسية قائلاً: " تسنى لي أن أتأكد بنفسي من الظروف المُرضية لنقل الحجاج الروس واستقبالهم بحفاوة في الدير. لقد وصلت بعثة الحج نفسها معنا في نفس الوقت إلى سيناء قادمة من السويس، وقد تبادلت أطراف الحديث مع هؤلاء، الذين تجمعوا من شتى أنحاء روسيا، بل وحتى من سيبيريا. وقد عبَّروا جميعهم لي عن رضائهم التام عن ظروف رحلتهم ووصولهم إلى سيناء"(٤٦).

كانت الجمعية الفلسطينية الأرثوذكسية الإمبراطورية تنظم سنويا قافلة للحجاج من القدس إلى سيناء. وكان الحجاج يتحملون نفقات الحج بأنفسهم. وعلى هذا النحو سافر مائة واثنان وخمسون شخصًا إلى دير سانت كاترين في الثاني عشر من يناير ١٩٠٨ قادمين من فلسطين(٤٧). على أنه من غير المعروف خط السير المباشر، الذي قطعته القافلة، وما إذا كان عبر صحراء النقب، أم عبر غزة والسويس.

في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ظلت رحلة الحج إلى سيناء تتطلب مشقة وزمنًا وجهدًا وأموالاً، أكثر مما يتطلبه السفر إلى فلسطين. كان من الضروري السفر أولاً من الإسكندرية إلى القاهرة بالقطار ومنها، بالقطار أيضًا، إلى السويس. يذكر شقير بك نعوم أن "الحجاج كانوا يتوجهون أولاً إلى السويس، ثم يكون عليهم إما الإبحار إلى الطور، ومنها يواصلون سيرهم إلى الدير، أو يذهبون على الفور من السويس إلى الدير"(٤٨).

---

(٤٦) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ١٤٢، قائمة ٤٩٧، وثيقة ٣١٠٨، صحيفة ١-٢.

(٤٧) دليل السفر إلى الأماكن المقدسة في الشرق. سانت بطرسبورج، ١٩١٠. ص ١٠١،١٠٢.

(٤٨) نعوم بك شقير. مصدر سابق. ص ٢٢٧.

السفر عبر الطور، وهي مدينة صغيرة تقع على الساحل الغربي لسيناء، تطل على خليج هادئ وبها كنيسة تتبع أملاك كنيسة سيناء، هو أقصر الطرق جميعًا. على أن الرحلة من الطور إلى جبل سيناء، كما ذكر أ. أ. سميرنوف ينبغي أن تستمر من ثلاثة إلى أربعة أيام على ظهور الجمال(٤٩). وبطبيعة الحال لم يكن بمقدور كل حاج أن يقطع مثل هذه الرحلة الشاقة عبر صحراء جبلية. وهكذا تُوفيت تاتيانا نكراسوفا، ابنة أحد رجال الدين في الرابع من سبتمبر ١٨٩٥ بعد أربع ساعات من السفر من دير سيناء في طريق العودة إلى السويس. وقد دُفنت في اليوم التالي في جبانة الكنيسة(٥٠). وكذلك توفي في السويس الفلاح فيدوسي سافوفيتش كوروتشكا من محافظة بودولسك، قرية ليوبوميركا، نجع ديموف، قضاء أولجوبولسكي قادما من سيناء. لا تذكر وثائق الأرشيف معلومات عن مكان دفنه(٥١).

كان السفر على ظهور الجمال يستغرق أسبوعًا بأكمله من السويس إلى الدير. وقد قطع أ. ف. يليسييف هذا الطريق للوصول إلى جبل سيناء في عام ١٨٨١. والتقي في طريقه بنفر من أبناء وطنه. وفي هذا الشأن يكتب يليسييف قائلا: "من الغريب أن يرى المرء فلاحين من حوض نهر فياتكا على ساحل البحر الأحمر بملابسهم الوطنية، أحذيتهم الضخمة، قمصانهم الحمراء، معاطفهم الكتانية المتواضعة، أغطية رؤوسهم وحقائبهم خلف ظهورهم، يحملون في أيديهم الأغصان السيناوية (أغصان من شجرة العليقة

---

(٤٩) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ١٤٢، قائمة ٤٩٧، وثيقة ٣١٠٨، صحيفة ١.

(٥٠) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ١٤٩، قائمة ٥٠٢أ، وثيقة ٦٦٥، صحيفة ١.

(٥١) المصدر السابق. قائمة ٥٠٢٦، وثيقة ٩٦٦، صحيفة ١.

الملتهبة – المؤلف)". يقول يليسييف "إن أهم ما يميز الحجاج الروس هو إيمانهم بالله وجَلَدهم وبساطتهم واستهانتهم بالحرمان. وهي خصال تحظى بإعجاب المصريين"[٥٢]. كما لاحظ الرحَّالة أنه "كان يُقابَل أينما ذهب بالمعاملة الودية، ويستمع إلى عبارات ترحيب كاملة بلغة روسية وإن كانت ركيكة، ولم يصادف إطلاقًا أي نظرة يشوبها العداء تجاهه"[٥٣].

كان الحجاج يعيشون على ما يقدمه لهم آباء دير سيناء، ويشير نعوم بك شقير إلى أنهم "كانوا يتناولون طعامهم على نفقة الدير، وكذلك في الكنائس التابعة له في القاهرة والسويس والطور إبان إقامتهم فيها. على أن بعضًا منهم كانوا يتبرعون بأموالهم وأشياء من ممتلكاتهم الثمينة"[٥٤].

ولم يكن الحجاج وحدهم هم الذين يتبرعون للدير، وإنما العديد أيضًا من الذين كانوا يودون لو ذهبوا إلى سيناء، ولكنهم لا يقدرون على ذلك، إما لأسباب مادية، أو لأسباب أخرى. أما آباء الدير فكانوا يقومون بأنفسهم بالسفر إلى روسيا لجمع التبرعات، ولم يحدث إطلاقا أن عادوا من هناك بخُفَّيْ حنين. وتعود واحدة من أوائل هذه الأسفار إلى عام ١٣٧٦، وذلك استنادا إلى الوثائق، عندما سافر إلى موسكو الأسقف مرقص، رئيس دير سيناء لجمع أموال الزكاة لصالح الدير[٥٥].

يُصور لنا أحد الدفاتر الخاصة المحفوظة في أرشيف دير سانت كاترين حجم ونوع التبرعات، التي كان الروس يقدمونها للدير السيناوي في منتصف القرن الثامن عشر في الفترة من العاشر من أكتوبر عام ١٧٥٦ وحتى فبراير

---

(٥٢) يليسييف أ. ف. الطريق إلى سيناء. سان بطرسبورج، ١٨٨٣. ص ٧.
(٥٣) المرجع السابق . ص ٢٣.
(٥٤) نعوم بك شقير. مصدر سابق . ص ٢٢٧،٢٢٨.
(٥٥) رحلة الأرشيمندريت أجريفيني. ص ٨. في تلك الفترة كان الأمراء العظام ثم القياصرة هم الذين يعطون التبرعات لمزيد من التفاصيل انظر الفصل التالي.

١٧٥٨، وهي الفترة التي كان آباء الدير يقومون فيها، على الأرجح، برحلتهم الدورية إلى روسيا لجمع التبرعات. وقد قام كاتب هذه السطور بحصر التوقيعات الواردة في الكتاب المذكور فوجدها تبلغ ٢٧٢ توقيعًا. جميعها تقريبا بلا أسماء. وقد تراوحت قيمة التبرع من ٢٥ كوبيكًا إلى ٢٠ روبلاً، وفي المعتاد كان المتبرع يدفع ما بين روبل إلى روبلين. وكانت معظم التبرعات تستهدف سلامة البدن أو سكينة النفس، وأحيانًا يخصصها صاحبها لمبنى الدير، وأحيانًا لا يذكر هدفه من التبرع[٥٦].

وقد وصل حجم التبرعات الخاصة حدًا كبيرا، حتى إن الكنيسة الحالية الموجودة داخل دير القديس جيورجي رايفسكي في الطور، تم بناؤها في نهاية القرن التاسع عشر من حصيلة تبرعات المواطنين الروس، كما أن حامل الأيقونات فيها هومن صنع رسامي الأيقونات الروس. وقد جرى إعادة بناء المُصلَّى الموجود على جبل سانت كاترين في نحو عام ١٨٦٠ بأموال أهالي موسكو[٥٧].

---

(٥٦) صدر هذا الدفتر في العاشر من أكتوبر ١٧٥٦ بناء على تعليمات من صاحب الغبطة الإمبراطورية، رئيس مجمع الكنائس (السينودوس)، من إدارة جبل سيناء، دير العذراء المقدسة عند شجرة العليقة الملتهبة، إلى الأرشيمندريت فيدوسي، لكي يقوم بتسجيل التبرعات، التي يقدمها المسيحيون الأرثوذكس عن طيب خاطر، وذلك لمدة عامين مستقبلاً. السكرتير الكسي (الكنية غير واضحة)". لم يعرف على وجه اليقين سبب وجود هذا الدفتر في سيناء. وكان جمع التبرعات من الأفراد لسد احتياجات الدير أمرًا مسموحا به إبان عهد بطرس الأول، مع الحرص على تسجيلها لأجل محدد في دفاتر يسلمها مجمع الكنائس للدير، ثم يجرى إعادتها إلى المجمع مرة أخرى بعد انتهاء هذا الأجل. انظر: كابتيريف ن. ف. طبيعة العلاقات الروسية بالشرق الأرثوذكسى في القرنين السادس عشر والسابع عشر. سان بطرسبورج، ١٨٨٥. ص ٢٧٤.

(٥٧) جاثريلوڤا، ألكسندرا. المقدسات في مصر. بوينوس – آيروس، ١٩٦٠. ص ٧٥،٧٤، ١٠٥.

أربعة من تسعة أجراس، على الأكثر، في برج كنائس الدير، صنعت من حصيلة التبرعات الشخصية للروس. هذا ما تشير إليه النقوش الموجودة عليها. كما كتب في أسفل أكبر الأجراس، المعلق في منتصف الصف الأوسط من برج الأجراس أنه "أُهدِي إلى دير سيناء في السابع والعشرين من يونيو عام ١٨٧٠ لكنيسة القديسة المُعذَّبة كاترين بجهد من باولا إيفانوفنا مويسييفا على روح فاسيلي وأهله". ونقش في أعلى الجرس: "تم صب هذا الجرس في موسكو في مصنع ديمتري سامجين. الوزن ٢٥ بود(*). القطر ٨٨ سم، الارتفاع ٩٠ سم.

وعند أسفل الجرس الثاني في الصف الأوسط نجد أن مقاييسه أقل (من ٧٢ إلى ٧٥ سم)، وقد كتب عليه "في السابع من يونيو عام ١٨٧٠ بجهد من ستيفان". ويشير النقش العلوي إلى أنه قد تم صبه في موسكو أيضا في مصنع سامجين ويزن ١٢ بودًا.

وقد نقش على جرس الصف الثالث من الجانب الغربي يسارًا (إذا ما نظرنا من داخل برج الأجراس): "من أجل سلام وسكينة ناستاسيا ويوري ..." (لا تظهر الكلمات التالية بوضوح). والجرس تم صبه، وفقا للنقش العلوي، في مدينة روستوف الواقعة على نهر الدون (روستوف نا دانو) ولا توجد أية إشارة إلى وزنه، أما مقاييسه فتبلغ ٦٥ × ٧٥ سم.

وأخيرًا نجد على أحد الأجراس الصغيرة الموجودة في الصف الثالث من ناحية اليمين نقشًا يقول "إلى روح عبد الله دانيال ميخائيل فيودوسي"، دون إشارة إلى المكان الذي تم فيه صب الجرس، وتبلغ مقاييسه ٤٦ × ٥٠ سم.

(*) البود: وحدة وزن زنتها ١٦,٣٨ كيلو جرام. (المترجم).

وعلى الجرسين الموجودين جنوبي الصف الثالث يوجد نقش يقول: "روستوف نا دانو، مصنع يفيم ماتفييف فاسيلينكو". ولا توجد عليه نقوش أخرى. والجرسان صغيران، فالأيمن: ٥٢ × ٥٨ سم، والأيسر: ٤٥ × ٤٨ سم. أما بالنسبة للأيمن الموجود في الصف الثالث من الناحية الغربية، فهناك نقش يقول: "تم صبه في مصنع المواطن المبجل إيفان إيفانوفيتش ريجوف في خاركوف". ومقاييسه: ٦٤ × ٧٥ سم. ولا توجد هناك أية نقوش على الجرسين، سواء الموجود في الصف الأسفل (٣٨ × ٤١ سم) أو الموجود على اليسار من الجانب الشرقي في الصف الثالث (٣٨ × ٤٢ سم)، على أنه من الواضح أنهما صنعا أيضا في روسيا[٥٨].

كانت هناك تبرعات صغيرة نسبيًا تذهب للدير، سواء مالية أو عينية. فقد أوصت ناتاليا بيكوفا وهي أرملة لأحد التجار من ريبينسك، وقد توفي في عام ١٨٦٨، لدير سيناء بـ ٥٪ من قيمة ثلاث شهادات بنكية حكومية تساوي سبعمائة روبل[٥٩]. في حين تبرعت أناستاسيا ليخاتشيفا في عام ١٨٦٩ بقطعة من الديباج تبلغ قيمتها ١٣ روبل[٦٠]. أما ليوبوف إيفانوفنا تروخينا، المتوفاة في عام ١٩١٠ فقد أوصت للدير بمبلغ أربعمائة روبل[٦١].

---

(٥٨) وردت النقوش المكتوبة على الأجراس للمرة الأولى في كتاب ألكسندرا جافريلوفا. ص ٩٨. وقد قام مؤلف هذا الكتاب بتدقيق مقياس الأجراس أثناء رحلته العلمية إلى سيناء في مطلع عام ٢٠٠٣.

(٥٩) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. بطاقة ٣١٧، قائمة ٨٢٠/١، وثيقة ٢٦٧، ص ٣٣.

(٦٠) المصدر السابق. وثيقة ٥٧٦، ص ٥٤.

(٦١) مصدر سابق. وثيقة ٥٧٦، ص ٣٣.

أوقفت الحرب العالمية الأولى ومن بعدها ثورة أكتوبر، ولأمد طويل، تقليد الحج الروسي، الذي دام قرونا طويلة إلى سيناء. وفي مذكراتها تورد المهاجرة الروسية ألكسندرا جافريلوفا، التي زارت الدير في عام ١٩٥٠ هذا المقطع: "وفي الدفتر الخاص بالخدمة في الكنيسة وجدت الملاحظة التالية: أرسلت واحدة من الحجاج، وهي امرأة تقرأ وتكتب بالكاد، وكانت قد زارت الدير من قبل، أرسلت إلى أحد الرهبان من معارفها في سيناء خمسين كوبيكا(*) مع بعض الحجاج الآخرين، ليصليّ من أجل الأحياء والأموات. وقد سألَت في الدير عن هذا الراهب، الذي عاش هناك منذ خمسين عامًا مضت!"[٦٢].

وعلى مدى سبعين عامًا لم يزر دير سانت كاترين سوى المهاجرين الروس وموظفي الهيئات السوفيتية في مصر. هذا ما تؤكده، بصفة خاصة، دفاتر.سجلات زوار الدير[٦٣]. وفي الوقت الحالي فإن تقاليد الحج إلى سيناء آخذة في الانتعاش تدريجيا.

روسيا وكنيسة سيناء

من الواضح أن العلاقة بين روسيا وكنيسة سيناء الأرثوذكسية نشأت في نفس الفترة، التي ظهر فيها الحجاج الروس الأوائل في دير سانت كاترين في القرن التاسع الميلادي. وبنهاية القرن الرابع عشر اكتسبت هذه العلاقة

(*) الروبل يساوي مائة كوبيك. (المترجم).
(٦٢) جافريلوفا، ألكسندرا. مصدر سابق. ص ٣٧.
(٦٣) إبان الرحلة التي قام بها مؤلف الكتاب إلى الدير في مطلع عام ٢٠٠٣، قام بفحص الدفاتر الخاصة بزوار الدير في الفترة من ١٨٩٧ إلى ١٩٦١، ولم تكن لها سجلات مرقمة.

طابع الاستقرار. هذا ما تشهد به رحلة الأسقف مرقص إلى موسكو لجمع التبرعات في عام ١٣٧٦. أما في عام ١٣٩٠ فقد حمل الرهبان الفلسطينيون من سيناء إلى موسكو "أيقونة للعذراء المقدسة عند شجرة العليقة الملتهبة، وقد رُسمت على نفس الحجر صورة للنبي موسي من أثر النار الملتهبة غير المشتعلة"، وهذه الأيقونة قد وضعت في كاتدرائية بلاجوفيشينسكي[٦٤].

في عام ١٤٥٣ ميلادية سقطت الإمبراطورية البيزنطية ـ حصن الأرثونكسية ـ تحت ضربات الأتراك. وفي هذه الحقبة من الزمن جرت عملية توحيد الأقاليم الروسية على يد موسكو لتظهر بعدها دولة روسيا الكبرى الموحدة. أما في عام ١٤٨٠ فقد تم القضاء المبرم على الاحتلال التتاري المغولي. ويؤكد المؤرخ الإنجليزي للأرثونكسية، الأسقف تيموثي وير "أن أهل موسكو رأوا أن هذه الحقيقة لم تأت عبثا، ففي هذه الحقبة التي اختفت الإمبراطورية البيزنطية فيها من الوجود، ألقت روسيا عن كاهلها بقايا الهيمنة التركية، وبدا أن الله وهبهم الحرية، لأنه اختارهم خلفا لبيزنطة"[٦٥].

وإلى هذه الحقبة تحديدًا تعود المقولة الشهيرة حول أن "موسكو هي روما الثالثة، وأنه لن تكون هناك أخرى رابعة". آنذاك تزوج إيفان الثالث من صوفيا باليولوج، ابنة أخ آخر أباطرة بيزنطة: وعلى المطبوعات الملكية، التي تصور القديس جيورجي، تمت إضافة النسر البيزنطي ذي الرأسين، أما إيفان الثالث فقد بدأ يطلق على نفسه لقب القيصر. ويؤكد ن. ف.

---

(٦٤) الشواهد المعمارية والكتابات القديمة في سيناء. المحرر ف. ن. بينيشيفيتش. الإصدار الثاني. ليننجراد، ١٩٢٥. العدد ١٣٤ س.

(٦٥) Ware, Timothy. Op. cit. P. 102.

كابتيريف قائلا: "وقد تأكدت هيبة القيصر، التي دانت لإيفان فاسيليفيتش باعتباره خليفة ووريثًا للأباطرة البيزنطيين على نحو احتفالي على يد بطريرك القسطنطينية، وتم الاعتراف به فيما بعد من جانب الشرق الأرثوذكسي بأسره، مما وضع مسئولية جسيمة خاصة على كاهل العاهل الروسي فيما يتعلق بالأرثوذكسية كلها"(٦٦). على أن إمكانية دعم الدول الأرثوذكسية لشركائهم في العقيدة في روسيا كانت محدودة للغاية، فقد كانت مسألة تحررهم من نيْر الأتراك أمرًا مستحيلاً. لكن حكام هذه الدول راحوا يدعمون البطاركة الشرقيين بأموالهم، سواء في القسطنطينية أو الإسكندرية وأنطاكيا والقدس؛ فضلاً عن دعمهم للعديد من الأديرة. كما يشير ن. ف. كابتيريف أيضا في أحد مراجعه الأولى إلى أن "طالبي التبرعات بدأوا منذ نهاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر في التوافد على موسكو قادمين من الشرق الأرثوذكسي ومن مختلف أديرة آيون – أوروس*، ومن صربيا القريبة ومن سيناء البعيدة"(٦٧).

في البداية كانت روسيا تقدم المساعدات المادية إلى دير سيناء على نحو غير منتظم، إذ كانت المبادرات تأتي من القائمين على الدير السيناوي أنفسهم. وفي عام ١٥١٨ وصل إلى موسكو قادما من سيناء الأب كليمنت، ومعه رسالة من رئيس الأساقفة دانيال السيناوي، وهي مؤرخة في السادس عشر من نوفمبر ١٥١٧. وهي في محتواها عبارة عن شكوى ضد الأتراك

---

(٦٦) ن. ف. كابتيريف. مرجع سابق. ص ١٠٣.

(*) آيون – أوروس: منطقة جبلية تقع شمال اليونان. (المترجم).

(٦٧) ن. ف. كابتيريف علاقات البطاركة المقدسين بالحكومة الروسية في القرنين السادس عشر والسابع عشر وفي القرن السالف (١٨١٥ – ١٨٤٤). (المنتخب الأرثوذكسي الفلسطيني) المجلد الخامس عشر، الإصدار الأول. سان بطرسبورج، ١٨٩٨. ص ٧.

(كان الأتراك قد غزوا مصر في يناير عام ١٥١٧ - المؤلف)، الذين فرضوا جزية على الدير مقدارها ألفي قطعة ذهبية. وكان على هؤلاء الأساقفة أن يقترضوا هذا المبلغ لعدم توافره لديهم. وقد طلب رئيس الأساقفة المساعدة من قيصر روسيا، فاستجاب القيصر فاسيلي إيفانوفيتش على هذا الطلب بأن أرسل إلى سيناء مع كليمنت تبرعات تشتمل على ستمائة قطعة ذهبية وفراء السمّور والسناجب والثعالب؛ بالإضافة إلى أسنان حيتان، وطلب من الإخوة السيناويين أن يصلوا من أجل سلامته وأن يُرزق بولي العهد(٦٨). واستنادًا إلى البحث الذي قام به المؤلف الكنسي الشهير أ.ن. مورافييف، وكان قد قام في منتصف القرن التاسع عشر بدراسة دقيقة لبنود القوائم ووثائق الأراشيف، فقد توقفت زيارة الرسل بعد ذلك من سيناء إلى موسكو لمدة أربعين عامًا. وكان أول من جاء منهم إلى عاصمة روسيا في عام ١٥٥٨ هما الآباء يوسف وملاخيا، اللذين حملا رسالة مؤرخة ٢٠ أكتوبر ١٥٥٧، وقع عليها رئيس أساقفة دير سيناء الأب مكاريوس؛ فضلاً عن بطريرك الإسكندرية الأب يواقيم، توجها فيها إلى القيصر إيفان فاسيليفيتش بقولهم: "هب لنا، في هذه الأيام، مُحسنًا جديدًا، بطلاً طيب النفس، واعظًا للدير المقدس مكللاً من الله، مثل قسطنطين شبيه الحواريين، أول من وضع أساسًا للدير، ليأتي من بعده القيصر العظيم جوستينيان، الذي أقام أسواره.

والآن كل شيء يوشك على الانهيار ويقترب الدير من نهايته، ونحن نخشى أن يهجر الناس بيت الرب المقدس العظيم، وأن يصبح مدنسًا إذا ما وطأته أقدام الغزاة الكفار"(٦٩).

---

(٦٨) أ. ن. مورافييف. علاقات روسيا بالشرق نشأة القضايا الكنسية. الجزء الأول. سان بطرسبورج، ١٨٥٨، ص ٣٣-٣٧.

(٦٩) المصدر السابق. ص ٩١.

وقد أجاب القيصر إيـفـان الرهيب(*) على هذه الرسالة بأن أرسل تبرعًا كبيرًا إلى مصر وسيناء وذلك في عام ١٥٥٨، وفي رسالة إلى يواقيم بطريرك الإسكندرية كتب إيـفان الرهيب يقول: "ترفع إلى اللــه هذه الهدية على روح قديستكم ونرسل لك هذه المستلزمات مع رئيس الشمَّاسين جيناوي من كاتدرائية صوفيا ومع التاجر فاسيلي بوزنياكوف وقدرها ألف قطعة ذهبية أوجورية(**)، ومعطفًا من فراء السمّور مبطنًا بالقطيفة، أما بخصوص طلبك من أجل جبـل سيناء، فنرسل إلى رئيس الأساقفة وإلى كل القساوسة هذه المستلزمات وقدرها ألف قطعة ذهبية من أجل بناء الدير، ولعلك تقوم بنفسك ومعـك كـل كبـار الأساقفة في جبل سيناء بإقامة الصلاة للــه وللعذراء المقدسة ولكل القديـسين من أجل سلامتنا وبقائنا، ومن أجل القيصرة أناستاسيا ولوليّ العهـد الطفلـين إيـفـان وفيودور، ومن أجل المسيحية الأرثوذكسية وكل من ذكرناهم سـابقًا أيضًا"(٧٠)، وفي عام ١٥٧١ أرسل إيـفـان الرهيب أيضًا مع التاجر سيمينوف بورزونوفـي تبرعًا إلى سيناء على روح زوجته الأولى أناستاسـيا وأخيـه جيورجي (٧١). ثم على روح ابنه إيـفـان فيما بعد. أمـا "الـسفير والأميـر العظيم يوحنا فـاسيليـفـيتش أمير روسيا فقد أرسل من موسكو تبرعًا على روح ابنه يوحنا يوحنا فـيتش (الذي توفي في عام ١٥٨٢) مع تاجرين مـن

(*) إيـفان الرهيب: هو إيـفـان الرابع، فـاسيليـفـيتش (١٥٣٠-١٥٨٤)، الأميـر العظيم "لعموم روسيا" (منذ ١٥٣٣)، أول القياصرة الـروس (منـذ ١٥٤٧)، ابـن فـاسيلي الثالث. أنجز في عهده العديد من الإصلاحات الإدارية والقضائية. استولى على خانات قازان وأستراخان. أول من أدخل المطبعة إلى موسكو. ضـم سـيبيريا" (١٥٨١). اتسمت سياسته الداخلية بالقسوة والشدة. (المترجم).

(**) أوجورسكايا روس: الاسم التاريخي لأوكرانيا ما وراء الكاربات، وكانت تقع منـذ نهاية القرن الحادي عشر تحت سلطة المجر. (المترجم).

(٧٠) رسالة القيصر إيـفـان فـاسيليـفـيتش. ص ٢.

(٧١) أ. ن. مورافـييـف. مصدر سابق. ص ١٦٦.

موسكو هما تريفون كوروبينيكوف ويوري جريك، وقد سافر بصحبتهم القس فيودور، وقد أرسل القيصر معهم خمسمائة روبل إلى جبل سيناء من أجل مبنى كنيسة المُعذَّبة العظيمة كاترين ..."[٧٢]. على أنه من غير المعروف في الواقع فيم أنفقت هذه الأموال، فلم تكن هناك آنذاك كنيسة منفصلة لسانت كاترين.

وعلى هذا النحو استمر القياصرة الروس في إرسال التبرعات بعد ذلك أيضا. وفي عام ١٥٨٦ أرسل فيودور يوحنافيتش مع الأرشيمندريت السيناوي ميليتي ٨٥٠ روبل ثم ٥٤ روبل أخرى لبناء مبخرة لا تنطفئ عند شجرة العليقة الملتهبة وعند رفات القديسة كاترين[٧٣].

وفي عام ١٥٨٩ افتتحت في روسيا بطريركية جديدة، وبهذه المناسبة أرسل القيصر فيودور يوحنافيتش في يناير ١٥٩٣ تبرعًا على شرف هذه المناسبة مع تريفون كوروبينيكوف وميخائيل أوجاركوف إلى تساريجراد (القسطنطينية) والإسكندرية وأنطاكيا والقدس وسيناء مقداره ٥٥٦٤ قطعة ذهبية مجرية و"ثمان وأربعين قطعة فرو سمّور وأشياء أخرى متنوعة". لكن الرسل لم يصلوا إلى هناك. وفي الثاني والعشرين من فبراير عام ١٥٩٤ قاموا بتسليم الأرشيمندريت ميليتي في القدس ٤٣٠ قطعة ذهبية[٧٤].

في عام ١٦٠٤ سافر إلى موسكو قادمًا من سيناء الأرشيمندريت يواساف ومعه هدية للقيصر بوريس جودونوف عبارة عن "سلسلة بها قلادة مذهبة مطعمة بالأحجار الكريمة بها صورة العذراء وكثير من الرفات من

---

(٧٢) رحلة تريفون كوروبينيكوف. "المنتخب الأرثوذكسي الفلسطيني"، الإصدار السابع والعشرون. سان بطرسبورج، ١٨٨٨. ص ٦.
(٧٣) أ. ن. مورافييف. مصدر سابق. ص ١٦٦.
(٧٤) المصدر السابق. ص ٢٦٦، ٢٧٦.

آثار لوقا الإنجيلي ومريم المجدلية والمُعذب العظيم جيورجي ويوحنا ذهبي الفم والمُعذبين فيرابونت وبروكوبي وباغوص وفرع من شجرة موسى". وقد سلّم يواساف إلى القيصر خطابًا من لافرينتي السيناوي رئيس الأساقفة جاء فيه: "لقد وقعنا في أسر الديون ونحن في أمَس الحاجة إلى المساعدة بسبب الإتاوة التي فرضت علينا. وقد دفعنا مبلغ أربعة آلاف قطعة ذهبية، ورهن الناس أواني الدير لدى اليهود والأتراك" وفى خطابه إلى القيصر يكتب رئيس الأساقفة قائلاً: "إننا نتطلع إلى كرمكم. أرنا عطفكم البالغ على حجيجكم وسدد عنهم ديونهم حتى يستطيعوا استرداد أوانيهم المقدسة"[٧٥]. من غير المعروف ما إذا كان القيصر قد استجاب إلى هذا الطلب أم لا.

وقد أدت الفتنة إلى قطع العلاقة بين روسيا والكنائس الشرقية. ولم يأت أي رسول من سيناء بعد ذلك إلا في عام ١٦٢٧، وكان هو الأرشيمندريت مالاخايا، الذي وصل إلى موسكو للحصول على تبرعات، وقد حمل معه إلى القيصر ميخائيل فيودوروفيتش أيقونة للعذراء وللمُعذبة العظيمة كاترين. لكن التبرعات كانت شديدة التواضع: أربعون قطعة من فراء السمور وأربعون روبل. ومع هذا فقد حصل الأرشيمندريت ياكيم السيناوي بعد عامين على اثنتين وخمسين قطعة ذهبية في تساريجراد[٧٦].

وللمرة الأولى تتخذ مسألة جمع التبرعات من أجل البطاركة والأديرة شكلاً مُنظمًا، وذلك في عهد القيصر ميخائيل فيودوروفيتش، بعد أن بات أمر توزيع التبرعات على العديد من طالبيها دون أي رقابة أمرًا مستحيلاً. وأصبح يشار في شهادات الامتياز(*) إلى المواعيد التي يُسمح فيها بالمجيء

(٧٥) المصدر السابق. ص ٣٠٦ ــ ٣١١.
(٧٦) المصدر السابق. الجزء الثاني. سان بطرسبورج، ١٨٦٠. ص ٤٢،٤٣، ٧٨.
(*) شهادة الامتياز : شهادة تعطي الحق لحاملها في الحصول على التبرعات. (المترجم).

إلى موسكو، وهي عادة ما تكون كل ست أوكل سبع سنوات، على أنه، وكما أشار ن. ف. كابتيريف، كانت المواعيد تحدد في بعض "الحالات الاستثنائية" بحيث تكون الزيارة كل أربع، بل وحتى كل ثلاث سنوات"(٧٧).

كان دير سيناء واحدًا من هذه "الحالات الاستثنائية"، ووفقا لما ورد في إحدى شهادات الامتياز، التي أعطيت في السادس عشر من يونيو عام ١٦٣٠ إلى الأرشيمندريت إيساي، كان بإمكان الرسل القادمين من سيناء الحصول على التبرعات، وأن يسافروا إلى موسكو كل أربع سنوات، وقد سمحت لهم الشهادة أيضًا بمواصلة طريقهم من نقطة حدود بوتيفل إلى العاصمة مباشرة دون توقف(٧٨). بينما كان على الرسل القادمين من البطريركات الشرقية ومن غالبية الأديرة، كانوا يُضطرون للتوقف في بوتيفل في انتظار أوامر عليا لمواصلة طريقهم إلى موسكو.(٧٩) على أن الآباء السيناويين، في حالات أخرى، حصلوا على الحق نفسه، مثلهم في هذا مثل ممثلي البطريركات والأديرة الشرقية الأخرى. وقد قدّمت لهم جميعا عند الحدود عربات نقل مجانية تقلهم إلى موسكو وتعيدهم منها، مع توفير مرافقين لهم وتقديم الطعام طوال فترة وجودهم على أراضي روسيا؛ فضلا عن إعفائهم من كل أنواع الضرائب(٨٠). وهكذا أثبت الحكام الروس للموجودين تحت الحكم التركي من أبناء دينهم أن هناك مدافعين حقيقيين عن الأرثوذكسية.

---

(٧٧) ن. ف. كابتيريف طبيعة العلاقات الروسية بالكنيسة الشرقية. ص ٢٥٠.
(٧٨) أرشيف دير سيناء. قائمة الجرد رقم ٤ – ٨٩. للتعرف على النص الكامل لشهادة الامتياز ووصفها انظر : فلاديمير ف. بيلياكوف، ن. ج. جولوفنينا. الشهادات القيصرية في القرن السابع عشر من أرشيف دير سيناء. التراث الثقافي بمصر والشرق المسيحف. الإصدار الثاني. موسكو، ٢٠٠٣.
(٧٩) أ. ن. مورافييف. مصدر سابق . الجزء الثاني. ص ٩١–٩٥، ١٥١، ١٥٢.
(٨٠) ف. ف. بيلياكوف، ن. ج. جولوفنينا. مصدر سابق.

ست سنوات انقضت قبل أن يصل رسل دير سيناء إلى موسكو مرة أخرى. والحقيقة أن القيصر أرسل في عام ١٦٣٤، ٣٥ قطعة ذهبية إلى سيناء على روح البطريرك فيلاريت[٨١].

في عام ١٦٣٦ جاء الأرشيمندريت باييسي برسالة للقيصر من يواساف، رئيس أساقفة سيناء يطلب فيها "قلنسوة السلطة" وهي قلنسوة كانت في حوزة رئيس الأساقفة منذ عهد الإمبراطور جوستينيان ولكنها فقدت خلال "الغارات المتكررة للأجاريان[*]، ولهذا طلبوا من القيصر فيودور واحدة بدلا منها لتكون ذكرى طيبة؛ وقد وعدهم القيصر أن يلبي هذا الطلب، لكن شاءت إرادة الله أن يتوفى"[٨٢].

على أن هذه الرغبة قد تحققت لهم بعد ذلك. ففي عام ١٦٤٢ بعث القيصر ميخائيل فيودوروفيتش إلى سيناء بتاج مُطعَّم بالأحجار الكريمة، أضيف إلى كنز (متحف) الدير، الذي افتتح في ديسمبر عام ٢٠٠١ (وهو موضوع في لوحة العرض ٣٠، برقم ١٨).

واستنادًا إلى شهادة الامتياز المؤرخة عام ١٦٣٠، فقد خصلت كنيسة سيناء على امتياز خاص أمام الكنائس الشرقية الأخرى تمثل في أحقيتها في جمع التبرعات في روسيا. وقد ظل هذا الوضع قائمًا حتى في عهد القيصر الكسيّ ميخايلوفيتش، الذي سعى لإيقاف هذا السيل من طُلاَّب التبرعات القادمين من الشرق، فشرع في تحديد موعد لمجيء الجميع إلى موسكو

---

(٨١) أ. ن. مورافييف. الاقتباس من الجزء الثاني. ص ١٥١،١٥٢.
(*) الأجاريان: من كلمة أجار- هاجر زوجة النبي إبراهيم. وتطلق على أبنائها بمعنى المسلمين والأتراك. (المترجم).
(٨٢) المرجع السابق. ص ١٨٥.

للحصول على التبرعات، وهو مرة كل عشر سنوات[٨٣]. بيد أننا نجـد فـي شهادة الامتياز، الصادرة لدير سيناء في السابع مـن سـبتمبر عـام ١٦٤٩ تصريحًا بالمجيء إلى موسكو كل ست سنوات[٨٤].

هناك عدد من الأسباب التي جعلت من علاقة روسيا بدير سانت كاترين علاقة خاصة. وتأتي الأهمية الدينية لهذا الدير، بطبيعة الحـال، علـى رأس هذه الأسباب. يلي ذلك أنه وعلى الرغم من أن كنيسة سـيناء الأرثوذكـسية تدخل بشكل رسمي في نطاق بطريركية القدس، بفضل وضـعها المـستقل، فإنها لم تتلق منها أي معونة أو دعم، حتى عندما كانت في أمس الحاجة إلى ظهير. وأخيرا فقد كان لشعبية القديسة كاترين في روسيا دور محدد في هذه العلاقة. وتعكس الوقائع التالية حقيقة هذا الدور بشكل خاص. لقد كـان أول وسام أسسه بطرس الأول[*] في عام ١٧١٤، هو وسام التحرير باسم القديسة المُعذَّبة العظيمة كاترين[٨٥]. ثم يأتي المشهد التالي الجدير بالاعتبـار. ففـي الرابع والعشرين من نوفمبر عام ١٦٥٨ قضى بطرس الأكبر ليلته في خيمته أثناء قيامه برحلة صيد في غابة يرمو لينسكايا في ضواحي موسكو. وهناك

---

(٨٣) ن. ف. كابتيريف. طبيعة العلاقات الروسية بالكنيسة الشرقية. ص ٢٥٧.

(٨٤) أرشيف دير سيناء. القائمة ٤-٩٣. النص الكامل للشهادة ووصفها، انظر: ف. ف. بيلياكوف، ن.ج. جولوفـنينا. مصدر سابق.

(*) بطرس الأكبر (الأول) (١٦٧٢-١٧٢٥) : قيصر روسيا منـذ عـام ١٦٨٢. حكـم بمفرده منذ عام ١٦٨٩. أول إمبراطور لروسيا (منذ عام ١٧٢١). شخصية سياسـية وعسكرية بارزة في روسيا. أقام عددًا من أهم الإصلاحات فأنشأ مـصانع الأسـلحة والتعدين، وطوَّر التجارة وأنشأ مجلسًا للشيوخ وأسس جيشًا نظاميًا وبنـى أسـطولاً وأقام مدينة بطرسبورج، وشق قنوات وترعًا وأسس أكاديمية للعلوم وأرسل النـبلاء الشبان إلى الخارج للدراسة. أسس مدارس عسكرية ومعاهد للفنون. (المترجم).

(٨٥) القاموس الموسوعي. ف. أ. بروكهوس و ي. أ. افرون. الجزء الثاني والعشرون. سان بطرسبورج، ١٨٩٧ مقال "شهادة الامتياز".

تجلت له القديسة كاترين وتنبأت له أن اللـــه سيهب له ابنة. وما إن عاد إلى موسكو في اليوم التالي، حتى اكتشف قيصر روسيا بالفعل أن زوجته وضعت له طفلة. وقد أطلقوا عليها اسم كاترين. وعلى إثر ذلك أمر القيصر ببناء دير للقديسة كاترين في نفس المكان الذي شاهد فيه الرؤية، ولا يزال هذا الـــدير قائمًا حتى الآن (في مدينة فـــيدنوي)[٨٦].

في عام ١٦٦٧ حضر إلى كاتدرائية موسكو حنانيـــا، رئـــيس أســـاقفة سيناء. وفي عام ١٦٨٢، أي بعد خمسة عشر عاما، يعود مرة أخرى إلـــى العاصمة الروسية ليطلب من الحكام الشباب: بطرس ويوحنـــا وصـــوفيا أن "يضعوا ديرنا المقدس تحت رعايتهم". وقد عزَّز حنانيا طلبه بقوله: إن ديـــر سانت كاترين على وشك الانهيار نتيجة لما يعانيه من فقر، وأن حكام الغرب يتمنون أن يضموا إليهم هذه الأماكن المقدسة، وأنه إذا لم تصبح روسيا هـــي الحامية للدير، فإن بابا روما سوف يسعى، بطبيعة الحال، للاستيلاء على هذا المكان". وقد حصل رئيس الأساقفة على تبرعات ضخمة بالفعل، أما طلبـــه بشأن قيام الحكام الروس برعاية الدير فقد قوبل بالصمت[٨٧].

وبعد خمس سنوات جاء إلى موسكو الأرشيمندريت كيرلس ومعه رسالة مُوقعة من رئيس أساقفة سيناء الجديد يوهانيكي السيناوي واثنين وسبعين قسًا سيناويًا. وقد تضمنت الرسالة نفس الطلب للقياصرة الروس: "خـــذوا الـــدير ليصبح تحت رعاية دولة القياصرة، فلتكونوا أنتم الحكام العظام لهذا المكـــان الذي تجلى فيه اللـــه. بُناته وأصحابه الجدد المباركون بدلاً من الإمبراطـــور الحامي جوستينيان". وقد تضمنت الرسالة أيـــضًا طلـــب إرســـال قـــساوسة روس إلى سيناء[٨٨].

---

(٨٦) دير سانت كاترين. طبعة دير سانت كاترين للرجال. موسكو، ١٩٩٨. ص ٧.
(٨٧) ن. ف. كابتيريف. علاقات بطاركة القدس بالحكومة الروسية. ص ٢٦٧.
(٨٨) المصدر السابق. ص ٢٦٨ ، ٢٦٩.

وفي هذه المرة جاء الرد بالإيجاب. لقد أخذت روسيا رسميًا مسئولية رعاية دير سانت كاترين. "في العام الماضي أرسل رئيس أساقفة جبل سيناء المقدس الأرشيمندريت كيرلس، نيابة عن الدير كله، أرسل إلينا، ولحكامنا العظام، ولقيصرنا العظيم، بطلب يرجو فيه موافقة حكومتنا العظيمة أن نكون البناة والرعاة الجدد المباركين لجبل سيناء المقدس ولجميع قساوسته، وخاصة دير العذراء المقدسة عند شجرة العليقة الملتهبة، وذلك بدلاً من الإمبراطور جوستينيان حامي الدير. وأن نتولى نحن حماية هذا الكنز الرباني العظيم، الذي سيؤول لنا ولحكامنا العظام ولقيصرنا العظيم. وعليه فإننا نرسل باسمنا نحن الحكام العظام وباسم قيصرنا العظيم، إلى الدير المقدس وإلى رئيس القساوسة وإلى القساوسة حماهم الله شهادة الامتياز هذه والصادرة من القيصر يوحنا الكسييفيتش والقيصر بطرس الكسييفيتش والقيصرة صوفيا. سُلمت الشهادة في موسكو في الخامس من فبراير عام ١٦٨٩ إلى الأرشيمندريت كيرلس. وبناء على الإرادة السامية فإننا نقبل التعويض الخاص برعاية هذا الجبل والدير المقدس للمقدسة العذراء وشجرة العليق الملتهبة، وذلك من أجل عقيدتنا الأرثوذكسية المباركة. وقد أصدرنا شهادة الامتياز إلى حكومة موسكو لاستقبال رئيس الأساقفة يوهانكي والأرشميندريت كيرلس، ولأي شخص يرسلونه إلينا نحن الحكام العظام طلبا للتبرعات في العام القادم"(٨٩).

كان من الممكن أن تعتبر شهادة الامتياز مسألة شكلية فحسب، لولا التغيرات التي طرأت على العلاقات بين روسيا وكنيسة سيناء بفضل ما تضمنته هذه الشهادة بالسماح للآباء السيناويين بجمع التبرعات في روسيا مرة كل عامين. لقد كانت هذه خطوة مؤثرة إلى الأمام مقارنة بما كان متبعًا من قبل.

(٨٩) أرشيف دير سيناء. وثيقة جرد رقم ٤-٩٢. النص ووصف الشهادة انظر: ف. ف. بيليا كوف، ن.ج.جولوفنينا. مصدر سابق.

وعلى شرف قبول روسيا رعاية دير سيناء، تم إعداد وإرسال حوض مصنوع من سبيكة فضية مذهبة ليحفظ فيه رفات القديسة كاترين. وقد أشار فاسيلي جريجوريفيتش ـ بارسكى في مذكراته، بعد أن زار سيناء في عام ١٧٢٨، إلى أن "هذا الحوض المصنوع من الفضة هو من صنع القيصرة يكاترينا الكسييفنا، أخت العاهل الإمبراطور بطرس الأول"(٩٠). ومن الجائز أنها كانت صاحبة المبادرة في هذه الهدية. على أن هناك نقشاً موجودًا على الحوض يقول: "نحن الحكام المبجلون، المختارون من الله، القياصرة والأمراء العظام: يوحنا الكسييفيتش، بطرس الكسييفيتش، والقيصرة العظيمة المخلصة والأميرة العظيمة صوفيا الكسييفنا ... نرسل هذا الحوض الفضي المذهب، المصنوع من أموال الخزانة القيصرية إلى جبل سيناء المقدس"(٩١).

وبالإضافة إلى خمسة دروع عليها نقوش باللغة الروسية مثبتة إلى الحوض، نجد أيضًا لوحة عليها نقوش باللغة اليونانية تقول: "في عهد رئيس أساقفة جبل سيناء يوهانيكي لاسكار قام الأرشيمندريت كيرلس السيناوي "كيبريانين". هذا الحوض من موسكو من أجل القديسة في عام ١٦٩١"(٩٢).

أثار قرار روسيا بفرض رعايتها على دير سيناء اعتراض دوسيفي بطريرك القدس، فقد خشيَ أن تقوم روسيا بنزع الدير من سلطته القانونية. على أن دوسيفي، كما أشار ن. ف. كابتيريف، أدرك أن "مخاوفه كانت عبثًا، إذ إنهم في موسكو لم يفكروا إطلاقًا في مصادرة حقوقه العليا على سيناء أو فرض سلطة بطريرك موسكو على الدير"(٩٣).

---

(٩٠) فاسيلى جريجوريفيتش – بارسكي، مصدر سابق. ص ٢٧١،٢٧٢.
(٩١) رايبوليت فيشينسكى. مصدر سابق. ص ١٣٣.
(٩٢) المرحلة الثانية للأرشيمندريت بورفيري أوسبينسكي إلى دير سيناء. ص ٢٥٤.
(٩٣) ن. ف. كابتيريف. علاقات بطاركة القدس ... ص ٢٧٠.

وقد تطورت العلاقات بين روسيا ودير سيناء لمدة ما تزيد على ثلث قرن بعد ذلك على هذا المنوال لتتخذ طابعًا تقليديًا. وفي أواخر حكم بطرس أصبح مسموحا للبطريركيات الشرقية والأديرة، جمع التبرعات من الأفراد؛ فضلاً عن قبول التبرعات الملكية. وقد خصص السينودوس دفترًا مخصصًا يُسلم لمن يمثلونه، وتُسجل فيه التبرعات لأجل محدد. وبانتهاء هذا الأجل يجب إعادة الدفتر إلى السينودوس مرة أخرى[٩٤].

وفي الثاني والعشرين من ديسمبر عام ١٧٢٤، أشّر بطرس على تقرير لجنة الشئون الخارجية بتحويل كل طالبي التبرع من الشرق إلى إدارة السينودوس. على أن هذا المرسوم لم يتم توقيعه إلا في التاسع والعشرين من إبريل عام ١٧٢٥ من الإمبراطورة يكاترينا[٩٥]. وبعد مرور عشر سنوات وقّعت الإمبراطورة أنًا على مرسوم بشأن إدارة ما عرف باسم "الولايات الفلسطينية". في الواقع فإن الأمر كان يتعلق هنا بتخصيص مبلغ سنوي للبطاركة الشرقيين وللأديرة قيمته خمسة آلاف روبل. وقد سمح بدفع نفقات انتقال رسل هؤلاء من كييف إلى موسكو والعودة؛ فضلاً عن الإقامة لمدة ستة أسابيع في عاصمة روسيا. وكان كل بطريرك يتسلم مائة روبل، بينما يتلقى دير سيناء سبعين روبل. أما الأديرة الأخرى فكانت تتقاضى مبالغ أقل[٩٦]. وأحيانا ما كانت الأديرة تحصل على أموال خاصة بناء على طلبات محددة مقدمة من أعضاء السينودوس. على سبيل المثال، تبرعت

---

(٩٤) ن. ف. كابتيريف. طبيعة العلاقات الروسية ... ص ٢٧٤. كما أشرنا من قبل هذه النسخة الوحيدة محفوظة لسبب غير معلوم في أرشيف دير سيناء.

(٩٥) المصدر السابق. ص ٢٧٣.

(٩٦) المجموعة الكاملة للمراسيم والتعليمات بشأن الوقائع الخاصة بالعقيدة (الأرثوذكسية للإمبراطورية الروسية. الجزء التاسع، ١٧٣٥ – ١٧٣٧. سان بطرسبورج، ١٩٠٥. ص ٨١–٨٥.

الإمبراطورة أنّا يوانوفـنا في عام ١٧٣٤ بألف روبل من الفضة إلى ديـر سيناء لإصلاح مبانيه بعد تعرضها لحريق[٩٧].

كتب ن. ف. كابتيريف قائلاً؛ إنه عند إعطاء دير سانت كاترين شهادة امتياز تضعه تحت رعاية روسيا، فقد ألمح الحكام الروس إلى إمكانية إرسال اثنين من الرهبان من الأديرة الروسية إلى سيناء[٩٨]. على أن نص الـشهادة تجاهل طلب يوهانيكي رئيس الأساقفة إرسال قساوسة روس إلى الدير. فـي الواقع لا توجد أدلة على أن رهبانا من روسيا ولو نفرا قليلا، عاشوا في دير سيناء ولو لفترة قصيرة. وعلى أية حال، كان من الممكن في القرن التاسـع عشر على أقصى تقدير مقابلة بعض من الروس داخل الدير أو فرعـه فـي القاهرة، وهؤلاء ذهبوا إلى هناك بمبادرة شخصية منهم. وقد سبق أن ذكرنا أمر اثنين من الرهبان الروس الذين شاهدهم هناك كير برونيكوف في عـام ١٨٤٣. أما أ. أ. أومانيتس، فقد قابل في عام ١٨٤٣ الأب زوسيما الروسي وكنيته كريمينتشوج في دير جـيوفـاني في القاهرة، وقد عاش هـذا الأب هناك، على حد قول أومانيتس أربعين عاما[٩٩]. وفـي عـام ١٨٥٠ تبـادل بورفيري أوسبينسكي الحوار في دير جـيوفـاني مع صمويل رئيس قساوسة دير ترويتسا ـ سيرجييـفـا، وهو على ما يبدو كان معتكفًا في الدير منذ زمن بعيد، إذ يوجد بحنية المذبح الموجود في كنيسة التجلي ذاتهـا لوحـان مـن المرمر كتب عليهما باللغة اليونانية "قام صمويل رئيس الأساقفة من روسـيا بتلميع هذه الفسيفساء القديمة عند شجرة العليقة، وذلك في عام ١٨٣٧". وقد

---

(٩٧) الرحلة الأولى التي قام بها الأرشيمندريت بورفيري أوسبينسكي إلى دير سـيناء في عام ١٩٤٥. ص ١٤٨.

(٩٨) ن. ف. كابتيريف. علاقات بطاركة القدس ... ص ٢٦٩.

(٩٩) أ. أومانيتس. مصدر سابق. ص ٤.

قصَّ صمويل، صانع الأيقونات، على أوسبينسكي كيف قام بتلميع الفسيفساء القديمة، وكيف ثبّتها بمسامير صغيرة في المذبح الجانبي عند شجرة العليقة؛ فضلاً عن التي في المبنى الملحق بالكنيسة نفسها(١٠٠). قس واحد روسي هو الذي التقاه عالم الحيوان الشهير الفريد بريم.(*) أما الباقون فكانوا خمسة وعشرين قسًا يونانيًا(١٠١).

ومن اللافت للانتباه أن بريم أشار في كتابه إلى العلاقة الخاصة بين الآباء السيناويين والروس، فهو يكتب قائلاً: "لم يكونوا يسمحون بعرض قبر القديسة إلا للأغنياء وكبار الشخصيات من الروس أو اليونانيين. أما نحن فلم نتشرف برؤية الرفات"(١٠٢).

ومنذ بداية القرن التاسع عشر وحتى قيام ثورة ١٩١٧، ظلت كل نفقات كنيسة سيناء الأرثوذكسية تأتي في الأغلب من روسيا. ويرجع ذلك في المقام الأول إلى أنه وبعد انتهاء الحرب الروسية التركية في عام ١٨١٢، انضمت بيصاربيا(**) إلى روسيا، وفي بيصاربيا امتلك السيناويون عددًا من الأراضي، التي أُهديت من نبلاء مولدافيا وفالاخيا(***). وقد أكدت المادة السابعة من معاهدة بوخارست للسلام الموقعة عام ١٨١٢ على حق الأفراد في امتلاك الأراضي في بيصاربيا. وفي مارس ١٨١٧ سرى مفعول هذه المادة على ممتلكات الكنيسة أيضا(١٠٣).

---

(١٠٠) الرحلة الثانية للأرشيمندريت بورفيري أوسبينسكي إلى دير سيناء. ص ٤، ٢٦٢.
(*) ألفريد إدموند بريم (١٨٢٩-١٨٨٤): عالم حيوان ألماني. مؤلف كتاب "حياة الحيوان في ستة أجزاء. أسهم في تأسيس حديقتي هامبورج وبرلين". (المترجم).
(١٠١) ألفريد بريم. رحلة عبر شمال شرق أفريقيا. موسكو، ١٩٥٨. ص ٦٢٢.
(١٠٢) المصدر السابق. ص ٦٢١.
(**) بيصاربيا: الجزء الأكبر من أراضي مولدافيا. (المترجم).
(***) فالاخيا: إقليم في جنوب رومانيا يقع بين منطقة الكاربات ونهر الدون (المترجم).
(١٠٣) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية.

واستنادا إلى قائمة الأملاك الكنسية في الخارج في بيصاربيا عام ١٨٨٠، كانت كنيسة سيناء الأرثونكسية تمتلك ثلاث عشرة ضيعة في أقضية كل من كيشينوف وأورجييفا وياسكي وسوروكسي يبلغ مجموع مساحتها ١٥٠٤٩ ديسياتينا[*]، زرعت فيها المحاصيل والفاكهة والأعناب والتبغ[١٠٤].

ولمعرفة أهمية هذه الأملاك بالنسبة لتمويل كنيسة سيناء الأرثونكسية يمكن حساب بنود الفوائد الخاصة بميزانيتها عن عام ١٨٩٠. فالأملاك البيصاربية تدر عائدًا قدره ستون ألف فرنك من الإجمالي العام البالغ مائة وخمسة آلاف فرنك. كما أن هناك خمسة آلاف أخرى ترسلها فروع الكنيسة في كييف وتفليسي، وثلاثة آلاف تقدمها روسيا[١٠٥]. وهكذا كان الآباء السيناويون يحصلون على ثلثي عوائدهم من المنطقة الروسية. بعد عودته من زيارة سيناء في عام ١٩١٠، كتب المبعوث الروسي أ. أ. سميرنوف إلى وزارة خارجيته يقول: "إن هذا الحصن العتيق للأرثوذكسية باق على قيد الحياة بشكل أساسي بفضل الأموال التي ترسلها إليه الأراضي البيصارية. إن العلاقة المادية بوطننا تُعد هي السبب في استمرار كنيسة سيناء المستقلة في الحفاظ على أفضل علاقة مع روسيا، حيث يعد ذلك بلا شك أمرا بالغ الأهمية بل والحيوية"[١٠٦].

(*) ديسياتينا: المساحة في روسيا قبل الثورة وتساوى هكتار (المترجم).

(١٠٤) المصدر السابق. وثيقة ١٠٤، ص ١٣-١٤.

(١٠٥) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ١/٨٢٠، وثيقة ٥٧١، صحيفة ٦٨.

(١٠٦) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ١٤٢، قائمة ٤٩٧، وثيقة ٣١٠٨، صحيفة ٦٨.

وفي جورجيا امتلك السيناويون ضيعة في قضاء ميجفريكس جورييفسكي، وتبلغ مساحتها ٦٨٥ ديسياتينا وضيعة أخرى في تفليس بها كنيسة تسمى كنيسة سانت كاترين وتبلغ مساحتها ٤٠٠ ساجين(*)(١٠٧). وقد بني هذه الكنيسة في عام ١١٢٣ القيصر دافيد الثالث المجدد وتبرع بها لكنيسة سيناء. وقد اخترقت ودمرت عن آخرها إبان أحداث ثورة ١٩٠٥. وفي عام ١٩٠٨ طلب بورفيري الثاني رئيس أساقفة سيناء من روسيا تخصيص مائة وخمسين روبلاً لإعادة بناء الكنيسة والبيوت المؤجرة التابعة لفرعها في تفليس، ولكن طلبه قوبل بالرفض(١٠٨).

وفي نحو عام ١٧٣٨ أوصى اليوناني ستاماتيوس للمبعوث إلى كييف – يفجيني رئيس القساوسة السيناوي بقطعة أرض بالقرب من كنيسة سانت كاترين. وقد بدأ يفجيني في البناء، لكن الأموال لم تكفه مهمة إتمامه. وعندئذ توجه بطلب المساعدة من رافاييل متروبوليت كييف، الذي قام بدوره بتوجيه طلب إلى موسكو ليتلقي تبرعًا من القيصر لإتمام البناء. وفي عام ١٧٤٤، وبناء على طلب من نيكيفور رئيس أساقفة سيناء قامت الإمبراطورة يليزافيتا بتروفنا بتقوية الكنيسة القائمة خلف دير سيناء(١٠٩). وقد ورد في "دليل الأديرة والكنائس في كييف" في منتصف القرن التاسع عشر، أن "كاتدرائية يكاترين تخضع لإدارة دير جبل سيناء، وهو الذي يقوم أيضًا بتعيين الأرشيمندريت. وبالمناسبة فقد كانت الخدمة، وفقا لما ذكره الأخوان اليونانيان (لم يذكر اسميهما) تتم باللغة السلافية(١١٠).

(*) الساجين: متر و ١٣ سنتيمترا (المترجم).

(١٠٧) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ٣/٨٢٠، وثيقة ٢٤٦، صحيفة ١٠.

(١٠٨) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ١٤٩، قائمة ٥٠٢ ب، وثيقة ٣٤١٢، صحيفة ١-٢.

(١٠٩) الرحلة الأولى للأرشيمندريت بورفيري أوسبينسكي إلى دير سيناء. ص ١٥٢-١٥٣.

(١١٠) حاج من كييف، أو دليل السفر إلى أديرة وكنائس كييف. كييف، ١٨٤٩. ص ١٠٩.

وفي عام ١٧٨٧ انتقلت إدارة دير بترو- بافلوفسك (بطرس وبولص - المترجم) في كييف إلى كنيسة سيناء. على أنه احترق في عام ١٨١١. أما قطعة الأرض التي كان الدير مقامًا عليها، فقد انتقلت ملكيتها إلى مدرسة كييف الثانوية الدينية، وأما قيمتها التي بلغت ٥٦١٠ روبلات، فتم دفعها بأوراق مالية إلى دير يكاترين اليوناني(١١١).

وعلى مدى عقود طويلة ظلت ممتلكات الكنيسة السيناوية في بيصاربيا في حوزة المستأجرين، وبمرور الزمن وصلت حكومة روسيا إلى استنتاج مفاده، أن هذه الممتلكات تستخدم على نحو غير فاعل. ومن ثم قامت في التاسع من مارس ١٨٧٣ باتخاذ قرار بالاستيلاء على هذه الأملاك مقابل إيجار دائم، ونقلت إدارتها إلى وزارة الأملاك الحكومية، وفوضت وزارة الخارجية في تسليم إيراداتها للملاك. ونظرًا لأن الهدف من إهداء هذه الأملاك، في رأي المسئولين الروس، كان منحصرًا في تقديم المساعدة المالية لدير سانت كاترين؛ فضلاً عن الكنائس والمدارس والمؤسسات الخيرية وخاصة في بيصاربيا، فقد تم اتخاذ قرار بتقسيم إيرادات هذه الأملاك إلى خمسة أجزاء. خُمسَيْن منها تُخصص للدير، وخُمسَيْن آخرين للمجلس المحلي القروي، والباقي يذهب كمصروفات إدارية ونثرية(١١٢).

من الواضح أن الآباء السيناويين لم يرق لهم هذا القرار، على أنه لم يكن بإمكانهم الجدل بشأنه. وفي عام ١٨٨٣ فقط توجه كاليستراتُ رئيس الأساقفة السيناوي إلى الإمبراطور ألكسندر الثالث يطلب إعادة إدارة الأملاك

---

(١١١) الرحلة الأولى للأرشيمندريت بورفيري أوسبينسكي إلى دير سيناء. ص ١٥٣، ١٥٥.

(١١٢) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ١٥٩، قائمة ٤٦٢، وثيقة ٢٨١، صحيفة ٥-٨.

البيصاربية إلى الدير. وتعلل في ذلك بأن كل العقارات المؤجرة التابعة للدير قد احترقت أثناء اقتحام الإنجليز لمدينة الإسكندرية، ومن ثم فإن الدير في أمس الحاجة إلى أموال إضافية(١١٣).

لم تطرح مسألة إعادة الممتلكات للنظر، لكن أ. إ. نيليدوف، سفير روسيا لدى القسطنطينية، اقترح زيادة حصة إيرادات دير سيناء. وفي هذا الصدد كتب السفير إلى بطرسبورج قائلاً: "إن الأراضي والفروع التابعة للدير في مصر لا تكاد تدر عائدًا عليه، وأما زوّار دير سيناء من الحجاج فعددهم قليل للغاية وهم أناس فقراء يكلفون الدير، بدلاً من أن يقدموا له منفعة. وبالإضافة إلى انخفاض قيمة الروبل في بلادنا، فإنه وعلى مدى الاثني عشر، أو الأربعة عشر عامًا الأخيرة، انخفض الإيراد القادم من الأملاك البيصاربية نتيجة لذلك أيضًا، وفي نفس الوقت فإن احتياجات الدير، الذي لا ينتج ولا يتلقى من مصر حتى الخبز اللازم لحياة الرهبان، ظلت على حالها(١١٤). ونتيجة لذلك كله اتخذ مجلس الوزراء في الرابع من مايو ١٨٨٤ قرارًا بزيادة حصة الإيرادات المسددة من الأملاك البيصاربية من خُمسَيْن إلى ثلاثة أخماس(١١٥).

بعد مرور ثماني سنوات ازدادت حصة الدير إلى أربعة أخماس. وقد اتخذت الحكومة الروسية هذا القرار في الثامن والعشرين من عام ١٨٩٢، استجابة لطلب بورفيري كبير الأساقفة(١١٦). وكان قد علّل طلبه بأن زلزالاً

(١١٣) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ١٤٩، قائمة ٥٠٢ أ، وثيقة ٣٩٣٢، صحيفة ٢١-٢٣.
(١١٤) المصدر السابق. صحيفة ٢٦.
(١١٥) المصدر السابق. صحيفة ٥٢.
(١١٦) المصدر السابق.

شديدًا وأمطارًا غزيرة أصابا مبنى الدير بأضرار فادحة، وأن الدير بحاجة لأموال لإصلاحه على وجه السرعة[117].

واصلت روسيا في الثلث الأول من القرن التاسع عشر دفع مبلغ محدد سنويًا للبطريركات والأديرة الشرقية الأربعة، وذلك بناء على اتفاق "الولايات الفلسطينية" المُوقع عام ١٧٣٥. ووفقًا لقائمة عام ١٨٢٧، كان استحقاق "دير عذراء العليقة الملتهبة المقدسة بجبل سيناء" سبعين روبلا فضيًا، وهو نفس المبلغ الذي يتلقاه الدير منذ ما يزيد على مائة عام خلت، كما حصل البطاركة على المائة روبل ذاتها التي كانوا يحصلون عليها[118]. ولمّا كان الروبل قد فقد جزءًا محددًا من قيمته الشرائية طوال هذه الفترة، بينما بقي المبلغ المدفوع للبطريركات والأديرة الشرقية على حاله، فإنه يتأكد لدينا استنتاج عفوي بأن اهتمام روسيا بشركاء العقيدة قد أصابه الضعف.

إن وجود أملاك تابعة للكنيسة الأرثوذكسية السيناوية في بيصاربيا، وأوقاف تتبعها في كييف وتفليس اضطر الآباء السيناويين أن يزوروا روسيا بشكل دوري. أما زيارات الحجاج الروس إلى الدير، فدفعت بعضًا من هؤلاء الآباء إلى القيام بتعلم اللغة الروسية. وفي مذكراته يشير إيبوليت فيشينسكي، الذي قام بزيارة الدير في عام ١٧٠٨، إلى أن أفاناسي السيناوي رئيس الأساقفة "يكتب بالروسية" و"يقرأ قليلاً بلغتنا"[119].

---

(١١٧) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ١/٨٢٠، وثيقة ٥٧١، صحيفة ٧٤.
(١١٨) المصدر السابق. ملف ١٨٠، قائمة ١/٥١٧، وثيقة ٣٥٢٥. صحيفة ٣.
(١١٩) إيبوليت فيشينسكي. مصدر سابق. ص ٣٤، ١٢١.

أما قسطنطيوس، رئيس الأساقفة، الذي ترأس كنيسة سيناء في النصف الأول من القرن التاسع عشر، فكان يتحدث الروسية بطلاقة، إذ إنـــه أنهـــى الأكاديمية الدينية في كييـــف. وقد أرسله إلى هناك عمه، وكان أيضًا رئيسا لأساقفة دير سيناء. وقد خدم قسطنطيوس بعض الوقت في كييـــف، ووصل إلى رتبة الأرشيمندريت. وبعد وفاة عمه، اختاره الأخـــوة ليكـــون رئيـــسا للأساقفة السيناويين، ثم اختاره فسيلينسكي بعد ذلك ليصبح بطريركًا، ولكنـــه ظل محتفظا برتبته كرئيس للكنيسة الأرثوذكسية بناء على طلـــب الإخـــوة، وهي حادثة فريدة بكل المقاييس في تاريخ الأرثوذكسية.

وقبيل الحروب المتتالية ضد روســـيا قـــام الأتـــراك بالانتقـــام مـــن قسطنطيوس، بعد أن تطرق الشك إلى نفوسهم في أن يكـــون منحـــازًا إلـــى الروس، بأن أزاحوه عن منصبه باعتباره بطريركًا. لكنه ظل رئيسا للأساقفة السيناويين وواصل حياته في جزيرة أنتيجون (إحدى جزر الأمراء بـــالقرب من القسطنطينية)، أما الدير فقام على إدارته بواسطة نائبه في القاهرة (١٢٠).

كان قسطنطيوس يتبادل الرسائل مع المبعوث الروسي في القسطنطينية البارون ج.أ. ستروجانوف باللغة الروسية وبخط واضح جميل. وفي إحـــدى رسائله المؤرخة الثالث والعشرين من أكتوبر عام ١٨٢٠ يشكو قسطنطيوس إلى ستروجانوف قائلاً: "لم أقرأ صحفًا روسية منذ زمن بعيد، لعلك تقرضني بعضًا منها"(١٢١).

---

(١٢٠) أ. أومانيتس. مصدر سابق. الجزء ٢. ص ٦٥-٦٧.

(١٢١) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ١٨٠، قائمـــة ١/٥١٧، وثيقة ٣٥٢٠، صحيفة ١٥.

بعدما اندلع حريق في كنيسة سانت كاترين في تفليس في عام ١٩٠٥، عاد إلى سيناء الأرشيمندريت نيوفيت، رئيس الدير، وكان يتحدث الروسية بطلاقة، ومن ثم أصبح دليلاً للحجاج الروس وراعيًا لهم(١٢٢).

. في مطلع القرن العشرين دأبت روسيا على إرسال "قافلة إمداد" من القاهرة إلى سيناء. وللأسف لم نتمكن من الحصول على تفاصيل تخص هذه القافلة حتى الآن. على أننا تأكدنا بشكل حازم أن هذه القافلة قد أُلغيت تماما في عام ١٩١٧ ولم تقم لها قائمة بعد ذلك(١٢٣).

الروس – رواد البحث في سيناء

لم يكن الروس هم أكثر الزوار ترددًا على دير سيناء فحسب، وإنما أصبحوا أيضًا روادًا في دراسة الكنوز الثقافية والتاريخية للدير. ويعد الأرشيمندريت بورفيري أوسبينسكي (١٨٠٤ــــ ١٨٨٥) صاحب قصب السبق في هذا المجال بلا جدال. وكان أوسبينسكي قد زار سيناء مرتين، في عام ١٨٤٥ وفي عام ١٨٥٠، حيث أجرى بحثا كبيرًا. وعن أهمية هذا البحث تُحدثنا، على سبيل المثال، الحقيقة التالية. فالمزمور رقم ٨٦٢، الذي عثر عليه رجل الدين هناك والذي يرجع تاريخه إلى عام ٦٨٢ ميلادية، معروف في الأوساط العلمية باسم "مزمور أوسبينسكي"، وقد أهداه له الآباء السيناويون مع عدد من الوثائق الأخرى(١٢٤).

---

(١٢٢) المصدر السابق. ملف ١٤٢، قائمة ٤٩٧، وثيقة ٣١٠٨، صحيفة ٢.
(١٢٣) The Monastery of Saint Catherine. P. 113.
(١٢٤) Ibid .. P. 97.

كانت الكتب والمخطوطات الخاصة بالخدمة الكنسية الغابرة على رأس اهتمامات الأرشيمندريت بورفيري. وقد اكتشف ودرس في عام ١٨٤٥ الجزء الرئيسي منها، والذي أصبح يعرف فيما بعد بمخطوطة سيناء الشهيرة، وهي المخطوطة الكاملة للكتاب المقدس من القرن الرابع الميلادي، وهي مكتوبة على رَقٍ يتكون أساسًا من اثنين وتسعين دفترًا غير مُجلَّد، من أربع إلى ثماني ملازم. وقد فقدت الدفاتر الستة والثلاثون الأولى، "أو، كما سمعت، (كما لو أنها) – يقول أوسبينسكي ـ دُفنت في أحد حوائط الدير"[١٢٥].

وقد تأكدت هذه المعلومات بعد ما يزيد على مائة عام. وفي عام ١٩٧٥، وكان المبنى قد أعيد بناؤه بعد الحريق الذي شب فيه في عام ١٩٧١ (في ديسمبر ٢٠٠١ افتتح في هذا المبنى متحف الدير) عثر الرهبان على غرفة سرية تحتوي على ألف وخمسمائة مخطوطة وكتب قديمة مطبوعة. وقد حملت هذه اللقية اسم "المجموعة الجديدة". وبفحصها وجد الرهبان اثنتي عشرة ملزمة من الرَق وصفحات ناقصة من مخطوطة سيناء، وكذلك بعض مقاطع منها[١٢٦].

وقد أحاط الرهبان أوسبينسكي علمًا بأن مخطوطة سيناء قد تم العثور عليها في الدير، ومعها مخطوطات أخرى من الإسكندرية عقب الفتح العربي لمصر في عام ٦٤١ ميلادية. وقد قام عالم اللاهوت الروسي بفحصها وتوصل إلى استنتاج مفاده أن نص المخطوطة "مريب وهرطقي"[١٢٧].

---

(١٢٥) رأى الأرشيمندريت بورفيري أوسبينسكي بشأن مخطوطة سيناء، التي تضم العهد القديم.

(١٢٦) فلاديمير بيلياكوف. أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار. الروس في مصر. موسكو، ٢٠٠٠. ص ١٧.

(١٢٧) رأي حول مخطوطة سيناء ... ص ٢٨.

رأيٌ آخر حول مخطوطة سيناء تكوّن لدى عالم اللاهوت والباليوجرافيا (علم الكتابة القديمة) الألماني قنسطنطين فون تيشيندورف. فهو يعتبر أن هذه المخطوطة العتيقة ذات أهمية بالغة. لقد اكتشف تشيندورف في عام ١٨٤٤، قبل عام من وصول أوسبينسكي إلى الدير، ثلاثًا وأربعين صحيفة من مخطوطة سيناء وحملها إلى لايبتزج. وفي عام ١٨٥٩ وبالتعاون مع الدبلوماسيين الروس حصل من الآباء السيناويين على تصريح يتيح له أخذ ما تبقى من الصحائف بصورة مؤقتة، وهي الصحائف التي كان أوسبينسكي قد عثر عليها، وذلك حتى يتمكن من دراستها ونشرها[١٢٨]. وبعد مرور ثلاث سنوات نشرت مخطوطة سيناء في بطرسبورج في أربعة أجزاء[١٢٩].
على أنه وبدلاً من أن يُعيد تشيندورف مخطوطة سيناء إلى الدير

قدَّمها إلى الإمبراطور الكسندر الثاني ومعها نسخة طبق الأصل منها مطبوعة.

استاء السيناويون من هذه الخطوة، ولكنهم لم يرغبوا في إفساد علاقتهم مع روسيا التي يتبعونها ماديًا بسبب المخطوطة. وبعد مباحثات طويلة وقَّع كاليسترات السيناويْ كبير الأساقفة في الثامن عشر من سبتمبر عام ١٨٦٩ محضرًا يفيد إهداء المخطوطة إلى روسيا[١٣٠]. ولهذا قام الإمبراطور الكسندر بالتبرع للدير بمبلغ تسعة آلاف روبل[١٣١]. وقد اتضح أن هذه

---

(١٢٨) حول تاريخ حصول روسيا على مخطوطة سيناء انظر:
Volkoff, Oleg V.A La recherché de manuscrits en Egypt. Le Caire. 1970. P. 197-219.
(١٢٩) سان بطرسبورج .1962. Bibliorum Coolex Sinaiticus. Tr. 1-4
(١٣٠) Volkoff, Oleg V. Op. cit.. P. 218 .
(١٣١) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧ ١/٨٢٠، وثيقة ٥٦٧، صحيفة ١٣.

الأموال استخدمت تحديدًا في بناء برج مزخرف للأجراس في عــام ١٨٧١ ألحِق بكنيسة التجلي، ولعله لهذا السبب أطلق الباحــث الأمريكــي جــورج فورسيت على هذا البرج اسم "هدية روسيا"(١٣٢).

وتوجد مخطوطة سيناء في الوقت الحالي فــي المتحــف البريطــاني في لندن. ففي عام ١٩٣٣ باعها الاتحاد السوفــيتي للمتحف مقابل مائة ألف جنيه إسترليني(١٣٣).

لا تزال قصة مخطوطة سيناء تلقي بظلالها الكئيبة حتى اليــوم علــى علاقة الآباء السيناويين بروسيا. وقد تحدث دميان رئيس الأساقفة الــسيناوي لمؤلف هذا الكتاب في أكثر من مناسبة أن روسيا وعدت بإعادة مخطوطــة سيناء إلى الدير ولكنها لم تفعل.

وفي الوقت الحالي يعرض متحف الدير خطاب تــشيندورف المــؤرخ ٢٨/٦ سبتمبر عام ١٨٥٩، الذي يستند فيه إلى خطاب التوصية الذي أرسله مبعوث روسيا لدى القسطنطينية، أ. ب. لوبانوف ــ روستوفــسكي، إلــى رئيس أساقفة سيناء في العاشر من سبتمبر من نفس العام (رقم ٥١٠) يعــده فيه أنه سوف يعيد المخطوطة بعد نشرها. ولا يوجد في المتحف ما يشير إلى محضر إهداء المخطوطة إلى روسيا.

في مطلع القرن العشرين كتب ف. ن. بينيشيــفــيتش، وهو أحد الذين أسهموا إسهامًا كبيرًا في دراسة سيناء، كتب يقول: "في النصف الثاني مــن القرن التاسع عشر ظهرت فكرة أن مكتبة دير ســيناء جــديرة بالاهتمــام،

---

(١٣٢) Forsyth, George. The Monastery of St. Catherine at Mount Sinai: the Church and Fortess of Justinian. In Galey, John. Op. cit. P. 56.

(١٣٣) بابايوانو، يــفــانجلوس. مصدر سابق. ص ٣٣.

لا بوصفها مصدرًا لإثراء دور الكتب الأوروبية بالمخطوطات فحسب، وإنما لضرورة الحفاظ عليها أيضًا من أن تقع فريسة للسرقة في المستقبل. ويعود شرف تحقيق هذه الاستنتاجات المباشرة على نحو عملي من هذه الفكرة إلى العلماء الروس بشكل أساسي؛ وعلاوة على ذلك فقد تم التعبير عن ذات الفكرة قبل ذلك بكثير على لسان نفس هذا العالِم الروسي، الذي جلب بنفسه الكثير بشكل خاص من سيناء"(١٣٤).

إن من يعنيه ف. ن. بينيفيتش هنا هو؛ بورفيري أوسبينسكي تحديدًا. ففي عام ١٨٥٨ اقترح الأرشيمندريت ما يلي: "١) عدم بيع أو إعارة أي شخص مخطوطات ووضع قائمة تفصيلية بها؛ ٢) إرسال ثلاثة علماء روس إلى الشرق لترتيب كل المخطوطات في نظام معلوم؛ ٣) استعارة أهم المخطوطات بتصريح ملائم لنسخها وإعادتها حتمًا مرة أخرى"(١٣٥).

ظهر اقتراح أوسبينسكي بعد عدة سنوات قام خلالها بالعديد من الرحلات إلى سيناء. آنذاك، أشار ف. ن. بينيشيفيتش إلى ضرورة الأخذ في الاعتبار العديد من الظروف التي أحاطت بعمل تيشيندورف وبورفيري، ليس بغرض التبرير وإنما لتوضيح ما أحاط بهما من إمكانات: صعوبة الطريق إلى سيناء في تلك الحقبة البعيدة، وكذلك غياب تلك الوسائل المساعدة، مثل التصوير، والولع بجمع المخطوطات وما يرجى منها من مكاسب وهلم جرا. لكن الدافع الأهم كان يتلخص في أن الإخوة (السيناويين) أنفسهم كانوا لا يتعاملون مع كتبهم بالقدر اللازم من العناية والاهتمام: لم يكن

---

(١٣٤) وصف للمخطوطات اليونانية في دير سانت كاترين. الجزء الأول. سان بطرسبورج، ١٩١١. ص ١٦،١٥.

(١٣٥) المصدر السابق. ص ١٦.

هناك نظام للجرد أو ترقيم المخطوطات؛ فضلاً عن أوراق الرَق كانت تستخدم في إطفاء الشموع. وهو ما شاهده الأرشيمندريت أنطونيوس، وقد قص عليّ الأب بوليكارب سكيفوفيلاكس في عام ١٩٠٨، أن الكتاب المقدس السيناوي ظل طويلا في قلاية سكيفوفيلاكس على أحد الأرفف أعلى الباب، حيث كان الضيوف يضعون فوقه أقداح القهوة الفارغة! وقد بنوا هناك فرناً للخبز واستخدموا الكتب القديمة كوقود، وكان من بينها طبعات نادرة!"[١٣٦].

لم يكتف بورفيري أوسبينسكي بالاهتمام بالمخطوطات فحسب، وإنما أحضر من سيناء ستا وعشرين أيقونة، بعضها من الحجم الصغير تعود للقرن السادس الميلادي، مرسومة بألوان شمعية مُثبّتة بالحرارة encaustic[١٣٧]، وجميعها ينتمي إلى عدد قليل من الأيقونات التي نجت إبان فترة الهجوم على التماثيل والرموز الدينية (٧٢٦ - ٨٤٣ ميلادية) بفضل وجود مصر آنذاك خارج حكم بيزنطة، ووجودها تحت الحكم الإسلامي. ويحتفظ متحف بوجدان وباربارا خونينكو للفنون في كييف بهذه الأيقونات. وقد تم في مطلع عام ٢٠٠٢ عرض ثلاث أيقونات منها هي: "سيرجي وباخوس"، "العذراء والطفل" و"يوحنا المعمدان" في متحف بوشكين للفنون الجميلة في موسكو[١٣٨].

---

(١٣٦) المصدر السابق.

(١٣٧) ن. إ. بتروف. مجموعات الأيقونات ونماذج من الصور الملونة في الكتب الشرقية القديمة التي أوصى بها الراهب المبجل بورفيري (أوسبينسكي) للجمعية الأثارية الكنسية التابعة لأكاديمية اللاهوت في كييف. كييف، ١٨٨٦. ص ٦-٩.

(١٣٨) لمزيد من التفاصيل حول هذه الأيقونات انظر: د. ف. أينالوف. أيقونات سيناء المرسومة بالشمع. "الدليل البيزنطي السنوي"، الجزء التاسع، ١٩٠٢. ص ٣٤٣ - ٣٧٧.

جاءت أول محاولة لفهرسة المخطوطات اليونانية المحفوظة في مكتبة الدير في عام ١٨٧٠، على يد الأرشيمندريت أنطونين (كابوستين). وقد قام بجرد ١٣١٠ مخطوطة وهو ما يعادل تقريبا نصف ما كانت تمتلكه المكتبة في ذلك الوقت. وقد ترك كابوستين نسخة من الكاتالوج لدى الدير، وأما النسخة الثانية فقد أهداها للجمعية الفلسطينية الأرثوذكسية الإمبراطورية(١٣٩).

وقد سار ف. ن. بينيشيفيتش على الطريق الذي بدأه كابوستين. فقد جاء إلى سيناء ثلاث مرات في الأعوام ١٩٠٧ و١٩٠٨ و١٩١١ وقد أتم بالفعل فهرسة المخطوطات اليونانية. وقد قام ف. ن. بينيشيفيتش أيضًا بأول جرد آثاري للدير. وبعد أن انتهى من هذا الجهد الخارق، ألّف ونشر دليلاً جامعًا تحت عنوان "الشخصيات التي جاءت إلى سيناء، وأبحاثًا عن سيناء"(١٤٠).

وقد اصطحب ن. ب. كونداكوف، المتخصص في تاريخ الفن في رحلته إلى دير سانت كاترين في عام ١٨٨١، مُصورًا. وكان حصيلة هذه الرحلة هو "ألبوم سيناء" الذي يحوى مائة صورة فوتوغرافية، تمثل ثلثها مناظر الدير، والباقي يمثل صورًا لمنمنمات من المخطوطات القديمة. وقد حصل كتاب كونداكوف في عام ١٨٨٣ على جائزة لومونوسوف التي تمنحها أكاديمية العلوم كما نشر كونداكوف أيضا ثماني لوحات ملونة، منفذة بالأحرف الأولى لثلاث مخطوطات قديمة من مكتبة دير سيناء. وبهذه الطريقة نفسها تم توسيع التصور عن الزخارف الشرقية(١٤١).

---

(١٣٩) فهرس المخطوطات اليونانية المحفوظة في دير سانت كاترين. الجزء الأول، ص ١٧.

(١٤٠) آثار سيناء وكتبها القديمة إشراف ف. ن. بينيشيفيتش. الإصدار الأول. سان بطرسبورج، ١٩١٢. الإصدار الثاني. لينجراد، ١٩٢٥.

(١٤١) ي. ب. كونداكوف. الأحرف الأولى حيوانية الشكل للمخطوطات اليونانية والسلافية القديمة من القرنين العاشر والحادي عشر الموجودة في مكتبة دير سيناء. ١٩٠٣. حول أعمال الباحثين الروس في مكتبة الدير انظر أيضا: الأرشيمندريت أوغسطين (نيكيتين). الحجيج الروس عند المقدسات المسيحية في مصر. سان بطرسبورج – موسكو، ٢٠٠٣. فصل "سيناء وروسيا. عرض للعلاقات الأدبية الكنسية". ص ١٩٦-٢٢٤.

لقد أولى الباحثون الروس اهتمامهم لمجموعـات الأيقونـات الثريـة الأولى، المحفوظة في الدير. على أنه إذا كان بورفيري أوسبينسكي قد جلب معه إلى روسيا جـزءًا مـن أكثـر الأيقونـات قيمـة، فـإن الأكـاديمي أ. أ. ديمتريـيـفـسكي، الأستاذ بأكاديمية اللاهوت في كييـف قام في عـام ١٨٨٨ بفهرسة ٥١١ أيقونة كانت موجودة في الكنيسة (البيزنطية الـشرقية) والمصليات المتاخمة لها، أي ما يعادل تقريبًا ثلث المجموعة التي كان الدير يقتنيها آنذاك[١٤٢].

لم يكن باستطاعة الباحثين الروس القيام بمثل هذا العمل الدقيق الطويل دون مساعدة فاعلة من جانب الآباء السيناويين. ويمكن أن نعزي هذا الـدعم إلى حد ما إلى العلاقات المتميزة بين دير سيناء وروسيا وإلى الفهم المتنامي للقيمة النفعية للمخطوطات والأيقونات والأدوات الكنسية؛ فضلاً عن قيمتهـا العلمية. لقد قوبل الدعم الذي قدمه الآباء السيناويون بتقدير رفيع في روسيا. وفي السادس عشر من ديسمبر عام ١٩٠٩ مُنح بورفيري الثاني، كبير أساقفة سيناء بمرسوم عال وسام القديسة أنا من الطبقة الأولى "لتعاونه في البحـوث العلمية التي أوفد من أجلها إلى شـبه جزيـرة سـيناء البروفيـسور ف. ن بينيشيـفـيتش من أكاديمية اللاهوت في سان بطرسبورج"[١٤٣]. جدير بالذكر أن الآباء السيناويين مُنحوا أكثر من مرة أوسمة إمبراطورية نظرًا لما أبدوه من تعاطف تجاه المواطنين الروس. على سبيل المثال، فقد مُنح بـورفيرى الأول رئيس الأساقفة، وكذلك خليفته، مُنح في عـام ١٨٩١ أيـضًا وسـام القديسة أنا من الطبقة الأولى[١٤٤]. أما في عام ١٩١٠ فقد مُنح الأرشيمندريت

---

(١٤٢) أ. ديمتريـيـفـسكى. رحلة إلى الشرق ونتائجه العلمية. كييـف، ١٨٩٠. ص ٧٦.

(١٤٣) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمـة ١/٨٢٠، وثيقة ٥٧٦، صحيفة ١٦.

(١٤٤) المصدر السابق. وثيقة ٥٧١، صحيفة ٥٦.

نيو فيت، والذي كان مسئولاً عن استقبال الحجاج الروس في دير سيناء، وسام القديسة أنا من الطبقة الثانية(١٤٥).

لقد قُدّرت مآثر العلماء الروس في دراسة الكنوز التاريخية والثقافية في سيناء حق التقدير على نطاق واسع. ففي البحث الجماعي التأسيسي، الذي صدر في أثينا في عام ١٩٩٠ جرت الإشارة إلى إسهامات الأرشيمندريت بورفيري (أوسبينسكي)، والأرشيمندريت أنطونين (كابوستين) وفلاديمير بينشيفيتش في دراسة وفهرسة مكتبة دير سيناء(١٤٦).

وبعد اندلاع ثورة ١٩١٧ انقطعت علاقات روسيا بدير سيناء، سواء الكنسية أو العلمية، كما انقطعت زيارة الحجيج. ويعود السبب الرئيسي في ذلك إلى الأوضاع داخل روسيا ذاتها. على أنه كان هناك سبب آخر أيضا. فالإنجليز، الذين كانوا يديرون شئون مصر آنذاك، راحوا يضعون كل العراقيل في طريق نمو العلاقات بين مصر وبلادنا، خوفًا من انتشار الأفكار الشيوعية. ونتيجة لهذه السياسة فإن العلاقات الدبلوماسية بين مصر وروسيا لم تتأسس إلا في عام ١٩٤٣.

وفي العقد الأخير بدأت تقاليد الحج الروسي إلى سيناء في الازدهار. أخذت أعداد زوار دير سانت كاترين، ليس فقط من الحجاج، وإنما من السائحين العاديين في النمو تدريجيا. وقد قام مؤلف هذه السطور بترجمة دليل موجز للدير لهؤلاء السائحين بناء على طلب من دميان رئيس الأساقفة(١٤٧). كما ظهرت للمرة الأولى مراجع حديثة تتناول بالشرح الأماكن

(١٤٥) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ١٤٢، قائمة ٤٩٧، وثيقة ٣١٠٨، صحيفة ٥.

(١٤٦) Manafis K.A. cit. P. 354.

(١٤٧) بابا يوانو، يفاجيلوس. مصدر سابق.

المقدسة في سيناء والكنوز الفنية التي يمتلكها دير سانت كاترين[١٤٨]. كما عادت العلاقات الكنسية إلى سابق عهدها. على أن العلاقات العلمية المنظمة مع الدير لا تزال تتلمّس خطواتها الأولى من جديد.

وعلى مدى قرن تقريبا من الزمان، لم يشارك فيه العلماء الروس ببحوثهم في مجال العمارة وثروات الدير التاريخية والثقافية، قطع العلماء من الدول الغربية بونًا واسعًا من التقدم في هذا المجال[١٤٩]. على أنهم لم يقتربوا إلا قليلاً من هذا الجانب، الذي يمثل أهمية كبرى بالنسبة لنا، وهو دراسة الأدلة المادية على العلاقات الطويلة الممتدة عبر القرون بين دير سيناء وروسيا. وفي الوقت نفسه فإن بعض الباحثين الغربيين قد تناولها بالبحث. يثير الباحث كورت فايتسمان إلى أنه "بعد أن أخذت روسيا على عاتقها دور الراعي الأساسي للأرثوذكسية، فإنها راحت تمد الأديرة اليونانية في جبل آثوس والقدس بكميات كبيرة من اللوازم الكنسية والمخطوطات والأيقونات، وقد تلقت سيناء، مثلها مثل الأديرة المذكورة، الكثير من الهدايا الثمينة"[١٥٠].

---

(١٤٨) ألفييسفا، فاليريا. الحج إلى سيناء. نوسكو، ١٩٩٨؛ أ. م. ليروف. الأيقونات البيزنطية في سيناء. موسكو – أثينا، ١٩٩٩؛ الأرشيمندريت أوغسطين (نيكيتين). الحجاج الروس عند المقدسات المسيحية في مصر. سان بطرسبورج – موسكو، ٢٠٠٣.

(١٤٩) انظر، على سبيل المثال، الدراسة التي كتبها الأستاذ الأمريكي كورت فايتسمان "Studies in the Arts at Sinai" (Princeton, 1982). ويضم كتاب جون جالي Sinai and the Monastery of St. Catheine" (Cairo, 1985 هذه المقالة ومقالة الأستاذ جورج فوريست أيضا، انظر أيضا البحث الجماعي "Sinai. Treasures of the Monastery of Saint Catherine" (Athens, 1990) بإشراف ق. أ. مانافيس وصندوق دير سانت كاترين.

(١٥٠) Weitzmann. Kurt. Op. cit. P. 153.

"في كل خطوة أخطوها، أجد أمامي أثرًا من آثار وطني الغالي، روسيا المقدسة"، هذا ما كتبته في ديسمبر عام ١٩٥٠، المهاجرة الروسية الكسندرا جافريلوفا في دفتر زيارات دير سانت كاترين. أما زوجها الكسندر جافريلوف فكتب في مذكراته في سبتمبر عام ١٩٥١ يقول: "روسيا المقدسة هي المكان الذي لا يُنسَى، وفي كل خطوة أجد أثرًا من آثارها"[١٥١]. عاش الزوجان في المهجر ثلاثة عقود، وقد عاني كلاهما من لوعة الحنين إلى الوطن الذي تركاه. ولهذا شدت أبصارهما على وجه الخصوص الأيقونات والمتعلقات الكنسية ذات الأصول الروسية الموجودة في الدير نفسه وفي المصلّيات المحيطة به.

وللأسف الشديد فإن بعضًا مما رآه الزوجان منذ ما يزيد على نصف قرن مضى لم يعد موجودًا الآن. ففي عام ١٩٧١ شبَّ حريق في المبنى الذي تقع فيه غرفة المقدسات بما تحويه من أيقونات وأدوات للاستخدام اليومي. وقد أتت عليها النيران، وكلها من المشغولات الروسية ويعود تاريخها إلى أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

أما المقتنيات الأقدم، ومن ثم الأكثر قيمة فهي موجودة في الكنيسة الشرقية (البازيليكا) وفي المصليَّات الملحقة بها.

ويميز المتخصصون الأجانب في الفن، الذين عكفوا على دراسة الكنوز الفنية للدير، عددًا من المقتنيات الكنسية الروسية والأيقونات.

وفي هذا الصدد ينبغي علينا أن نشير في المقام الأول إلى ما ورد إلينا بشأن التاج الذي أرسله في عام ١٦٤٢ إلى الدير القيصر ميخائيل فيودوروفيتش، وهو

---

(١٥١) أرشيف دير سيناء. دفتر زوار الدير من ١٩٣٤ إلى ١٩٥٣.

معروض في الوقت الحالي في متحف الدير (رقم ٣٠ – ١٨). وبلغ ارتفاع التـاج ٥ر٢٠ سم، وهو مصنوع من الفضة المذهبة. وعلى جوانبه ثمانية رقائق مرسوم عليها بالحفر: مريم العذراء، يوحنا الرائـي، القـديس نيكـولاس المحبـوب(*)، الحواريان بطرس وبولص. والتاج مطعم بلؤلؤة وأحجار كريمة ويعلـوه صـليب صغير مشغول بخرز من اللؤلؤ الدقيق(١٥٢).

وإلى جوار التاج يعرض متحف الدير مطويـة مـن ثـلاث درفـات (رقم ١٧–٣٠) وهي مصنوعة من الفضة المذهبة ويعود تاريخها إلى الربع الثاني من القرن السابع عشر، ويبلغ ارتفاعها ١٣ سم. على الدرفة الوسطى نقش بارز على حجر كريم Cameo يصل ارتفاعه إلى ٥ر١٠ سم ويـصور القديسة كاترين. والدرفة مزينة بالذهب والميناء واللؤلـؤ. وعلـى الدرفـة المعدنية اليسرى من هذه الثلاثية نقش بالحفر يصور الملاك ميخائيل، وعلى الدرفة اليمنى الملاك جبريل(١٥٣).

وفي الدراسة المشتركة التي أشرف عليها ق. أ. مانافيس تعرّض أيضا نسخة من رداء كهنوتي أبيض من القرن الثامن عشر مصنوع فـي روسـيا يبلغ طوله ١٠٥ سم وعرضه ٦٣ سم. وفي وسط الرداء رسم لدير سـانت كاترين وفوقه مريم العذراء عند شجرة العليقة الملتهبة. وعلى يسار الـدير النبي موسى، وعلى اليمين القديسة كاترين(١٥٤).

(*) نيكولاس المحبوب المعروف ببابا نويل. (المترجم).

(١٥٢) Monafis K. A. Op. cit. P. 276, 300.

(١٥٣) المرجع السابق. شاهد المؤلف التاج والمطوية الثلاثية إبان البعثة العلمية التي قام بها إلى سيناء في مطلع عام ٢٠٠٣.

(١٥٤) المرجع السابق ص ٢٤٣.

وبالإضافة إلى معروضات المتحف والرداء الكهنوتي، التي وصفناها سابقًا، هناك مقتنيات أخرى مادية ذات أصول روسية من الأيقونات والمستلزمات الكنسية والأردية الكهنوتية والمخطوطات والكتب القديمة. بعضها رآها المؤلف بنفسه إبان رحلاته العديدة إلى الدير بدءا من عام ١٩٨٨؛ فضلاً عن الجولات التي قام بها داخله تحت إشراف رئيس الأساقفة، الأب دميان السيناوي، والأخرى تعرف عليها في المراجع العلمية.

ومن الأمور ذات الأهمية القصوى والتي ينبغي أن نذكرها هنا، هو الحوض المعدني، الذي صنع من أجل الحفاظ على رفات القديسة كاترين. وهو مُزيَّن بصورة نصفية من الميناء على سطحه للقديسة، وبزخارف أخرى من الأحجار الكريمة. ويؤكد أ.م. ليدوف أن هذا العمل هو من إسهام الإمبراطورة يكاترينا العظمى. على أن الحوض في الواقع أُرسل في عام ١٨٦٠، وهو ما يؤكده التاريخ المسجل عليه(١٥٥). وفي رأي آباء الدير أن الذي قام بإهداء الحوض هي أميرة روسية من العائلة القيصرية لا يزال اسمها مجهولاً حتى اليوم.

ويشير جريجوريفيتش – بارسكي أيضًا، وكان قد زار سيناء في عام ١٩٢٨، إلى أن "العديد من الأيقونات، الكبيرة منها والصغيرة، هي لمختلف الرسامين من فينيسيا واليونان، وأن بعضها من إبداع أساتذة هذا الفن من الروس(١٥٦). وقد تمكن مؤلف هذا الكتاب في يناير ١٩٩٢ من التأكد من صحة الرأي السابق لهذا الحاج، عندما عرض عليه دميان رئيس الأساقفة أيقونتيّ

---

(١٥٥) أ. م. ليدوف. مصدر سابق. ص ١٥؛ بابا يوانو، يفانجيلوس. مصدر سابق. ص ٤٩، ٩٥.

(١٥٦) جريجوريفيتش – بارسكي، فاسيلي. مصدر سابق. ص ٢٧٢.

"ميلاد العذراء المقدسة" من القرن السابع عشر، و"البشارة" من القرن الثامن عشر في مصلّى المُعذبين السيناويين (ويقع على يمين مذبح كنيسة التجلي) — "عذراء إيـفيريا" و"الرب العظيم" والأخيرة عليها تاريخ رسمها ـ ٢١ ديسمبر ١٧٥٤. وقد عرض الأب سيليـفـان، أمين المكتبة آنذاك، على المؤلف ثلاث أيقونات روسية محفوظة في مختلف مصلّيات الدير وهي: "الصعود" من القرن السادس عشر، واثنتان، من الواضح أنهما ترجعان لفترة زمنية أبعد لا يُعرف تاريخهما تحديدًا: "القديس نيكولاس" و"العذراء مريم"[١٥٧].

يرى جون جاليّ أن أيقونة "القديس نيكولاس" (٥ر١٨ x ١ر١٤ سم) تعود إلى القرن السادس عشر. وهو يُرجع أيضا أيقونتين روسيتين أخريين، من روائع مجموعة الدير ـ "الأب سيرجي أمام مريم العذراء ومعه بطرس ويوحنا" إلى القرن السابع عشر (٣٠ x ٣ر٢٤ سم) و"القديس الكسي" إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر (٣١ x ٣ر٢٧ سم)[١٥٨].

وقد ورد في عهد الأمان، الذي أصدره القياصرة يوحنا الكسييفيتش وبطرس الكسييفيتش إلى الأرشيمندريت كيرلس، أنه قد أرسل بصحبته إلى الدير عشرين أيقونة في أُطرٍ من الفضة و"الإنجيل المقدس مُغلّف بالفضة"[١٥٩]. على أنه من غير المعلوم ماهية هذه الأيقونات وهل لا تزال موجودة.

وقد لاحظ كير برونيكوف، الذي زار الدير عام ١٩٢١، وجود أيقونة لمريم العذراء الكازانية موجودة أعلى الأبواب القيصرية لكنيسة التجلي "في إطار وإكليل مذهبين ورداء كهنوتي مزين ببيض من اللؤلؤ". وبعد أن عاد

---

(١٥٧) فلاديمير بيلياكوف. أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار. ص ١٥- ١٨.

(١٥٨) Galey. John. Op. cit. Icons No. No. 76, 85 & 91.

(١٥٩) أرشيف دير سيناء. جرد رقم ٤ – ٩١. للاطلاع على النص الكامل للعهد انظر: ف. ف. بيلياكوف، ن. ج جولوفنينا. مرجع سابق.

إلى الوطن، عرف أن الراهبة باولا من دير الكسييـفـسكي هي التي أرسلت هذه الأيقونة(١٦٠).

إبان رحلته الثانية إلى سيناء في عـام ١٨٥٠ شـاهد الأرشـيمندريت بورفيري أوسبينسكي في المذبح الرئيسي لكنيسة التجلي أيقونـات نـصفية متوسطة للمسيح المُخلص، ولمريم العذراء ويوحنا الرائي. وقد رُسمت هـذه الأيقونات في موسكو وحملها إلى سيناء، كما يتضح من الكتابـة الموجـودة عليها، الأرشيمندريت أفـيميليخ في العام ١٧٥٠(١٦١).

في عام ١٩٣٢ وصل إلى الدير المهاجر الروسـي وأسـتاذ التـاريخ جريجوري إيـفـانوفـيتش لوكيانوف (١٨٨٥ ــ ١٩٤٥)، وقد عثر فـي مصلى شجرة العليقة الملتهبة على ثلاث أيقونات مطوية، هدية من الكـسي ميخايلوفـيتش. ويرى لوكيانوف أنها من صنع رسـام الأيقونـات الـشهير ياكوف سلطانوف(١٦٢). وربما تكون هي الثلاثية ذاتها المعروضة حاليًا فـي متحف الدير.

يتحدث أ. ديمتريـيـفـسكي في كتابه عن عدد من الأيقونات الروسية. مثل أيقونة "تجلي الرب" وهي مرسومة في موسكو ما بين القرنين الخـامس عشر والسادس عشر، وقد أرسلها إلى الدير في عام ١٥٩٤ أرسيني، رئيس أساقفة بلاسينسكي؛ وأيقونة "البشارة" من أعمال رسام الأيقونات من موسكو ماكاري أوستاتكوف، وقد أحضرت إلى الدير في عام ١٦١٠ (لعلهـا نفـس الأيقونة التي تحدثنا عنها سابقًا الموجودة في مصلى العليقة الملتهبة، والتي لم يتعرف رئيس الأساقفة دميان على تاريخها الدقيق)؛ ثم أيقونة "ميلاد المسيح"

---

(١٦٠) برونيكوف، كير. مصدر سابق. ص ١١٨، ١١٩.
(١٦١) الرحلة الثانية للأرشيمندريت بورفيري أوسبينسكي إلى دير سيناء. ص ٢٥٧ ، ٢٥٨.
(١٦٢) Volkoff. Oleg V. Voyageurs Russen en Egypte. P. 319.

وتعود إلى القرن السابع عشر رسمها أو أهداها سيمون بروزانوف، وهي مطوية رسمت عليها القاعة المضلعة في الكرملين والميدان الأحمر على ظهرها، وهي من أعمال القرن السابع عشر، وأيقونة كل القديسين مرسومة في جنوب روسيا وأرسلها من كييف في عام ١٧٧٨ جريجوري، رئيس القساوسة ورئيس دير سانت كاترين التابع لدير سيناء، وتعود إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر؛ وأخيرًا أيقونة بيلوزيرسكي، من رسوم راسكول، وتعود إلى القرن الثامن عشر[١٦٣].

وفي كتابها تشير الكسندرا جافريلوفا، التي جاءت إلى سيناء في عامي ١٩٥٠ و١٩٥١، إلى وجود العديد من الأيقونات الروسية بها. وقد شاهدت بنفسها هذه الأيقونات في كنيسة التجلي وفي المصلّيات الملحقة بها، وفي مصلّيات يوحنا اللاهوتي والقديس فيودوروف والقديس جالاكتيون والقديس إيبيستيمي وفي مضيفة رئيس الأساقفة والمصليات الموجودة فوق جبل موسى وعلى قمة جبل سانت كاترين[١٦٤].

ونضيف هنا، إلى جانب ما ذكرنا من قبل، إلى أن حجاب الأيقونات في دير القديس جيورجي رايفسكي الموجود في مدينة الطور، وقد بُنيَ في نهاية القرن التاسع عشر، وهو تابع لكنيسة سيناء الأرثوذكسية، هو هدية من روسيا. وعن ذلك تحدث الأب أرسيني رئيس المعبد. وقد شاهد المؤلف أيضا الأيقونات الروسية في كنيسة القديس موسى. فإذا ما استندنا إلى المصادر العلمية وإلى البحوث الأولى للمؤلف، فإن هناك عدة عشرات من الأيقونات الروسية موجودة في سيناء.

---

(١٦٣) ديمتريفسكي أ. مرجع سابق. ص ٦٩ – ٨٠.
(١٦٤) جافريلوفا، الكسندرا. مرجع سابق. ص ٢٢، ٢٦، ٣٧، ٤٦، ٤٧، ٦١ .

وفي سيناء أيضًا توجد العديد من اللوازم الكنسية المصنوعة في روسيا. وقد اكتشف الأرشيمندريت بورفيري (أوسبينسكي) في عام ١٨٥٠ في الدير على حُق القربان المقدس وعليه نقش باليونانية يقول: "من عمل واجتهاد يواقيم السيناوي، رئيس القساوسة ورئيس فرع دير سانت كاترين في كييف، ١٧٥٣، في شهر يونيو"[١٦٥].

ويورد جون جاليّ في كتابه صورة مصنوعة بمهارة لنوط صُنع في روسيا في القرن السابع عشر مع نقش على حجر كريم يُصور القديسة كاترين في إطار من الميناء واللؤلؤ[١٦٦].

وتذكر الكسندرا جافريلوفا أنها شاهدت شمعدان وثريا روسية الصنع موجودة في كنيسة التجلي[١٦٧].

وفي مكتبة الدير الثرية، التي لا تفوقها في مجموعة المراجع الدينية سوى مكتبة الفاتيكان، توجد مخطوطات وكتب قديمة روسية. وتضم المجموعة المعروفة باسم "المجموعة القديمة" ثمانين مخطوطة سلافية من بينها مخطوطات روسية[١٦٨]. وكما يتضح من خلال اللقية التي عثر عليها ي. ن. شابوف منذ فترة قريبة، فإن كثيرًا من المخطوطات لم تتم دراستها بدقة بعد. وهناك مخطوطات روسية، خمس منها على الأقل، ضمن "المجموعة الجديدة" أيضًا"[١٦٩].

---

(١٦٥) رحلة الأرشيمندريت بورفيري أوسبينسكي الثانية إلى دير سيناء. ص ٢٥٨.
(١٦٦) Galey, John. Op. cit. Object No. 139.
(١٦٧) جافريلوفا، الكسندرا. مصدر سابق. ص ٤٣ ، ٤٤، ٥١.
(١٦٨) Galey, John. Op. cit. P 154.
(١٦٩) Tarnanidis I.C. Op. cit..

وقد عرض دميان رئيس الأساقفة على مؤلف هذا الكتاب كتبًا روسـية قديمة. فهذه "المزامير"، التي لعلها تعود إلى القرن السادس عـشر، مكتوبـة على الرق، في غلاف سميك مثبت بمشابك معدنية. وهذه نسخة من الكتـاب المقدس من القرن السابع عشر ومعها "أعمال الرُسل" مطبوعـة فـي ديـر كييـفـوـ بينشيرسكايا في ١٧٣٨[١٧٠].

إن الأمثلة التي قدمناها لمواد الثقافة المادية ذات الأصـول الروسـية ليست سوى أقل القليل، كما هو واضح، مما تراكم على مدى قرن من العلاقة بين روسيا وكنيسة سيناء الأرثوذكسية الموجودة داخل أسوار ديـر سـانت كاترين وفروعه في سيناء. ويؤمن المؤلف إيمانًا راسخًا بأن عملية فهرسـة ودراسة هذه المواد ذات قيمة علمية لا يتطرق إليها الشك. وفي الوقت نفسه لا يمكن أن ننفي أنه قد تم العثور في سياق هذه العملية على لُقـى كثيـرة. وعلى امتداد أربعة عشر قرنًا من وجوده لم يتعرض الـدير مـرة واحـدة للإفلاس، بينما كانت روسيا تتعرض بشكل دوري لغزوات طاحنة وحـروب وثورات. حتى إن نماذج من الثقافة المادية، التي ليس لها نظير في وطنهـا، استطاعت البقاء في سيناء.

إن أراشيف دير سيناء يمكن أن تكون عونًا كبيرًا لدراسة مواد الثقافـة المادية ذات الأصول الروسية، وكذلك عند كتابة تاريخ العلاقـات الروسـية السيناوية والحجيج الروسي إلى دير سانت كاترين. على أن من المؤسف أن هذه الأراشيف، على ما يبدو، سوف تظل متاحة للباحثين بشكل جزئي فقط، إذ إن فهرسة هذه الأراشيف لم تتم بعد.

---

(١٧٠) فـلاديمير بيلياكوف. أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار. ص ١٧ ، ١٨.

وبناء على مبادرة من مؤلف هذا الكتاب، نظم مركز علوم المصريات، الذي يحمل اسم الأستاذ ف. س. جولينيشيف[*]، التابع لجامعة سفياتو - تيخونوفسكي الأرثوذكسية اللاهوتية، نظَّم أول بعثة علمية إلى سيناء، بعد مرور مائة عام تقريبا على البعثة التي سبقتها. كان هدفها الرئيسي هو فهرسة ودراسة المواد الثقافية الروسية. وقد حظيت البعثة في الموسم الميداني الأول لها في فبراير - مارس ٢٠٠٣، والتي شارك فيها المؤلف (رئيسا للبعثة) ومدرسو معهد سفياتو - تيخونوفسكي للدراسات الأرثوذكسية اللاهوتية ن. أ. كولكوفا ون. ج. جولوفينا، حظيت بالثناء من بطريرك موسكو وعموم روسيا الكسيّ الثاني. وتمثل المواد التي توصلت إليها البعثة، والتي سيتم نشرها مستقلة، ثمرة متميزة للعلاقات الخاصة بين روسيا ودير سيناء، وهي تعد أيضًا قاعدة متينة لتطور هذه العلاقات في المستقبل.

(*) ڤلاديمير سيميونوفيتش جولينيشيف (١٨٥٦ - ١٩٤٧) : عالم مصريات روسي. قام على نفقته الخاصة بالتنقيب عن الآثار في مصر. جمع عددًا كبيرًا من القطع الأثرية (أكثر من ستة آلاف قطعة يعرضها متحف بوشكين للفنون الجميلة بموسكو). عاش في مصر منذ عام ١٩١٥. أسس قسم المصريات بجامعة القاهرة وتولى رئاسته في الفترة من ١٩٢٤ إلى ١٩٢٩. قام بفهرسة مجموعة أوراق البردي الهيروغليفية الموجودة بالمتحف المصري بالقاهرة. توفي في نيس بفرنسا وعمره ٩٠ عامًا. (المترجم).

الفصل الثاني

مصر في الثقافة الروسية في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين

كان الحجاج الروس، المتوجهون إلى سيناء، يصلون إلى الأماكن المقدسة في الأغلب عبر الأراضي المصرية. وبعد عودتهم إلى الوطن كانوا يحكون، بطبيعة الحال، لمواطنيهم عن هذه البلاد المدهشة. وقد احتفظت مذكراتهم بشيء من هذه المعلومات عن مصر، وإن كانت في بادئ الأمر شحيحة للغاية، فلم يكن الهدف من الرحلة على أية حال هو زيارة مصر، بقدر ما كان زيارة المقدسات السيناوية. وغالبًا ما تخللت مذكرات هؤلاء الحجاج، الذين كانت لديهم مجرد فكرة تقريبية تماما عن هذه البلاد، كثير من الأخطاء الحقيقية والآراء التي تفتقد إلى الدقة.

وعلى هذا المنوال وصلت إلينا الملاحظات المُطوَّلة عن مصر وعن سيناء، التي سجلها الراهب فارسونافي، الذي ذهب إلى هناك في عام ١٤٦٢. وفي هذه المذكرات يرد ذكر الأهرامات للمرة الأولى في مرجع روسي. وفضلاً عن ذلك فقد جرى وصف هذه المباني الضخمة وتفسير وجودها على نحو طريف. فقد كتب فارسونافي يقول: "هنا توجد مخازن الغلال التي بناها

يوسف الصديق، بعيدًا عن نهر النيل، أمام مصر القديمة - ميصيورا"(١).

وعلى ما يبدو، فإن هذا ما شرحه القساوسة المسيحيون حول وظائف الأهرامات لهذا الحاج الروسي، الذي التقي بهم، بلا شك، في مدينة القاهرة. أغلب الظن أنهم كانوا من اليونانيين وليسوا أقباطًا.

وصف فارسونافي القاهرة وصفًا موجزًا فقال عنها "إن مدينة مصر مدينة عظيمة، تقع على سهل منبسط أسفل الجبل. ويجري بالقرب منها نهر من الحبشة النيل الذهبي الدفّاق. وللنهر اسم آخر هو جيون. المدينة عرضها ميلان، وطولها اثنا عشر ميلاً"(٢).

وعند منتصف القرن الخامس عشر لم يعد الأمر يتوقف على زيارة الحجاج فقط إلى مصر. ففي الفترة من ديسمبر ١٤٦٥ إلى يناير ١٤٦٦ نزل في ضيافتها التاجر فاسيلي. ولم يكن الدافع وراء مجيئه بلاد النيل روحيًا، وإنما ماديّ. فعلى الرغم من أن الرجل كان أرثوذكسي العقيدة، فقد راح الضيف فاسيلي يصف، في أغلب ما كتب، الآثار المسيحية في القاهرة ورحلة الحجيج إلى سيناء، وإن لم يقم هو نفسه بها. وعن عاصمة مصر كتب التاجر الروسي ما يلي: "مصر مدينة عظيمة للغاية، بها أربعة عشر ألف شارع، وفي كل شارع منها بوابتان وبرجان للرماة وحارسان يشعلان الزيت في المصابيح"(٣).

---

(١) رحلة فارسونافي إلى مصر وسيناء وفلسطين. كتاب الرحلات. مذكرات الرحّالة الروس من القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر الميلادي. موسكو، ١٩٨٤. ص ٣٤٤.

(٢) المصدر السابق. ص ٣٤٣.

(٣) رحلة جوست فاسيلي. "المنتخب الفلسطيني الأرثوذكسي"، الإصدار السابق. سان بطرسبورج، ١٨٨٤. ص ٨.

إن المثال الذي يقدمه الضيف فاسيلي، يؤكد لنا أنه قد ظهر في روسيا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، بالإضافة إلى نموذج الحاج، "طراز جديد من الرحّالة من أصحاب الهمة العالية وحب الاستطلاع. إنه، كما يشير ن. إ. بروكوفييف، سفير الشئون الكنسية للدولة والضيف التاجر. إن الرحّالة يندهش من العجائب الأجنبية، ويكتب بحماس وبشكل عملي عن الظواهر الغريبة بالنسبة للمواطن الروسي، في مجالات الاقتصاد والتجارة والثقافة والحياة اليومية والطبيعة"(٤).

لقد قدَّم الرحّالة الروس في مذكراتهم مشاهد بديعة رأوها في مصر، زد على ذلك أن ملاحظاتهم أصبحت أكثر اتساعا وصدقًا بفضل تراكم معارفهم. وخلافًا للوصف الذي قام به الراهب فارسونافي للأهرامات، قدَّم رئيس الأساقفة أرسيني سوخانوف، مبعوث القيصر الكسيّ ميخايلوفيتش لدى مصر، والذي جاء "لمشاهدة وملاحظة الطقوس الكنسية في الشرق" وصفًا للأهرامات جاء فيه: "وفي مصر، بعيدا عن النيل تقوم الأعمدة القديمة لمقابر الفراعنة، وهي من الأعاجيب العظيمة، كأنها جبل مصنوع: فهي من أسفل عريضة ومن أعلى مدببة". وها كم وصفه للنيل: "الضفتان مستويتّان على جانبيه، ومياه الفيضان مستوية على الضفتين، وهو في عرضه يشبه نهر أوكا عند سيربوخوف وكولومنا، وإن بدا النهر هناك أكثر ضيقًا". لقد جاء الوصف موجزا، لكن سوخانوف رسم الطبيعة المصرية بكل دقة: "الحر في مصر شديد للغاية، أما المطر فشحيح، وهم لا يعرفون الثلج ولا الجليد، أما أكثر الأشياء ارتفاعًا في ثمنها في مصر فهو الحطب والشجر"(٥).

---

(٤) ن. إ. بروكوفييف. رحلة : الرحلة والنوع الأدبي. كتاب الرحلات. ص ١١.

(٥) رحلة أرسيني سوخانوف إلى الأراضي المقدسة في عام ١٦٥١ ميلادية. تاريخ الشعب الروسي، جمَعَه أ. ساخاروف. الجزء الثاني. سان بطرسبورج، ١٨٤٩. ص ٢٠١ – ٢٠٣، ١٨٨.

ليس من بين أهدافنا أن نقدم هنا مصر في عيون الروس في الفترة من القرن الخامس عشر وحتى القرن الثامن عشر، فهذا موضوع مستقل. إن ما يهمنا هو أمر آخر يتلخص في معرفة الدوافع التي كانت وراء حركة الرحّالة الروس في هذه الفترة وهم يزورون مصر، دينية كانت أم تجارية، فقد ذكروا جميعهم في مذكراتهم معلومات متنوعة لمواطنيهم عن بلاد النيل وحضارتها القديمة. وهذه المعلومات الطريفة بالنسبة للمواطن الروسي، لم يكن من الممكن ألا تثير لديهم الدهشة والرغبة في معرفة مصر أكثر فأكثر.

نجاح علم المصريات وتزايد اهتمام الروس بالتراث التاريخي لمصر

ازداد اهتمام الروس بمصر منذ نهاية القرن التاسع عشر بشكل ملحوظ. وكان للأوضاع العسكرية والسياسية في تلك الحقبة دورها في هذا الاهتمام. لقد دخلت السفن الحربية الروسية إلى البحر المتوسط إبان الحرب الروسية التركية، التي دارت رحاها في الفترة من ١٧٦٨ وحتى ١٧٧٤، وذلك عبر جبل طارق، لتقف في مؤخرة الإمبراطورية العثمانية. وهنا تطلع ممثلو مختلف الشعوب، التي كانت تعاني من وطأة الحكم التركي، والتي كانت تأمل في تلقي الدعم من السلاح الروسي من أجل التخلص من هيمنة العثمانيين، وراحوا يمدون أبصارهم تجاه القاعدة البحرية الحربية الروسية الموجودة في جزيرة باروس[*]، ومن بين هؤلاء أيضًا كان مبعوثو الوالي المصري علي بك الكبير، الذي أعلن في عام ١٧٦٨ استقلال مصر عن الباب العالي. وقد ذكر ب. بيرمينوف "أن علي بك كان شخصًا عاديًا شدّ إليه انتباه

(*) باروس: جزيرة يونانية في بحر إيجة قريبة من بيريه (المترجم).

معاصريه. ولم تتوقف الصحف عن إذاعة أخبار صراعه الذي نشب من أجل "انفصال" مصر عن الباب العالي"[٦].

وعلى الرغم من أن الأعمال العسكرية التي قام بها علي بك الكبير ضد الأتراك بمساعدة الأسطول الروسي أدت إلى تراخي قبضة العثمانيين على مصر بشكل ملحوظ، فإنه لم يستطع الوصول إلى الاستقلال الكامل للبلاد. توفي علي بك في عام ١٧٧٣، على أن اهتمام روسيا به، ومن ثم بمصر، استمر زمانًا طويلاً. وهو ما يؤكده كتاب مُترجَم عن علي بك صدر بالروسية في عام ١٧٨٩.

ظل عداء مصر للأتراك مستعرًا، الأمر الذي كان معروفًا في روسيا[٧]. وفي التاسع عشر من أغسطس عام ١٧٨٤ عُيِّن في الإسكندرية أول قنصل عام روسي في مصر هو البارون كوندراتي طونوس. وقد ورد في المرسوم الذي أصدرته الإمبراطورة كاترينا الثانية والصادر في السابع والعشرين من مارس عام ١٧٩٢، بموجب القاعدة العامة لتعيين القناصل آنذاك، أن هذا التعيين لا يستهدف سوى "صالح التجارة الروسية فحسب"[٨]. على أنه، واستنادًا إلى شهادة أحد المعاصرين، ممن زاروا الإسكندرية في عام ١٧٨٠، فإن تعداد هذه المدينة لم يزد آنذاك على خمسة آلاف نسمة، زد على ذلك أنه من الأمور التي لفتت انتباه هذا الرحالة؛ أنه "لم يكن بها مبنى عام واحد، أو بيت واحد خاص"[٩]. وحتى الآن لا توجد لدينا معلومات عما

---

(٦) ب. بيرمينوف. ثلاثة مشاهد من تاريخ العلاقات الروسية العربية في القرن الثامن عشر. المشهد الأول. تمرد على بك. مجلة "آسيا وأفريقيا اليوم"، العدد ٧، ١٩٨٧، ص ٥٥.

(٧) س. لوزينيان. تاريخ تمرد على بك على الباب العالي العثماني. سان بطرسبورج، ١٧٨٩.

(٨) ف. أ. أوليانتسكي. القنصليات الروسية في الخارج في القرن الثامن عشر. الجزء الأول. موسكو ١٨٩٩. ص ٦٥١، ٦٥٦.

(٩) رحلة السيد سونيني إلى مصر العليا والسفلى مع وصف للبلاد والأخلاق والعادات والدين والحياة الطبيعية. ترجمة عن الفرنسية. موسكو، ١٨٠٩. ص ٩٣.

إذا كانت هناك علاقات تجارية مؤثرة بين روسيا ومصر في تلـك الفتـرة. وبالإضافة إلى ذلك فإن طونوس قد تم تعيينه بوصفه قنصلاً عامًا، لا مجرد قنصل، أو نائبًا للقنصل. وهو ما يؤدي بنا إلى فكـرة أن مهمتـه الرئيـسية انحصرت في خلق صلات قوية مـع البكـوات المحليـين، ودفعهـم عنـد الضرورة للوقوف ضد الباب العالي، وذلك عن طريق بذل الوعود بإمدادهم بالمعونة العسكرية.

وقد ظهرت هذه الضرورة عام ١٧٨٧، عندما نشبت حرب جديدة مـع تركيا. عندئذ عزمت روسيا مرة أخرى على إرسال أسطولها إلـى البحـر المتوسط. وقد أبلغ طونوس ذلك إلى البكوات، لكن هؤلاء آثـروا الانتظـار ومراقبة ما ستسفر عنه الأحداث. وعندما أصبح من الواضـح فـي نهايـة عام ١٧٨٩ أن الأسطول الروسي لن يظهر، قام البكوات بالوشاية بطونوس لدى الأتراك، الذين قاموا بإعدام القنصل الروسي[١٠].

لم يعد من السهل على الرحّالة الروس الذهاب إلى مصر في النـصف الثاني من القرن الثامن عشر بسبب الحربين اللتين قامتا بين روسيا وتركيا؛ فضلاً عن التوتر الذي شاب العلاقات بين روسيا والإمبراطورية العثمانيـة. ومن المعروف للجميع الرحلتان التي قام بهما إلى الشرق في تلك الفترة كل من الأرشيمندريت ليونتي، وقد زار مصر وسيناء في عـام ١٧٦٣، والأب إيجناتي (دينيشين) في الأعوام من ١٧٦٦ وحتى ١٧٧٦ (زار خلالها مصر، ولكنه لم يواصل رحلته إلى سيناء). والحقيقة أن راعي فـرع ديـر سـيناء في كييف (دير كييفو يكاترينا اليوناني) الأرشيمندريت قسطنطين قام بزيارة مصر في عام ١٧٩٥. على أن كتابه الصادر باللغتين الروسـية واليونانيـة

---

(١٠) ب. بيرمينوف. مصدر سابق. المشهد الثالث. أول قنصل في مصر. مجلة "آسيا وأفريقيـا اليوم"، العدد ٩، ١٩٨٧. ص ٥٤.

لا يفصح عما إذا كان قد زار القاهرة وسيناء. فالكتاب لا يحتوي إلا على وصف لمدينة الإسكندرية(١١).

ولكي نستكمل معرفتنا بمصر، فقد لجأنا إلى عدد من الكتب المترجمة لمؤلفين أجانب. وقد صدر في موسكو في عام ١٧٩١ كتاب الفرنسي ك. فولنيه(١٢)، وهو كتاب في أدب الرحلات يتميز بالمتانة والجودة، نالت مصر فيه النصيب الأوفر. وجدير بالذكر، أن هذا الكتاب صدر بعد ست سنوات فقط من انتهاء فولنيه من رحلته. فإذا ما أخذنا في الحسبان أنه على مدى هذه السنوات الست صدرت الطبعة الأصلية بالفرنسية، ثم تلتها الترجمة الألمانية، التي ترجمت عنها الطبعة الروسية، لتبين لنا مدى السرعة التي ظهر بها هذا العمل في روسيا. ويبدو أنه كانت هناك حاجة ماسة لدى المجتمع إلى هذا الكتاب.

بعد أن قدّم فولنيه وصفًا تفصيليًا لمصر في زمنه، خصّص فصلاً كاملاً للأهرامات، وقد نوّه المؤلف إلى أن "الرحّالة لا يزالون يختلفون حتى الآن حول محيطها ومقاييسها" منبهًا، على نحو عفوي، إلى وضع علم المصريات آنذاك بوصفه من العلوم الدقيقة(١٣). بالمناسبة فقد كان فولنيه، كما أكد ب. م. دانتسيج، "عالما كبيرًا بالشرق واللغات الشرقية"(١٤).

---

(١١) الأرشيمندريت ليونتي. تاريخ حياة جريجوريفيتش الصغير (مقاطع). // رحلة عبر الشرق في مصر يكاترينا الثانية. موسكو، ١٩٩٥؛ وصف رحلة الأب إيجانتي إلى تساريجراد وجبل أثوس، والأراضي المقدسة ومصر في الأعوام من ١٨٦٦ إلى ١٨٨٦، "المنتخب الفلسطيني الأرثوذكسي"، الإصدار ٣٦. سان بطرسبورج، ١٨٩١؛ الإسكندرية القديمة. رحلة الأرشيمندريت قسطنطين إلى دير كيفويكاترينا اليوناني. موسكو، ١٨٠٣.

(١٢) رحلة فولنيه إلى سوريا ومصر في الأعوام ١٧٨٣، ١٧٨٤ و١٧٨٥. ترجمة عن الألمانية. طبق الأصل من النص الفرنسي. موسكو، ١٧٩١.

(١٣) المصدر السابق. ص ٣٩٩.

(١٤) ب. م. دانتسيج. الشرق الأوسط في العلم والأدب الروسيين "فترة ما قبل ثورة أكتوبر". موسكو، ١٩٧٣، ص ٩٨.

وفي مطلع القرن التاسع عشر تصدر في موسكو مرة أخرى ترجمة عن الفرنسية لكتاب آخر لسونيني[١٥]، وكان سونيني قد قام برحلة ثانية إلى مصر عام ١٧٨٠، وكتب عنها كتابًا ظهر بعد تسعة عشر عامًا من رحلته، واكب صدوره حملة نابليون إلى مصر. ويضم الكتاب مجموعة من الملاحظات سجلها عالم في الإثنوجرافيا والعلوم الطبيعية. وهو خالٍ من أي حديث عن الآثار المصرية القديمة، والأرجح أن هذه الجوانب كانت تستحوذ على اهتمام القارئ الروسي أيضًا.

ويؤكد ن. س. بتروفسكي[*] أنه "على امتداد عقود طويلة ظل الروس يكنون اهتمامًا حارًا تجاه مصر القديمة، وقد راحوا يراكمون يومًا بعد الآخر مختلف المعلومات من شتى المصادرِ عن هذه الثقافة العظيمة وعن حضارة وادي النيل القديمة. وقد تمثل ذلك أيضًا في الأساس الروحي، الذي أمكن بفضله أن يظهر في روسيا في مطلع القرن التاسع عشر الولع الشامل "بالأسلوب المصري" في الفنون والآثار المصرية القديمة، والتقدير الرفيع للعثور على حجر رشيد ورد الفعل الحماسي للاكتشاف العظيم الذي قام به العالم الفرنسي ج. ف. شامبليون، والاعتراف بمأثرته الجليلة، وأخيرًا، نشأة علم المصريات الروسي والسوفيتي"[١٦].

---

(١٥) انظر الهامش رقم ٩.

(*) نيكولاي سيرجييفيتش بتروفسكي (١٩٢٣ – ١٩٨١). عالم مصريات سوفيتي بارز. له كثير من المؤلفات عن اللغة المصرية القديمة. (المترجم).

(١٦) ن. س. بتروفسكي. معلومات تاريخية عن مصر القديمة في روسيا في الفترة من القرن الحادي عشر إلى القرن الثامن عشر. زاماروفسكي، فويتيخ. الأهرامات العظيمة. موسكو، ١٩٨١، ص ٤٣٤.

على أية حال فقد ظلت مصر حتى مطلع القرن التاسع عشر أرضًا مجهولة بالنسبة للروس "Tevra Incognita"، مثلما كانت بالنسبة للأوربيين بوجه عام. وكانت المعلومات عنها ومن حضارتها الغابرة متناثرة وشحيحة، أما علم المصريات، بوصفه علمًا عن مصر القديمة، فكان لا يزال في حالة بدائية، كما كان العديد من الآثار المصرية القديمة مهملاً أو مطمورًا في الرمال.

لقد جاء "اكتشاف مصر" الحقيقي بعد الحملة التي قام بها نابليون بونابرت على مصر (١٧٩٨ ١٨٠١). أما محاولة الفرنسيين غزو هذا البلد الواقع على ضفاف النيل، ومن ثم فتح طريق لهم إلى الشرق، فقد باءت بالفشل. ويؤكد ف. ب. لوتسكي(*) إلى أن "النتيجة الوحيدة للحملة تمثلت في الأعمال الرائعة التي أنجزها العلماء، الذين اصطحبهم الجيش الفرنسي معه إلى مصر"(١٧). ويعد كتاب "وصف مصر"، الذي نشر في الفترة من عام ١٨٠٩ وحتى ١٨٢٢ في أربعة وعشرين جزءًا، هو العمل الرئيسي الذي قامت به الحملة. وهذا البحث الجماعي، الذي لم يفقد حتى اليوم قيمته العلمية الرفيعة، أصبح أول بحث منهجي لبلاد الأهرامات(١٨). وقد أثار الكتاب اهتمامًا كبيرًا بتاريخ مصر وثقافتها لدى الأوربيين. وبالإضافة إلى ذلك فقد فتح العثور على حجر رشيد إبان حملة نابليون الطريق إلى فك شفرة الهيروغليفية المصرية على يد جان فرانسوا شامبليون في عام ١٨٢٢، والتي كانت قد فقدت أهميتها في مطلع القرون الوسطى، واعتبر هذا الأمر ثورة حقيقية في علم المصريات.

(*) فلاديسلاف بوريسوفيتش لوتسكي (١٩٠٦ – ١٩٦٢) : مستشرق روسي. له مؤلفات في تاريخ البلاد العربية الحديث والمعاصر. (المترجم).

(١٧) لوتسكي. ف. ب. التاريخ الحديث للبلاد العربية. موسكو، ١٩٦٦. ص ٤١.

(١٨) يتفق هذا الرأي على وجه التحديد مع رأي اثنين من علماء المصريات الإنجليز البارزين. انظر: haw. Ian. and Nicholson, Paul. British Museum Dictionary of Ancient Egypt. Cairo, 1996. P. 91.

جدير بالذكر، أن اكتشاف شامبليون قوبل بتقدير رفيع في روسيا سبق تقديره في وطن العالم الفرنسي نفسه، على الرغم من أن بعضا من العلماء الروس أبدى شكوكه نحو هذا الاكتشاف. وقد بدأ الطلب من روسيا على كتاب شامبليون "دراسات في قواعد الهيروغليفية" فور بدء طباعته. وقد عرضت مجلة "صين أوتشيستفا" ("ابن الوطن") في ثمانية أعداد صدرت في عام ١٨٢٤ نظرية شامبليون تفصيلاً. وفي عام ١٨٢٧ اختارت أكاديمية العلوم في بطرسبورج العالم الفرنسي عضوًا شرفيًا بها، قبل ثلاث سنوات من اختياره في أكاديمية النقوش في فرنسا[١٩].

وفي هذه الفترة اجتاح أوربا الولع بمصر القديمة على إثر البعثة التي قام بها نابليون. فالجمهور الذي تربى على الفنون الإغريقية، جذبته بالدرجة الأولى، الإبداعات الفريدة لأساتذة الفنون في مصر القديمة. إن حقيقة أن هذه الإبداعات تعود إلى بضعة آلاف خلت من السنين، أي عندما كان الأوربيون لا يزالون يسكنون الكهوف ويلبسون جلود الوحوش، كان له أثره القوي. وهكذا أصبحت الأعمال الفنية القديمة هدفًا سواء للعلماء، أولشتي أصناف المغامرين. وأصبحت رحلاتهم إلى هذه البلاد على صفحة النيل أكثر يسرًا بسبب التقلبات التي جرت في مصر ذاتها. لقد مُنِيَ فيلق نابليون الحربي بهزيمة على يد القوات التركية الإنجليزية، بعد أن قضى هذا الفيلق بسهولة قبل ذلك على الجيش المصري. لقد كشفت البعثة أن مصر في حاجة شديدة للإصلاحات. وقد بدأ محمد علي الذي جاء إلى السلطة في عام ١٨٠٥ بالفعل في تحديث البلاد، فاستقدم المختصين الأوربيين للقيام بالإصلاحات المطلوبة، واتجه ببصره ناحية أوربا.

---

(١٩) ن. س. بتروفسكي، أ. م. بيلوف. بلاد حابي العظيم. الطبعة الثانية. لينينجراد، ١٩٧٣. ص ٣٤٩.

لقد مكَّنت رحلات الأوربيين إلى مصر في مطلع القرن التاسع عشر، طمعًا في آثارها القديمة، في أن تكون هذه المجموعات المصرية أساسًا لكل من متحف اللوفر والمتحف البريطاني ومتحف برلين وتورينو. ويمكن أن نبرز هنا على وجه الخصوص الدور الذي قام به الإيطالي المدعو جيوفاني بيلتسوني (١٧٧٨ ١٨٢٣)، الذي قام في عام ١٨١٤، بتكليف من القنصل العام البريطاني في مصر، برحلة عبر البلاد بحثًا عن الآثار. لقد لعب بيلتسوني دورًا كبيرًا في زيادة اهتمام الأوربيين بمصر، ليس فقط بفضل تنظيمه لأول معرض للآثار المصرية في لندن في عام ١٨٢١، وإنما أيضًا بفضل تلك المطبوعات التي قدمت وصفًا لهذه الآثار التي تم العثور عليها[٢٠].

لم تنجُ روسيا هي الأخرى من الوقوع في براثن "الولع بمصر". ففي عام ١٨١٣ نشرت مجلة "فيستنيك يفروبي" ("بشير أوربا") مقالاً بعنوان "عن المصريين القدماء وفنون شعبهم". وللمرة الأولى في روسيا يحاول المقال تقديم تحليل علمي للفن المصري القديم. وبعد مرور خمس سنوات على صدور المقال ينجح بافل أوليانوف في الحصول على درجة الماجستير عن رسالته التي تقدم بها إلى جامعة موسكو، وكان عنوانها. "بحث في الخواص المميزة للآثار المصرية، ولماذا لم يتعامل معها الفنانون الروس البارزون المعاصرون باعتبارها نماذج لهم". وبعد عام واحد على هذا الحدث نشر م. ت. كاتشينوفسكي، الأستاذ بجامعة موسكو، مقالاً مسهبًا لمجلة "بشير أوربا" تناول فيه مصر أيضًا. والملاحظ أن الفن المصري القديم في الأعمال الثلاثة تعرض للنقد. يقول إ. س. كاتسنيلسون: "يبدو أن هذا التقييم السلبي للفن المصري القديم، يرجع تفسيره، ليس فقط بسبب قلة الآثار المكتشفة حتى ذلك

(٢٠) Shaw, Ian, and Nicholson, Paul. Op. cit. P. 91, 52.

الوقت (حيث لم تكن أفضل أعمال النحت والتصوير قد اكتشفت بعد)، ولا بسبب غياب المدخل التاريخي في دراستها، وإنما يرجع أيضا بسبب التوجه السياسي لهؤلاء المؤلفين، الذين سعوا لإثبات أن الفن لا يمكنه أن يتطور إلا في ظروف الحرية والاستقلال، كما كانت الحال، على حد زعمهم، في اليونان"(٢١).

لم يخمد الاهتمام بمصر في روسيا، وإنما ازداد أواره، حتى دفع الفضول بعض القادرين إلى القيام برحلات إلى بلاد النيل.

وعلى ما يبدو، فقد أصبح الرائد في هذا المجال هو؛ بارون برامبيوس الشهير أوسيب إيفانوفيتش سينكوفسكي (١٨٠٠ ١٨٥٨). فعلى الأقل هو أول روسي يضع بحوثًا علمية تفصيلية إلى حد ما عن مصر. صحيح أنها لم تصدر في كتاب مستقل، وإنما ظلت تنشر منجَّمة في عدد من المجلات، إلى أن صدرت في عام ١٨٥٨ فقط في الجزء الأول من الأعمال الكاملة. والأرجح أن الكتابات الصحفية في تلك الفترة، كما هي الحال الآن، كانت تجد دائرة واسعة من القراء أكثر مما تجده الكتب.

في عام ١٨١٩ سافر سينكوفسكي في رحلة صوب الشرق بهدف دراسة لغاته. لم يكن لديه ما يكفي من المال، وقد تم تقدير نفقات الرحلة بتسعمائة روبل. عندئذ لجأ هذا الشاب الفطن إلى جامعة فيلنو(*)، حيث كان يدرس آنذاك، لاقتراض ثلاثين سهمًا قيمة كل سهم ثلاثون روبلا. كان الحصول على الأسهم مُيسرًا لمن يبدي، بطريقة أو أخرى، اهتمامًا كبيرًا بمثل هذه

---

(٢١) إ. س. كاتسنيلسون. لقاء روسيا بمصر (الثلث الأول من القرن التاسع عشر) توت عنخ آمون وزمنه. موسكو، ١٩٧٦. ص ١٩٣ ، ١٩٤.

(*) فيلنو: الاسم القديم لمدينة فيلنوس عاصمة ليتوانيا. (المترجم).

المشروعات. في البداية رحل سينكوفسكي إلى تركيا، ثم إلى سوريا، وفي عام ١٨٢١ سافر عبر النيل حتى وصل إلى إثيوبيا. وقد نشر مذكراته في عام ١٨٢٢ في مجلتي "سيفيرني أرخيف" ("أرشيف الشمال") و"صين أوتشيستفا" ("ابن الوطن"). وفي نفس العام عاد سينكوفسكي إلى الوطن، ولكن لا إلى فيلنو، وإنما إلى بطرسبورج. وسرعان ما تم تعيينه أستاذًا في جامعة بطرسبورج في قسمين معًا: قسم اللغة التركية وقسم اللغة العربية، وقد استمر في تمثيله لهذين المنصبين عامين كاملين "كنوع من الوجاهة"[٢٢].

ومن بين الذين كتبوا كثيرًا في العشرينيات من القرن التاسع عشر عن اللغة المصرية القديمة وعن الكتابة الهيروغليفية، العالم والدبلوماسي إ.أ. جوليانوف، وقد كتب بالمناسبة نقدًا للبحوث التي قام بها شامبليون. وفي المقابل فقد خصص دبلوماسي روسي آخر هوس. أ. كوساكوفسكي بحثًا مسهبًا تناول فيه اكتشاف العالم الفرنسي بالتحليل. وفي الوقت نفسه زار مصر د. ف. داشكوف، مستشار البعثة الروسية في القسطنطينية. وفي الشرق أمضى أ. ن. جوسيف ثلاث سنوات وتوفي في القاهرة متأثرًا بمرض الطاعون. وقد ترك لنا المهندس العسكري م. أ. جامازوف مقالات في أدب الرحلات ومسودات إثنوجرافية عن مصر[٢٣].

يعود تاريخ العمل الوحيد في إبداع الشاعر الروسي الكسندر بوشكين عن مصر إلى منتصف العشرينيات، وهي قصيدته المعروفة باسم "كليوباترا" كتبها الشاعر في أكتوبر عام ١٨٢٤، ولكنها لم تنشر في حياته. وموضوع

---

(٢٢) ف. كافيوين. بارون برامبيوس. تاريخ أوسيب سينكوفسكي، الصحفي، رئيس تحرير سلسلة "مكتبة للقراءة". موسكو، ١٩٦٦، ص ٥ – ١٦، ٢١٠.

(٢٣) ن. س. بتروفسكي، أ. م. بيلوف. مصدر سابق. ص ٣٤٩، ٣٥٢ – ٣٥٥؛ ب. م. دانتسيج. مصدر سابق. ص ١٢٩، ١٥٤.

هذه القصيدة، كما يتضح من نص القصة، مبنيٌ على المعلومات التاريخية الواردة في كتاب "عن الرجال العظام"، الذي يُنسب إلى أوريليوس فيكتور*. والأرجح أن اهتمام الشاعر بمصر جاء نتيجة للموضة التي ازدهرت آنذاك حول كل ما هو مصري. في عام ١٨٢٨ أعاد بوشكين صياغة "كليوباترا"، وفي خريف ١٨٣٥ يعود الشاعر مرة أخرى لهذه القصيدة بعد أن ضمَّها بشكل كامل إلى قصته "ليالٍ مصرية"(٢٤).

مثَّل الشرق الغامض في كثير من جوانبه من فارس إلى مصر مصدرًا لا ينضب لفضول الروس، ولم يكن بوشكين استثناء، بطبيعة الحال، من هذا الشعور. وقد انعكس ذلك في كثير من الموضوعات الشرقية الشهيرة في إبداعه. ونراه يكتب قائلاً: "لقد كنا نقرأ كتاب السيد مورافييف بكثير من التأثر والحسد"(٢٥). ثم يضيف: "إنه يحاور المصلح العجيب لمصر (محمد علي المؤلف)، وينفذ إلى عمق الأهرامات، ثم ينطلق إلى الصحاري، التي يملؤها البدو حيوية بخيامهم وجمال قوافلهم، يرحل إلى أرض الميعاد، وأخيرًا، ينظر إلى القدس من علٍ"(٢٦).

(*) أوريليوس فيكتور: مؤرخ روماني من القرن الرابع الميلادي. مؤلف كتاب "عن القياصرة"، وصف فيه باختصار سيرة حياة الأباطرة الرومان من أوغسطوس إلى قسطنطيسي (٣٠ قبل الميلاد – ٣١١ ميلادية). (المترجم).

(٢٤) أ. س. بوشكين. الأعمال الكاملة في عشرة أجزاء. موسكو ١٩٨١. الجزء الثاني، ص ٣٥٢، الجزء الخامس، ص ٤٢١.

(٢٥) أ. ن. مورافييف. رحلة إلى الأراضي المقدسة. سان بطرسبورج، ١٨٣٢. حظي هذا الكتاب بشعبية جارفة وصدرت منه حتى عام ١٨٤٠ أربع طبعات. وأثنى عليه أ. إ. سينكوفسكي ثناء عظيمًا. انظر : أفريقيا في عيون أبناء وطننا. موسكو، ١٩٧٤. ص ٢١٥.

(٢٦) أ. س. بوشكين. الأعمال الكاملة في عشرة أجزاء. الجزء السادس. ص ١٧٦ ، ١٧٧.

في نهاية عام ١٨٣٠، أو في مطلع عام ١٨٣١، تعرف بوشكين إلى إ. أ. جوليانوف (١٧٨٩ ١٨٤٢). ويحتفظ أرشيف جوليانوف في متحف الدولة للتاريخ، بورقة عليها رسم للأهرامات بريشة بوشكين، خطها في الحادي والثلاثين من عام ١٨٣١. وفي صباح هذا اليوم تحدث الشاعر مع عالم المصريات، كما يؤكد ذلك توقيع جوليانوف على الرسم، حول أعماله (جوليانوف) بصفة عامة وحول العلامات الهيروغليفية بصفة خاصة. وعلى إحدى صفحات قصيدته التي كتبها بوشكين في أكتوبر عام ١٨٣٣، رسم بوشكين بخط يده تمثالاً قريب الشبه للغاية بأحد تماثيل ممنون الموجودة في طيبة. وقد احتفظت لنا المسودات برسوم تخطيطية تصاحبها الإجابة عن السؤال الوارد في السطر الأخير لقصيدة "في أي اتجاه نسبح؟"، ومن بين التخطيطات "مصر بلد هائل"، "حيث تغفو الأهرامات خلف النيل"، "حيث تغفو الأهرامات رمز الخلود"[٢٧].

ظل اهتمام الروس بمصر راسخا حتى قيام ثورة أكتوبر عام ١٩١٧. وقد انعكس هذا الاهتمام في ثلاث ظواهر مترابطة: محاكاة الأسلوب المصري القديم في العمارة والفنون الجميلة، إنشاء المجموعات المتحفية والخاصة للآثار المصرية، وكذلك تنظيم الرحلات المتزايدة إلى مصر، بعد أن تحولت في مطلع القرن العشرين إلى سياحة جماهيرية بمقاييس ذلك الزمان.

---

(٢٧) أ. أ. فورموزوف. بوشكين والآثار القديمة: ملاحظات عالم آثار. موسكو، ٢٠٠٠. ص ٧٣ – ٧٦.

"الأسلوب المصري" في العمارة والفن

إنشاء المجموعات المصرية

ظهرت النماذج الأولى لمحاكاة الأسلوب المصري القديم في العمارة وفي التصميم في روسيا قبل حملة نابليون بفترة طويلة. وجاء ذلك في الأغلب ثمرة لدعوة المعماريين الأوربيين إلى روسيا، حيث إن هؤلاء لديهم معرفة بمصر أفضل من التي في روسيا، وكذلك بفضل القرب الجغرافي النسبي بين أوربا وروسيا؛ فضلاً عن الروابط التاريخية الأكثر قوة بينهما، والتي ظهرت منذ الحملات الصليبية.

وفي عام ١٧٧١، في عهد الإمبراطورة يكاترينا العظمى، أقيمت في حديقة تسارسكوى سيلو* تعريشة على هيئة هرم رباعي الأوجه، قام بتصميمها المعماري ف. إ. نييلوف. وقد أشار إ. س. كاتسنيلسون إلى أن هذا الهرم أقيم في مكان هو مقبرة للكلاب المفضلة لدى الإمبراطورة[٢٨]. ويبدو أن كاتسنيلسون رأى في هذا الأمر نوعًا من السخرية من المصريين، الذين كانوا يدفنون فراعينهم في أهرامات. على أن من الواضح أن عالم المصريات الشهير لم يكن على حق. ففي عام ١٩١١ أشار س. ن. فيليتشكوفسكي، الذي كتب بحثًا شاملاً حول تاريخ تسارسكوي سيلو، كانت الكلاب: سير توم أندرسون، زيميرا وديوشيس مدفونة خلف التعريشة، على ضفة أحد مجاري الأنهار الصغيرة[٢٩]. وفي عام ١٧٨٢ أعيد بناء التعريشة

(*) تسارسكوي سيلو(القرية الملكية) : ضاحية في جنوب سان بطرسبورج. محل إقامة القياصرة الروس واستجمام النبلاء. (المترجم).

(٢٨) إ. س. كاتسنيلسون. مصدر سابق. ص ١٩٠.

(٢٩) س. ن. فيلتشكوفسكي. تسارسكوي سيلو/ طبعة مصورة من الكتاب الصادر في عام ١٩١١. سان بطرسبورج، ١٩٩٢. ص ١٦٢.

بناء على المشروع الذي صممه المعماري تش. كاميرون، حيث أقام بداخله قبوًا دائريًا من القرميد، وعلى امتداد الحوائط وضع أرائك حجرية.

ويرجع قصر الأمير ب. ف. شيريميتيف إلى عصر الإمبراطورة يكاترينا العظمى أيضًا، ويقع في ضيعته الموجودة في كوسكوفو في ضواحي موسكو. وقد بُنيَ القصر في الفترة من ١٧٦٩ إلى ١٧٧٥ بناء على المشروع الذي صممه المعماري كارل بلانك باعتباره "منزلاً صيفيًا ريفيًا للترويح عن النفس". ويمثل مدخل القصر رواقًا مرتفعًا ذا ستة أعمدة وسلمًا أماميًا ومنحدرين معتدلين تزيّنهما تماثيل لأبي الهول[٣٠].

وفي عام ١٧٩٥ بنى المعماري ف. برين في ضيعة الأمير ن. ب. شيريميتيف في أوستانكينو في ضواحي موسكو القاعة المصرية، كانت تستخدم بوصفها قاعة احتفالية للطعام ولإقامة الحفلات الموسيقية. أما المدافئ الضخمة فوضعت فوقها تماثيل لأبي الهول. على أن المعلومات المتاحة عن مصر في تلك الفترة كانت قليلة للغاية، بينما فرض تأثير الفن الإغريقي هيمنته على المعماريين، حتى إن ثمرة إبداعهم كانت خليطًا غير مألوف في العادة من أساليب مختلفة. وقد وصف ج. ف. فدوفين المتخصص في الفنون، وصف القاعة المصرية بأنها تمثل "لقاء مصر وروما"[٣١].

نفس الفكرة عبر عنها، بتفصيل أكثر. البروفيسور س. ف. بيزسونوف منذ ما يزيد على نصف قرن مضى، عندما كتب يقول : "ازداد الولع بمصر، والذي كان موجودًا في القرن الثامن عشر، بعد حملة نابليون على مصر. وقد دخلت الموضوعات (الموتيفات) المصرية إلى الأسلوب الإمبراطوري،

---

(٣٠) كوسكوفو. دليل سياحي للقصر. موسكو، ٢٠٠١.
(٣١) أوستانكينو. المسرح – القصر. موسكو، ٢٠٠١.

ولكنها بدت مشتتة فاقدة للمهابة المميزة للفن المصري الحقيقي. وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه الموضوعات كانت تتداخل بشكل دائم مع الموضوعات الفنية الإغريقية، وهو ما نجده في القاعة المصرية في أوستانكينو وفي القاعة المصرية في كوزمنيكو. وفي قاعة الطعام التي أقيمت في مدينة أرخانجيلسكوي بعد حريق موسكو الشهير في عام ١٨٢٠"[٣٢].

وعن كوزمينكي وأرخانجيلسكوي سوف نتحدث لاحقًا. أما الآن فسوف نشير إلى أن أول نموذج بُني "أسلوب مصري" من ناحية التسلسل الزمني هو، بهو قصر بافلوفسك وقد تم إنشاؤه بعد حملة نابليون، ثم أعيد تجديده بعد الحريق الذي أصابه في عام ١٨٠٣. على أية حال فلا يمكننا أن نصف الأسلوب المستخدم في بناء البهو بما يضمه من تماثيل على جانبي الحوائط بأنه أسلوب مصري خالص[٣٣].

تقع ضيعة الأمراء آل جوليتسين في كوزمينكوي في ضواحي موسكو، وقد أعيد بناؤها في الفترة من ١٨٢٠ إلى ١٨٤٥. وقد وضع تصميمها المعماريان د. إ. وأ. أ. جيليياردي. أما الجناح المصري فيها فتزيّنه أعمدة عليها رسوم لأوراق البردي. كما نجد موضوعات مصرية أيضًا في قاعة بوميرانتسيفوي، وهي عبارة عن صوبة زراعية. وقد أقيمت من أعمدة على هيئة الأعمدة المصرية يستند عليها سقف مغطى برسوم مصرية الأسلوب[٣٤].

(٣٢) س. ف. بيزسونوف. أرخانجيلسكوي. موسكو، ١٩٣٧. ص ١٣٥.
(٣٣) إ. س. كاتسنيلسون. مصدر سابق. ص ١٩٦.
(٣٤) ن. ي. تيخوميروف. عمارة الضياع في ضواحي موسكو. موسكو، ١٩٥٥. ص ٢٦٩ – ٢٨٢.

في عام ١٨١٠ اشترى الأمير ن. ب. يوسوبوف ضيعة في أرخانجيليسكوي الواقعة في ضواحي موسكو. وبعد مرور عشرة أعوام وفي أثناء إعادة بناء القصر، جرت زخرفة قاعة الطعام بالأسلوب المصري، لتظهر فيها رؤوس الإلهة حتحور وتماثيل مقلدة عليها نقوش تحاكي النقوش الهيروغليفية[٣٥].

كان الأمير يوسوبوف عاشقًا لفن التصوير، وتضم مجموعته لوحات ذات موضوعات مصرية. أما قاعة فينيسيا في القصر الموجود في ضيعته في أرخانجيليسكوي فتزينها لوحتان كبيرتان مقاس كل منهما ٦٫٠٦ X ٣٫٣٩ متر. وهما من أعمال الفنان د. ب. تيبولو(١٦٩٧– ١٧٧٠)، وتصور إحداهما لقاء أنطونيو وكليوباترا، والأخرى وليمة أنطونيو وكليوباترا. وهناك لوحة أخرى من أعمال الفنان باولو فيرونيزي (١٥٢٨ – ١٥٨٨) موجودة في الصالون تحمل اسم "الطريق إلى مصر"، وهي تصور رحلة العائلة المقدسة إلى مصر. وقد اقتنى يوسوبوف هذه اللوحات بنفسه من إيطاليا[٣٦].

وفضلاً عن القصور ومداخلها، ظهرت في الثلث الأول من القرن التاسع عشر بعض المنشآت الأخرى أيضًا. ففي العامين ١٨٢٥ ، ١٨٢٦، تم بناء الجسر المصري المعلق ليقطع قناة فونتانكا في بطرسبورج. والجسر من تصميم المعماريين ف. ك. تريتتر وف. أ. خريستيانوفيتش. وقد وضعت على جانب من جانبي الجسر مسلتان مكسوتان بالزخارف والنقوش الهيروغليفية. وعلى القواعد الجرانيتية في كل جانب من جوانب الجسر أقيم تمثالان لأبي الهول لهما رؤوس نسائية، على رؤوسهن أغطية رأس ملكية

---

(٣٥) س. ف. بيزسونوف. مصدر سابق. ص ١٣٣.

(٣٦) المصدر السابق. ص ١٠٧ ، ١٠٨، ٢١٠.

مذهبة، وعلى كل رأس منهن مصباح. والتماثيل من تصميم النحات ب. ب. سوكولوف. وفي العشرين من يناير عام ١٩٠٥ انهار الجسر عند عبور سرية الخيالة الكبرى، ثم أعيد بناؤه في الأعوام ١٩٥٤، ١٩٥٥. وقد عادت تماثيل أبي الهول لتشغل مكانها، أما المسلات المصنوعة من الحديد الزهر ذات المصابيح فقد أعيد سبكها من جديد(٣٧).

وفي عام ١٨٢٩ بُنيت عند مدخل مدينة تسارسكوي سيل والبوابات المصرية، وهي عبارة عن بوابات معدنية ضخمة مزينة بنقوش بارزة من الرسوم المصرية والهيروغليفية من أعمال البروفيسور ف. إ. ديموت – مالينوفسكي(٣٨).

وفي الوقت نفسه واصل الباحثون الروس دراسة العمارة المصرية القديمة، ولم يقتصر الأمر على مجرد دراستها في الأعمال المنشورة لزملائهم الأوربيين. فقد ذهب إلى مصر، في عام ١٨٣٤، ديمتري يجوروفيتش يفيموف (١٨١١ – ١٨٦٤) لهذا الغرض، وكان واحدًا من خريجي أكاديمية الفنون، ثم أصبح عضوًا عاملاً بها. وكان كتابه المعنون "معلومات موجزة عن العمارة المصرية"، وهو كتاب غنيٌّ بالصور التوضيحية وصدر في عام ١٨٣٨، هو حصيلة رحلته إلى مصر(٣٩). وقد حصل متحف الشرق الحكومي في موسكو في عام ١٩٨٦ على أربعين رسمًا تخطيطيًا ليفيموف لم تكن معروفة من قبل، رُسمت إبان رحلته إلى مصر(٤٠).

---

(٣٧) جسور وكرانيش لينتجراد. لينتجراد، ١٩٩١. ص ٣٠٣.

(٣٨) س. ن. فيليتشكوفسكي. مصدر سابق. ص ٢٢٠.

(٣٩) ن. س. بتروفسكي، أ. م. بيلوف. بلاد حابي العظيم. الطبعة الثانية، لينتجراد، ١٩٧٣. ص ٣٦١ – ٣٦٥.

(٤٠) فلاديمير ناباتشيكوف. مصر القديمة في عيون رسام روسي في القرن التاسع عشر. مجلة "عالم الشرق"، العدد ٢، ٢٠٠٣. ص ٥٢ – ٥٥.

وبنظرة استباقية نلاحظ أنه قد ظهر بعد مائة عام تقريبًا على صدور كتاب يفيموف، مبنى ضخم في قلب موسكو يستلهم عمارته من الموضوعات المصرية القديمة. كان هذا المبنى الذي أقيم في عام ١٩٣٠، من تصميم المعماري أ.ف. شوسيف (١٨٧٣ – ١٩٤٩) هو ضريح الزعيم الروسي فلاديمير إيليتش لينين في الميدان الأحمر، وهو عبارة عن هرم مُدرَّج.

عدد كبير من نماذج الفنون التطبيقية الزخرفية وصياغة المجوهرات بأسلوب مصري، التي جرت صناعتها في القرن التاسع عشر، يمكن رؤيتها في الوقت الحالي في المتاحف ومحال بيع التحف القديمة. ويحتفظ متحف الإرميتاج، على سبيل المثال، بعدد من المزهريات الحجرية، صنعت منذ مائتي عام مضت تقريبا في مصنع يكاتيرينبورج رسمها أ. ن. فورونيخين، وكذلك مزهريتان من إنتاج مصنع الخزف الإمبراطوري(٤١).

وإذا كان المعماريون، الذين شيدوا المنشآت بأسلوب مصري، قد اعتمدوا في الأساس على الرسوم الأجنبية، فإن المشغولات التطبيقية الزخرفية، التي تم صنعها من الخامات الطبيعية، بعد أن اتخذ صانعوها من الآثار المصرية نموذجًا، قد أخذ عددها في الازدياد على نحو مستمر. وفي عام ١٨٢٥ افتتح في مبنى خزانة العجائب Kunstcamera "المتحف المصري"، وجاء إنشاؤه بمبادرة من أكاديمية بطرسبورج للعلوم. وقد شكلت المجموعة الخاصة للإيطالي فرانسوا كاستيليوني، وهي مكونة من تسعمائة قطعة، تم شراؤها بمبلغ أربعين ألف روبل، الجزء الأكبر من معروضات المتحف. وتضم هذه المجموعة ثلاثة توابيت من الجرانيت، سبعة تماثيل ما بين الكبيرة والصغيرة، تماثيل من البرونز والفخار والخزف لآلهة وإلاهات،

---

(٤١) إ. س. كاتسنيلسون. مصدر سابق. ص ٢٠١، ٢٠٥.

١٧ مزهرية، ٢٩ شاهد قبر، عددًا من الجعارين والتمائم، أربع لفائف من البردي وبعض الأشياء الصغيرة. وقد اقتنى المتحف توابيت خشبية من التاجر أفيروف من مدينة ساراتوف[٤٢]. وقد تمت زخرفة القاعة التي ضمت "المتحف المصري" بعد ذلك بأسلوب مصري صممه ف. ف. ريختر (١٨٠٨ – ١٨٦٨)[٤٣].

لقد أشعل افتتاح هذا المتحف الاهتمام بالآثار المصرية. وتعكس الواقعية التالية مدى التقرير الذي حظيت به أعمال أساتذة الفن المصريين في روسيا. ففي عام ١٨٢٧ أحضر د. ف. داشكوف من مصر هدية إلى الإمبراطور نيكولاي الأول عبارة عن تابوت أثري[٤٤].

لكن الأمر الأكثر دلالة على هذا الاهتمام هو تاريخ ظهور تمثالي أبي الهول من عهد الفرعون أمنحتب الثالث (١٣٩٠ – ١٣٥٢ قبل الميلاد) في مدينة بطرسبورج، على كورنيش جزيرة فاسيلييفسكي، بالقرب من جسر الملازم شميدت. وقد عُثر على هذين التمثالين في مدينة الأقصر (طيبة القديمة) في عام ١٨٢٨، في مكان أطلال معبد أمنحتب في البر الغربي للنيل، وقد تم عرضهما للبيع على الفور في مدينة الإسكندرية. وفي عام ١٨٣٠ شاهد أندريه نيكولايفيتش مورافييف (هو نفسه مورافييف، الذي حاز كتابه عن الرحلة إلى الشرق على شعبية كبيرة في الثلاثينيات، والذي غبطه عليه بوشكين) شاهد

---

(٤٢) س. إ. فينجاريت. فنون مصر القديمة متحف الإرميتاج، لينينجراد، ١٩٧٠. ص ٩ ؛ ج. أ. بيلوف، ت. أ. شيركوف. الروس في بلاد الأهرام. موسكو، ٢٠٠٣. ص ٢٣. التاجر أفيروف.

(٤٣) س. إ. فينجاريت. مصدر سابق. ص ٩.

(٤٤) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ١٥٤، قائمة ١/٧١٠، وثيقة ٩٧٧، صحيفة ٢.

تمثالي أبي الهول، فقام بإبلاغ السفير الروسي لدي القسطنطينية (كانت مصر آنذاك لا تزال رسميًا جزءًا من الإمبراطورية العثمانية، وكان السفراء موجودين في القسطنطينية، بينما يعمل القناصل في القاهرة) واقترح عليه شراء التمثالين. وقد أحال السفير خطاب موراقييف إلى الإمبراطور نيكولاي، الذي قام بدوره بإرسال الخطاب إلى أكاديمية الفنون يستفسر فيه "ما إذا كان من المفيد اقتناء هذين التمثالين؟"، وقد أجابت الأكاديمية بالتأكيد. يزن كل تمثال ٢٣ طنًا، وقد تم شراؤهما بمبلغ ٤٠ ألف روبل. ونُقلا على سفينة إيطالية مجهزة خصيصًا تسمى "بوينا. سبيرانزا" في يونيو ١٨٣٢ إلى بطرسبورج. وقد تم وضع التمثالين في مكانهما الحالي بعد عامين فقط من نقلهما، وقد نقش على كل منهما: "أبو الهول من طيبة القديمة. نقل من مصر إلى مدينة القديس بطرس في عام ١٨٣٢"[٤٥].

ومن الجدير بالاهتمام أن نجد أنه كان من المحتم على الدبلوماسيين الروس، الذين كانوا يعملون في مصر، أن يقتنوا آثارًا قديمة من أجل استكمال مجموعة الآثار المصرية، التي تم نقلها في منتصف القرن التاسع عشر من خزانة العجائب إلى متحف الإرميتاج. فعلى سبيل المثال قام رئيس مجلس الوزراء الإمبراطوري الأمير بيروفسكي في عام ١٨٥٣ بتخصيص مبلغ ٣٢ جنيها إسترلينيًا لقنصل عام روسيا في مصر ج. فوك لهذا الغرض، وهو مبلغ ضخم بمقاييس ذلك الزمان. وقد تم استخدام هذا المبلغ في شراء عدد من الآثار القديمة وإرسالها إلى بطرسبورج[٤٦].

لم تكن للهدايا التي قدمتها الشخصيات العامة وحدها الفضل في اكتمال المجموعة المصرية في متحف الإرميتاج. ففي عام ١٨٩٣ قامت الحكومة

---

(٤٥) ن. س. بتروفسكي، أ. م. بيلوف. مصدر سابق. ص ٣٥٦ – ٣٥٩.
(٤٦) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ١٤٩٠. قائمة ٥٠٢ أ. وثيقة ٣٧٠٦، صحيفة ١.

المصرية بإهداء روسيا ٥٤ قطعة أثرية منها أربعة توابيت، تم العثور عليها في عام ١٨٩١ فيما كان يعرف باسم "خبيئة القرابين الثانية" في الدير البحري (الأقصر). فقد قامت الحكومة المصرية بتوزيع محتويات الخبيئة على ست عشرة دولة. وحتى يمكن لروسيا أن ترسل الجزء الخاص بها، تطلب الأمر إعداد ستة صناديق ذات مقاييس ضخمة. وقد تم توزيع المعروضات على متحف الإرميتاج؛ فضلاً عن متاحف موسكو وكييف وأوديسا وقازان(٤٧).

لم يكن عدد الآثار التي أحضرها الرحّالة الروس جميعهم تقريبًا من مصر قليلا، حتى تلك التي جُلبت إلى روسيا في النصف الأول من القرن التاسع عشر، أي عندما لم تكن الرحلات البحرية بين البلدين قد انتظمت بعد. نقدم فيما يلي بعضًا من الأمثلة على ذلك.

في أواخر عام ١٨٣٢ ومطلع عام ١٨٨٣ عرجت على ميناء الإسكندرية السفينة "باريس" يقودها القبطان إيفان بتروفيتش بورتينيف. وقد استطاع اقتناء كمية كبيرة من الآثار المصرية ؛ فضلاً عن عدد كبير آخر منها تلقاها هدية من أنستازي، القنصل العام للسويد. وقد نُقلت مجموعة بوتينيف فيما بعد إلى متحف ريفيل (مدينة تالين – عاصمة إستونيا)(٤٨). وقد أصبح هو نفسه سفيرًا لدى القسطنطينية وزار مصر بعدها عدة مرات.

على مدى العامين ١٨٣٤، ١٨٣٥ قام الرحّالة أفرام مشيرجيفيتش نوروف (١٧٩٥ – ١٨٦٩) بزيارة طاف فيها أرجاء مصر، اقتنى فيها عددًا

---

(٤٧) المصدر السابق. وثيقة ٣٧٧٣، صحيفة ٥ – ٧؛ الآثار المصرية من متاحف الاتحاد السوفيتي. كاتالوج متحف بوشكين للفنون الجميلة. المقال الافتتاحي س. ى. خودجاش. موسكو، ١٩٩١. ص ٧،٨.

(٤٨) ن. س. بتروفسكي، أ. م. بيلوف. مصدر سابق. ص ١٠، ١١؛ الآثار المصرية في متاحف الاتحاد السوفيتي. ص ٧.

كبيرًا من الآثار المصرية القديمة القيِّمة حملها معه إلى روسيا، ومن بين هذه الآثار مجموعة من أوراق البردي، قام نوروف، بعدما أصبح وزيرًا للإرشاد الشعبي فيما بعد، بإهدائها إلى مكتبة بطرسبورج الإمبراطورية العامة. تجدر الإشارة هنا إلى أن رحلة نوروف أسفرت عن قيامه بإصدار كتابه "رحلة إلى مصر والنوبة" في جزأين. ولا تتوقف أهمية هذا الكتاب في كونه يقدم ملاحظات على رحلة، وإنما باعتباره بحثًا قيمًا جعل من مؤلفه واحدًا من مؤسسي علم المصريات الروسي. وقد حظي الكتاب بنجاح كبير وتم إصداره مرتين(٤٩).

بحلول منتصف القرن التاسع عشر التأمت المجموعة المصرية الأكبر والأبرز في متحف أوديسا للآثار. وقد أهدى إ. ب. بلارامبيرج في عام ١٨٢٥ إلى هذا المتحف، الذي كان هو نفسه مديرًا له مجموعته الشخصية من المقتنيات المصرية. وفي عام ١٨٤٣ اكتملت المجموعة بعدد آخر من الآثار المصرية التي أحضرها معه من هناك أ. أ. أومانيتس، مدير الحجر الصحي في أوديسا، وبعد مرور خمس سنوات أهدى أ. أ. رافالوفيتش مجموعته إلى المتحف المذكور(٥٠). ورافالوفيتش هو طبيب قام بعدد من الأبحاث على مصادر مرض الطاعون في مصر. جدير بالذكر أن رافالوفيتش، مثله مثل أومانيتس، قام بوضع كتاب عن مصر، وإن اقتصر في هذا الكتاب على وصف مصر المعاصرة له آنذاك ولم يتطرق إلى الآثار المعمارية فيها(٥١).

---

(٤٩) ن. س. بتروفسكي، أ. م. بيلوف. مصدر سابق. ص ٣٦٥ – ٣٧٢ ؛ آثار مصر القديمة في متحف الاتحاد السوفيتي. ص ٧ ؛ رحلة إلى مصر والنوبة عامي ١٨٣٤ – ١٨٣٥. أفرام نوروف. الجزآن ١–٢. سان بطرسبورج ؛ ١٨٤٠، الطبعة الثانية. سان بطرسبورج، ١٨٥٣.

(٥٠) الآثار المصرية القديمة في متاحف الاتحاد السوفيتي. ص ٧.

(٥١) أ. أ. رافالوفيتش. رحلة إلى مصر العليا ومحافظات الدلتا الداخلية. سان بطرسبورج، ١٨٥٠.

أما المجموعة الكبرى من الآثار المصرية الفريدة، والتي نالت اهتمامًا عالميًا فقد قام بجمعها في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين عالم المصريات الروسي البارز فلاديمير سيميونوفيتش جولينيشيف (١٨٥٦ – ١٩٤٧)، الذي زار مصر عدة مرات. وتتكون هذه المجموعة مما يزيد على ستة آلاف قطعة أثرية. وتتميز مجموعته بمستواها الفني الرفيع، فضلاً عن اكتمال تعبيرها عن العصور الممثلة لها وتنوع أشكال الفنون المصرية القديمة. وقد ضمت الدولة في عام ١٩٠٩ هذه المجموعة لملكيتها الخاصة، أما في عام ١٩١٢ فقد وضعت في متحف موسكو للفنون الجميلة (حاليا متحف الكسندر بوشكين للفنون الجميلة)، وكان قد افتتح لتوه[٥٢].

في مطلع القرن العشرين كانت هناك مجموعات شخصية صغيرة من الآثار المصرية لدى عدد كبير من الميسورين، الذين كان لديهم اهتمام كبير بالفن. ومن بين ملاك هذه الآثار، بصفة خاصة، الفنانون ف. د. بولينوف (١٨٤٤– ١٩٢٧)، ن. ق. ريريخ (١٨٧٤ – ١٩٤٧)، م. س. ساريان (١٨٨٠ – ١٩٧٧). وبالنسبة لبولينوف فقد وصلت إليه المجموعة بالوراثة عن والده المؤرخ. وقد اشترى جزءًا منها إبان رحلته إلى مصر، وأما الجزء الآخر فقد أهداه إليه البارون كيستر. وهذه المجموعة موجودة الآن في متحف ضيعة ف. د. بولينوف في قرية بولينوفا بمحافظة تولا. وقد زار ساريان مصر في عام ١٩١١ وأحضر منها خمسة أقنعة أثرية. أهدى أربعة منها فيما بعد لقاعة اللوحات الحكومية في يريفان عاصمة أرمينيا[٥٣].

---

(٥٢) عن ف. س. جولينيشيف ومجموعته، انظر: المستشرق الروسي العظيم ف. س. جولينيشيف وتاريخ اقتنائه لمجموعته الموجودة في متحف الفنون الجميلة (١٩٠٩ – ١٩١٢). من أرشيف متحف الفنون الجميلة. موسكو، ١٩٨٧.

(٥٣) الآثار المصرية في متاحف الاتحاد السوفيتي. ص ١٠، ٣٩.

أما صاحب المصانع المدعو ديمتري جيناديفيتش بوريلين (١٨٥٢ – ١٩٢٤) فكان مولعًا بجمع الآثار القديمة. وقد أسس في عام ١٩١٤ متحفا للتاريخ في بلدته إيفانوفو– فوزنيسينسكي. وكان بوريلين قد سافر قبل عام من ذلك إلى مصر، حيث اشترى مومياء بحالة جيدة وتمائم وعقود وأساور وبعض القطع الأثرية الأخرى. يقول بوريلين: "المتحف هو روحي، أما المصنع فهو مصدر ثروتي لاستمرار المتحف واستكماله". وقد جاء في مشروع لائحة المتحف أن أحد أهدافه هو "مساعدة المجتمع على حب الفن عن طريق نشر المعلومات عنه"[٥٤].

ومن الذين عملوا على جمع الآثار المصرية أيضًا الطبيب الشهير من موسكو الكسندر فاسيليفيتش جيفاجو(١٨٦٠ – ١٩٤٠). وقد أُعجب بمصر في شبابه بعد قراءته لأعمال المستشرقين. وفي يناير ١٩١٠ يقوم جيفاجو برحلة إلى مصر. وعن هذه الرحلة كتب قائلاً: "منذ زمن بعيد وهذا البلد القديم قِدَم التاريخ يشدني إليه. لم يكن من المصادفة أن يُقال عنه إنه بلد مفعم بالسحر. إنه يجذبك إليه ثم يسبي عقلك، تُرى ما الذي جعل منه في الماضي هذا البلد القوي، إنه يُغري العلماء والسائحين المُغرمين بدراسته، ويحول الفضوليين إلى أناس محبين للاستطلاع. وبسلطان آمر ينادي إليه من زاروه إلى أن يعودوا إليه مرة أخرى. إنه يسعى لهضمهم كما يهضم في جوفه الحيوان والنبات"[٥٥].

---

(٥٤) س. ف. أرخيبوفا. د. ج. بوريلين ومأثرة حياته. الآثار المصرية غير المنشورة في صناديق إيفانوفو المتحفية. "أعمال مركز ف. س. جولينيشيف لعلم المصريات التابع للجامعة الروسية للعلوم الإنسانية". الإصدار الأول. موسكو، ٢٠٠٢. ص ١٠٥ ، ١٠٦.

(٥٥) أ. ف. جيفاجو– الطبيب، جامع الآثار، عالم مصريات. موسكو، ١٩٩٨. ص ١٢.

اشترى جيفاجو إبان رحلته إلى مصر أول مقتنياته من القطع الأثرية من محل للبيع ملحق بالمتحف المصري بالقاهرة. وفيما بعد حجز عدة مرات قطعًا أخرى من هذا المحل. وقد أوصى جيفاجو بالمجموعة التي تكونت لديه لمتحف بوشكين للفنون الجميلة. زد على ذلك، أنه نظرًا للمعارف العظيمة التي تكونت لدى هذا الطبيب عن علم المصريات، فقد تمت دعوته في عام ١٩١٩ للعمل في متحف بوشكين، حيث شغل منصب السكرتير العلمي للمتحف حتى وافته المنية[٥٦].

وتعكس الواقعة التالية مدى اهتمام الروس بالفن المصري القديم. ففي نهاية القرن التاسع عشر، أجرى البروفيسور ب. أ. تورايف، الذي يُعتبر "أبو علم المصريات الروسي" أول تجربة في جمع بيانات حول الآثار المصرية الموجودة في المتاحف الروسية وفي المجموعات الشخصية في أنحاء البلاد. وقد وصل عدد القطع في قائمته إلى ١٦٤٠ قطعة، وهي، بالمناسبة، القطع الموجودة في بطرسبورج وحدها (فضلاً عن تلك الموجودة في متحف الأرميتاج وفي مجموعة جولينيشيف) ومجموعة ريفيل (تالين) وميتاف (حاليا يلجاف في لاتفيا) ويورييف (طارطو – إستونيا)، وفيلنو (فيلنيوس – ليتوانيا) وكييف[٥٧]. وفي الوقت نفسه ظل العدد الأكبر من الآثار المصرية موجودًا آنذاك في متاحف بعض المدن الأخرى في روسيا وخاصة في أوديسا وقازان.

تكونت المجموعات المصرية الموجودة حاليًا في متاحف روسيا وفي غيرها من الجمهوريات السوفيتية السابقة بشكل كامل عمليًا في فترة ما قبل الثورة. وفي عام ١٩٩٠ ظلت موجودة في خمسين من متاحف الاتحاد السوفيتي،

---

(٥٦) المصدر السابق. ص. ١٣، ١٤ .

(٥٧) الآثار المصرية القديمة في متاحف الاتحاد السوفيتي. ص ١٠ .

بما فيها ثلاثة وعشرون متحفًا على أراضي روسيا الاتحادية وفي سبعة وعشرين متحفًا في تسع جمهوريات اتحادية أخرى(٥٨).

في عام ١٩١٢ افتتح في موسكو متحف الفنون الجميلة. وقد أثارت مجموعة الآثار المصرية القديمة التي عرضت به، التي جمعها ف. س. جولينيشيف، "حماسًا شديدًا"، على حد تعبير ب. أ. تورايف . وقد كتب تورايف إلى جولينيشيف خطابًا مؤرخًا الأول من ديسمبر ١٩١٢ يقول فيه: "هرول الآلاف من الزوار إلى المتحف وهم يتسابقون على شراء دليل المتحف. وقد بيع من هذا الدليل اثنا عشر ألف نسخة خلال شهرين. أما اسمكم فيتردد على كل لسان: وقد أطلق الجمهور على القاعة المصرية اسم المعبد، الذي ينبغي على كل من يدخل إليه أن يشعر بالرهبة"(٥٩). هذه الاستجابة العاصفة من جانب الجمهور جرى الإعداد لها على مدى قرن كامل بجهود المئات، الذين عملوا على تعريف الروس بحضارة وادي النيل العظيمة.

نشأة حركة السياحة

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أخذت رحلات الروس إلى مصر في الزيادة على نحو مكثف. وقد ساعد ذلك على إنشاء خطوط ملاحية مباشرة بين موانئ البلدين. وقد ذكرنا من قبل أن الشركة الروسية للملاحة والتجارة افتتحت في عام ١٨٥٨ خطاً لنقل الركاب بين أوديسا والإسكندرية، وفي عام ١٨٨٠ نظم الأسطول الطوعي خطًا بين أوديسا وفلاديفوستوك تمر بواخره بميناء بورسعيد. وقد ساعدت الخطوط الملاحية المباشرة على

---

(٥٨) المصدر السابق. ص ٨٦ ، ٨٧.

(٥٩) المستشرق الروسي البارز ف. س. جولينيشيف ... ص ١٣٥.

ازدهار التجارة وزيادة سيولة الحجيج المتجه إلى فلسطين وإلى سيناء، وإن بدرجة أقل؛ فضلاً عن تشجيع أولئك الراغبين في مجرد التعرف على آثار مصر، حيث أصبح بإمكانهم الآن القيام برحلة إلى هذا البلد من روسيا على نحو أسرع وأسهل وأرخص.

كانت الرحلة البحرية من أوديسا إلى الإسكندرية تستغرق أسبوعًا لا أكثر، وكانت السفن تقوم بهذه الرحلة أسبوعيًا. كانت التذاكر زهيدة السعر. فعلى سبيل المثال كانت التذكرة على الدرجة الثالثة في عام ١٩١٠ تساوي ١٨ روبل، إلى جانب تقديم تخفيض للطلاب قيمته ٥٠ ٪. صحيح أن سعر التذكرة لم يكن يشتمل على الطعام، إلا أن تكلفة الوجبات الثلاث لم تكن تتجاوز ٥٠ كوبيك (نصف روبل) في اليوم، أي ما يعادل ثلاثة روبلات ونصف الروبل طوال الرحلة[٦٠].

ساعدت "رحلات الاطلاع" المتكررة، كما كانوا يسمونها آنذاك، على خلق روح المودة الواضحة بين المصريين و"الموسكوفيين". وفي ملاحظاته التي سجلها ن. ف. بيرج، وهو كاتب ومترجم حضر إلى مصر في عام ١٨٦٠، والتي نشرت في عدد نوفمبر من مجلة "أوتيتشيستفيني زابيسكي" ("حوليات الوطن") الصادر عام ١٨٦٢، أورد هذا الحديث الذي أخبره به أحد البرتغاليين كان قد التقاه في القاهرة : "هذا الشعب يحب الروس جدًا أكثر من حبه لأي أوربيين آخرين. هل تعلم لماذا: الروس يتعاملون معه على نحو أكثر بساطة وأكثر إنسانية؛ الفرنسي والإنجليزي، والأخير على وجه الخصوص، يتعامل معه كما يتعامل مع الحيوانات. الإنجليزي لن يبادله الحديث مهما كان الأمر، وقد يلقي إليه بالجنيه كما يلقي بشيء من الطعام إلى كلب. أعط هذا الشعب، الذي يبدو قانعًا، شبه عارٍ، ملتفًا في أسمال قذرة،

---

(٦٠) إ. بوزانوف. بين النيل والبحر الأحمر. موسكو، ١٩٥٦. ص ٥١، ٦١.

فقيرًا إلى درجة العوز، الذي لا يجاريه أحد في رهافة إحساسه تجاه الغريب القادم إليه في صحرائه، أعطه أقل القليل، ولكن على نحو إنساني، وسوف يذكر لك ذلك طويلاً، وسوف يحفظ اسمك جيلاً بعد جيل"(٦١).

باختصار، فقد كان أهم ما يميز الروسي هو بساطته في التعامل مع الشعوب الأخرى، وغياب هذا الازدراء الاستعماري نحوها، وهو ما جعله ينال إعجاب المصريين. زد على ذلك أن هذه الصفات التي تمتع بها الروس لم تكن تتجلى فقط إبان رحلاتهم إلى ضفاف النيل. يقول أحد المرشدين المصريين، الذي رافق أ. ف. جيفاجو في رحلته إلى مصر في عام ١٩١٠: "إنهم في الإسكندرية يحبون الروس، لأن مواطنيكم لم يعاملوا الأتراك العائدين من الأسر بعد الحرب بقسوة"(٦٢).

لم يكن الأتراك وحدهم هم الذين وقعوا في الأسر، وإنما كان هناك جنود وضباط مصريون أيضا، كانوا يخدمون في صفوف الجيش التركي. يؤكد الكاتب الشهير فاسيلي نيميروفيتش دانتشينكو(*) في أحد كتبه في عام ١٩٢٦ : "كانت العلاقة الطيبة بين العرب والروس: تعود، بالمناسبة، إلى الذكرى الطيبة، التي تركها الروس لدى آبائهم وأجدادهم، الذين وقعوا في أسر الروس عامي ١٨٧٧ و١٨٧٨. وقد أسر هؤلاء بالقرب من شانيوف وفاسكيو الواقعتين على نهر الفولجا. وقد قصُّوا على أبنائهم كثيرًا عن طيبة وكرم الموسكوفيين"(٦٣).

---

(٦١) ب. م. دانتسيج. مصدر سابق. ص ٢٩٨.

(٦٢) أ. ف. جيفاجو– طبيب، جامع آثار، عالم مصريات. ص ١٤٤.

(*) فاسيلي نيميروفيتش – دانتشينكو(١٨٤٨/٤٩ – ١٩٣٦): كاتب. له دراسات في علم الأجناس، مراسل عسكري. صاحب كتاب "عام الحرب" في ثلاثة أجزاء. كاتب مذكرات وقصص. هاجر عام ١٩٢١ (المترجم).

(٦٣) نيميروفيتش – دانتشينكو، فاسيلي. مواطنونا في الأصقاع البعيدة. أفريقيا في عيون المهاجرين. موسكو، ٢٠٠٢. ص ١٣٩.

وكذلك التقى الرحالة الشهير أ. ف. يليسييف، الذى زار مصر في عام ١٨٨١ بأسرى مصريين سابقين، وقد ذكر أن "الحرب ومئات الآلاف من الأسرى الذين جاءوا إلى موسكو المضيافة تركوا أثرًا إيجابيًا على جميع فئات سكان الإمبراطورية التركية، وحتى على ضفاف النيل يمكن أن تقابل بدهشة مواطنًا يتحدث روسية ركيكة"(٦٤). ويرى هذا الرحّالة أن الأسرى المصريين السابقين كان لهم أثر مساوللأثر الذي تركه الحجاج الروس في مصر(٦٥).

وفي كتاب آخر له يورد أ. ف. يليسييف مثالاً ساطعًا آخر عن العلاقة الخاصة، التي ربطت المصريين بالروس. يقول يليسييف: "وحتى في الماضي القريب عندما انهمرت القنابل على الإسكندرية(٦٦)، وراح العامة وأنصار عرابي باشا يضربون الفرنجة بلا هوادة، كانت هناك كلمة واحدة لطالما أبعدت عن صدر سيئ الحظ ضربة خنجر أو سيف منهم وهي: "أنا موسكوفي". هذا ما أخبرني به وكيل تجاري روسي قضى عشرين عاما من حياته في الإسكندرية، أنقذ بهذه الكلمة السحرية حياة العديد حتى من غير الروس، عندما أصبح القناصل، الذين فروا، مثلهم مثل الآخرين، من المدينة المُدمَّرة، بلا حول ولا قوة"(٦٧).

أبدى ممثلو جميع الفئات المثقفة في المجتمع الروسي اهتمامهم بمصر وحضارتها القديمة. وقد انعكس ذلك في الرحلات المتعددة التي قام بها الروس إلى بلاد النيل في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر وحتى قيام ثورة ١٩١٧.

---

(٦٤) أ. ف. يليسييف. الطريق إلى سيناء. سان بطرسبورج، ١٨٨٣، ص ٣،٤.
(٦٥) المرجع السابق. ص ٤.
(٦٦) يدور الحديث هنا عن هجوم القوات البريطانية على مدينة الإسكندرية صيف عام ١٨٨٢ .
(٦٧) أ. ف. يليسييف. بصحبة الحجاج الروس إلى الأراضي المقدسة ربيع عام ١٨٨٤. ص٦٧ .

في نوفمبر عام ١٨٦٩ جاءت إلى مصر مجموعة كبيرة من الروس بمناسبة الاحتفال بافتتاح قناة السويس. وقد مثّل روسيا رسميا في هذه المناسبة سفيرها لدى الإمبراطورية العثمانية، الذي وصل إلى بورسعيد على السفينة الشراعية السريعة "ياخونت". بينما وصل على السفينتين "الجنرال كوتسيبو" و"فلاديمير" لحضور الاحتفال ما يزيد على مائة سائح روسي، كان من بينهم رسام البحر الشهير إيفان أيفازوفسكي (١٨١٧ – ١٩٠٠). فيما بعد راح أيفازوفسكي يتذكر كيف أنه وبسبب سير إحدى السفن الفرنسية في الأمام في مكان ضحل، اضطروا للتوقف خمس ساعات. وفي هذا السياق كتب الرسام قائلاً: " وحتى نقطع الوقت، قام ركاب السفينة الروسية بإعداد حفل ارتجالي حر، فتولت السيدة كيرييفا، صاحبة الصوت الرائع، مهمة الغناء، بينما راحت الجوقة المنسجمة تتابعها بالرد. وهكذا، وعلى ضفاف مصر انطلقت أغنيات "نهر الفولجا أمي"، "الغابة المظلمة"، "الأرض الطاهرة"، وتدافعت الأمواج موجة وراء أخرى مكتسبة لون الفضة من القمر، الذي أشرق بضوئه الجلي على حدود عالمين"[٦٨].

بعد مرور ثلاث سنوات على افتتاح قناة السويس، حضر إلى مصر الأمير العظيم نيكولاي نيكولايفيتش الأكبر. كانت رحلته سياحية تماما لم يقم خلالها بإجراء أية مباحثات رسمية أو توقيع أية وثائق من أي نوع. شاهد الأمير العظيم آثار مدينة القاهرة وتسلق، وفقًا لتقاليد ذلك الزمان، هرم خوفو وشاهد أوبرا "عايدة". وقد كتب أحد المرافقين للأمير العظيم يقول: "يستحق

(٦٨) أ.م. ليوبارسكايا. الرحالة الروس والبحارة في موقع إنشاء قناة السويس. بلدان وشعوب الشرق. الإصدار الأول. موسكو، ١٩٥٩. ص ١٥٧.

الأمر زيارة مصر في الشتاء شهرين أو ثلاثة. والأرجح أن المرء لن يشعر بمرور الزمن، كم من التنوع هنا، كم من الأشياء الجديدة والمسلية يقـدمها هذا البلد. وبالإضافة إلى ذلك يمكن مشاهدته دون مشقة، بل علـى العكـس تماما، يشاهده محاطًا بكل وسائل الراحة"(٦٩).

وفي نوفمبر ١٨٩٠ زار الإمبراطور المنتظر نيكولاي الثـاني مـصر في طريقه إلى الشرق الأقصى. وكانت زيارتـه هـذه أيـضًا ذات طـابع استطلاعي تمامًا. وزار ولي العهد فرع دير سيناء ومدرسة عابد اليونانيـة، التي بُنيت بأموال التجار الروس (وسوف نتحدث عنها في الفصل التـالي). بعد ذلك قام برحلة نهرية في النيل من أسيوط إلى أسوان والعودة، ثم طـاف بمنطقة سقارة. استمرت الرحلة ستة عشر يومًا، من العاشر وحتى الـسادس والعشرين من نوفمبر(٧٠).

في الفترة من نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القـرن العـشرين قـام المئات من ممثلي الثقافة الروسية بزيارة مصر. ويشهد العدد الكبيـر مـن الكتب التي تناولت هذا البلد بالوصف، على المدى الذي وصلت إليه أعـداد الرحلات وبالتالي الاهتمام المتزايد بها. جدير بالذكر أن عدد الرحلات التي قام بها الرحالة الروس إلى مصر، بعد أن وضعت الحرب الروسية التركيـة أوزارها (١٨٧٧ – ١٨٧٨)، والتي كانت وراء وقف مسيرة الرحلات حتى

---

(٦٩) الرحلة إلى الشرق والأراضي المقدسة في معية الأمير نيكولاي نيكولايفيتش في عـام ١٨٧٢ د. أ. سكالون. سان بطرسبورج، ١٨٨١. ص ٢٨٠؛ سيبياجين ف. رحلـة الأميـر العظـيم نيكـولاي نيكولايفيتش الأكبر إلى تركيا وسوريا وفلسطين ومصر في عام ١٨٧٢. سان بطرسبورج، ١٨٧٣.

(٧٠) م. دينيسييفسكي. رحلة ولي العهد الإمبراطوري نيكـولاي نيكـولايفيتش إلـى الـشرق. الطبعة الثانية، منقحة ومزيدة. سان بطرسبورج، ١٩٠٠.

نهاية القرن، أي على مدى ما يقرب من عشرين عامًا، لم يتعد عشر رحلات على الأكثر[٧١].

ينبغي أن نضيف إلى الكتب المذكورة الطبعة الأولى من كتابيّ كلا من م. دينيسييفيتش وي. إ. كارتافتسوف، وكذلك الطبعة الثالثة من كتاب ف. أندرييفسكي، حيث إن الطبعتين الأوليين منه قد تم إهداؤهما، وكانا قد صدرا في عامي ١٨٨٦ و١٩٠١ في دار النشر الشهيرة لشركة م.أ. فولف. ويتميز هذا الكتاب بصفة عامة عن باقي المراجع التي صدرت في تلك الفترة عن مصر، فقد قام المؤلف قبل سفره إلى مصر بمراجعة الأعمال التي كتبها أبرز علماء المصريات من مختلف البلاد مراجعة عميقة، ومن ثم فقد جاء كتابه، الذي لا تزال قراءته باعثة على الاهتمام والتشويق حتى الآن، واحدًا من الكتب المعرفية، بالإضافة إلى أنه يمتلك العديد من المزايا المرجعية الفريدة التي لا يتطرق إليها الشك. وسوف نلاحظ أيضًا أن كتاب أ. ف. يليسييف قد أعيد طبعه في عام ١٩١٠ في أربعة أجزاء.

لم يضعف تيار المراجع البحثية عن مصر مع بزوغ القرن العشرين

---

(٧١) د. ل. موردوفتسيف. رحلة إلى الأهرامات. سان بطرسبورج، ١٨٨١. ص ٢٨٠ ؛ ف. أندرييفسكي. مصر، الإسكندرية، القاهرة، ضواحيها، سقارة، ضفاف النيل حتى الشلال الأول. سان بطرسبورج، ١٨٨٤ ؛ أ. ديدلوف. مغامرات وانطباعات. سان بطرسبورج، ١٨٨٧ ؛ أ. كوبتيف. ذكريات عن رحلة إلى القسطنطينية والقاهرة والقدس في عام ١٨٨٧. سان بطرسبورج، ١٨٨٨ ؛ يفجيني ماركوف. رحلة إلى الشرق. تساريجراد والأرخبيل. في بلاد الفراعنة. سان بطرسبورج، ١٨٩٠ ؛ إ. إ. أوختومسكي. رحلة الإمبراطور نيكولاي الثاني إلى الشرق. سان بطرسبورج، ١٨٩٣ ؛ جريجوري دي فولان. رحلة عبر العالم. ملاحظات سياحية. سان بطرسبورج، ١٨٩٤ ؛ ي. إ. كارتافتسوف. رحلة إلى مصر وفلسطين. الطبعة الثانية. سان بطرسبورج، ١٨٩٦ ؛ أ. ف. يليسييف. رحلة عبر العالم. مقالات وصور من رحلات عبر أجزاء العالم القديم الثلاثة. في أربعة أجزاء. سان بطرسبورج، ١٨٩٨ ؛ أ.ن. كراسنوف. من مهد الحضارة. سان بطرسبورج، ١٨٩٨.

أيضا، فإذا ما استبعدنا الكتب التي أُعيد طبعها في نهاية القرن التاسع عشر، فإن الكتب التي صدرت في هذا الموضوع في الفترة من ١٩١٠ إلى ١٩١٧ لم يتجاوز عددها سبعة كتب على أقصى تقدير (٧٢). وعلى مدى تسعة عقود منذ ذلك التاريخ لم تصدر في روسيا كتب بحثية عن مصر مثل التي صدرت على مدى الأعوام الخمسة والثلاثين التي سبقت ثورة أكتوبر.

في عام ١٩٠٣ وصل إلى مصر فيودور إيفانوفيتش شاليابين (١٨٧٣ – ١٩٣٨)* بوصفه سائحًا. وقد حكى الشاعر نيكولاي سوكولوف، رفيقه في الرحلة، ما حدث لهما في كتاب أصدره بعد عودتهما. ويعد شاليابين رجلا ذا نظرة عميقة، وإن لم يكن ممن نالوا حظًا كبيرًا من التعليم، فعندما رأى المعروضات في المتحف المصري بالقاهرة وصل على الفور إلى استنتاج مهم لخصه في قوله: "لقد اتضح لي أن الإغريق، من وجهة نظري، في فنونهم ليسوا سوى أكثر ولا أقل من مجرد دخلاء ومقلدين للمصريين. إنهم، في رأيي، قد "سرقوا" حتى الدين من المصريين، ونحن، بطبيعة الحال، تعلمناه منهم بدورنا! انظروا إلى المومياوات، لقد علَّق المصريون على الرقاب رسم الصليب! انظروا إلى النقش المكتوب على التابوت. إنه مُترجَم في "الدليل السياحي" إلى الروسية على النحو التالي: "أنا مُولَّه بحب الله! أعطيت الخبز للجائع، والماء للظمآن، والثوب للعاري والمأوى لمن بلا

---

(٧٢) ل. م. سافيلييف. في بلاد شمس الظهيرة. موسكو، ١٩١٠؛ س. فونفيزين. سبعة أشهر في مصر وفلسطين. سان بطرسبورج، ١٩١٠؛ س. يلباتييفسكي. رحلة ف. إ. شاليابين إلى أفريقيا. موسكو، ١٩١٤؛ قنسطنطين بالمونت، بلاد أوزيريس. موسكو، ١٩١٤؛ ل. م. سافيلييف. من البوسفور إلى الأهرامات. موسكو، ١٩١٦، أ. إ. ديمترييف. مشاهد من رحلة إلى شمال أفريقيا. براج، ١٩١٧.

(*) فيودور إيفانوفيتش شاليابين: مغنٍ روسي شهير من طبقة الباص. فنان الشعب (١٩١٨): غنى على مسرحي البولشوي والمارينسكي وغيرها. هاجر في عام ١٩٢٢. (المترجم).

مأوي". أليست هذه آية إنجيلية؟ أليست كذلك؟ ما رأيكم؟ ثم إليكم هذه الرؤوس البشرية التي لها أجنحة الطيور! ألا تذكركم بالملائكة المسيحية. وهذه الحقيقة المدهشة الخاصة بالعجل أبيس: "لقد ظلت أم أبيس عذراء حتى بعد ولادة ابنها. الإله بتاح هو الحكمة الربانية وقد اكتسب صورة النار السماوية وهو الذي خصَّب البقرة". هل كان ذلك حقًا منذ عدة آلاف مضت! من الجلي أنه لا جديد تحت الشمس!"[٧٣].

من الجدير بالاهتمام أن شاليابين أتى على ذكر "دليل سياحي" باللغة الروسية، إن حقيقة وجود هذا الدليل ليؤكد أن رحلات الروس إلى مصر في مطلع القرن العشرين (للأسف لم يتم العثور على هذا الدليل) لم تكن لتقتصر على مجرد أفراد معدودين[٧٤].

ويؤكد ف. د. كودريافتسيف في كتابه، أن شاليابين قد قدّم عرضًا على خشبة مسرح الأوبرا بالقاهرة. وفي معرض تأكيده هذه الحقيقة يقول: "إن هناك صورة فوتوغرافية لشاليابين أمام الأهرام وهو يركب الجمل، يرتدي فيها عباءة بدوية وعلى رأسه عُقالٌ بدويٌ أبيض، مُثبت بالرباط التقليدي"[٧٥]. على أن هذا التأكيد غير صحيح. ففي كتاب ن. سوكولوف يبدو واضحًا تمامًا أن شاليابين وصل إلى القاهرة في عام ١٩٠٣ بوصفه مجرد سائح. الحقيقة أن شاليابين قدّم عرضًا وحيدًا في هذا البلد، وإنما حدث ذلك إبان زيارته

---

(٧٣) ن. أ. سوكولوف. رحلة ف. إ. شاليابين إلى أفريقيا. ص ٩.

(٧٤) على الرغم من العدد الكبير من السائحين القادمين من روسيا، فلم يصدر دليل سياحي معتبر سوى في العقد الأخير (فلاديمير بيلياكوف. مصر طولاً وعرضًا. دليل سياحي تاريخي. موسكو، ٢٠٠١).

(٧٥) ف.د. كودريافتسيف. كم الساعة في القاهرة؟ موسكو، ١٩٧٦. ص ١٠٩.

الثانية إلى مصر في عام ١٩٣٣، من ناحية أخرى فقد جرى هذا العرض في الإسكندرية، وليس في القاهرة[٧٦].

كانت الرحلات الجماعية المتعددة إلى مصر في مطلع القرن العشرين أهمية كبرى في تعرف المجتمع الروسي على أحوالها وحضارتها القديمة. وقد اتخذت هذه الرحلات طابعًا جماهيريًا بمقاييس ذلك الزمان، وهو ما يدل عليه توجه منظمي تلك الرحلات إلى الممثلين الدبلوماسيين الروس وإلى القنصلية العامة في مصر بطلب المساعدة. نورد هنا أمثلة تعود إلى عام ١٩١٠ تحديدًا.

آنذاك أعلنت لجنة موسكو لتنظيم الرحلات التثقيفية عن عزمها تنظيم رحلة إلى مصر للمدرسين "على غرار تلك التي نُظِمت في العام الماضي"، من أربع مجموعات، تضم كل مجموعة خمسين فردًا. وكان خط سير الرحلة على النحو التالي: الإسكندرية – القاهرة – الأقصر، أي إلى المراكز السياحية الرئيسية في مصر. وفي شهر يونيوزار القاهرة والإسكندرية ٢٥ طالبًا من جامعة سان بطرسبورج برئاسة الأستاذ المساعد أ. ج. تيموفييف. وفي صيف نفس العام عقدت مجموعةً من ٢٥ إلى ٣٠ طالبًا من طلبة الكلية الحربية بفرقة فلاديمير كييف، ومجموعة أخرى من طلبة ثانوية بطرسبورج، بالإضافة إلى ٤٠ طالبًا من معهد كييف الصناعي و٢٠ شخصًا آخرين عن طريق لجنة الرحلات البحرية[٧٧].

المجموعات المشار إليها، التي زارت مصر في ذلك العام، لم تكن كلها من الروس. وحيث إن هذه المجموعات كانت تضم ممثلين عن شرائح

---

(٧٦) فلاديمير بيلياكوف. أفريقيا تعانق طائر النار. ص ٣٩.

(٧٧) أرشيف العلاقات السياسية الخارجية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ٨٢٠/١، وثيقة ٥٧٤، الصحيفة ٧٤ – ٧٩، ٨٥ – ٨٦ .

محدودة الدخل، فقد طلب رؤساء المجموعات من الدبلوماسيين الروس السعي لدى السلطات المصرية للسماح لهم بزيارة المتاحف مجانا وعمل تخفيضات على أسعار تذاكر القطارات داخل البلاد. أما ممثلو الشرائح القادرة ماليًا فلم يكونوا بحاجة إلى هذه التسهيلات، ومن ثم لم تتم إحاطة الدبلوماسيين الروس علمًا بهم. جدير بالذكر أن الرحلات الجماعية بدأت بشكل محدد قبيل عام ١٩١٠ واستمرت حتى بداية الحرب العالمية الأولى، أي بضعة آلاف من السائحين يمثلون مختلف شرائح المجتمع الروسي زاروا بلاد النيل في مطلع القرن العشرين. ينوِّه أ. ف. جيفاجو إلى أنه "قد تم الآن فتح طريق واسع إلى مصر أمام المهتمين بعلم التاريخ، وكذلك للذين يحبون ويهتمون بالفنون القديمة وغيرها"[٧٨].

منذ نهاية القرن التاسع عشر راحت مصر تجتذب إليها الروس، ليس فقط بفضل ما بها من آثار قديمة، وإنما طلبًا للاستجمام والراحة. وكانت مدينة أسوان الواقعة جنوبًا هي أكثر المنتجعات الشتوية شعبية بمناخها وجوها الدافئ الجاف. وكان الوصول إليها من القاهرة يتم بواسطة البواخر التي تقطع نهر النيل، أو بالقطار. ولكن الأغلبية كانت تفضل الاستشفاء في منتجع حلوان القريب من القاهرة، حيث كانت هناك عيون المياه المعدنية؛ فضلاً عن الهواء الجاف والطين. وجدير بالاهتمام أن الروس استقروا عند هذه العيون لينشئوا هناك هذا المنتجع.

لقد لفتت حلوان إليها انتباه العلماء والأطباء في منتصف القرن التاسع عشر. ومن بين هؤلاء كان الطبيب الألماني رايل، الطبيب الخاص بالخديو إسماعيل. وفي عام ١٨٥٨ تم إنشاء هيئة خاصة لتطوير منطقة حلوان. وفي

---

(٧٨) أ. ف. جيفاجو– الطبيب، جامع الآثار، عالم المصريات. ص ١٥٦.

عام ١٨٨٩، في عهد الخديو توفيق، تم بناء مجمع لحمامات السباحة أطلق عليه اسم "الكابيرتاج"، وسرعان ما ظهر بالقرب منه فندق "الحياة"(٧٩). وقد تم بناؤه على يد واحد من أصحاب المصانع في موسكو أشار س. يليباتييفسكي إلى أن السبب في ذلك "يرجع إلى شفاء ابن أو ابن أخ صاحب المصنع من مرض السل الرئوي نتيجة لعلاجه بحلوان"(٨٠).

وتصف بعض المراجع العلمية الصادرة في تلك الفترة عن مصر الخصائص المميزة لحلوان. يشير س. فونفيزين إلى أن "حلوان كانت مشهورة منذ قديم الزمن بعيون المياه الكبريتية والمعدنية، لكنها بدأت في التحول إلى منتجع رائع في عهدي الخديو توفيق فقط، الذى كان يحب المكان حبًا شديدًا، حتى إنه بنى بالقرب منه قصرًا، وعندها راح كثير من رجال البلاط وعلية القوم في بناء العديد من القصور على نفس الطراز، وتشتهر حلوان في الوقت الحالي بأنها المنتجع المفضل لمرضى الكُلى ومرضى الصدر، الذين لا يزالون في المرحلة البدائية منه، وكذلك لكثير من الذين يعانون من الروماتيزم والنقرس أو داء الملوك. وهي مفيدة أيضًا للأصحاء، الذين يرغبون في تجنب قسوة الشتاء الأوربي المتقلب. كانت حلوان بمثابة محطةً رائعة المناخ. جافة، هواؤها نقي مدهش. لا تهطل فوقها الأمطار ولا تغيب عنها الشمس. حرارتها معتدلة، أكثر الشهور فيها بردًا هو يناير، متوسط الحرارة فيها ١٢ درجة بمقياس سيلسيوس، وفي الوقت نفسه دائما ما تكون دافئة نهارًا. كل هذه العوامل مجتمعة هو محصلة استثنائية لظروف مناسبة قلما تتوافر في مكان آخر على ظهر الكرة الأرضية. أضف إلى ذلك

(٧٩) "Al- Ahram Weekly". March 12 , 1998

(٨٠) س. يليباتييفسكي مصر. سان بطرسبورج، ١٩١١. ص ١٩٨.

توفر وسائل الراحة والمرافق، التي يقدرها المثقفون، الذين لا يجدون مثـيلاً لها في منتجعاتنا"[٨١].

يُفرد س. يليباتيفسكي، الطبيب من مدينة يالطا فصلاً كاملاً من كتابه، الذي صدر مرتين، لحلوان، إذ يرى أن "المعلومات المتـوفرة عـن مـصر باعتبارها مركزًا مناخيًا لا تزال شحيحة وخاصة في المراجع الروسية"[٨٢].

ويرى المؤلف إنه "حتى الريفيرا أو يالطا، أو شاطئ القوقاز، لا يمكـن مقارنتها بها (حلوان)"[٨٣]. ثم يستطرد في وصف عيـون الميـاه المعدنيـة والمناخ ويعدد خصائصهما العلاجية.

كانت حلوان مكانًا شديد الجاذبية بالنسبة للروس، وخاصة أنها كانـت تضم بين جنباتها عددًا من النزُل الاستشفائية كانت ملكًا للروس أيضًا. وقـد حظي النزل المعروف باسم "فاندا" بشهرة كبيرة. كانـت صـاحبته بولنديـة الأصل، بينما كان الطاهي أوكرانيًا. يقول س. فونفيزين: "مـن الممتـع أن تشعر في الغربة البعيدة وأنت في أجواء تشبه بيت العائلة"[٨٤]. على أن الأمر الأكثر أهمية كان يتمثل لا في رغد العيش وصفاء الجو فحسب، وإنما فـي وجود أبناء روسيا في حلوان. ويؤكد س. يليباتييفسكي "أن حلـوان تكـون مزدحمة بالروس في فصول الشتاء، إلى حد أن سماعك للغة الروسـية فـي الشارع، يجعل من حلوان المكان الأفضل للروس، وخاصة لهؤلاء الـذين لا يجيدون اللغات المستخدمة في مصر. كما لا يوجد في أي مكان "بالخـارج"

(٨١) س. فونفيزين. سبعة أشهر في مصر وفلسطين. ص ٦٧ .
(٨٢) س. يلباتييـفسكي. مصدر سابق. ص ١٧٨ .
(٨٣) المصدر السابق. ص ١٩٢.
(٨٤) س. فونفيزين. مرجع سابق. ص ٦٨.

إمكانية الاستغناء عن نصائح الأطباء الروس، مثلما يمكنك الاستغناء عنها في مصر. بفضل كل هذه الظروف لا يشعر الفلاح الروسي القادم من تامبوف، والذي لا يتحدث سوى بلهجة أبنائها بالوحدة أو يشكو من لوعتها في حلوان"(٨٥).

تذكر ليسيا أوكراينكا التي نزلت في بنسيون "كونتينينتال" أن مصحات حلوان كانت صغيرة. وفي خطابها لأختها والمؤرخ الثامن عشر من يناير ١٩١٠ تقول: "يعيش هنا ثلاثون فردًا".(٨٦) وفي زيارتها التالية إلى حلوان تكتب إلى أمها في العاشر من نوفمبر ١٩١٢ خطابًا تصف فيه غرفتها في بنسيون "توفيق" بقولها: "لديّ غرفة فسيحة، جنوبية شرقية، مشمسة ودافئة، بها سرير كبير له بلتكانة من التل، وأريكة وصوان له مرآة، حوض من المرمر، وبالغرفة أيضًا مائدة وكراسٍ ومصباح كهربائي، والأرضية مغطاة بالمشمع"(٨٧). يتضح لنا من هذا الوصف أن الوضع في البنسيون كان مريحًا من جانب، وغير فاخر من جانب آخر، الأمر الذي جعل الإيجار مناسبًا للغاية. يشير إ. بوزانوف، الذي زار مصر في عام ١٩١٠ إلى أن الأطباء في موسكو وبطرسبورج، قبل افتتاح منتجعات من هذا النوع في تركمانيا، كانوا يرسلون مرضى التهاب الكلى عن طيب خاطر إلى حلوان للتعرض لأشعة الشمس واحتساء الشاي. آنذاك كان من الممكن الإقامة على نحو رائع وبسعر زهيد في "داتشا فاندا" وكانت تملكه امرأة روسية بولندية"(٨٨).

---

(٨٥) س. يلباتييفسكي. مصدر سابق. ص ١٩٨، ١٩٩.
(٨٦) ليسيا أوكراينكا. الأعمال الكاملة في ثلاثة أجزاء. الجزء الثالث. موسكو، ١٩٥٠. ص ٣٣٤. أو
(٨٧) المصدر السابق. ص ٣٥٤.
(٨٨) ق. ر. يوميات مذكرات. أشعار. خطابات. موسكو، ١٩٩٨. ص ٤٢٩.

واستنادًا إلى كل ما ذكرناه، فإن جميع البنسيونات المصحات كانت من درجة واحدة تقريبًا، باستثناء أوتيل "الحياة". وقد ترك لنا الأمير العظيم قنسطنطين قنسطنطينوفيتش رومانوف، الذي جاء للاستشفاء في حلوان في شتاء عامي ١٩١٢ و١٩١٣ وصفًا لهذا الأوتيل. ففي يومياته كتب في الرابع عشر من ديسمبر ١٩١٢ يقول "نقيم في فندق يعني اسمه بالعربية "الحياة"، وهو يُعد بمثابة واحة في الصحراء، ويقع على أطراف مدينة حلوان على مسافة نصف ساعة بالقطار من القاهرة، وقد ظهرت حلوان منذ زمن غير بعيد، ما بين عشرة إلى عشرين عامًا خلت، وتتكون من عدة شوارع متقاطعة بزاوية قائمة على بعد خمسة فراسخ من الشاطئ الشرقي للنيل. ومنها تصل المياه إلى بيتنا الواقع على مرتفع صخري رملي، وبفضل هذه المياه ينمو كثير من الأشجار الاستوائية ونباتات الظل"[٨٩].

كان المرضى المقيمين في مصحات حلوان يذهبون في رحلات إلى القاهرة، فيشاهدون أهرامات الجيزة والمتحف المصري وغيرها من آثار عاصمة مصر. وقد واصل بعضهم، مثل إيفان بونين وقنسطنطين رومانوف رحلاتهما إلى الصعيد (انظر بالتفصيل حول هذه الرحلات في الفصل التالي).

وتدلنا الواقعة التالية على نحو غير مباشر عن الشعبية التي حظي بها منتجع حلوان في روسيا. فطبقًا للوكالة الروسية الدبلوماسية والقنصلية العامة في مصر، فقد توفي في الفترة من عام ١٩٠٨ إلى عام ١٩١٣ اثنا عشر مواطنًا روسيا[٩٠]. أحدهم البروفيسور بيوتر فرانتسيفيتش ليسجافت

(٨٩) ق. ر. يوميات. مذكرات. أشعار. موسكو، ١٩٩٨. ص ٤٢٩.
(٩٠) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ١٤٩، القائمة ٥٠٢ ب، الوثائق ٨٨٠، ٩١٢، ٩١٩، ٩٧٤، ٩٧٩، ٢٨١٥، ٢٨٦٦، ٢٨٦٨، ٢٨٧٨، ٢٨٨٤، ٢٩١٣، ٢٩٢٧.

(١٨٣٧ – ١٩٠٩) التربوي البارز وعالم التشريح والطبيب. وقد داهمه الموت في الحادي عشر من ديسمبر بسبب مرض التهاب الكُلى وتم تحنيط جثمانه وإرساله ليدفن في روسيا[٩١].

ومن الجدير بالاهتمام أن الكاتب فيكينتي فيكينتيفيتش فيرسايف (١٨٦٧ – ١٩٤٥) كان موجودًا في حلوان للعلاج في نفس الفترة، وقد حضر جنازة ليسجافت وكتب في أوراقه عن ذلك[٩٢].

كان التحنيط وإرسال الجثامين إلى روسيا للدفن أمرا لا يقدر عليه سوى الأغنياء فقط. أما الآخرون فكانوا يُدفنون في المقبرة اليونانية الأرثوذكسية في حلوان، التي لم يتبق منها أي أثر.

في مطلع الحرب العالمية الأولى، توجهت الحكومة الروسية، آخذة في اعتبارها الخصائص العلاجية لحلوان وشعبيتها كمنتجع بين الروس، توجهت إلى الحكومة المصرية بطلب تخصيص قطعة أرض بالمجان هناك لتقام عليها مصحة لجرحى الحرب العسكريين. لكن هذا الطلب قوبل بالرفض[٩٣]. سوف نلاحظ، إذا ما استبقنا الأحداث، أن منتجع حلوان، الذي تحول في سنوات الستينيات من القرن العشرين إلى موقع صناعي ضخم، قد أخذ في الانهيار تدريجيا ليفقد أهميته العالمية ويصبح ذا أهمية محلية فقط. وفي السنوات الأخيرة يسعى بعض المتحمسين إلى إحياء المجد العالمي الغابر لمنتجع حلوان، الذي اشتهر بمياهه وطينته العلاجية.

---

(٩١) المصدر السابق. الوثيقة ٩٧٩، صحيفة ١.

(٩٢) ج. ج. أخفيردوف. ب. ف. ليسجافت. مسيرة الحياة والنشاط العلمي التربوي. لينينجراد، ١٩٥٠، ص ١٣.

(٩٣) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ١٥١، القائمة ٤٨٢، الوثيقة ٢٤١٤، صحيفة ٤أ/ب.

مصر في إبداع الأدباء الروس

من بين الروس الذين جاءوا إلى مصر في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين الكتّاب: دانييل موردوفتسيف، إيفان بونين، فيكينتي فيرسايف، والشعراء: فلاديمير سولوفيوف، فيتشيسلاف إيفانوف، نيكولاي جوميلوف، قنسطنطين بالمونت، ليسيا أوكراينكا، أندريه بيلي وقنسطنطين رومانوف. وقد انعكست انطباعاتهم، على نحو أو آخر، في إبداعاتهم، وأصبحت جزءًا لا يتجزأ من أعمالهم الأدبية. ويمكن تقسيم هذه الأعمال إلى شكلين. الأول، كان مستلهمًا من تأمل الآثار المصرية القديمة، والآخر، مستلهم من الواقع المعاصر الذي عاشه الرحالة.

وقد جاء إلى مصر الفيلسوف والشاعر **فلاديمير سيرجييفيتش سولوفيوف** (١٨٥٣ – ١٩٠٠)، وهو ابن المؤرخ س. م. سولوفيوف مرتين خلال عامي ١٨٧٥ – ١٨٧٦ وفي عام ١٨٩٨. وفي خطابه إلى أمه والمؤرخ في الثامن عشر من نوفمبر ١٨٧٥ يقول: "تسلقت هرم خوفو(ويبلغ ارتفاعه مائة متر) ونزلت إلى أعماق المقابر، وحيث إنها عميقة، فكان عليّ أن أزحف بداخلها في الظلام الدامس؛ سبحت في مياه النيل وشاهدت تمثال أبي الهول الأصلي". وأثناء رحلته الثانية إلى مصر كتب قصيدة "دلتا النيل" يقول فيها:

أيتها الأرض الصامتة

تربتك سوداء خصبة

وحقولك من الذهب والزمرد

فياضة أنت بالعطاء وبالجهد الذي لا ينضب

كم من البذور والموتى

على مدى قرون طويلة من السبات

استقبل هذا الرحم الخصيب

لكنه كان يلفظ منه ما يشاء

ليثمر كل عام ما يشاء

تهبين مرة كل عام من العدم

قبل حلول الربيع

ليست إيزيس المكللة بالزهور

هي التي تأتي بالثمار

وإنما عذراء بوابات قوس قزح

الطاهرة الأبدية[٩٤].

. **دانييل لوكيتش موردوفتسيف** (١٨٣٠ – ١٩٠٥). تشير مقدمة أعماله الكاملة، التي صدرت غير بعيد، أنه كان "واحدًا من أكثر الكتّاب في النصف الثاني من القرن الماضي (التاسع عشر) ومطلع القرن العشرين غزارة في الإنتاج وشعبية بين القُرّاء. وقد كتب موردوفتسيف ما يزيد على عشرين عملاً مهمًا[٩٥]. وبعد زيارته الإسكندرية والقاهرة كتب عنهما كتابًا

---

(٩٤) لمزيد من المعلومات عن رحلات ف. س. سولوفيوف انظر : ج. ف. جورياتشكين. البحث عن صوفيا. مجلة "آسيا وأفريقيا اليوم"، العدد ٣، ١٩٩٦.

(٩٥) د. ل. موردوفتسيف. الأعمال الكاملة في أربعة عشر جزءًا. موسكو، ١٩٩٥، ١٩٩٦. الجزء الأول. ص ٥.

مستقلاً[٩٦]. وقد واصل رحلته بعدهما إلى فلسطين. وقد كرّس موردوفتسيف لمصر القديمة قصة "الملكة الحبيسة"، "انتقـام الرهبـان"، "الإلهـة إيـزيس الخاطبة" ؛ فضلاً عن مجموعة من القصص القصيرة كتبها في عـام ١٨٩٥ بعنوان "صوت الأحجار"[٩٧].

وفي ربيع عام ١٩٠٢ وصل إلى مـصر **فيتشيسلاف إيفـانوفيتش إيفانوف** (١٨٦٦ – ١٨٤٩) في طريقه إلى فلـسطين. وقـد زار إيفـانوف الإسكندرية والقاهرة[٩٨]. وتحمل إحدى قصائده التي تصف مصر، والتـي تأثر فيها بهذه الرحلة اسم "البشروش".

على صفحة النيل

تتأرجح زهرة لوتس بيضاء

مثل كأس مسطحة وردية الحواف

بينما راحت طيور ألبشروش ترش السماء الزرقاء بالمياه

فتبدو مثل أقواس من الضوء في لحظة الشفق الوردي

العيون تذكر هذه الألوان الفتية

والأم الأرض مثل حابي

تنظر إلى الأشياء في مرآة مجمدة

تعكس فردوسًا صغيرًا[٩٩].

---

(٩٦) د. ل. موردوفتسيف. رحلة إلى الأهرامات. سان بطرسبورج، ١٨٨١.

(٩٧) د. ل. موردوفتسيف. الأعمال الكاملة، الجزء الثالث عشر. ص ٣٤١.

(٩٨) فيتشيسلاف إيفانوف. الأعمال الكاملة. الجزء الأول. بروكسل، ١٩٧١. ص ٤١ ، ٤٢ .

(٩٩) موتيفات مصرية. قصائد وأشعار. موسكو، ١٩٨٥. ص ١٢٠ .

وقد استلهم فيتشيسلاف إيفانوف قصيدته "تمثالا أبي الهول على نهر النيفا" من تمثالي أبي الهول للفرعون أمنحتب الموضوعين على كورنيش نهر النيفا.

هل استهوتكما الليالي البيضاء؟

وهل وقعتما في سراب العجائب القطبية؟

أيها الوحشان الغريبان القادمان

من طيبة صاحبة الأبواب المائة

هل فتنتكما إيزيس بوجهها الشاحب؟

ما السر إذن في تحولكما إلى أحجار صماء

وما الذي وراء هذه الابتسامة الملتوية

فوق ثغريكما القاسيين

هل النجوم في رحاب النيل المقدس

أكثر إدخالاً للسرور عليكما

في هذه الساعة التي يراوغنا فيها الفجر

وتتهامس فيها أشعة الشمس الفاتنة

وتكتسب السموات لون العنبر

تنتصبان هنا مثل هلالين

يحملان فوقهما تاجين

تنظران في عيون العذارى والملوك

بابتسامة وحماس[١٠٠].

---

(١٠٠) فيتشيسلاف إيفانوف. Cor ardens. موسكو، ١٩١١. ص ١٣٥ .

كانت الزيارة الأولى التي قام بها **إيفان الكسييفيتش بونين (١٨٧٠ – ١٩٥٣)** لمصر في مايو١٩٠٧ بعد أن زار فلسطين. كانت زيارة قصيرة للغاية تعرف خلالها على بورسعيد والقاهرة والإسكندرية خلال ثلاثة أيام فقط، لكنها تركت في نفسه أثرًا كبيرًا. وقد كرَّس بونين مجموعتين من القصص القصيرة لبلاد النيل حملتا أسماء "الدلتا" و"ضوء برج الأفلاك"، الأولى كتبها عن الإسكندرية، والثانية عن القاهرة. وقد ضمت مذكراته ملاحظاته عن هذه الرحلة. يقول في إحدى خواطره: "استيقظت في الخامسة. أخذت طريقي نحو الأهرامات. النيل يغطيه الضباب. ممشى باتجاه الأهرامات، التي تبدو من بعيد مثل أجران القمح وقد اكتسبت لون قش قديم"[١٠١].

كانت الرحلة الأولى لبونين إلى مصر قصيرة، لكن رحلته الثانية، التي قام بها في مطلع عام ١٩١١، استمرت ما يزيد على ستة أسابيع. حصل بونين وزوجته على تذكرتين مجانيتين على باخرة تابعة للأسطول الطوعي على خط سير أوديسا فلاديفوستوك، وكانا يعتزمان زيارة سيلان واليابان. كان بمقدورهما، بطبيعة الحال، أن يسافرا إليهما مباشرة دون أن يتوقفا في مصر، لكنهما لم يستطيعا أن يمرا بالبلد، التي تركت أثرًا عميقًا في ذاكرتهما مرور الكرام. صحيح أن بونين مرض مرضًا شديدا فور وصوله إلى بورسعيد، وقد شخَّصه الطبيب بأنها الكُلَى ونصحه بالاستشفاء بمياه حلوان، وهو ما قام به الكاتب على مدى أسبوعين. وفي رسالته إلى أخيه المؤرخة الثاني عشر من يناير ١٩١١ كتب بونين: "تعيش على أطراف مدينة صغيرة

---

(١٠١) إ. أ. بونين. الأعمال الكاملة في ستة أجزاء. موسكو، ١٩٨٨. الجزء الثالث. ص ٥٢٤ – ٥٣٨؛ الجزء السادس، ص ٣٣٢.

نظيفة ومستوية، في فيلا يستأجرها يهودي من أوديسا. المنظر مـن عنـدنا يطل على الجنوب والغرب والشمال وعلى وادي النيل بأكمله، وعلى مـشهد كامل للأهرامات"[١٠٢]. من الواضح أن ذكريات هذا المنظر قد ألهمت إيفـان الكسييفيتش كتابة قصيدة بعد خمس سنوات من الرحلـة، ولعلهـا القـصيدة الأفضل التي كتبها عن مصر.

الأهرامات. تسبح في غروب الشمس الذهبية الحارة

وقد راح الأجانب يلهون على ضفاف النيل

وفوق صفحة المياه تلمع القوارب الشراعية لمعان الحرير

وهذه الباخرة البيضاء تقطع النهر في طريقها إلى الأقصر

إنه الوقت الذي يتألق فيه النخيل خلف النيل

أما القاهرة فيسطع فيها الزجاج بلمعة حمراء

بينما ينطلق الخديو بعربته ذات الخيول

ويقتنص المرشدون لحظات من الراحة على المقاهي

بعيدًا عن السادة

النيل بلون الأرجوان ينساب نحو الجنوب

في طريقه إلى النوبة البرية، إلى الحدود الغامضة القلقة.

إلى المحميات الغريبة على العالم أجمع

---

(١٠٢) أ. بابوريكو، إ. أ. بونين. مواد بيوجرافية عن الأعوام من ١٨٧٠ وحتى ١٩١٧ .الطبعة الثانية. موسكو، ١٩٨٣. ص ١٥٩.

والتي بقيت على حالها منذ خوفو وقمبيز ...

مِن هذه البلاد أحضرت معي قوسًا وكنانة بلون النحاس والذهب

ودرعًا من جلد فرس النهر ومزراقًا مَرِنًا

وفرو فهد وزردًا سودانيًا

ولكن. ما جدوى كل ذلك بالنسبة لي؟ مجرد سؤال[١٠٣].

وفي رسالة كتبها لبيلو أوسوف، كتب بونين من حلوان في الثالث عشر من فبراير ١٩١١ يقول: "عدنا لتوّنا من خط الاستواء ذاته، من أسوان. بعد أن أبلينا أحذيتنا بالسير على الرمال وبين المقابر والأهرامات وأطلال المعابد، وها نحن ننتظر الباخرة المتوجهة إلى كولومبو وسنغافورة واليابان"[١٠٤].

لقد تركت الرحلتان اللتان قام بهما بونين إلى مصر أثرًا ملحوظا في إبداع هذا الأديب البارز، الذي اختص وادي النيل بقصائده: "القاهرة"، "عند القبر"، "الإسكندر في مصر"، "قبر في الصخر"، "في الطريق"، "عند أكواخ النوبيين السوداء..."، "الهروب إلى مصر"، "رع أوزيريس"[١٠٥].

يشعر القارئ لأشعار بونين عن مصر أنها تحمل أحيانًا طابع التقرير الصحفي. ويشير أحد باحثي إبداع بونين إلى أن "الشاعر الروسي ليس سائحا يتنزّه على ضفاف النيل، ولا رسّامًا شرقيًّا، وإنما هو ذاتٌ تفكر في حركة

---

(١٠٣) إ. أ. بونين. الأعمال الكاملة في ستة أجزاء. الجزء الأول. ص ٢٩٤ .

(١٠٤) أ. بابوريكو. مرجع سابق. ص ١٦٠ .

(١٠٥) إ. أ. بونين. الأعمال الكاملة في ستة أجزاء. الجزء الأول. ص ١٩٣، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٤٤، ٢٥٥، ٢٩٣، ٢٩٦.

التاريخ. أما كونه يقول: "أنا الرحّالة رأيت كذا" ("قبر في الصخر" بيلياكوف) فهي تعني دائما عند بونين أنه يسعى فقط لأن يدفعنا إلى أن نشعر ونتصور الشرق القديم على نحو يفيض بالحيوية"[١٠٦].

نيكولاي ستيبانوفيتش جوميلوف (١٨٨٦ – ١٩٢١). جاء إلى مصر مرة واحدة بغرض الزيارة، ومر بها ثلاث مرات في طريقه إلى الجبشة، وهو ما تؤكده أبيات من قصيدته "مصر":

ليس من قبيل المصادفة

أن هذا البلد قد أبدع هذه المقولة الباهرة

"من ذاق مياه النيل

سوف يسعى للأبد لأن يعود إلى القاهرة".

في هذه القصيدة، كما في غيرها، مثل "البحر الأحمر"، "الصحراء"، "قناة السويس"، "حديقة الأزبكية"، يرسم جوميلوف صورة جلية حقيقية لمصر في زمنه، ويعبر عن تعاطفه مع المصريين البسطاء، ويؤكد بشكل صحيح أن الشخصية الرئيسية في تاريخ مصر هي الفلاح المصري.

ليكن الحكام هنا هم الإنجليز

يشربون الخمر ويلعبون الكرة

بينما يمضي الخديو وقته على أريكته العالية

بعيدًا عن العسف والجور من حوله!

---

(١٠٦) ب. " تارتاكوفسكي. شعر بونين والشرق العربي. مجلة "شعوب آسيا وأفريقيا"، العدد ١، ١٩٧١. ص ١٢٠.

ليكن! لكن الحاكم الحقيقي للبلاد

ليس ذلك العربي. وليس صاحب البشرة البيضاء

إنما هو الكادح بالمحراث والمسحاة

من يقود جاموسه الأسود في الحقول

وإن تكدَّس وأهله في بيت من الطين

فهو يموت مثلما تموت الوحوش في الغابات

إنه المحبوب والمفضل عند نهر النيل المقدس

إنه الفلاح رفيقه عبر الزمن

يهبه النهر الفيضان في كل عام

مياهًا ثائرة مخضبة بالحُمرة

وطميًا غنيًّا يكسو الحقول

ليجمع منها محصوله الوفير(١٠٧).

فيكينتي فيكينتيفيتش فيرسايف (١٨٦٧ – ١٩٤٥). قضى في مصر ستة أشهر. كتب فيرسايف في "روزنامة الأحداث" يقول: "عشت في مصر من أكتوبر ١٩٠٩ في حلوان بالقرب من القاهرة"(١٠٨). لكنه لم يصف بلاد النيل في إبداعه، وإنما ألهمته قصة وحيدة كتبها في عام ١٩١٤ تحت اسم "في معية الدراويش"(١٠٩).

---

(١٠٧) نيكولاي جوميلوف. قصائد وأشعار لينينجراد، ١٩٨٨. ص ٢٨٢ – ٢٩٠، ٢٧١ .

(١٠٨) ف. ف. فيرسايف. الأعمال الكاملة. الطبعة الثالثة. موسكو، ١٩٢٩، الجزء الأول. ص ١٣.

(١٠٩) المصدر السابق. الجزء الثاني عشر. ص ١٢٩ – ١٣٣.

قسطنطين ديمترييفيتش بالمونت (١٨٦٧ - ١٩٤٢). اصدر كتابًا بعنوان "بلاد أوزيريس"، وذلك على إثر قيامه برحلة إلى مصر في الفترة من ديسمبر ١٩٠٩ إلى يناير ١٩١٠، وهي نفس الفترة التي جاء فيرسايف فيها إلى مصر للاستشفاء. يكتب موضحًا لماذا قرر زيارة هذا البلد تحديدًا قائلاً: "كنت متشوقًا بشدة لرؤية آثار مصر. أن أتعرف على كل ما هو مصري. مصر هي مصر. من مصر خرج كل شيء تقريبا، أكثر مما نتصور"(١١٠). كان بالمونت يشعر بالفخر لأن كتابه "ليس مجرد تجميع لمعلومات أو بيانات، وإنما هو عمل مستقل، مؤسسٌ على زيارته لمصر، وعلى الدراسة التي قام بها على مدي سنوات طويلة على يد كل من جان كانار (بروكسل)، أ. مورسي (باريس) وماسبيرو(القاهرة)". وكان من دواعي فخره أيضًا أن هذا الكتاب "حظي بمديح عالم المصريات الروسي ف. م. فيكينتييف. تلميذ تورايف"(١١١). يعد كتاب الشاعر في الواقع عملاً علميًا في مجال الدراسات المصرية، أكثر من كونه تجميعًا لعدد من البحوث المتفرقة. وقد ضم إليه المؤلف أيضًا عددًا من أشعاره، فنجد أن أحد فصول الكتاب يحمل اسم "أغنيات مصرية" ويضم اثنتين وعشرين قصيدة عاطفية، وفي الفصل الأخير "في مديح الشمس والقمر"، أضاف الشاعر قصيدتين: "طريق الشمس" و"إيزيس".

لدى بالمونت عدد من القصائد المستقلة التي تدور حول مصر. على سبيل المثال "الأهرامات لحظة الغروب"، "أبا الهول"، "مصر" وغيرها من القصائد. في الأبيات التالية يصف الشاعر انطباعه الأول عن مصر وهي من قصيدته "على أعتاب مدينة الإسكندرية":

---

(١١٠) قنسطنطين بالمونت. بلاد أوزيريس. موسكو، ١٩١٤. ص ٦.

(١١١) ب. ف. كوبريانوفسكي، ن. أ. مولتشانوفا. الشاعر قنسطنطين بالمونت. سيرة حياته وإبداعه ومصيره. إيفانوفو، ٢٠٠١. ص ٢٥٩، ٢٦١ .

الشمس الغاربة تبدأ مغيبها خلف البحر

فتتألق السماوات بلون العقيق الأحمر

ويهدر البحر في أذني بزخارف الألحان

حللت أهلاً في بلاد الأهرامات المقدسة

كفت العاصمة ذات الضفاف الصفراء عن الضجيج

لتشتعل الحكايا القديمة بضوء الأرجوان

الطيور طويلة الذيل تقف عند البوابات المؤدية إلى مصر

ها هو النيل ينفتح أمام عيني! هامسًا

ها أنا ذا! أوزيريس(١١٢).

يزخر إبداع **ليسيا أوكرانيكا** (١٨٧١ – ١٩١٣) بالعديد من الموتيفات المصرية. وللشاعرة قصيدتان: "أبا الهول" و"رع – مينيـيس"، ومسرحية شعرية قصيرة بعنوان "في بيت الكدح، في بلاد العبودية" كتبتها قبل رحلتها إلى مصر، مستخدمة في بنائها عددًا من الموضوعات المصرية القديمة. وخلافًا للأدباء الذين سبق ذكرهم، فقد زارت الشاعرة مصر مرتين، في عام ١٩١٠، وخلال عامي ١٩١٢ و١٩١٣، لا بوصفها سائحة، وإنما طلبًا للعلاج في إحدى مصحات حلوان، إذ كانت تعاني منذ طفولتها من مرض سل العظام، وقد استفحل مرضها بمرور السنين، وعندئذ ألحَّ الأطباء في نصحها بالسفر للعلاج في مصر . وإبان وجودها في حلوان في مارس ١٩١٠ كتبت ديوانًا من ست قصائد بعنوان "ربيع في مصر". وفي رسالة لأمها في شهر

(١١٢) موتيفات شرقية. ص ١٢٨.

مارس ١٩١٠ كتبت تقول: "في الأيام الأخيرة شعرت بانتعاشه روحية واستطعت بتأثير رياح الخماسين أن أكتب في موضوعات مصرية فقط: "الخماسين"، "أنفاس الصحراء"، "أفرا"(١١٣)، (هذا هو اسم القصيدة المؤلف)"*.

ها كم إحدى قصائد الديوان "أنفاس الصحراء":

الصحراء تتنفس هواءً منعشًا

الرمال ممتدة ساكنة، ذهبية

لكن كل جبل، وكل تل هنا

مفعم بذكريات الخماسين

الفلاح الدؤوب يبني مسكنه

بينما سرب من الأجانب العابرين

يبحث لنفسه هنا عن فندق وحديقة كثيفة

عملاق هذا الفلاح فكل ما حوله من صنع يده

المشكلة في الواحات التي تقع وسط الفيافي

لكن الأمر لا يعنيه ... فهو يرسم الزخارف

أسفل خيمته نفسها ... تتأرجح الخيمة

---

(١١٣) ليسيا أوكراينكا. الأعمال الكاملة في ثلاثة أجزاء. الجزء الأول. ص ١٤١ – ١٤٧، ٢٢٦ – ٢٣٠. الجزء الثاني. ص ٩٦ – ١٠٢. الجزء الثالث. ص ٣٣٨.

(*) أفرا : الأرجح أنها "عفرة" استنادا إلى سياق القصائد. ولعل الشاعرة استمعت إليها بالعربية ممن أحاطوا بها آنذاك. (المترجم).

تهب الريح الحارة عبر قماشها

الهواء يجفف العرق ليكمل هبوبه عبر السهوب

يهب مرة ثانية ... ومرة ثانية تتنفس الصحراء(١١٤).

وقد نالت أعمال ليسيا أوكراينكا، التي تناولت موضوعات مصرية استحسانًا رفيعًا من جانب النقاد. وقد أشارت الأستاذة المجرية يفا جريجاسي كاكوشي إلى ذلك بقولها: "تعد الموضوعات المصرية القديمة جزءًا أصيلاً في العديد من المؤلفات الأدبية الشهيرة. يكفي أن تتذكر شيلر وجوته وشيلي في هذا المجال. لكن أحدًا منهم لم يُظهر مثل هذا الحب تجاه الشعب المصري، مثلما أظهرته ليسيا أوكراينكا"(١١٥).

كانت الشاعرة مفتونة بمصر. تقول في خطابها إلى الكاتبة أ. ي. كوبيلينسكايا المؤرخ التاسع من مايو١٩١٣، وهي في طريق عودتها إلى روسيا: "شخص ما يقول وهو يغادر مصر: ترى هل سأراها مرة أخرى؟ وآخر سيقول، سيكون رائعًا، إذا ما استطاع شخص ما هو وشخص ما آخر أن يعودا معًا يومًا ما فيبحرا في النيل، بعد أن يستأجرا دهبية، إلى أن يصلا إلى الأطلال المقدسة في الأقصر والكرنك وإسنا وفيله"(١١٦). ولكن هيهات، فما كان لهذا الحلم أن يتحقق، إذ سرعان ما وافت المنية ليسيا أوكراينكا بعد عودتها بقليل إلى الوطن.

---

(١١٤) المصدر السابق. الجزء الأول. ص ٢٢٧ .

(١١٥) "The Egyptian Mail". 13 April 1996.

(١١٦) ليسيا أوكراينكا. الأعمال الكاملة في ثلاثة أجزاء. الجزء الثالث. ص ٣٦٠ .

وها هو الشاعر أندريه بيلي (١٨٨٠ – ١٩٣٤) يكتب من تونس في السادس من فبراير عام ١٩١١ إلى م. ك. موروزوفا قائلاً: "أحلم بمصر!"، وبعد شهر واحد إذا به يحقق حلمه. في الرابع عشر من أبريل كتب الشاعر إلى موروزوفا من القدس خطابًا جاء فيه: "مصر القديمة تتجلى رائعة في القاهرة، الصحراء، الأهرامات، نهر النيل وواديه. القاهرة ذاتها بشعة. المدينة القديمة انحطاط لكل ما هو عربي حقيقي، أما القاهرة الأوربية فهي أسوأ حالاً: قذارة، سناج الكيروسين المتصاعد من السيارات، الفلاحون اللصوص. الرأسماليون المتعجرفون القادمون من كل أنحاء الدنيا، يعيشون هنا حياة وحشية مع باقي الشخصيات الهمجية القادمة من أرجاء الأرض. ليكوّنوا جميعًا كتلة من الحثالة الغليظة". وقد وصل أندريه بيلي إلى استنتاج شديد الأهمية نتيجة رحلته المتصلة التي بدأها إلى أوربا، ثم إلى الشرق الأوسط ويقول بيلي في خطابه إلى موروزوفا: "كم كان لرحلتنا مغزى تنويري: سافرنا من روسيا إلى الغرب، وعدنا إلى روسيا قادمين من الشرق. لقد ذهبنا للبحث عن الغرب، فإذا بنا أمام الشرق. يا إلهي، إلى أي حد هم أموات هؤلاء الأجانب: ليس لديهم كلمة واحدة تنم عن الذكاء، ولا التفاتة تدل على انفعال صادق. المال، المال، ثم المال والحسابات الخالية من العواطف... الثقافة الأوربية وهم من اختراع روسيا؛ هناك حضارة في الغرب، لا توجد ثقافة غربية بمعني الكلمة في فكرنا، الثقافة بمعناها الحقيقي موجودة في روسيا فقط. سأعود إلى روسيا أكثر روسية عشرة أضعاف"(١١٧).

(١١٧) أندريه بيلي. كأس من الثلج. موسكو، ١٩٩٧. ص ١٩ ، ٢٠ .

لم تنعكس رحلة أندريه بيلي إلى مصر في إبداعه. ولعل السبب في ذلك يرجع، كما أشار الشاعر نفسه إلى ذلك في عام ١٩٣١ بقوله: "دائما ما أكتب الشعر في الأوقات الكئيبة من حياتي"[١١٨]. وقد كانت الفترة التي تلت رحلته بصحبة زوجته الشابة آسيا تورجينيفا إلى تونس ومصر وفلسطين من أسعد الفترات بالنسبة له.

في نهاية عام ١٩١٢ ومطلع عام ١٩١٣ قام الأمير **العظيم قنسطنطين قنسطنطينوفيتش رومانوف** (١٨٥٨ – ١٩١٥). وكان يوقع، كما هو معروف، على أعماله باسم مستعار هو"ق. ر". حازت أشعار قنسطنطين رومانوف في حينها على شعبية كبيرة. فقد بلغت القصائد التي تم تلحينها نحو سبعين قصيدة ؛ كما قام بيوتر تشايكوفسكي بتلحين ست أغنيات عاطفية منها.

جاء قنسطنطين رومانوف في البداية إلى حلوان للاستجمام والاستشفاء، ثم قضى بعد ذلك خمسة أسابيع في أسوان، وثلاثة أخرى في الأقصر وأسبوعًا واحدًا في القاهرة. وفي الرابع عشر من ديسمبر عام ١٩١٢ يكتب الشاعر خطابًا من حلوان إلى أناطولي فيودوروفيتش كوني يقول فيه: "هكذا خلق الله الإنسان، لا يمكنه أن يقدّر ما بين يديه في اللحظة الراهنة على نحو كاف. لذا تجدني لا أستمتع هنا بالهدوء والألوان، أو بالصحراء الشاسعة الممتدة، ولا برؤية الأهرام من خلال جذوع أشجار النخيل الرشيقة الممتدة على جانب النهر. هذه الأهرامات هي قبور الفراعنة في ممفيس، أولئك الذين حلموا بالانتصار بواسطتها على الخلود. أشعر بخوف لا إرادي من فكرة بقائي هنا نصف عام آخر إلى أن يحين موعد العودة إلى الوطن. شمس أفريقيا لم تشعل بداخلي جذوة الإلهام"[١١٩].

---

(١١٨) أندريه بيلي. قصائد. موسكو، ١٩٨٨. ص ٥٣١ .
(١١٩) ق. ر. يوميات. مذكرات. أشعار. خطابات. ص ٤٢٨.

على أنه ومع استمرار الرحلة إذا بمزاج قنسطنطين رومانوف يتغير، وها هو في التاسع من مارس ١٩١٣ يكتب إلى كوني: "خلال هذا الشهر زارتني ربة الشعر. كتبت قصيدتين كبيرتين استلهمتهما من مصر، وددت لو أنهما نالا إعجابك أكثر من تلك القصائد، التي كتبها بالمونت تحت سماء الجنوب ذاتها، والتي يُعد أفضل ما فيها، من وجهة نظري، هو ذلك الإحساس الدافئ تجاه الوطن البعيد . لكن الشعر نفسه يغيب عنها، ليحل بدلاً منه نوع من الهستيريا"[١٢٠]. وهكذا نرى أن الشعراء الروس قد دخلوا أيضًا في منافسة حول من منهم الذي كتب أشعارًا أفضل عن مصر.

أثمرت رحلة قنسطنطين رومانوف عن إبداعه لديوان شعر حمل اسم "في مصر"، صدر في سبتمبر عام ١٩١٣ في مجلة "نيفا"[١٢١]. ضم هذا الديوان قصائد "المساء"، "رحلة عبر النيل"، "في مملكة الفراعنة". والأبيات التالية من قصيدة "في مملكة الفراعنة" كُتبت في الأقصر في التاسع عشر من فبراير ١٩١٣:

عليه أن يشكر القدر على ما به من سعادة

من شاهد بعينيه وطن المعجزات

حيث السماوات من فوقه صافية

رائقة لا تعكر صفوها غيوم.

في مطلع العام التالي ١٩١٤، قضى قنسطنطين رومانوف ما يزيد على شهر في مدينته المفضلة أسوان. ولا نعرف إن كان قد كتب عن مصر في بعض من أشعاره أم لا. لكن الجدير بالذكر أنه كتب أول قصيدة له عن

---

(١٢٠) المصدر السابق. ص ٤٣٢ .
(١٢١) في مصر. أشعار ق. ر. مجلة "نيفا"، العدد ٣٦، ١٩١٣ .

مصر واسمها "أبو الهول" قبل ذلك بكثير، في التاسع من يناير ١٨٨٣ إبان وجوده في أثينا. وفيها يفسر ابتسامة أبي الهول العظيم الرابض في الجيزة، "بأنها تعود إلى هجوع العائلة المقدسة ذات يوم في ظلاله بعد هروبهم إلى مصر قادمين من فلسطين طلبًا للنجاة من مطاردة الملك هيرود، وأن أبا الهول قد أحس بلمسة مخلوق سماوي فابتسم محاولاً أن يصل إلى سر الخلاص"(١٢٢).

تبدو الموضوعات المصرية بالغة الوضوح في إبداع **فاليرى ياكوفلويفيتش بريوسوف** (١٨٧٣ – ١٩٢٤) وإن لم تكن انطباعاته عن رحلته إلى مصر وراء هذا الإبداع. الواقع أن بريوسوف كان مؤرخًا محترفًا، ومن ثم كان مهتمًا، بطبيعة الحال، بالحضارات القديمة، حتى إنه كتب في عام ١٩١٧ بحثًا علميًا بعنوان "معلمو المُعلمين"، كان في الأساس مجموعة من المحاضرات، ألقاها في مطلع العام نفسه في الجامعة الشعبية في موسكو. كان هذا الشاعر المؤرخ يبحث عن المصدر الأول للحضارة الإنسانية بما فيها قارة أطلانتيس(*)، وحتى يُثبت ذلك قارن بين الثقافات القديمة، وقد وجد أن هناك الكثير من الأمور المشتركة بينها(١٢٣).

تصدى بريوسوف لاستكمال قصيدة "كليوباترا" من رواية بوشكين الشعرية "ليالي مصرية". ويشير فاليري ياكوفلويفيتش إلى أن "بوشكين لم يكمل قصيدته، لكنه قدَّم لنا، أي إغواء هائل، أي قوة مرعبة تواجه الجنس البشري متخفية في حب الشهوات، كما عرض علينا كيف أن البشر لديهم

---

(١٢٢) أشعار ق. ر. الطبعة الثانية. ١٨٧٩ – ١٨٨٥. سان بطرسبورج، ١٨٨٩. ص ٩٨ .

(*) قارة أطلنطيس: قارة خرافية في المحيط الأطلسي غربي جبل طارق. قيل إنها غرقت في أعماق المحيط. (المترجم).

(١٢٣) فاليرى بريوسوف. الأعمال الكاملة في سبعة أجزاء. موسكو، ١٩٧٣ – ١٩٧٥. الجزء السابع.

الاستعداد للاندفاع نحو هذه الهاوية المظلمة، حتى لو اضطروا لدفع حيـاتهم ثمنًا لذلك. وقد ألمح بوشكين إلى القرابة الغامضة بين الهوة والموت. لكـن القدر لم يمهله حتى يكمل ما بدأه. لقد أخذ معه أسرار قصيدته"[١٢٤]. استغرق بريوسوف عامين في عمله (١٩١٤ - ١٩١٦) ونال تقدير النقاد وثناء مكسيم جوركي عليه.

تميزت الموضوعات المصرية التي ضمَّنها بريوسوف قصائده بـإبراز الجوانب التاريخية بالدرجة الأولى. ولعل قصيدته "مصر" من ديوان "إكليـل من السوناتات" (١٩١٨) هي واحدة من أفضل قصائده.

يمضي الإنسان عمره بحثًا عن لغز الحياة

محتفظًا بأسرار العماليق الغابرين

وفي هذا البلد ذي الرمال المترامية الأطراف

يروي النيل بمياهه الدفّاقة الصحاري الشاسعة

وبالجهد والصبر والدأب الخارق

بُنيت هنا العديد من المقابر الحجرية

حيث صمتت الحقيقة بداخلها إلى الأبد

إن هيئتها وحدودها وما بينها من علاقات

تشي بأنها لم تأت عفو الخاطر

لقد بلغت مصر هدفها السامي

ولا تزال ألواح الأهرامات

---

(١٢٤) المصدر السابق. الجزء الثالث. ص ٦٢٢.

تحفظ العهود الحية لأطلنتس الزائلة

لقد خطَّ الإله توت كلمات الكتب العملاقة

لكي تنتشر سطوة العقل عبر العالم

من خلال الأرقام ثلاثة، واثني عشر وأربعة[١٢٥].

أشرنا في الفصول السابقة إلى وفرة المراجع التي كُتبت عن مصر في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. وسنرى أن الموضوعات المصرية قُدمت على نطاق واسع أيضًا في إبداع العديد من الأدباء واسعي الشهرة في تلك الفترة. وهؤلاء كان لأعمالهم جمهور عريض من القراء، يفوق بكثير أعداد المهتمين بأعمال الرحالة. المحصلة أن معرفة مصر وحضارتها القديمة أصبحتا جزءًا لا يتجزأ من الثقافة الروسية في ذلك الزمن. ليس ذلك فحسب، وإنما أصبحت هذه المعرفة جزءًا من الحياة الروسية اليومية، إذا ما تذكرنا في هذا السياق "الأسلوب المصري" في العمارة الروسية والفن التطبيقي، وفي العديد من المقتنيات الخاصة والمجموعات المتحفية للآثار المصرية.

إن هذا الاستنتاج، في رأينا، تؤكده الواقعة التالية، فالبروفيسور فيليب فيليبوفيتش بريؤبروجينسكي، بطل رواية **ميخائيل أفاناسيفيتش بولجاكوف** (١٨٩١ – ١٩٤٠) "قلب كلب"، التي كُتبت في عام ١٩٢٥، يغني "إلى ضفاف النيل المقدسة" ثم ينطلق لمشاهدة أوبرا "عايدة"[١٢٦]. إن البطل هنا يمثل نموذجًا عاما لمثقفي ما قبل الثورة. أما أوبرا "عايدة" فهي مأخوذة عن قصة مصرية قديمة قام فردي بوضع ألحانها بناء على طلب من حاكم مصر.

---

(١٢٥) المصدر السابق. ص ٣٨٤ .

(١٢٦) ميخائيل بولجاكوف. قصص، قصص قصيرة. مقالات هجائية. موسكو، ١٩٨٨. ص ٣٣٨.

الفصل الثالث
نشأة الجالية الروسية في مصر
ووضعها في مطلع القرن العشرين

بدأ مواطنو الإمبراطورية الروسية في التوافد على مصر للإقامة بها منذ مطلع القرن التاسع عشر. على أن هؤلاء الذين جاءوا للعيش على ضفاف النيل لم يكونوا سوى قلة قليلة، ولم يكن من بينهم أناس مرموقون على نحو ما. وتشير بيانات القنصلية الروسية أن عدد المواطنين الروس الذين كانوا مقيمين في مصر في عام ١٨٣٠ لم يتجاوز ٢٦ مواطنًا إجمالا[١].

وقد اختلفت الأسباب التي قادت بعضًا من الروس إلى مصر ما بين الرغبة في الانخراط في العمل في الأماكن المقدسة في سيناء، إلى الاهتمام بالتجارة أونتيجة للعلاقات الاجتماعية. وقد أشار أ. أومانيتس، الذي جاء إلى القاهرة في عام ١٨٤٣، في كتابه إلى أن الترجمان الذي كان يترجم عن اللغتين اليونانية والعربية، وكان مقيمًا في فرع لدير سيناء، كان روسيٌ من موسكو ويدعى ماتفي. كما عاش بالقرب من نفس المكان تاجر روسي آخر يدعى آفيروف. وقد مارس الأخير التجارة مع مصر لعدة عقود. وقد أشرنا سابقًا إلى أن آفيروف تحديدًا، وهو من مدينة ساراتوف، كان لديه في مطلع

---

(١) أرشيف السياسة للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ٨٢٠ /٢، وثيقة ٣٥، صحيفة ١٢ .

العشرينيات من القرن التاسع عشر عدد من التوابيت الخشبية باعها لمؤسسي المتحف المصري في بطرسبورج[٢]. وقد أقام كل من د. ل. موردوفتسيف، الذي زار القاهرة عام ١٨٨٠. وأ. كوبتيف، الذي زارها في عام ١٨٨٧ في فندق "Hotel Royal"، وكان ملكًا لفرنسي يدعى رومان، متزوج من يهودية من أوديسا تدعى ماريا بتروفنا جاءت من روسيا في منتصف الخمسينيات[٣].

لم تكن للجالية الروسية كنيستها الخاصة بسبب قلة أعدادها. ومن ثم فقد كان الروس الأرثوذكس يترددون على الكنائس اليونانية. وقد أسهم المواطنون الروس إسهامًا كبيرًا في بناء مجمع البطريركية السكندرية اليونانية الجديد في حي الحمزاوي بالقاهرة، الذى افتتح في السادس والعشرين من نوفمبر عام ١٨٣٩. بلغت تكلفة بناء البطريركية ٤٥٠ ألف قرش؛ بالإضافة إلى مائة ألف أخرى كانت مدينة بها "الجمعية الفلسطينية" البطريركية السكندرية عن الفترة من ١٧٨١ إلى ١٨٣٤ تبرعت بها روسيا. وقد أسهم في هذه التبرعات الإمبراطور نيكولاي بنفسه وكذلك السينودوس المقدس وكل من أ. ن. مورافييف والأميرة أ. أ. أرلوفا. وقد تم على نفقة الأخيرة رسم أيقونات في كاتدرائية يورييفسكي من أجل كنيسة القديس نيكولاي البطريركية[٤].

---

(٢) أ. أوماتيتس. مصدر سابق. ص ٢٤، ٢٦ .

(٣) د. ل. موردوفتسيف. رحلة إلى الأهرامات. سان بطرسبورج، ١٨٨١. ص ١٢٥؛ أ. كوبتيف ذكريات عن رحلة إلى القسطنطينية والقاهرة والقدس في عام ١٨٨٧ . سان بطرسبورج، ١٨٨٨. ص ٤٩ .

(٤) بعد إقامة العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفيتي ومصر في السادس والعشرين من أغسطس ١٩٤٣ سلّم س. ب. رازوموفسكي (١٨٧٥ – ١٩٤٧)، المسئول عن حفظ الأراشيف الدبلوماسية الروسية كل الوثائق إلى البعثة السوفيتية التي سلمتها بدورها إلى أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية في موسكو.

في عام ١٨٦١ أسس التاجران الأخوان رافاييل وحنانيا العابد، وهما مواطنان روسيان يونانيان، مدرسة خاصة، وهباها لتكون تحت رعاية روسيا. وقد ورد في ديباجة لائحة المدرسة أنها "سوف تكون متاحة بالمجان للأطفال الذكور من كل القوميات من الراغبين في التعلم". وجاء في اللائحة أيضًا أن المدرسة "مخصصة أساسًا للأطفال أصحاب العقيدة الأرثوذكسية، ولكنها تقبل في نفس الوقت الأطفال من أصحاب الديانات الأخرى أيضًا". وبناء على هذه اللائحة، فإن رئيس الأساقفة السيناوي يعد رئيس مجلس الرعاة. أما تمويل المدرسة فيتم عن طريق الحصول على نسبة من أموال الأخوين عابد[٥]. لا تزال هذه المدرسة قائمة حتى الآن (المدرسة العبيدية – المترجم)، وقد تخرج فيها آلاف الطلاب على مدى قرن ونصف قرن، ومن بينهم طلاب مصريون، كما جرى تدريس اللغة الروسية فيها، إلى جانب اللغتين اليونانية والعربية[٦].

حتى منتصف الثمانينيات ظلت أعداد المنتمين إلى الجالية الروسية تزداد ببطء شديد. وقد نوّه القنصل العام الروسي في مصر، إ. أ. ليكس، في تقريره عن عام ١٨٨١، إلى أن هناك ٥٢ مواطنًا روسيا يعيشون في الإسكندرية، ٣٦ في القاهرة و٢٠ في باقي المدن والمحافظات. وقد وُجدت مراكز تجارية روسية في القاهرة والسويس وطنطا[٧]. أما في عام ١٨٩٧، وبناءً على الاحصاءات المصرية فقد تجاوز عدد أبناء الجالية الروسية ثلاثة آلاف شخص[٨]. ويعود السبب الرئيسي في هذه الزيارة السريعة، على ما يبدو، إلى الأحداث التي كانت تجري آنذاك في روسيا.

---

(٥) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ١/٨٢٠، وثيقة ٦٦٥، وثيقة ٢ – ٤.

(٦) "جورنال موسكوفسكوى بطريرخي" ("مجلة بطريركية موسكو"). العدد ٤، ١٩٦٩. ص ٥٦ .

(٧) مصر في عيون الروس. ص ١٢٥، ١٢٦ .

(٨) ج. ف. جورياتشكين، ت. ج. جريتسينكو، أ. إ. فومين. المهجر الروسي في مصر وتونس (١٩٢٠ – ١٩٣٩). موسكو، ٢٠٠٠. ص ٦ .

نشأة الجالية الروسية

في تقريره عن المهاجرين الروس في مصر، كتب ف. ف. بيللين، وهو ابن مدير العيادة الروسية في مصر يقول: "قبل وصول اللاجئين الروس إلى مصر في عام ١٩٢٠، كانت هناك بالفعل مستعمرة صغيرة مكونة من التجار اليهود وعدد من الأوكرانيين والسائحين الذين تخلفوا بعد انتهاء الحرب، والحجاج العائدين من فلسطين، وكذلك مرضى الصدر الذين أرسلوا إلى مصحات حلوان للاستشفاء"(٩).

من هذه الشهادة التي أدلى بها شاهد عيان، يتضح لنا أن الجالية الروسية التي استقرت في مصر كانت وفقا لتركيبها القومي يهودية بامتياز. وهناك أدلة أخرى تؤكد هذا الاستنتاج، فقبيل عام ١٩٢٢ لم تكن هناك أي كنائس روسية لا في القاهرة، ولا في الإسكندرية. والأرجح أن ذلك كان بسبب أنه لم تكن هناك حاجة إليها لضآلة عدد الأرثوذكس الروس. وقد عملتُ إبان اشتغالي بوصف جبانة الروس في مصر إلى لفت الانتباه إلى حقيقة مفادها؛ أن المقابر الروسية في الجبانات الأرثوذكسية كانت حتى عام ١٩٢٠ تعد على الأصابع.

إن ما يؤكد هذا الاستنتاج موجود أيضًا في وثائق الدبلوماسيين الروس الذين عملوا في مصر. في الثالث من مارس ١٩١٥ كتب س. زويف، نائب القنصل الروسي في القاهرة إلى السفير أ. أ. سميرنوف يقول: "إن ٩٠٪ من المواطنين الروس في دائرة اختصاصي ينتمون تحديدًا إلى اليهود"(١٠).

---

(٩) ف. ف. بيللين. حياة الروس في مصر. ب. ي. كوفاليفسكي. روسيا في المهجر. باريس، ١٩٧١. ص ٣٢٠ .

(١٠) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ٣/٨٢٠، وثيقة ٥٠٦. صحيفة ٥٣ .

وقد تكرر المشهد بحذافيره تقريبًا في الإسكندرية أيضًا، فقد كتب قنصل الإسكندرية أز م. بتروف إلى سميرنوف في الخامس والعشرين من يوليو ١٩١٦ يقول: "إن كل المتهربين من الخدمة العسكرية، باستثناء عدد قليل، هم من اليهود"[١١]. زد على ذلك أن نسبة اليهود في الجالية الروسية قد ازدادت بشكل ملحوظ إبان سنوات الحرب العالمية الأولى بسبب المهاجرين من فلسطين[١٢].

وهناك مسوغ دامغ لافتراض أن الزيادة الحادة في أعداد الجالية الروسية في مصر في أواخر القرن التاسع عشر جاءت بصورة أساسية نتيجة لهجرة اليهود التي بدأت من روسيا، ففي إبريل عام ١٨٨١، أي بعد مصرع الإمبراطور الكسندر الثاني، اندلعت في جنوب غرب روسيا موجة من المذابح استهدفت اليهود. وفي ربيع العام التالي تجددت المذابح، وإن كانت على نطاق أصغر. يشير الكاتب الكسندر سولجينيتسين قائلاً: "انتشرت بين اليهود الروس، بدرجة ليست كبيرة، حركة الفلسطينوفيل، أي نزعة العودة إلى فلسطين، وقد استشرت هذه النزعة بعد عامي ١٨٨١ و١٨٨٢"[١٣].

بالإضافة إلى ما سبق يمكن القول إن سبب الهجرة لم يكن، ربما، المذابح التي وقعت لليهود، بقدر ما كان ازدياد حدة "المسألة اليهودية" في روسيا في ذلك الوقت، ناهيك عن أن فلسطين لم تكن الوجهة المفضلة للهجرة. وإنما كان التيار الرئيسي لها يسير باتجاه الولايات المتحدة

---

(١١) المصدر السابق. وثيقة ٥٠٨، صحيفة ٥٥ أ ب .
(١٢) سوف نتناول هذا الموضوع تفصيلا في نهاية هذا الفصل.
(١٣) الكسندر سولجينستسين. مائتا عام معًا. الجزء الأول. موسكو، ٢٠٠١، ص ٢٥٥.

الأمريكية. وفي الثمانينيات كان هناك ١٥ ألف يهودي في المتوسط يهاجرون من روسيا، وفي التسعينيات وصل الرقم إلى ٣٠ ألف[١٤]. أما عدد السكان اليهود في فلسطين فقد ازداد منذ منتصف إلى نهاية القرن التاسع عشر من ١٢ إلى ٢٥ ألف نسمة بفضل الهجرة من روسيا بشكل أساسي[١٥]. وكان اليهود الروس تحديدًا هم أول من أسس الكيبوتزات هناك.

في الوقت نفسه كانت فلسطين، بوصفها مكانًا لهجرة اليهود تمتلك عيبًا جوهريًا وحيدًا، تمثل في إدارة الأتراك لها بشكل كلي. كان هذا العيب قد ظهر جليًا في بداية التسعينيات، عندما منعت تركيا اليهود الروس من النزول في الموانئ الفلسطينية[١٦]. الأرجح أن هذا القرار هوالذى حوّل تيار المهاجرين إلى مصر المجاورة. كانت مصر تمثل، بالإضافة إلى قربها من فلسطين، عامل جذب لليهود الروس لثلاثة أسباب: الأول، كانت هناك باخرة تقوم من أوديسا إلى الإسكندرية أسبوعيًا، وكانت تذاكر السفر زهيدة السعر، أي أن السفر إلى مصر كان سهلاً ومُيسَّرًا. ثانيا، كانت مصر، شأنها شأن فلسطين، تطبق نظام الامتيازات الأجنبية بالنسبة للروس منذ عام ١٧٧٤، بعد هزيمة الإمبراطورية العثمانية في حربها مع روسيا[١٧]. أي أن هؤلاء لن يقعوا تحت طائلة الأحكام القضائية للسلطات المحلية، الأمر الذي يوفره لهم نظام الامتيازات؛ فضلاً عن إنجلترا، التي تحتل مصر، لا تركيا، كانت الضامن لهذه الامتيازات. ثالثًا، كانت هناك جالية يهودية في مصر، ليست بالكبيرة لكنها كانت مزدهرة، ومن ثم كان من السهل الاندماج من خلالها في الحياة المحلية.

(١٤) المصدر السابق. ص ٣٠٩.
(١٥) المصدر السابق. ص ٢٥٥.
(١٦) المصدر السابق. ص ٢٥٧.
(١٧) مجلة "آسيا وأفريقيا اليوم" ، العدد ٩، ١٩٨٩. ص ٣٣.

من الواضح أن اليهود باتوا يهاجرون من روسيا إلى مصر في مجموعات كبيرة، الأمر الذي يؤكده وصول ٤٠٠ شخص دفعة واحدة إلى مصر في عام ١٨٩٣ قادمين من سميرنا[١٨].

وقد ظل اليهود يغادرون روسيا تباعًا إلى مصر بعد ذلك أيضًا. يقول إ. إ. بوزانوف، الذي كان يعيش في مصر في عام ١٩١٠، إن صاحبة فندق "Hotel de la Post" في القاهرة، حيث كان يقيم، "كانت يهودية من أوديسا، هربت من المذابح العنيفة التي اجتاحت المدينة في عام ١٩٠٥"[١٩].

على أن الجالية الروسية لم تتكون بفضل اللاجئين اليهود وحدهم، فقد استقر في مصر ممثلو قوميات أخرى مثل الروس والأوكرانيين والأرمن واليونانيين والبولنديين بشكل محدد. وقد ساعد في ذلك الاتساع المطَّرِد في العلاقات السياسية والتجارية والثقافية بين روسيا ومصر. بحلول القرن العشرين أقيمت في مصر الوكالة الدبلوماسية الإمبراطورية والقنصلية العامة في القاهرة، وقنصليتا الإسكندرية وبورسعيد، وقنصليات بالنيابة في القاهرة والسويس ودمياط والمنصورة والزقازيق. وقد وُجدت القنصليات الروسية أيضًا في طنطا وأسيوط وجرجا وقنا وإسنا والأقصر وسوهاج وبني سويف والمنيا[٢٠]. وكما أشرنا من قبل فقد كان للسياحة العلاجية والثقافية حضور واسع. كانت البواخر الروسية تمر بشكل منتظم بميناءي الإسكندرية

---

(١٨) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ١٤٩، قائمة ٥٠٢ أ، وثيقة ١٢٢٧، صحيفة ١.

(١٩) إ. بوزانوف. بين النيل والبحر الأحمر. موسكو، ١٩٥٦. ص ٧٢.

(٢٠) مصر في عيون الروس. ص ٣١٤ ، ٣١٥.

وبورسعيد، وكانت تستخدم قناة السويس بشكل حيوي. وقد استدعي ذلك ضرورة إنشاء تمثيل لشركة الملاحة والتجارة والأسطول الطوعي، وكذلك شركة "روسيا" للتأمين. وقد أسست بعض الشركات الروسية، التي كانت تمارس التجارة مع مصر وكالات لها مثل شركة مانتاشيف لصناعة النفط على سبيل المثال. كما افتتح في القاهرة في عام ١٩٠٥ مكتب لوكالة سان بطرسبورج للبرق(٢١).

في أواخر القرن التاسع عشر استقر في مصر الطبيبان سيرجي وأخوه جيورجي فارونوف. كان سيرجي يعمل مستشارًا للخديو للشئون الطبية، بينما عمل جيورجي جرَّاحا في القاهرة. ومنذ عام ١٩٠٨ شرع الأخوان فارونوف في إصدار صحيفة باللغة الفرنسية مرتين شهريا باسم "صحيفة مصر الطبية"، أما في عام ١٩١١ فقد انضما إلى مؤسسي نقابة الأطباء(٢٢).

وفي حلوان في مطلع القرن العشرين، كان بنسيون "فاندا" يتمتع بشعبية كبيرة في أوساط الروس الذين جاءوا للاستشفاء. كانت صاحبته مواطنة روسية بولندية تدعى فاندا بيلينسكايا، أما الطاهي فكان من أوكرانيا(٢٣).

وكما أشرنا سابقًا، فقد قام الأخوان عابد، الروسيان اليونانيان، بالعمل في التجارة في مصر بصورة نشيطة. ولدى زيارته للقاهرة في عام ١٨٩٠ قام ولي العهد الإمبراطوري نيكولاي الثاني بزيارة المدرسة التي أسساها،

---

(٢١) ج. ف. جورياتشكين، ت. ج. حريتسينكو، أ. إ. فومين. المهجر الروسي في مصر وتونس. ص ٨.

(٢٢) المصدر السابق.

(٢٣) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ١٤٩، قائمة ٥٠٢ ب، وثيقة ٢٨٧٨. صحيفة ١.

كما التقى أيضا بممثلي الجالية الروسية. وقدم القنصل العام أباظة(*) الخبز والملح لولي العرش وألقي كلمة جاء فيها: "منذ قديم الأزل والخبز والملح يعبران في روسيا عن مشاعر الإخلاص اللا متناهية من جانب الشعب تجاه العرش والوطن. إن الأسرة الروسية في مصر، التي تحافظ على عهدها للوطن وهي على ضفاف النيل البعيد، وتشعر بالسعادة الغامرة وهي تضع هذه المشاعر عند أقدام مليكها البكر المحبوب"(٢٤).

إذا كان تعداد الجالية الروسية لم يتجاوز ثلاثة آلاف نسمة في عام ١٨٩٧، فقد تراجع بعد عشر سنوات، بناء على الإحصاءات المصرية، ليصبح ألفين وأربعمائة ألف نسمة(٢٥). وهو أمر مستبعد من جانبنا. فقد جاء هذا التراجع نتيجة سفر جزء من المواطنين من الروس. الأرجح أن ما حدث يمكن أن يعود، إذا ما وضعنا في اعتبارنا تركيبة الجالية الروسية، لاندماج هذه الجالية اندماجا طبيعيا مع المجتمع. وهناك حالات معروفة عن مواطنين روس حصلوا على الجنسية المصرية بمرور الوقت.

كان من الخصائص المميزة لنشأة الجالية الروسية في مصر أنها، في معظمها، كانت كارهة للنظام القيصري في روسيا. وقد سعى الثوريون في مطلع القرن العشرين لاستغلال هذا المزاج لدى الجالية في نقل الصحف والمراجع الماركسية من أوربا إلى روسيا عبر الإسكندرية.

(*) أباظة : عائلة روسية نبيلة. مؤسسها إيليا أندرييفيتش أباظة حفيد محمد باشا أباظة. تقع مدينة أباظة في جمهورية خاكاسيا الروسية على نهر أباكان. (المترجم).

(٢٤) م. دينيسييفسكي. رحلة جلالة ولي العهد الإمبراطوري نيكولاي الكسندروفيتش إلى الشرق. الطبعة الثانية. منقحة ومزيدة. سان بطرسبورج، ١٩٠٠. ص ١٩ ، ٢٠.

(٢٥) ج. ف. جورياتشكين، ت. ج. حريتسينكو ، أ. إ. فومين. مصدر سابق. ص ٦.

أشار مارسيل إسرائيل، أحد قدامى النشطاء في الحركة الشيوعية المصرية، إلى أن "العديد من الروس في مصر، والذين نجوا من الجور والعسف القيصريين في مطلع القرن، كانوا من اليهود. وكان من بينهم بلاشفة أيضا، وقد اكتشف لينين، عندما كان في المهجر في فرنسا وسويسرا، أنه لكي يخدع السلطات القيصرية، يمكنه الاعتماد على بعض من أصدقائه في مصر لنقل مراسلاته إلى روسيا من خلالهم"(٢٦).

تؤكد الوثائق الموجودة في الأراشيف، أنه كان هناك ثوريون بين المهاجرين الروس في مصر. نسوق هنا تقريرين سريين أرسلهما دبلوماسيون روس من القاهرة إلى بطرسبورج حول سفر "شخصيات مشبوهة" إلى روسيا على إثر قيام الثورة الروسية الأولى. وقد جاء في التقرير المؤرخ في السادس من فبراير ١٩٠٥ "أن الأرميني كوتشيرماجيانتس البالغ من العمر ثلاثين عاما، والبولندي بيليانسكي، ويبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاما، سافرا في الرابع من فبراير على متن الباخرة الروسية "تسار" عبر القسطنطينية أو أوديسا إلى باطوم، حيث يبدو أنهما أُرسلا إلى هناك عن طريق اللجنة الأرمينية للقيام بأعمال إرهابية موجهة للسكك الحديدية واغتيال بعض الشخصيات. وقد سافر شريكهما بارتو بالتايان في الرابع والعشرين من بورسعيد إلى جنيف لتسلم وتسليم قنابل إلى روسيا عبر مدينة كراكوف"(٢٧). وفي الثاني والعشرين من فبراير وردت إلى

---

(٢٦) رفعت السعيد. تاريخ الحركة الشيوعية المصرية. الجزء الأول. ١٩٠٠ - ١٩٤٠. القاهرة، ١٩٨٧. ص ٦٩٨. نشر تقرير م. إسرائيل باعتباره ملحقا لهذا البحث.

(٢٧) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ١٥١، قائمة ٤٨٢، وثيقة ٨٥٤، صحيفة ١٢.

عاصمة روسيا برقية مرسلة من القاهرة نصها كالتالي: "وصل إلى أوديسا يوم الجمعة الماضي ثلاثة أشخاص مشبوهين، قادمين من الإسكندرية بهدف التحريض الثوري وهم: ناريس فيليكس فرانسيسكوفيتش ويحمل جواز سفر مصريًا، كازيمير أنطونوفيتش مارينسكي ويحمل جواز سفر تركيًا، وشاب مجهول يُدعى فالوديا ويحمل جواز سفر نمساويًا"(٢٨).

إذا صحَّت المعلومات التي تم الحصول عليها بواسطة العملاء عن الهدف من وراء سفر المهاجرين الثلاثة الأوائل إلى روسيا، فالمؤكد أنهم لم يكونوا، بطبيعة الحال من البلاشفة. أما بالنسبة للمجموعة الثانية، فليست هناك أية معلومات عن انتماءاتهم. على أن مصر آوت في مطلع القرن الماضي تحديدًا عددًا من الثوريين كان بعضهم معروفًا إما للينين شخصيًا، أو للمقربين منه. ويمكن الاستدلال على ذلك استنادًا إلى عملية نقل المراجع والكتب الماركسية وصحيفة "إيسكرا" ("الشرارة") إلى روسيا عبر ميناء الإسكندرية.

في مطلع أغسطس كتب لينين وزوجته كروبسكايا خطابًا إلى ل. ي. جالبيرين في باكو جاء فيه للمرة الأولى على ذكر خطة نقل "إيسكرا" عبر الإسكندرية، على أنه ولأسباب غير واضحة نحيت هذه الخطة ستة أشهر(٢٩). وفي ٣٠ مارس ١٩٠٢ فقط كتبت كروبسكايا إلى ج. م. كيرجيجانوفسكي، أن الطريق عبر مصر يعمل وأن أناسًا من مدينة خيرسون يقومون على تنظيمه(٣٠).

---

(٢٨) المصدر السابق. وثيقة ٨٥٥، صحيفة ٤.
(٢٩) مراسلات فلاديمير إيليتش لينين مع هيئة تحرير صحيفة "إيسكرا" والمنظمات الاشتراكية الديمقراطية في روسيا. ١٩٠٠ – ١٩٠٣. المجلد الأول ، موسكو، ١٩٦٩. ص ١٨٥، ٥٦٨.
(٣٠) المصدر السابق. ص ٤٥٨.

توقف العمل على "الطريق المصري"، الذي كان يستخدم لنقل طبعات صحيفة "إيسكرا" لمدة تزيد على نصف عام، وذلك بسبب النشاط الدائب للحرس القيصري في الإسكندرية، ولم يعد موجودا ضمن الطرق الرئيسية، وقد ورد الحديث عنه في العديد من أعمال الباحثين الروس وبشكل تفصيلي(٣١)، بما في ذلك عدد الطرود التي أرسلت ووزنها ونوع المراجع، ومن الذي نقل ومن الذي استقبل في الموانئ الروسية، ومتى وكيف تم اكتشاف السلطات القيصرية لها. ولهذا فإننا لن نتوقف عند هذه الأسئلة بطبيعة الحال. الأمر الذي كان يمثل أهمية بالنسبة لنا هو من الذي قام على تنظيم "الطريق المصري" وهو ما لم نتمكن، للأسف، من الحصول على أية معلومات بشأنه، باستثناء ما علمناه من أن المدعو أوسيب ميخايلوفيتش يوزيفوفيتش، وكان يحمل الجنسية الروسية، كان صاحبًا لحانة تسمى "سيفاستوبول"، كانت هي نقطة العبور للمطبوعات المحظورة. كانت الحانة تقع غير بعيد عن الميناء، وكان أغلب المترددين عليها من البحارة الروس.

في نهاية شهر نوفمبر في عام ١٩٠٢ وصلت رسالتان غُفلاً من التوقيع على عنوان رئيس مدينة أوديسا ورئيس إدارة الشرطة في المدينة، بنفس الخط وبنفس المضمون . تقول الرسالتان أن حانة "سيفاستوبول" هي "وكر للاشتراكيين" و"مخزن للجماعة الاشتراكية الديمقراطية"، وأن يوزيفوفيتش هو الذي "يُشيع الاضطرابات في روسيا بأسرها" على مدى اثنين

---

(٣١) انظر: ج. ف. جورياتشكين "الطريق المصري" لمطبوعات "إيسكرا" إلى روسيا. مجلة "فيستنيك موسكوفسكفا أونيفيرسيتيتا" ("بشير جامعة موسكو"). السلسلة ١٣. الاستشراق، ١٩٨٧، العدد الأول. ص ٣ – ١١، م. فرينكيل. صحيفة "إيسكرا" اللينينية في مصر. مجلة "آسيا وأفريقيا اليوم"، العدد ١١، ١٩٨٨. ص ٨ – ١٠، فلاديمير بيلياكوف. أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار. ص ٢٠ – ٢٩ .

وعشرين عاما بكتبه الثورية، التي يرسلها على متن كل باخرة. كان صاحب البار يصعد إلى السفن الروسية المتوقفة في ميناء الإسكندرية إبان غياب قياداتها ويوزع على البحارة المراجع المحظورة. وقد اقترح صاحب الرسالتين المجهول اعتقال يوزيفوفيتش وهو على متن السفينة، "وحبسه في قفص مقيدًا بالسلاسل وإحضاره إلى روسيا"، "حتى لا يطلق سراحه البحارة الموالون"(٣٢).

واستنادًا إلى معلومات صاحب الرسائل المجهول، فإن يوزيفوفيتش عاش سنوات طويلة في مصر، وأنه لم يكن اشتراكيًا ديمقراطيًا، ومن ثم لم يكن من العاملين في "إيسكرا". الأرجح أن المنظمين الحقيقيين "لطريق إيسكرا" قد نجحوا في الاتفاق معه على استغلال الحانة كقاعدة للنقل لعلمهم بكراهيته للحكم القيصري. حتى أن ناديجدا كروبسكايا (زوجة لينين) كتبت في الثامن عشر من أكتوبر ١٩٠٢ إلى بحارة خيرسون تقول إن شخصية يوزيفوفيتش تبدو غامضة تمامًا(٣٣).

يرى المجهول صاحب الرسائل، أن صاحب الحانة لم يعتقل، على ما يبدو، بفضل جواز سفره المصري، ولكن تم تفتيش محله، ومُنع البحارة الروس من التردد عليه، وفي أواخر عام ١٩٠٢ اضطر يوزيفوفيتش إلى بيع حانته، كما ذكر القنصل الروسي في الإسكندرية، إلى "الاشتراكي الإيطالي الشهير باروني"(٣٤).

---

(٣٢) ج. ف. جورياتشكين. المرجع السابق. ص ١٠.
(٣٣) مراسلات فلاديمير إيليتش لينين وهيئة صحيفة "إيسكرا" ... الجزء الثاني. موسكو، ١٩٦٩. ص ٣٣٥.
(٣٤) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. الملف ١٥١، قائمة ٤٨٢، وثيقة ٢٤٠٧، صحيفة ١٥.

في عام ١٩٨٧ بذل مؤلف هذا الكتاب محاولة للبحث عن مكان هـذه الحانة في مدينة الإسكندرية بمساعدة بعض المـؤرخين المـصريين. وقـد توصلنا إلى استنتاج مفاده، أن الحانة كانت تقع، على الأرجح، في المنـزل رقم ٢٨ في شارع الكنيسة القبطية[٣٥].

لم يمنع انهيار "الطريق المصري" لصحيفة "إيسكرا" في منتصف عـام ١٩٠٢ الثوريين الروس من التخلي عن فكرة استخدام الإسكندرية باعتبارها قاعدة لنقل المطبوعات المحظورة. يؤكد ذلك أن يوزيفوفيتش، الذي اضـطر لترك محله، لم يعد هو المنظم الرئيسي "للطريق المصري"، وأن رفاقًا فـي الفكر أهلّ لثقة الاشتراكيين الديمقراطيين بقوا في مصر. ففي ديـسمبر مـن ذلك العام اقترح ب. ج. سميدوفيتش طريقة أخـرى لإرسـال المطبوعـات المحظورة عبر الإسكندرية. فقد رأى سميدوفيتش، كما يشير م. فرينكيل "أن من الممكن جذب كل من فازنانيان وعمه إلى هذا العمل، وهما مـن سـكان الإسكندرية، عن طريق كوزيرنيكو صديقه"[٣٦]. لكن هذا الاقتراح لم يُنفـذ، كما لم تنجح محاولة الاشتراكيين الديمقراطيين في أوديسا من "تنظيم النقـل" عبر الإسكندرية في عام ١٩٠٣[٣٧].

والأرجح أن نشاط الحرس القيصري وقف عقبة كـؤود أمـام هـذه المحاولات.

---

(٣٥) فـلاديمير بيلياكوف. أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار. ص ٢٥ – ٢٩.
(٣٦) م. فرينكيل. مصدر سابق. ص ٩.
(٣٧) المصدر السابق.

نستطيع أن نوجز ما سبق في أن الجالية الروسية التي تكونت في مصر مع نهاية القرن التاسع عشر، كانت، أولاً وقبل كل شيء، يهودية من ناحية تركيبتها القومية، ثانيا، أنها كانت معادية للنظام القيصري. تلك كانت خصائصها، كما سنبين ذلك في الفصول التالية، والتي استمرت كما هي حتى نشوب ثورة أكتوبر ووصول اللاجئين الروس إلى مصر في عام ١٩٢٠.

المهاجرون الروس والحركة السياسية في مصر

مع مطلع القرن العشرين وصل عدد الأوربيين الذين استقر بهم المقام في مصر إلى ما يقرب من ربع مليون نسمة. هؤلاء كان دورهم في مسيرة الحياة في البلاد يتجاوز تعدادهم. فهم يتميزون بامتلاك المهارات المتقدمة في الهندسة والتقنية ولديهم عمال مهرة يعملون في شتى المؤسسات. أي أنهم كانوا يمثلون هذا الجزء المستقل من السكان الضروري لنمو البلاد اقتصاديًا، بينما كان نظراؤهم من بين المصريين أنفسهم غير كاف. وقد تركز الأوربيون بصفة أساسية في مدينة الإسكندرية "نافذة مصر على العالم".

يقول إ. بوزانوف، الذي زار الإسكندرية في عام ١٩١٠: "كانت الإسكندرية في مظهرها تترك لدينا انطباعًا أقل طرافة مما تتركه إسطنبول. فالإسكندرية مخططة تخطيطا صحيحًا. مقامة على سطح مستوٍ. بيوتها جميلة على طراز العمارة الأوربية. بها تماثيل ونوافير وميادين مشجرة. سكانها الذين يعتمرون القبعات القصيرة المصنوعة من القش، والذين يضعون الخوذات الاستوائية، يفوقون عددًا الذين يعتمرون الطرابيش والعمائم، وكأنهم

يقولون لنا إن الإسكندرية الحديثة، مثلها مثل الإسكندرية الهيلينيستية، مدينة ليست مصرية، وإنما هي مدينة يونانية، بل هي، إن شئت الدقة، نموذج للمدينة الليفانتية*. كان الأجانب اليونانيون والإيطاليون والفرنسيون يشكلون نصف سكان المدينة البالغ تعدادها ٣٥٠ ألف نسمة"[٣٨].

كان العديد من الأوربيين، الذين استقروا في مصر، يمتلكون خبرة المشاركة في الحركة العمالية في بلادهم. وكانوا على دراية بالأفكار الاشتراكية. وفي مصر أيضًا نشطت كل المنظمات الاشتراكية والأحزاب بما فيها الإيطالية واليونانية. وكما يشير المؤرخ المصري عبد الوهاب بكر، فقد أصبح الأجانب يمثلون نوعًا من المرشدين للعمال المصريين في مجال الأيديولوجيا ومجال الحركة العمالية[٣٩]. كان الأجانب تحديدًا هم أصحاب المبادرة في إنشاء النقابات المهنية الأولى في مصر والتي شارك فيها المصريون.

وقد كان لعدد من ممثلي الجالية الروسية دور في هذا النشاط الفعَّال. يقول المؤرخ المصري رفعت السعيد، إن أول نقابة مهنية لعمال التبغ، تأسست في عام ١٨٩٩ على يد يوسف روزنتال، وهو من أصل روسي. وكان روزنتال، ثم ابنته شارلوت من أبرز الناشطين في الحركة العمالية المصرية، الذين بشروا بالأفكار الاشتراكية. وقد أسس روزنتال فيما بعد جمعية الأبحاث الاجتماعية[٤٠].

(*) الليفانتية: تسمية عامة للبلدان المنتمية للجزء الشرقي من البحر المتوسط: سوريا، لبنان، مصر، تركيا، اليونان، قبرص، فلسطين. (المترجم).

(٣٨) إ. بوزانوف. مرجع سابق. ص ٦٩.

(٣٩) عبد الوهاب بكر. عودة النشاط الشيوعي في مصر. ١٩٢١ – ١٩٥٠. القاهرة، ١٩٨٣، ص ١٧.

(٤٠) رفعت السعيد. تاريخ الحركة الاشتراكية في مصر. ١٩٠٠ – ١٩٢٥. الطبعة الخامسة. القاهرة. ١٩٨١. ص ١٧٤.

شارك المهاجرون الروس في نشاط الحلقات الماركسية، التي نظمهــا الأجانب في مصر. واستنادا إلى معلومات البوليس المصري، فقد كان مــن بين أعضاء حلقة "كلاريتيه" ("الوضوح") ثلاثة أو أربعة ينحدرون من أصول روسية، وكان أحدهم يسمي كوسوفسكي، وقد سُميت الحلقة باسم المجلة التي كانت تصدر في باريس، وكان من بين كُتّابها أناتول فرانس وهنري باربوس ورومان رولان.[٤١].

سار نمو الحركة العمالية وانتشار الأفكار الاشتراكية، التــي اعتنقهــا بعض من ممثلي الإنتليجنسيا المصرية، الذين تأثروا بهذه الأفكار، وخاصــة الذين تلقوا تعليمهم في أوربا، جنبًا إلى جنب مع نموالحركة الوطنية. كــان على رأس هذه الحركة مصطفي كامل (١٨٧٤ – ١٩٠٨)، "الخطيب المفوّه والكاتب الموهوب، العدو الذي لا يستسلم لحكم الانجليز فــي وادي النيــل، والذي استطاع أن يخلق لنفسه مكانة استثنائية، وأن يكون لــه تــأثير بــين المسلمين"، على حد قول أ.أ. سميرنوف، السفير الروســي[٤٢]. وفــي عــام ١٩٠٠ أسس مصطفى كامل صحيفة "اللواء"، التي راح يدعومن خلالها لفكرة التحرر الوطني.

ظل السخط على المستعمرين الإنجليز، الذين كانوا يستغلون مصر أسوأ استغلال يتصاعد على نحو مكتوم في الفترة من ١٩٠٦ حتى ١٩٠٨، وقــد جاءت حادثة دنشواي في عام ١٩٠٦، حيث صدر حكم جائر ضد مجموعة من الفلاحين في دلتا النيل، لتشعل الانتفاضات الشعبية ضد الإنجليز.

---

(٤١) أرشيف العلاقات الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ١٥١، قائمة ٤٨٢، وثيقــة ٨٦٢، صحيفة ١٩٢.

(٤٢) أرشيف العلاقات السياسية الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ١٥١، قائمة ٤٨٢، وثيقة ٨٦٢، صحيفة ١٩٢.

تزامن صعود الحركة الوطنية في مصر مع انهيار الثورة الروسية الأولى. ومن جنوب روسيا إلى مصر هرب عدد من الناشطين المشاركين في الأحداث الثورية، بعد أن تمكنوا من الإفلات من ملاحقة السلطات القيصرية. يصف أ. ف. جيفاجو لقاءه مع أحد أبناء وطنه في الإسكندرية في يناير ١٩١٠ بقوله: "أثناء سيري في أحد الشوارع، إذا بشاب أشقر الشعر، مستدير الوجه، في ريعان الشباب، يسألني بلغة روسية صافية إن كان بإمكاني أن أمد يد المساعدة لبحار يائس من بحارة السفينة "بانتاليمون" التي أعلنت التمرد. وهنا أسرع المرشد يشرح لي : "هذا روسي. إنهم يتصرفون بلباقة تامة، يجلسون حتى وقت متأخر من الليل في مقهى الميناء سيئ السمعة"[٤٣].

كان ماخار بوتسويف "ميشكا" واحدًا من أنشط المشاركين في الثورة، الذين فروا إلى مصر. كان عضوًا في لجنة تنظيم إضراب البحارة في ميناء أوديسا في صيف ١٩٠٦. اعتقل بوتسويف في بداية الإضراب مع نفر آخر من الناشطين، على أن الإضراب سار بنجاح، حتى إن أصحاب السفن اعترفوا بنقابة "ريجستراتسيا" التي أسسها البحارة. وقد أطلق سراح كل المشاركين في الإضراب ما عدا بوتسويف، وحينها أعلن رجال البوليس أنه اعتقل، لا باعتباره عضوا في لجنة الإضراب، وإنما على خلفية "قضية حزبية" لها علاقة بالاشتراكيين الثوريين. الواضح أن بوتسويف كان له نفوذه، كما نوَّه آداموفيتش، بين البحارة، الذين قرروا مواصلة الاضراب حتى يطلق سراحه. لكن يبدو أن قوى المضربين كانت قد استنفدت، ومن ثم قرروا "أنه سيأتي الزمن، الذي يُصفّون فيه حساباتهم من أجل بوتسويف"[٤٤]. وقد نجح بوتسويف في الهروب من السجن ليصل سالمًا إلى الإسكندرية.

(٤٣) أ. ف. جيفاجو. مرجع سابق. ص ١٤٤.

(٤٤) م. آداموفيتش. إضراب صيف عام ١٩٠٦. // مواد في تاريخ الحركة المهنية في روسيا. الإصدار الرابع. موسكو، ١٩٢٥. ص ٢٦٢ – ٢٦٥.

المؤكد أن بوتسويف واصل نشاطه التحريضي على الأراضي المصرية أيضًا بين بحارة السفن الروسية. كان يعرف الكثير منهم معرفة وثيقة بوصفه واحدًا من زعماء الإضراب الذي جرى في أوديسا غير بعيد. وقد كتب السفير الروسي أ. أ. سميرنوف في هذا الصدد إلى بطرسبورج في السادس عشر من يناير ١٩٠٧ يقول: "منذ فترة لاحظت قنصليتنا في الإسكندرية أكثر من مرة أحداثًا مخالفة للانضباط بين بحارة سفن شركة الملاحة والتجارة الروسية، وبناء على ما أبداه القباطنة من ملاحظات، أصبح من الممكن افتراض أن البحارة وقعوا تحت تأثير هذه التأثيرات السلبية تحديدًا، بمجرد وصول بوتسويف إلى الإسكندرية"(٤٥).

أثار نشاط بوتسويف في الإسكندرية، قلق السلطات القيصرية، التي سبق أن حكمت عليه في وطنه بالنفي إلى محافظة أرخانجلسك. وكان لابد من وجود سبب دامغ هنا لاعتقاله. وعندئذ، وبناء على نصيحة هدايت بك، رئيس إدارة حرس الإسكندرية، تم زرع دافيد ماركوفيتش، وكان في السابق مواطنا روسيًا، داخل مجموعة بوتسويف، وكان دافيد في وقت ما مشهورًا بأفكاره الأناركية، وظل على علاقة برفاقه في الفكر، كما كان شأنه شأن بوتسويف ورفاقه، يتردد على الميناء لاستقبال السفن الروسية، ويعبر عن سخطه عن الظلم القيصري، ومن هنا اكتسب ثقة الثوار. وفي السادس من يناير ١٩٠٧ اجتمع اثنا عشر مهاجرًا في شقة ماركوفيتش، ورأس الاجتماع بوتسويف. كان من بين الاقتراحات المُقدمة في سياق خطة الأنشطة، اقتراحا

(٤٥) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ١٥١، قائمة ٤٨٢. وثيقة ٨٥٩، صحيفة ٤.

بتفجير إحدى السفن الروسية وهو ما أيدته الأغلبية، بما فيها بوتسويف، وتم إدراجه في محضر الاجتماع(٤٦).

كتب أ. أباظة، القنصل الروسي في الإسكندرية إلى السفير أ. أ. سميرنوف يقول : "إن ماركوفيتش لم "يُدبِّر" حتى الآن شيئًا يُذكر، وعلى الرغم من ذلك فإن من الضروري أن يستمر، بطبيعة الحال، في أداء دور العميل المحرض بعض الوقت"(٤٧). وقد أعرب القنصل أيضًا عن شكوكه في جدية الفكرة التي طرحها بوتسويف بشأن تفجير الباخرة. ويؤكد أباظة في خطابه "... أن أمرًا ما يتم تدبيره في الإسكندرية، هل سيجري بالفعل تفجير السفينة "كوروليفا أولجا" ("الملكة أولجا") تحديدًا، يجب في رأيي الشخصي أن تنتهي العملية سلبًا"(٤٨). وفي الوقت نفسه، واستنادا إلى تقرير ماركوفيتش، فقد طلبت القنصلية من السلطات المصرية إلقاء القبض على بوتسويف واثنين آخرين من مجموعته، فولف بلوتنيك وبيكو بونتمان. وفي الثالث عشر من يناير، تم اعتقال الجميع أثناء اجتماعهم الثاني(٤٩).

وفي رسالته التي بعث بها إلى بطرسبورج بشأن هذا الاعتقال، كتب أ. أ. سميرنوف يقول عن بوتسويف "إنه شخص ذكي للغاية ونشيط"، أما بلوتنيك وبونتمان فهما شبه متعلمين من أرباب المهن. الأول يعمل بتجليد الكتب والآخر عامل طلاء(٥٠). على أنه من غير المعلوم متى هاجرا إلى مصر.

---

(٤٦) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ١٤٩، قائمة ٥٠٢ ب، وثيقة ٩٢، صحيفة ٥٧ – ٨٠ .

(٤٧) المصدر السابق. صحيفة ٨٨.

(٤٨) المصدر السابق. صحيفة ٨٦.

(٤٩) المصدر السابق. صحيفة ٥٢.

(٥٠) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ١٥١، قائمة ٤٨٢، وثيقة ٨٥٩، صحيفة ٥.

وقد أثار خبر القبض على ثلاثة من المهاجرين الروس أحداثًا عاصفة في مصر.

نشرت الخبر "La Reform" وهي الصحيفة الأولى في الإسكندرية. وذكرت أن المعتقلين هم من المهاجرين السياسيين، الذين تعرضوا لملاحقة السلطات الروسية بسبب معتقداتهم. ودعت الصحيفة كل المثقفين إلى الدفاع عنهم وتخليصهم من أيدي السلطات القيصرية المشئومة. وقد وجدت الدعوة استجابة. وأصبحت بورصة الإسكندرية هي نقطة انطلاق حركة التضامن. ومنها خرجت جماهير عريضة أغلبها من الأوربيين، توجهوا إلى القنصلية الإنجليزية، حيث طلبوا من اللورد كرومر، الحاكم الفعلي لمصر آنذاك، حماية المعتقلين(٥١).

ازداد التوتر. فكتب الدبلوماسيون الروس في رسائلهم إلى بطرسبورج يصفون الأمر: "في يوم الأحد السابع من يناير (بالتقويم القديم – المؤلف) ازداد الغضب أكثر فأكثر واكتسبت المدينة طابعًا مخيفًا. بعد الظهر بدأت الجماهير تعبر عن هذا الغضب، فهاجمت سفينة الشركة الروسية، التي كانت راسية في الميناء فحطمت الأبواب وراحت تفتش المكان كله بحثًا عن المجرمين. بعدها اندفعت باتجاه القنصلية محاولة اقتحامها. نزعت وحطمت الدرع المعلق فوق البوابة المعلق عليها شعار الدولة"(٥٢).

وفي اليوم التالي انتقلت الاضطرابات إلى القاهرة. وقد جاء في أحد التقارير السرية ما يلي: "في يوم الإثنين. الثامن من نوفمبر. اجتمعت جماهير

---

(٥١) المصدر السابق. صحيفة ١٠.
(٥٢) المصدر السابق.

غفيرة، حيث ألقيت الخطب النارية في موضوع وحيد هوالحرية وحب الإنسانية والتضامن من أجل الدفاع عن المظلومين. وفي التاسع من يناير اجتمع عمال المطابع الإيطاليون وهم مشهورون هنا باعتناقهم لمذهب الأناركية، وقد انضم إليهم عدد من اليهود وعناصر أخرى متطرفة. وبعد الظهر انتظمت جماهير كبيرة ملأت الشارع في مظاهرة عدوانية أمام الوكالة الدبلوماسية الإمبراطورية رفعت عقيرتها بالتهديد والصفير والصيحات، حاملة شعارات مليئة بالحقد تجاه روسيا. ثم اتجهت بعد ذلك إلى قنصليتنا لتكرر نفس المظاهرات"[٥٣].

في الرابع والعشرين من يناير نشرت صحيفة "الأهرام" نص المنشور الذي طاف بالقاهرة والذي جاء فيه: "أيها الرفاق! إن المظاهرة السلمية المُنظمة، التي شاركنا فيها، مطالبين باحترام حق اللجوء السياسي للسكندريين، لم تأت بالنتيجة المرجوة. ولذلك فإننا نرى أنه من واجبنا أن نتخذ خطوات لصالح ضحايا الظلم، من أجل أن تنتصر الحرية والإنسانية. إن على كل شخص أن يكون مستعدًا للعمل وأن يرد على القوة بالقوة في حالة الضرورة. عاش الشعب الروسي. تسقط الملكية!"[٥٤]. واستنادا إلى مضمون وأسلوب المنشور، فإن الأرجح أن الذي صاغه هو أحد المهاجرين الروس.

استمرت الاضطرابات في الإسكندرية والقاهرة ولم يكن من الممكن إيقافها إلا بعد إبعاد المعتقلين عن مصر. على أن الدبلوماسيين الروس رأوا أن وضع هؤلاء على ظهر إحدى السفن الروسية الراسية في الإسكندرية أمرٌ

---

(٥٣) المصدر السابق. الصحيفة ١٦ ، ١٧.
(٥٤) صحيفة "الأهرام"، ١٩٠٧/١/٢٤.

مستحيل عمليًا، حيث حاصر المتظاهرون الميناء. على الفور تم نقل بوتسويف ورفاقه سرًا إلى بورسعيد، حيث تم ترحليهم من هناك إلى روسيا في السادس والعشرين من يناير على متن الباخرة "كورنيلوف" في حراسة عشرة أشخاص(٥٥).

كانت الاضطرابات التي استمرت حوالي أسبوعين، اختبارًا قاسيًا بالنسبة للدبلوماسيين الروس. الواضح أنهم اعتبروا أنهم أدوا مهمتهم المهمة بالنسبة لوطنهم بشرف ونزاهة. وبناء على توصية منهم حصل ثلاثة من الإنجليز على وسام القديسة أنّا وهم: الجنرال هنريك هويكينسون رئيس بوليس الإسكندرية، الرائد جوردون إنجرام مفتش البوليس السري والمقدم الكسندر بوب مدير سجن "الحَضَرة"، حيث تم احتجاز المعتقلين، لإسهامهم في اعتقال بوتسويف(٥٦).

تجدر الإشارة إلى أن غالبية المشاركين في المظاهرات التي خرجت للدفاع عن المعتقلين كانت من الأوربيين. وهو أمر مفهوم، إذ إن كلاً منهم كان شخصًا غير مرغوب فيه من جانب حكومة بلده بسبب نشاطه السياسي، وكان من الممكن، بتوصية من القنصلية، أن يتم القبض عليه من السلطات المصرية، ويتم إرساله إلى الوطن. لكن أحداث يناير ١٩٠٧ كان لها رد فعل حتى في أوساط المصريين، إذ ساعدت على إشاعة روح التنوير السياسي. وفي هذا السياق كتبت صحيفة مصطفى كامل "اللواء" مُعلِّقة على هذه

---

(٥٥) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ١٥١، قائمة ٤٨٢، وثيقة ٨٦٠، صحيفة ٦.

(٥٦) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ١٤٩، قائمة ٥٠٢ ب، وثيقة ٧٥٦١، صحيفة ٢.

الأحداث. بقولها إن المسلمين (اقرأها - المصريين - المؤلف) كان عليهم أن يشاركوا في هذه الأحداث لكي يدركوا، في النهاية، معنى الحرية الحقيقية"(٥٧).

تزامنت مظاهرات يناير مع العمل الدؤوب الذي كان مصطفى كامل يقوم به في الإعداد لإصدار الطبعتين الإنجليزية والفرنسية من صحيفة "اللواء". وقد ظهرت هذه الفكرة إبان رحلة مصطفي كامل إلى إنجلترا في صيف عام ١٩٠٦، حيث قام بتعريف السياسيين والصحفيين هناك بأحداث دنشواي الشائنة والأوضاع في مصر بعدها. كان مصطفى كامل يرى أنه يمكن من خلال هاتين الصحيفتين مخاطبة الرأي العام الأوربي دفاعًا عن مصالح مصر، حيث كان هناك عدد غير قليل من الأوربيين، حسب اقتناعه، يعارضون سياسة إنجلترا الاستعمارية. وقد تم جمع ٢٠ ألف جنيه مصري من حصيلة الاشتراكات لإصدار الصحيفتين. وتمت دعوة بعض الصحفيين الأوربيين من ذوي الخبرة للعمل كمحررين بها. في الثاني من مارس ١٩٠٧ صدر العدد الأول من صحيفة "ليتاندير إيجبسيان"، وفي اليوم التالي "إيجبشان ستاندارد"(٥٨).

كان الأرستقراطي الإنجليزي وليم سكوين بلانت واحدًا من الذين بذلوا وعدًا لمصطفى كامل بمد يد العون له. كان بلانت على معرفة جيدة بالانتهاكات التي تمارسها سلطات الاحتلال في مصر، إذ كان الرجل يمتلك عزبة في مصر، وكان دائم التردد عليها. وقبل وقوع حادثة دنشواي بوقت

---

(٥٧) "اللواء"، ١٩٠٧/٢/١١.
(٥٨) الرافعي، عبد الرحمن. مصطفى كامل، باعث الحركة الوطنية. الطبعة الرابعة. القاهرة، ١٩٦٢. ص ٢٤٣ - ٢٤٦.

قليل وقعت حادثة شبيهة مع خدم بلانت المصريين، فقد هاجم نفر من الضباط الإنجليز عزبة بلانت أثناء صيدهم للثعالب، قاموا أثناء ذلك بضرب الخدم، الذين سجنوا بعد ذلك بتهمة "مخالفة القانون". في سبتمبر عام ١٩٠٦، بعد وقوع حادثة دنشواي، نشر بلانت كتيبًا بعنوان "وحشية العدالة تحت الحكم البريطاني في مصر" وقد أحدث دويًا هائلاً[٥٩].

كانت الصحيفتان الجديدتان بحاجة إلى مراسلين لهما في العواصم الأوربية، وقد لجأ مصطفى كامل إلى بلانت طلبًا للنصيحة، فأشار عليه باستخدام أحد أصدقائه المقربين، المهاجر الروسي فيودور روتشتاين ليكون مراسلاً للصحيفة في لندن.

فيودور أرونوفيتش روتشتاين (١٨٧١ – ١٩٥٣) هو ابن لصاحب صيدلية ريفية. هاجر إلى لندن عام ١٨٩١، وكان قد اشترك، وهو لا يزال طالبًا في المدرسة الثانوية، في حلقة إرادة الشعب في مدينة بولتافا، الأمر الذي أثار شكوك السلطات القيصرية حوله. سرعان ما بدأ روتشتاين في دراسة اللغة الإنجليزية ليندمج في الحياة المحلية. وفي عام ١٨٩٥ يلتحق روتشتاين بالاتحاد الاشتراكي الديمقراطي الإنجليزي، وفي عام ١٩٠١ يتم اختياره عضوًا في اللجنة التنفيذية للاتحاد ليصبح زعيمًا بارزًا في الجناح اليساري له. وفي العام ذاته يلتحق بحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي ليسهم على نحو فاعل في إصدار صحيفة "إيسكرا" ("الشرارة") في لندن، وبعد انشقاق الحزب في عام ١٩٠٣ انضم إلى البلاشفة في المؤتمر الثاني للحزب[٦٠].

---

(٥٩) أندرو روتشتاين نقد السياسة الخارجية لإنجلترا. موسكو، ١٩٧٣. ص ٧٦ ، ٧٧.
(٦٠) إ.م. مايسكي. مذكرات سفير سوفيتي. الكتاب الأول. رحلة إلى الماضي. موسكو، ١٩٦٤. ص ٢٧٢ – ٢٧٧.

كان روتشتاين على علاقة جيدة بلينين منذ عام ١٩٠٢ تقريبًا. وتـذكر الاشتراكية الإنجليزية زيلدا كاجان ـ كووتس أنها قابلت لينين في لندن فـي عام ١٩٠٢، وأن روتشتاين حضر هذه المقابلة[٦١]. وقد كتـب لينـين عـدة رسائل إلى روتشتاين وصفه في إحداها بأنه "ماركسى شـهير مـن أتبـاع بليخانوف"[٦٢].

وافق روتشتاين على اقتراح مصطفى كامل، وأصبحت عبـارة "مـن مراسلنا الخاص في لندن"، وهو ما نؤكده بعد أن اطلعنا على ملفات صحيفة "إيجبشان ستاندار" لعام ١٩٠٧، موجودة تقريبًا في كـل عـدد مـن أعـداد الصحيفة. كان روتشتاين يدخل في جدل حاد مع الذين يعتبرون أن مصر لم تبلغ بعد مرحلة الحصول على الاستقلال، مشيرًا إلى مقالات ظهـرت فـي الصحافة الإنجليزية تؤيد المساعي الوطنية للمصريين. كان تعاون روتشتاين مع هذه الصحيفة، كما يذكر أندرو، الابن الأكبر لروتشتاين "بدايـة عـصر الدعم الفاعل لنضال الشعب المصري نحو الاستقلال الوطني، وبسرعان مـا بدأت الطبعة الإنجليزية تصل إلى بيتنا بخط واضـح علـى ورق خـشن، وهي الصحيفة الأجنبية الأولى التي تعرفت عليها، وكما أتصور الأمر الآن، فقد كانت الأحاديث عن الصحيفة وعن الزعيم الموهوب للوطنيين مـصطفى كامل باشا... تملأ حياتنا على مدي ثلاثة أعوام تقريبا"[٦٣].

---

(٦١) ذكريات عن لينين. الجزء الخامس. موسكو، ١٩٧٠. ص ٦٤.

(٦٢) لينين. ف. إ. الأعمال الكاملة. الجزء ٤٨. ص ٦٩.

(٦٣) الإمبريالية وكفاح الطبقـة العاملـة. مجموعـة مقـالات مكرسـة لـذكرى الأكـاديمي ف. أ. روتشتاين. موسكو، ١٩٦٠. ص ٤٧.

كتب المؤرخ المصري رفعت السعيد أن فيودور روتشتاين (وكان يسميه تيوذور روزينشتاين) أقام في مصر بعض الوقت، وأنه كان يحرر بنفسه صحيفة "إيجبشان ستاندارد"[٦٤]. على أن هذا التأكيد لا يطابق الواقع. ففي حديث هاتفي تم في مايو ١٩٨٧ أخبر أندروروتشتاين مُؤلف هذا الكتاب، أن أباه لم يزر مصر مطلقًا وأنه لم يحرر الجريدة[٦٥].

توفي مصطفى كامل في مطلع عام ١٩٠٨. ويذكر أندرو روتشتاين أن أباه شعر بالأسف لذلك وقال إن هذا من حسن حظ إنجلترا"[٦٦]. والحقيقة، كما أشار السفير أ. أ. سميرنوف في تقرير له بعث به إلى بطرسبورج، أن محمد فريد، خليفة مصطفى كامل "لا يمتلك ما كان لدى سلفه من موهبة"[٦٧]، ولمعرفتها بذلك، قامت سلطات الاحتلال بمهاجمة الحركة الوطنية المصرية، فتم إغلاق صحيفة "اللواء" وكذلك الطبعتين الإنجليزية والفرنسية منها، وتوقف روتشتاين عن مواصلة عمله بصفته مراسلاً وإن لم يتوقف نشاطه في دعم كفاح المصريين من أجل الاستقلال.

دفعت انتفاضة الحركة الوطنية في مصر بعد حادثة دنشواى، دفعت الإنجليز إلى إدخال بعض التغييرات على أسلوب إدارة مستعمرتها. وقد أصدر اللورد كرومر، الذي ظل على رأس الإدارة البريطانية في مصر على مدى ربع قرن، بعد أن خرج إلى المعاش وعاد إلى وطنه، كتابًا من

---

(٦٤) رفعت السعيد. تاريخ الحركة الاشتراكية في مصر. الطبعة الخامسة. القاهرة، ١٩٨١. ص ١٨٧.

(٦٥) أرشيف المؤلف. صندوق "الروس في مصر". الملف ١. صحيفة ١٤٥.

(٦٦) الإمبريالية وكفاح الطبقة العاملة. ص ٤٧.

(٦٧) أرشيف العلاقات الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ١٥١، قائمة ٤٨٢، وثيقة ٨٦٢، صحيفة ١٩٥.

جزءين بعنوان "مصر الحديثة"، راح يبرر فيه سياسة الاحتلال الإنجليــزي لمصر. وقد دفع هذا الكتاب روتشتاين إلى العمل في إعداد كتاب خاص عن سياسة الإنجليز في مصر. وينوّه روتشتاين في مقدمة الطبعة الأولى لكتابــه الصادر بالروسية في عام ١٩٢٥ عن ذلك بقوله: "وضـــعت هــذا الكتـــاب، عندما باتت المسألة المصرية مطروحة بحدة أمام الجمهور الإنجليزي، فــي نفس الوقت الذي ظهر فيه كتاب اللورد كرومر في جزءين، والذي يعد دفاعًا بارعًا عن السياسة الإنجليزية في مصر، وخصوصًا لنشاط المؤلــف نفــسه باعتباره الحاكم العسكري لمصر، وهو ما دفعني، وأنا المشغول منــذ فتــرة بعيدة بهذه المسألة المهمة، لأن أواصل العمل بجد عليها وعرض ما توصلت إليه من نتائج "ضد كرومر" كما أطلق على كتابي فيما بعد المؤرخ جـــوتش. ومن أجل هذا الهدف قمت على مدى عامين بدراسة الوثائق المحفوظة فــي مكتبة المتحف البريطاني. وفي رأيي أنني استنفدت فعليًا آنذاك كل ما يمكــن أن يكون من المفيد دراسته"[٦٨].

صدر كتاب روتشتاين "خراب مصر" في لندن في عام ١٩١٠ بــدعم مالي من بلانت، وقد أثار الكتاب ردود فعل قوية ونشرت الصحافة الليبرالية الأوربية مقاطع منه. لم يمر الكتاب مرورًا عابرًا في مصر أيضًا، ولم تصدر طبعته العربية إلا في عام ١٩٢١ بعد أن تعرضت أجزاء كبيرة منه للحذف، وقد صدر الكتاب بعد ذلك بعامين في القاهرة كاملاً بعد إعلان استقلال مصر رسميًا. ومن اللافت للانتباه أن أحمد شكري، مترجم الكتاب، صـــرَّح فـــي مقدمة الكتاب أنه كان يعرف روتشتاين شخصيًا[٦٩]. من المحتمل أن يكـــون

---

(٦٨) ف. أ. روتشتاين. احتلال واستعباد مصر. الطبعة الثانية. موسكو، ١٩٥٩. ص ١٥.
(٦٩) رفعت السعيد. مصدر سابق. ص ١٨٧.

شكري قد تعرف إليه في مؤتمر الشباب المصري، الذي عقد في جينيف في عام ١٩٠٩، الذي دعي إليه روتشتاين. وقد وُصف البرنامج الذي قرره المؤتمر في كتابه باعتباره برنامجًا قوميًا يساريًا(٧٠). وفي هذا السياق يطرح رفعت السعيد سؤالاً حول ما إذا كان لروتشتاين تأثير على طابع هذا البرنامج(٧١). لا يمكن، بطبيعة الحال، إنكار ذلك التأثير، وخاصة أن فيودور أرونوفيتش البالغ من العمر ثمانية وثلاثين ربيعًا كان بالنسبة للشباب المصري الرفيق الأكبر والأكثر خبرة.

بعد صدور الكتاب أخذت علاقات روتشتاين بالحركة الوطنية المصرية في التلاشي وسرعان ما توقفت تمامًا. وقد عاد روتشتاين نفسه إلى روسيا في عام ١٩٢٠. وفي العشرينيات عمل في السلك الدبلوماسي ثم انشغل بالعمل العلمي، وفي عام ١٩٣٩ تم اختياره عضوًا عاملاً في أكاديمية العلوم بالاتحاد السوفيتي.

البحارة الروس في مصر

في نهاية عام ١٩١٠ رجع إلى أوديسا من المنفي الناشطون، الذين شاركوا في الثورة الروسية الأولى. وقد سعوا لإنشاء الاتحاد التجاري لبحارة البحر الأسود وتدبير أمر إصدار صحيفة "تشيورنوموريتس" ("بحار البحر الأسود") غير الشرعية. على أنهم لم يتمكنوا سوي من إصدار عدد واحد من هذه الصحيفة. كما انتهى الإضراب الذي نظمه بحارة البحر الأسود في خريف عام

---

(٧٠) ف. أ. روتشتاين. مصدر سابق. ص ٢٨٥.

(٧١) رفعت السعيد. مصدر سابق. ص ١٨٧.

١٩١١ بالفشل. عندئذ ظهرت فكرة نقل قيادة الاتحاد إلى خارج البلاد. وقد اختيرت القسطنطينية لتكون مركزا له، حيث تتوقف فيها غالبًا السفن الروسية. وفي نهاية عام ١٩١١ جرى تشكيل الهيئة الجديدة للجنة اتحاد بحارة البحر الأسود في الخارج، وأصبح الاشتراكي الديمقراطي ميخائيل آداموفيتش، وكان رئيسًا في عام ١٩٠٦ لأول نقابة لبحارة السفينة "ريجستيراتسيا" العاملة في البحر الأسود، واحدًا من قيادات هذا الاتحاد. وقد استقر آداموفيتش في ميونيخ بعد هزيمة الثورة. وهناك، في القسطنطينية، صدر في فبراير عام ١٩١٢ العدد الأول من صحيفة "مورياك" ("البحار") الشهرية. على أن حرب البلقان التي اندلعت سريعًا اضطرت اللجنة الموجودة في الخارج وإلى هيئة تحرير الصحيفة لمغادرة القسطنطينية والانتقال إلى الإسكندرية[٧٢].

كانت "العاصمة الشمالية" لمصر اختيارا موفقًا لمقر قيادة الاتحاد. أولا، كانت السفن الروسية العاملة على خط أوديسا ــ الإسكندرية تصل إلى الميناء الأخير أسبوعيًا؛ فضلاً عن السفن التي تصل على نحو دوري والسفن التجارية الروسية. وكثيرًا ما كانت السفن التي تحمل العلم الروسي تمر عبر قناة السويس لتتوقف أثناء ذلك بميناء بورسعيد، الذي يبعد عن ميناء الإسكندرية مائتي كيلومتر تقريبا. ثانيا، استقر المقام بمجموعة من الثوار، الذين غادروا روسيا بعد هزيمة الثورة الروسية الأولى في كل من مدينتي الإسكندرية والقاهرة. وهؤلاء كان باستطاعة بحارة البحر الأسود الاعتماد على دعمهم لهم في مصر اعتمادا كاملاً.

---

(٧٢) تحت راية الوطن. مقالات في تاريخ الملاحة في البحر الأسود. أوديسا، ١٩٦٧. ص ٩٧ – ١٠٧.

كان نشاط المهاجرين ذوي الميول السياسية بمثابة صداعًا في رأس الدبلوماسيين الروس. وفي الثاني والعشرين من أغسطس عام ١٩١٣ كتب القنصل الروسي في الإسكندرية أ. م. بتروف إلى وزارة الخارجية يقول: "إن مراقبة الثوريين الروس الذين يقيمون هنا أمر مستحيل"[٧٣]. على أية حال فقد حاول الدبلوماسيون الروس بمساعدة "المخبرين" بالقيام بهذه المهمة. يقترح السفير أ.أ. سميرنوف في يونيو١٩١٣ على إدارة البوليس المصري أن تستعين بالمدعو ياكوف زولاي للعمل مخبرًا لمتابعة نشاط المهاجرين الروس الثوريين، وقد قوبل الاقتراح بالموافقة، وتحدد لزولاي راتبًا سنويًا مقداره ستون جنيها مصريا[٧٤].

اقترحت السلطات القنصلية الروسية اعتقال ونفي المهاجرين الروس ذوي الميول الثورية إلى روسيا. وفي مطلع عام ١٩١٣ جرى إبعاد الثورى بارشوكوف (هو نفسه كيريلوف، وهو كوزلوف وهو سولوفيوف) من الإسكندرية ونفيه إلى أوديسا. على أنه، وعلى الرغم من الحراسة المشددة، نجح بارشوكوف في الهروب من السفينة إلى القسطنطينية ومنها بعد ذلك إلى فرنسا[٧٥].

وفي ربيع العام نفسه تم نفي الكسندر فلاديميروفيتش أودويفسكي – ماسلوف إلى أوديسا. وبناء على معلومات القنصلية الروسية في القاهرة فقد "أُدين بتهمة قلب نظام الحكم" وأنه استطاع الهرب من روسيا. عمل

---

(٧٣) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ١٤٩، قائمة ٢٠٥ ب، وثيقة ٥٣٤١، صحيفة ١٣٨.
(٧٤) المصدر السابق. وثيقة ٥٣٤٢. صحيفة ١، ٥، ١٢.
(٧٥) المصدر السابق. وثيقة ٥٣٤١، صحيفة ٣١.

أودويفسكي ـ ماسلوف في حلوان في مستشفى الدكتور دافيد ليبوفيتش جلانتس. وقد أشار القنصل الروسي في القاهرة س. زويف إلى أن "هذا الشخص كان عنصرًا شديد الضرر سواء في حلوان أو في القاهرة، وكان يجمع حوله الشباب اليهودي الروسي، الذي كان يقوم بالتحريض على النظام القائم في روسيا"(٧٦).

كانت حلوان، مثلها مثل الإسكندرية، تُعد بالنسبة للدبلوماسيين الروس المركز الرئيسي للتحريض الثوري في مصر. يشير س. زويف إلى أن هناك عددًا كبيرًا للغاية في القاهرة وفي حلوان بصفة خاصة، حيث تتركز الجالية الروسية من الأشخاص الذين يمارسون أعمالاً سرية، والأرجح أنهم ينتمون إلى مختلف المنظمات ذات الطابع السياسي"(٧٧).

كان سيرجي بتروفيتش يوريتسين واحدًا من المهاجرين السياسيين الذين أقاموا في حلوان. كان مالكًا لدار نشر "صين أوتشيستفا" ("ابن الوطن") وذلك إبان الثورة الروسية الأولى، كما كان يمتلك عددًا من الصحف. وقد قُدم للمحاكمة بسبب التوجه الثوري لمطبوعاته، ومن ثم لم تترك السلطات القنصلية الفرصة ليورتسين لينعم بالهدوء في مصر لعلمها "بعدائه الشديد للنظام القائم في روسيا". كان يورتسين قد تسلم في عام ١٩٠٩ مذكرتين للتوجه للمثول أمام محكمة دائرة سان بطرسبورج، لكنه تجاهلهما لأسباب معروفة. اضطر يورتسين لتغيير مهنته فراح يستنبت الزهور في حلوان ليبيعها في القاهرة(٧٨).

---

(٧٦) المصدر السابق. صحيفة ٩٤.
(٧٧) المصدر السابق.
(٧٨) المصدر السابق. صحيفة ٩٢ أ ب، ١٢٧؛ وثيقة ٥٨٣٩، صحيفة ١-٦.

كان المهاجرون السياسيون يلتقون على نحو منتظم في إحدى حانات الإسكندرية، والتي كان يديرها جندي التلغراف الهارب من السفينة الحربية "كوبانيتس" ويدعى نيكولاي أبراموفـنيتش زاليبوبكين، واشتهر بين البحارة الروس المارين بالإسكندرية، الذين اعتادوا التردد على هذه الحانة باسم "فانيا الساعاتي"(٧٩).

دأب المهاجرون السياسيون الروس على تشجيع الاتصالات المنتظمة مع مواطنيهم، سواء من كانوا من المستجمِّين في حلوان، أو من البحارة الذين يأتون إلى الموانئ المصرية على متن السفن الروسية؛ فضلاً عن من يشاركونهم في الفكر من بين المصريين. في تقرير له إلى السفير الروسي أ. أ. سميرنوف، كتب القنصل الروسي س. زويف يقول: "أحاطني فيليبيس بك (رئيس بوليس القاهرة – المؤلف) علمًا بالأناركيين الروس الذين تربطهم علاقات مع الثوريين المصريين"(٨٠).

وقد تعاونت السلطتان ــ المصرية والروسية ــ في قضية مكافحة المعارضة السياسية. ففي عام ١٩١٠ أرسلت وزارة الداخلية المصرية مجموعة من الخبراء مكونة من ثلاثة أفراد إلى إنجلترا ثم إلى روسيا وفرنسا لدراسة وسائل مكافحة الجرائم السياسية. وقد عادوا للوطن بعد عامين(٨١).

في هذا الوقت كانت الأمور تسير سيرًا حسنًا بالنسبة لبحارة البحر الأسود. فهؤلاء كانوا يديرون عملهم مع أطقم السفن الروسية المارة عبر الموانئ المصرية، محققين بمساعدتهم تواصلهم مع روسيا. وبدءا من نهاية عام ١٩١٢ أخذت صحيفة "مورياك" ("البحار") في الصدور بانتظام. وبناء

(٧٩) المصدر السابق. وثيقة ٥٣٤١، صحيفة ١٥١ أ ب.
(٨٠) المصدر السابق. صحيفة ٩٥.
(٨١) عبد الوهاب بكر. مصدر سابق. ص ٢٥، ٤٣.

على بعض المعلومات فقد تبين أنها كانت تطبع في حلوان[٨٢]. ومن الواضح أن الذي كان يدبر ظهورها ويعمل فيها هويورتسين باعتباره صحفيًا سابقًا. وكان من المعروف أنه على علاقة باتحاد بحارة البحر الأسود. وفي استباق للأحداث نشير إلى أنه بعد اعتقال آداموفيتش ومصادرة وثائق الاتحاد التي كانت بحوزته، فقد وجدت السلطات القنصلية ما يشير إلى يورتسين فيها وقد تم تفتيشه، لكن يورتسين الذى كان على علم باعتقال آداموفيتش، نجح على الأرجح في إخفاء كل مراسلاته، وكانت النتيجة أن التفتيش لم يسفر عن شيء يذكر[٨٣].

في الفترة من ١٤ إلى ١٦ فبراير عام ١٩١٣ نجح بحارة البحر الأسود في عقد مؤتمر سري لهم في الإسكندرية ضم قيادات التنظيمات النقابية على السفن الروسية. وقد شارك في هذا المؤتمر ممثلون عن بحارة البحر الأسود؛ فضلاً عن بحارة بحري قزوين والبلطيق[٨٤].

وقد علمت السلطات القنصلية الروسية بوصول آداموفيتش وأنصاره إلى الإسكندرية بطريق المصادفة. ففي ديسمبر عام ١٩١٢ قام البوليس المصري، بناء على طلب من السلطات القنصلية، باعتقال المهاجر السياسي فلاديمير تيرسكي (ومن أسمائه ميرسكي وسفابودين). ومن حصيلة الأوراق المصادرة منه تبين انتقال اللجنة الخارجية لاتحاد بحارة البحر الأسود إلى الإسكندرية[٨٥].

---

(٨٢) رفعت السعيد. مصدر سابق. ص ١٨٨.
(٨٣) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ١٤٩، قائمة ٥٠٢ ب، وثيقة ٥٣٤١، صحيفة ٩٢.
(٨٤) المصدر السابق. صحيفة ٥٠.
(٨٥) المصدر السابق. صحيفة ٦٢.

وفي الوقت نفسه آتى نشاط الاتحاد أُكُلَه. فمع بداية العام ١٩١٣ بدأ بحارة البحر الأسود استعدادهم للإضراب الجديد. وعن هذا الإضراب أبلغ البوليس الحكومة. وفي روسيا تصاعد الغضب الثوري من جديد، ولهذا فقد أولت السلطات القيصرية اهتمامًا بالغًا بهذه الوثيقة. كان إضراب بحارة البحر الأسود بالنسبة لهم أمرًا غير مرغوب فيه بالمرة، لأنه كان باستطاعته أن يشعل سلسلة من ردود الأفعال الشديدة، ناهيك عن القدر الهائل من الخسائر المادية الذي يمكن أن يسببه. في الثلاثين من مارس عام ١٩١٣ (حسب التقويم القديم) عقد كوكوفتسوف رئيس مجلس الوزراء، اجتماعًا خاصًا لبحث مسألة إجراءات التحذير من الإضراب الذي تنظمه أطقم السفن في البحر الأسود. وقد حضر الاجتماع وزراء الداخلية والعدل والبحرية والتجارة والصناعة. وجاء في القرار الذي اتخذه المجتمعون أن "الاجتماع أقر أن المهمة الأولى ينبغي أن تكون هي اعتقال القائد الرئيسي لهذه الحركة، وهو الثوري آداموفيتش المقيم بمدينة الإسكندرية". وقد صدر الأمر إلى الممثليات القنصلية "بمساعدة سلطات البوليس الروسية في اتخاذ الخطوات المكلفة بها"(٨٦).

بعد أن تسلم أ. أ. سميرنوف القرار الخاص بالاجتماع، بعد شهر تقريبًا، في الخامس والعشرين من أبريل / الثامن من مايو (حسب التقويمين القديم والجديد – المترجم) توجه إلى الإسكندرية لكي يكون حاضرًا إبان اعتقال آداموفيتش. وحيث إن الأخير كان يحمل جواز سفر ألمانيًا باسم الكسندر كورنيلسون، فقد تطلب الأمر الحصول على موافقة مسبقة من القنصلية

---

(٨٦) المصدر السابق. صحيفة ٣٧.

الألمانية، وهو ما لم يتطلب جهدًا خاصًا. وبعد ساعات ثلاث على وصول سميرنوف إلى الإسكندرية، تم اعتقال آداموفيتش واقتيد إلى سجن "الحَضَرة"[٨٧].

وفي تقريره إلى بطرسبورج كتب سميرنوف قائلاً: "لقد أتاح اعتقال آداموفيتش للحكومة الإمبراطورية إمكانية الحصول على مواد على أعلى درجة من الأهمية. لقد تم العثور على وثائق حول تنظيم أطقم السفن وخاتم التنظيم نفسه، وقوائم مختلفة وخطابات تضم معلومات عن شخصيات رهن الاعتقال في روسيا وعن العلاقات القائمة بين هذا التنظيم والتنظيمات المناظرة في الغرب ومع التجمعات العمالية في أوربا"[٨٨].

اعتبر الدبلوماسيون الروس أنهم قد نجحوا تمامًا، بعد القبض على آداموفيتش، في تحييد الشخصية الكبرى في الحركة الثورية الروسية. وقد أشار السفير سميرنوف في تقريره إلى بطرسبورج إلى أن آداموفيتش وف. تيرسكي وكذلك السيدة تريبي، وكنيتها قبل الزواج خوخلوفا، وتحمل الجنسية السويسرية، قد تم القبض عليهم في الإسكندرية، وهم يعدون من أهم الشخصيات الثورية، وأنهم، بطبيعة الحال، لم يكونوا ليتلقوا الأوامر بالذهاب إلى مصر، إلا لعلمهم أنها أحد أهم مراكز التحريض ضد الحكومة في الخارج. ومما يدل على أهمية هؤلاء الأشخاص، ما أحدثه اعتقالهم، وخاصة آداموفيتش، من صخب هائل في أوربا، وكذلك ما تجمع لدى قنصليتنا في الإسكندرية من مراسلات وجدت بحوزة آداموفيتش، وقد أثارت

---

(٨٧) المصدر السابق. صحيفة ٤٥.

(٨٨) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ١٥١، قائمة ٤٨٢، وثيقة ٨٧٤، صحيفة ٢٠.

دهشتنا بحجمها، وهي تضم منشورات ثورية أناركية ومطبوعات وتعاملات مع الأحلاف والتنظيمات الأوربية، وكذلك عدد هائل من الخطابات مع مختلف الشخصيات الثورية، التي تمثل للبوليس مادة مهمة وغزيرة"[٨٩].

الحقيقة أن اعتقال آداموفيتش لم يُحدث صخبًا هائلاً في أوربا وحدها، وإنما في مصر ذاتها بالدرجة الأولى. وكما حدث في واقعة بوتسويف في عام ١٩٠٧، فقد شارك الأوربيون بصورة رئيسية في حركة التضامن معهم، ولنفس السبب أيضا: أن الاعتقال تم على يد السلطات المصرية على أساس نظام الامتياز الأجنبي، ومن ثم فإنه تم بدوافع سياسية، وهي سابقة خطيرة. بالنسبة للسلطات القيصرية فقد كانت تمتلك الامتياز الأجنبي، وقد استخدم لصالح وجودها. يقول سميرنوف في أحد تقاريره: "ينبغي أن نتوقع، أنه إذا حدثت تغيرات في نظام الامتياز بحيث تفقدنا إمكانية القضاء على نشاط المحرضين السياسيين هنا، لتحولت مصر إلى أحد أهم وأخطر مراكز الدعاية المضادة للحكومة"[٩٠].

ويقول سميرنوف: عقدت الدوائر الاشتراكية والعمالية في الإسكندرية والقاهرة اجتماعات ناقشت فيها إجراءات عدم السماح بإرسال المعتقلين إلى روسيا. وقد تم اقتراح حشد الجماهير ومحاولة تخليص المساجين من الكمين ووصل الأمر أيضًا إلى اللجوء للتخويف، فقد نُقِلَ إليّ أنني واثنين من قناصلنا في القاهرة والإسكندرية مهددون بالموت في حالة ما إذا تم إرسال المعتقلين إلى روسيا"[٩١].

---

(٨٩) المصدر السابق. صحيفة ٣٢.
(٩٠) المصدر السابق. صحيفة ٣٦.
(٩١) المصدر السابق. صحيفة ٣٣.

وبعد مرور شهر، ورغم الاحتجاجات، تم ترحيل آداموفيتش وتيرسكي على أية حال على متن سفينة روسية إلى أوديسا. وحتى يمكن تفادي الصدام بالمتظاهرين قمنا بعمل خدعة، فقبل ساعة من إقلاع السفينة جرى إحضار المعتقلين في حافلة من السجن إلى جمرك الميناء. في البداية أقلعت السفينة بدونهما، وعند خروجهما من الميناء، تم توصيل آداموفيتش وتيرسكي بواسطة قارب من قوارب الجمرك[٩٢].

يرى سميرنوف "أن الصحافة العربية لم تول اهتمامًا كبيرًا لقضية آداموفيتش"[٩٣]. ومع ذلك فقد علم المصريون باعتقاله وتعاطفوا معه. عن ذلك كتبت صحيفة "موررياك" في عددها الصادر في الثاني من سبتمبر، وكانت لا تزال مستمرة في الصدور. وقد نظم رفاق آداموفيتش خطة لتهريبه من السجن، لكنه بعد أن قفز من أعلى سور السجن، كُسرت ساقه وسرعان ما تم القبض عليه، وعندما كان في طريق عودته إلى الزنزانة تمنى مفتش البوليس المصري له "النجاح في المرة القادمة"[٩٤].

قدَّرت السلطات القيصرية خدمات المشاركين الأجانب في القبض على آداموفيتش وترحيله تقديرًا رفيعًا. وهكذا حصل القنصل العام الألماني في الإسكندرية إدوار جوبمان، ورئيس فريق عملاء البوليس السري الرائد ريكاردوجيوفانيني، وكبير أمناء إدارة الموانئ المصرية والبحارة دوجلاس موريس، ورئيس بوليس الميناء الرائد راوسون، ورئيس بوليس الإسكندرية الجنرال جيبكينسون، ومفتش البوليس السري الرائد إنجرام، وبوب، رئيس

(٩٢) المصدر السابق. صحيفة ٣٠.

(٩٣) المصدر السابق. صحيفة ٣٠.

(٩٤) فلاديمير بيلياكوف. أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار. ص ٥٤ ، ٥٥.

سجن "الحَضَرة"، حصلوا على أوسمة روسية إلــى جانــب هــدايا ثمينــة، بعد أن حصلوا على أوسمة روسية قبل ذلك لاعتقالهم بوتسويــف[٩٥].

إذا كان آداموفيتش ورفاقه البحارة اختاروا مصر بأنفسهم لتكون مكانـــا للعيش والنشاط، فإن بحارة وضباط الطرَّاد "بيريسفيت" قد جاءوا إليها علـــى غير إرادتهم[٩٦]. ففي الرابع من يناير عام ١٩١٧ وعند المخرج الشمالي من قناة السويس من قناة السويس، بالقرب من بورسعيد. وقع انفجار في الطرَّاد القادم من فــلاديفوستوك في إقليم أرخانجلسك، وسرعان ما غرق. ولا يزال سبب الانفجار مجهولاً حتى الآن. وقد انتشرت أقاويل كثيرة فمــن قائــل إن السبب هو هجوم من غواصة ألمانية، أوربما لغم، أويكون عمل تخريبي. كان طاقم الطرَّاد مكونًا من ٨٠٠ فرد نجا منهم ٧٢٠، وقد قتل ستة ضباط. ومن بين الناجين ١٤٠ فردًا أصيبوا بجروح أو حروق أو كــدمات مــن جــراء الانفجار، أو بتشوهات نتيجة تعرضهم للشظايا أثناء سباحتهم في الماء[٩٧].

وبعد قضائهم ثلاثة أيام في المستشفى البريطاني العسكري، تم نقل جزء من الطاقم الذي تماثل للشفاء إلى أحد المخيمات في بور فؤاد على الــشاطئ الشرقي لقناة السويس، بينما ظل الجزء الأساسي من الطاقم حتى العاشر من إبريل ليُنقل بعد ذلك إلى مارسيليا[٩٨].

---

(٩٥) أرشيف الــسياسة الخارجيــة للإمبراطوريــة الروســية. ملــف ١٤٩، قائمــة ٥٠٢ ب، وثيقة ٧٥٦١، صحيفة ٢-٣.

(٩٦) لمزيد من التفاصيل حول مصير الطرَّاد وطاقمه انظر : فــلاديمير بيلياكوف. أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار. ص ٥٦ – ٧٠.

(٩٧) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ١٥١، قائمة ٤٨٢، وثيقــة ٨٧٦، صحيفة ٣٠٩.

(٩٨) الأرشيف الروسي الحكــومي للأســطول البحــري العــسكري. ملــف ٤١٨، قائمــة ١، وثيقة ١٠٢، ٦٠.

قبل الخروج إلى البحر المتوسط، ظلت "بيريسفيت" متوقفة في بورسعيد لمدة ثلاثة أسابيع. وقد تم إمداد الطرَّاد بأسلحة أمريكية إضافية. جدير بالذكر أن مؤلف هذا الكتاب التقي في عام ١٩٨٧ في بورسعيد بالمدعو محمد المصري، الذي كان يبلغ من العمر عشرين عاما إبان وقوف "بيريسفيت" في الميناء، وكان يعمل على أحد المراكب الكبيرة التي حملت الأسلحة إلى متن الطرَّاد، وقد قام المصري أيضًا بنقل البحارة من الطرَّاد إلى الشاطئ وإعادتهم[٩٩].

وقد سمحت السلطات للبحارة الروس المقيمين بمخيم بور فؤاد بزيارة المدينة بعد غرق "بيريسفيت"، وقد ورد في خطاب لجنة طاقم الطرَّاد "بيريسفيت" الموجه إلى وزير الحربية والبحرية كيرينسكي والمؤرخ في الحادي والعشرين من يوليوعام ١٩١٧ أن "الملابس الرسمية للبحارة قد اهترأت سريعا، وأن من المؤلم رؤية البحارة الروس وهم يتجولون في أسمالهم وخاصة إذا ما قورنوا بالجنود الإنجليز في ملابسهم الناصعة"[١٠٠].

وهكذا نرى أن الاتصالات بين البحارة الروس والمصريين كانت موجودة، ولكنها لم تكن على نحو منظم كما أنها اتسمت بالسطحية. على أن الوضع قد طرأ عليه التغير في صيف عام ١٩١٧. فنتيجة لإلحاح لجنة طاقم "بيريسفيت" تم تأسيس لجنة خاصة للتحقيق في ظروف غرق الطرَّاد، وكان على رأسها الوكيل البحري الروسي في اليونان القبطان الأول ماكالينيسكي.

---

(٩٩) فلاديمير بيلياكوف. أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار. ص ٦٠.

(١٠٠) الأرشيف الروسي الحكومي للأسطول البحري العسكري. ملف ٢١ ب، قائمة ١، وثيقة ٢٧، صحيفة ٣٥ أ ب.

وحيث إنه كان يتم النظر في إمكانية رفع "بيريسفيت"، أوعلى الأقل رفع المدافع الجديدة منها، فقد رأت اللجنة أن تترك خمسين بحارًا، كما قدرت اللجنة قبول عضوين بها يمثلان الجالية الروسية في بورسعيد (استقر الأمر على وكيل الشركة الروسية للملاحة والتجارة الكسندر باخوموف وإيساك روخفيرجر)، واثنين من ممثلي الطاقم والأخيرين هما الغواص ميخائيل بتروف والمدفعي نيكولاي لوتشينكين. وكلاهما تم اختياره في فرنسا، حيث استقر الجزء الأساسي من الطاقم. وكان عليهما أن يصلا إلى بورسعيد قادمين من مارسيليا على إحدى البواخر الفرنسية، لكنهما وصلا في التاسع عشر من أغسطس (السادس من أغسطس بالتقويم القديم) إلى الإسكندرية بدون إذن. يقول القنصل بتروف في تقريره إلى السفير سميرنوف "أُبلغت أن الثاني (لوتشينكين – المترجم) يجري حديثًا في مبنى القنصلية ذا طابع سلمي وبلشفي عن ضرورة وقف الحرب، مؤكدًا أنه حتى مع احتلال ألمانيا لجزء من الأراضي الروسية، فالأمر لن يكون أسوأ بالنسبة للشعب"(١٠١).

الأرجح أن لوتشينكين أجرى مثل هذه الأحاديث في بورسعيد أيضا مع أناس ليسوا من أبناء وطنه. في برقية إلى سميرنوف مؤرخة في الحادي عشر من سبتمبر (التاسع والعشرين من أغسطس بالتقويم القديم) بعث بها القبطان ماكالينسكي يقول : "أرى أن واجبي أن أبلغكم أن السلطات الفرنسية والإنجليزية هنا (وخاصة الأولى) مهتمة اهتمامًا قويًا بالأناركي الروسي النائب المدفعي لوتشينكين، وقد قاموا بالاستعلام عنه لدى القنصل وخاطبوني بشأنه، الواضح أنهم يأخذون أمر هذا الدعائي على محمل الجد، الذي جاء

---

(١٠١) المرجع السابق. ملف ٤١٨، قائمة ١، وثيقة ١٠٣، صحيفة ٥٧.

إلى الإسكندرية دون إذن، وقد نجح في جلب كومة من المطبوعات الأناركية الشيوعية بصحبته"[١٠٢].

وعلى الفور قامت السلطات البريطانية بإحاطة السفير أ. أ. سميرنوف علمًا بنشاط لوتشينكين. وقد أرسل سميرنوف في الثالث من أكتوبر (العشرين من سبتمبر بالتقويم القديم) عام ١٩١٧ بالبرقية التالية إلى هيئة الأركان العامة البحرية: "أبلغني المندوب السامي بمدى الحرج الذي يستشعره الإنجليز من جراء الدعاية الأناركية السلمية، التي يقوم بها المدفعي لوتشينكين، مندوب "بيريسفيت" في مصر. وقد أرسل لي خطابًا يتضمن التصريح الرسمي للقائد الأعلى حول النشاط الثوري الذي يمارسه المذكور أعلاه، مقترحًا إما أن نقوم نحن بإبعاده خارج الحدود المصرية، وإما أن نسمح للسلطات العسكرية الإنجليزية بترحيله"[١٠٣].

وقد أشارت هيئة الأركان البحرية بضرورة ترحيل لوتشينكين من مصر، وأيدت هذا الإجراء أيضا وزارة الخارجية الروسية. وقد أرسلت هذه التعليمات إلى القبطان ماكالينسكي في بورسعيد، وقد أجاب بأن اتخاذ مثل هذه الخطوة تخرج عن صلاحياته بوصفه عضوًا في اللجنة[١٠٤]. والواضح أن السبب في اقتناعه عن اتخاذ هذا القرار يرجع إلى شعبية لوتشينكين بين البحارة.

(١٠٢) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ١٥١، قائمة ٤٨٢، وثيقة ٨٧٦، صحيفة ١٦٤

(١٠٣) المصدر السابق. وثيقة ٤٣٨٦، صحيفة ٦٧.

(١٠٤) الأرشيف الروسي الحكومي للأسطول البحري العسكري. ملف ٤١٨، قائمة ١، ملف ١٠٣، صحيفة ٨٨، ٩١، ١٣٣.

توقف عمل اللجنة بعد ثورة أكتوبر. وفي مطلع شهر مارس عام ١٩١٨ أُرسل الجزء المتبقي في بورسعيد من طاقم "بيريسفيت"، والذي بلغ قوامه ٤٥ بحارًا وضابطين إلى فلاديفوستوك[١٠٥]. وليس من المعروف، مع ذلك، ما إذا كان بتروف ولوتشينكين من بين الذين أعيدوا إلى هناك ضمن هذه المجموعة.

وفي آخر عام ١٩١٧ بقي تسعة بحارة من طاقم "بيريسفيت" في إحدى المستشفيات العسكرية في الإسكندرية[١٠٦]. هؤلاء لم يُعرف مصيرهم بعد ذلك التاريخ. ولعل من المثير للانتباه أنه، استنادا إلى ما ذكره محمد المصري، أن أحد البحارة الروس تزوج من ألمانية، هي ابنة لمهندس يعيش في الإسكندرية، وكان يعمل في ورشة للميكانيكا يملكها إنجليزي، كان الأخ الأكبر لمحمد المصري يعمل لديه. وقد تمت مراسم الزفاف في بور فؤاد انتقل بعدها العروسان الشابان للعيش في القاهرة[١٠٧].

لا يمكن أن نفترض أن هذا البحار الروسي هو وحده من بقي في القاهرة. عاملان وقفا عقبة كؤودًا آنذاك في طريق العودة للوطن وأطاحا بالانضباط العسكري، استمرار الحرب ونشوب الثورة في روسيا. يكفي أن نذكر على الأقل أن هيئة الأركان العامة البحرية قامت في عام ١٩١٧ بعمل قائمة بتوزيع أفراد الطاقم السابق للطرّاد "بيريسفيت" على السفن الجديدة وأماكن وجودهم، وقد تبين أن عدد هؤلاء لم يتجاوز سبعة عشر بحارًا[١٠٨].

---

(١٠٥) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ٨٢٠/٣، وثيقة ٥٦٥، صحيفة ٥٢.
(١٠٦) الأرشيف الروسي الحكومي للأسطول البحري العسكري، ملف ٤١٧، قائمة ٤، وثيقة ٦٤١٧، صحيفة ١٣٢.
(١٠٧) فلاديمير بيلياكوف. أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار. ص ٦٧.
(١٠٨) الأرشيف الروسي الحكومي للأسطول البحري العسكري. ملف ٤١٧، قائمة ٤، وثيقة ٦٤١٧، صحيفة ١٣٢.

كان البحارة الروس الذين وصلوا إلى مصر في عام ١٩١٠ حريصين في بداية الأمر على توطيد علاقاتهم مع مواطنيهم بالدرجة الأولى. على أنه، وكما أشرنا سابقًا، لم يكونوا بمعزل أيضًا عن السكان الآخرين وخاصة الأوربيين منهم. لقد كان لوجود الروس في مصر ردود فعل كبيرة، مما دفع الأوربيين للتعاطف معهم والاهتمام بروسيا وما يجري فيها من أحداث سياسية.

الجالية الروسية في مصر إبان الحرب العالمية الأولى

لم تكن مصر بعيدة عن أحداث الحرب العالمية الأولى وإن ظلت في البداية مجرد مؤخرة للقوات البريطانية في الشرق الأوسط ومصدرًا للموارد المادية والبشرية. أما الجالية الروسية فلم تتأثر كثيرًا بهذه الأحداث. لم يكن الروس ليتعاطفوا إلا مع وطنهم، بينما راح الآباء السيناويون يصلون من أجل انتصار السلاح الروسي، وهو ما أحاط به بورفيري الثاني رئيس أساقفة سيناء السينودوس المقدس في السابع والعشرين من أغسطس عام ١٩١٤[١٠٩].

وقد تغير الوضع على نحو جاد بعد أن دخلت الإمبراطورية العثمانية الحرب في التاسع والعشرين من أكتوبر ١٩١٤. وكان الرد سريعًا من جانب إنجلترا التي أعلنت في الثامن عشر من ديسمبر انفصال مصر عن تركيا وتبعيتها للعملية الإنجليزية. أما في العاشر من يناير عام ١٩١٥ فقد قامت ثماني وحدات تركية بمغادرة فلسطين مقتحمة شبه جزيرة سيناء المصرية متخذة طريقها نحو قناة السويس.

---

(١٠٩) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ١/٨٢٠، وثيقة ٥٧٦، صحيفة ٤٩.

كان لمشاركة مصر في الحرب أثر كبير على الجالية الروسية. فبعد دخول تركيا إلى الحرب تدفق سيل من اللاجئين القادمين من فلسطين إلى مصر يحملون جوازات سفر روسية. وفي الفترة من ديسمبر ١٩١٤ وحتى يناير ١٩١٥ وصل إلى الإسكندرية ٣٣٧٦ يهوديًا روسيًا. وقد هيأت لهم السلطات المصرية إقامة مؤقتة وطعامًا. وبناء على مبادرة من القنصل أ. م. بتروف تكونت لجنة خاصة لتقديم المساعدة للاجئين الروس. وقد أصرَّ المصريون على سرعة ترحيلهم إلى وطنهم بأسرع ما يمكن. على أن تحقيق ذلك الأمر لم يكن بالأمر الهين. لقد تبين أن الطريق البحري الأقصر من مصر إلى روسيا، والذي يمر بالدردنيل والبوسفور مغلق بسبب الأعمال الحربية. ولم يعد أمام اللاجئين طريقًا للعودة إلا عن طريق أوربا، أو فلاديفوستوك. لم يكن لدى الدبلوماسيون الروس من الأموال ما يكفي لإعادة هذا العدد الكبير إلى الوطن ؛ فضلاً عن أن اللاجئين أنفسهم كانوا خالي الوفاض. وقد سمحت السلطات المصرية للاجئين بالبحث عن عمل ثم الإقامة في الإسكندرية لمن وجد منهم فرصة للعمل[١١٠].

في ديسمبر عام ١٩١٤ تم إجلاء البعثة الدينية الروسية من فلسطين وعلى رأسها الأرشيمندريت ليونيد، وقد وصلوا وبصحبتهم أيضًا مجموعة من الحجيج الروس الأرثوذكس بلغ عددهم إجمالاً خمسة وتسعين فردًا[١١١].

كما أشرنا من قبل فقد اضطر للبقاء في مصر عدد من الروس، منهم سائحون، وحجاج قادمون إلى سيناء ومرضى يتلقون العلاج في مراكز الاستشفاء بحلوان.

---

(١١٠) المصدر السابق. وثيقة ٦٥٧، صحيفة ١٢٤ – ١٢٨.

(١١١) المصدر السابق. صحيفة ١٢٩.

نتيجة لما سبق ازداد عدد أفراد الجالية الروسية في مصر ازديادا ملحوظًا. وبحسب تعداد السكان الذي جرى في عام ١٩١٧ تبين أن عدد المواطنين الروس في البلاد يبلغ ٤٢٢٥ مواطنا أكثر من نصفهم يعيشون في الإسكندرية. في الوقت الذي بلغ فيه إجمالي عدد الأجانب في مصر ١٧٥٠٠٠ نسمة(١١٢).

وقد طرأ تغيير ملحوظ على التركيبة القومية للجالية الروسية أيضًا، فبسبب العدد الكبير من اللاجئين القادمين من فلسطين ازدادت نسبة اليهود بين أفرادها.

عرضت السلطات العسكرية البريطانية على المواطنين وعلى الأجانب الذين يعيشون في مصر العمل في صناعة أظرف القنابل والقذائف النحاسية للطلقات والبنادق. وقد التحق بهذا العمل العديد من المواطنين الروس أيضا وعلى رأسهم اللاجئون من فلسطين. وهؤلاء أنفسهم أنشأوا في عام ١٩١٥ مصنعًا صغيرًا كان يعمل فيه من ثلاثين إلى خمسة وثلاثين فردًا(١١٣).

في بداية الحرب قامت الحكومة الروسية بإعفاء المواطنين الروس المقيمين في الخارج من الاستدعاء للخدمة في الجيش. على أن الخسائر الفادحة التي وقعت على جبهات القتال اضطرتها أن تلغي هذا الامتياز. وبناء على الأمر الصادر في الأول من مارس عام ١٩١٥ كان على المكلفين بالخدمة العسكرية من الروس إما العودة على الفور إلى الوطن، وإما الالتحاق بالخدمة في قوات الحلفاء. وقد فوِضَت القنصليات الروسية في متابعة هذا الأمر(١١٤).

---

(١١٢) فؤاد المرسي. العلاقات المصرية السوفيتية. ١٩٤٣ – ١٩٥٦. القاهرة، ١٩٧٦. ص ٢١.
(١١٣) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ١/٨٢٠، وثيقة ٥٠٧، قائمة ١٣.
(١١٤) المصدر السابق. وثيقة ٥٠٦. صحيفة ١٤، ٥٠.

كانت عودة الروس، الذين كانوا يعيشون في مصر إلى الوطن أمرًا بالغ الصعوبة في ظروف اشتعال الحرب. ومن ثم فقد كان الخيار المتاح أمامهم هو الالتحاق بالجيش البريطاني، وخاصة أن قواته كانت تقوم بعمليات عسكرية ضد الأتراك على الأراضي المصرية وفي شبه جزيرة سيناء. وهكذا فإن الروس، الذين التحقوا بالجيش البريطاني في مصر، عادة ما كانوا يقضون خدمتهم في مصر ذاتها. وفي نفس الوقت أقيم في الإسكندرية معسكر خاص للروس الذين تم استدعاؤهم للخدمة، كانوا يتوجهون منه إلى مكان خدمتهم الدائمة تبعًا لأعمارهم ومستوى إعدادهم العسكري ونوعية مهنهم. وكانوا في الأغلب يُوزَعون على الفرق العاملة في مؤخرة الجيش لا على الجبهة. على أنهم أحيانًا ما كانوا يُرسلون إلى الوحدات المقاتلة في أوربا. وفي الرابع عشر من نوفمبر عام ١٩١٦ أبحر ١٦٨ مُجنّدًا روسيًا على ظهر حاملة الجنود "مينيفاسكا" من الإسكندرية إلى مارسيليا[115].

بحلول نهاية عام ١٩١٦ أزاح الجيش البريطاني الأتراك عن سيناء ليتحصن على الحدود مع فلسطين. وقد خفَّ التوتر بعض الشيء في مصر، بعدما كانت الحياة فيها خاضعة بقسوة في السنوات الأولي للحرب لحاجات الجبهة. تم افتتاح محال جديدة ومقاهٍ وأماكن ترفيهية. ولم يقف الروس أمام ذلك مكتوفي الأيدي. ففي بداية عام ١٩١٧ افتتح المواطن الروسي س. سفيردليك مطعمًا في القاهرة سمّاه "بتروجراد"[116].

---

(١١٥) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ١٤٩، قائمة ٥٠٢ ب، وثيقة ٧٣٨٤، صحيفة ١.

(١١٦) المصدر السابق. ملف ٣١٧، قائمة ٨٢٠/١، وثيقة ١٠٧١، صحيفة ٢٢.

استقبلت الجالية الروسية في مصر ثورة فبراير في روسيا بحماس بالغ، ففي الخامس والعشرين من مارس عام ١٩١٧ تجمع جمهور غفير من الروس بشعور فياض من السعادة والتأثر أمام مبنى المفوضية الدبلوماسية الروسية في القاهرة. وقد انضم إليهم بعض المصريين. وقد راح المتظاهرون يلوّحون بأعلام حمراء كتب عليها: "عاشت روسيا الحرة!"، بدأ الاجتماع الجماهيري، الذي حيًّا المشاركون فيه إسقاط الملكية. وأرسلوا إلى بتروجراد برقيات ذكروا فيها أن الروس المقيمين في مصر يقفون في صف الثورة المنتصرة(١١٧).

وقد أيّد الثورة أيضًا البحارة العسكريون من طاقم الطرّاد "بيريسفيت" الذين كانوا موجودين في بورسعيد في هذا الوقت. وقد كتبت لجنة طاقم "بيريسفيت" فيما بعد خطابًا إلى كيرينسكي وزير الحربية والبحرية جاء فيه: "جاءت الثورة ونحن نشعر أننا أحرار في المطالبة بحقوقنا القانونية"(١١٨).

وقد أعرب الدبلوماسيون الروس العاملون في مصر عن ولائهم للحكومة المؤقتة، بينما استجاب آخرون لثورة أكتوبر على نحو مختلف. فقد رفض السفير أ.أ. سميرنوف ومرؤسوه الاعتراف بالسلطة السوفيتية، ومن ثم تم إعفاؤهم من مناصبهم بأمر من قوميسارية الشعب للشئون الخارجية (وزارة الخارجية – المترجم) مؤرخ التاسع من ديسمبر ١٩١٧(١١٩). وحيث

---

(١١٧) م. فرينكل. صحيفة "إيسكرا" اللينينية في مصر. مجلة "آسيا وأفريقيا اليوم"، العدد ١١، ١٩٨٨. ص ١٠.

(١١٨) الأرشيف الروسي الحكومي للأسطول البحري العسكري. ملف ٢١، قائمة، وثيقة ٢٧، صحيفة ٣٦.

(١١٩) وثائق السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي. الجزء الأول. موسكو، ١٩٥٩. ص ٤٣، ٤٤.

إن الحكومة المصرية أيضا لم تعترف بالسلطة السوفيتية فقد قطعت العلاقات الرسمية بين حكومتينا، ولمدة تزيد على ربع قـرن. علـى أن المـصريين استمروا لمدة ست سنوات يعتبرون الدبلوماسيين القيصريين الـسابقين هـم ممثلي روسيا. والحقيقة أنهم ظلوا يقومون بوظائفهم القنـصلية، أكثـر مـن قيامهم بالمهام الدبلوماسية، كما كانوا يدافعون عن مصالح الجالية الروسية.

ما إن وضعت الحرب أوزارها حتى بدأ الإنجليز في نقل أسرى الحرب الروس، بعد أن قاموا بتحريرهم في سياق الأعمال العسكرية التي خاضوها ضد تركيا إلى الشرق الأوسط، وقد وصلت إلى بورسعيد في الـسادس مـن ديسمبر عام ١٩١٨ المجموعة الأولى من هؤلاء الجنود ويبلغ عـددهم ٦٤ فردًا. وفي منتصف شهر ديسمبر وصلت مجموعة أخرى قوامها ٥٨٦ فردًا. ومن بين أسرى الحرب الروس كان هناك عدد كبير جرى أسْره على الجبهة الغربية أثناء هروب القوات ذات الميول الثورية في جاليسيا(*) في يوليو عام ١٩١٧. وقد قام الأتراك بنقلهم إلى الشرق الأوسط لاستخدامهم في أعمـال إضافية. أما الإنجليز فقد وزّعوا الأسرى الروس الـسابقين فـي مخيمـين مجهزين بالمستشفيات العسكرية في منطقة التل الكبير الواقعة على الطريـق بين القاهرة والإسماعيلية، وفي القنطرة على شـاطئ قنـاة الـسويس بـين الإسماعيلية وبورسعيد(١٢٠). وبحلول شهر مايو عام ١٩١٩ بلغ تعداد أسرى الحرب، الروس السابقين في معسكر التل الكبير ١١٤٨ فردًا(١٢١).

(*) جاليسيا : منطقة في إسبانيا. (المترجم).

(١٢٠) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ٣/٨٢٠، وثيقة ٧٠، صحيفة ٥، ٨، ١٦.

(١٢١) المصدر السابق. قائمة ١/٨٢٠، وثيقة ١٠٧١، صحيفة ١٢٢ س أ ب.

كان الإنجليز يُبلغون المفوضيات القنصلية الروسية بالحالات المرضية الشديدة بين العسكريين، وعن حالات الشفاء أو الوفاة. وفـي ربيـع ١٩١٩ ظهرت في الجبانة العسكرية في التل الكبير قبور للجنود الـروس: بيـوتر جيرمان، صالح بوتكايف، إرنست بريمان، يجـور فيودوتـوف وتيمـوفيّ جرودينين[١٢٢]. ولا يزال الإنجليز حتى اليوم يقومون على رعاية هذه القبور بنفس القدر الذين يرعون به قبور مواطنيهم[١٢٣].

ونتيجة للحرب الأهلية في روسيا وعدم اعتـراف إنجلتـرا بالـسلطة السوفيتية، كانت إعادة أسرى الحرب تتم ببطء شديد. والأرجح أنها كانت تتم في الأغلب عبر الشرق الأقصى. على سبيل المثال، قام القائم بأعمال القنصل الروسي في بورسعيد أ. نيسين في الثلاثين من يناير عـام ١٩٢٠ بترحيـل خمسة من أسرى الحرب السابقين إلى فـلاديفوستوك على متن إحدى السفن، وقد قام بجمع ثمن التذاكر لهم وكيل شركة الملاحة والتجارة الروسية أ. ب. باخوموف[١٢٤]. على أنه وبفضل جهود الحكومة السوفيتية تم إرسالهم بطريق مختصر عبر أوديسا.

وقد ورد في مذكرة حكومة جمهورية روسـيا الاتحاديـة الفيدراليـة المؤرخة السادس من أكتوبر عام ١٩٢٠ المرسلة إلـى حكومـة بريطانيـا العظمى ما يلي: "وبالنسبة إلى مسألة إعادة الأسرى فينبغي الإشارة إلـى أن

---

(١٢٢) المصدر السابق. قائمة ٣/٨٢٠، وثيقة ٧٠، صحيفة ١٧.

(١٢٣) انظر: فـلاديمير بيلياكوف. مدينة موتى روسـية فـي مـصر. موسـكو، ٢٠٠١؛ ف. بيلياكوف. مدينة موتى روسية في مصر: معلومات جديدة. "بشير النـسب"، العـدد ١٠. سان بطرسبورج، ٢٠٠٢. ص ١٧ ، ١٨.

(١٢٤) أرشيف السياسة الخارجيـة للإمبراطوريـة الروسـية. ملـف ٣١٧، قائمـة ٣/٨٢٠، وثيقة ١٨١، صحيفة ٤، ٥، ١٥.

عددًا من المواطنين الروس، الذين كانت تحتجزهم السلطات البريطانية في مصر وفارس والقسطنطينية وباطومي وفي بعض الأماكن الأخرى، الذين كانوا يرغبون في العودة إلى روسيا السوفيتية، فإنهم لم يحصلوا بعد على التصريح اللازم من السلطات البريطانية. تجدر الإشارة أيضًا إلى أن بعضًا من هؤلاء الأسرى الموجودين في القنطرة في مصر يتعرضون لمعاملة تدعو إلى الاحتجاج الشديد"(١٢٥). وقد ذكرت حكومة بريطانيا العظمى في مذكرة الرد المؤرخة العاشر من أكتوبر أن "من بين المواطنين الروس، الذين ينتظرون العودة إلى الوطن والمقيمون في أجزاء مختلفة من الإمبراطورية البريطانية... يوجد ١٢٩ فردًا ينتظرون العودة، ومنهم من يقيم في القنطرة في مصر بسبب المرض الشديد، الذي لا نعلم عن أسبابه شيئًا، وهؤلاء جار الاستعلام عنهم على وجه السرعة"(١٢٦).

يبدو أن الخطوة الدبلوماسية التي اتخذتها الحكومة السوفيتية قد أثمرت، ففي الثلاثين من أكتوبر بعث قوميسار الشعب للشئون الخارجية ح. ف. تشيتشيرين إلى رئيس وفد التجارة السوفيتية ل. ب. كراسين الموجود في لندن بالبرقية التالية "لقد تم اتخاذ الإجراءات اللازمة نحو استقبال حاملة الجنود التي ستنقل، طبقًا لبلاغكم، الأسرى الروس العائدين من مصر والقسطنطينية إلى أوديسا"(١٢٧). وعلى ما يبدوفقد كانت هذه الرحلة هي الأخيرة لتنتهي بذلك عملية إعادة الأسرى تمامًا. لم يقابل مؤلف هذا الكتاب بعد هذا التاريخ أي ذكر أو إشارة واحدة في أيٍّ من الوثائق التي اطلع عليها لأسرى الحرب الروس في مصر.

---

(١٢٥) وثائق السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي. الجزء الثالث. موسكو، ١٩٥٩. ص ٢٣٩.
(١٢٦) المصدر السابق. ص ٣١٨.
(١٢٧) المصدر السابق. ص ٣٠٨.

لم يؤد انتصار ثورة أكتوبر وانتهاء الحرب العالمية الأولى إلى سرعة عودة معظم الثوريين الروس إلى الوطن، بعد أن وجدوا في مصر ملجأ لهم من ملاحقة النظام القيصري. كان سبب البقاء هو اندلاع الحرب الأهلية في روسيا وقطع الطريق البحري بين الإسكندرية وأوديسا، وانقطاع الصلة مع الأقارب والأصدقاء، الذين بقوا في الوطن. لقد نجح بعض المهاجرين في التآلف تمامًا مع الحياة المحلية، وذلك لأنهم ظلوا متماسكين مع بعضهم بعضًا. في عام ١٩١٩ كانت لجنة المهاجرين السياسيين الروس لا تزال قائمة[١٢٨]. ومن سخرية القدر أن يلتقوا في مطلع العام التالي مباشرة على أرض مصر بأعدائهم السياسيين، المهاجرين البيض.

---

(١٢٨) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ٨٢٠/١، وثيقة ٥٠٨، صحيفة ٦.

الفصل الرابع

"الروس البيض" في مصر

كان اندلاع الثورة والحرب الأهلية في روسيا وراء وصول موجة من المهاجرين إلى مصر. ويذكر ي. ف. لوكينين، استنادا إلى بعض المصادر، إلى أن "المجموعات الأولى من الروس بدأت في الوصول إلى مصر بأعداد ملحوظة في الفترة من يناير إلى إبريل عام ١٩١٩ نظرا لتقهقر جيش دينيكين(*)"(١).

وتضم الجبانة الإنجليزية في منطقة التل الكبير الواقعة في المسافة بين القاهرة والإسماعيلية، حيث كان موجودا بالقرب منها المعسكر الحربي، ثمانية قبور لجنود روس لاقوا حتفهم في ربيع عام ١٩١٩(٢)، وهؤلاء لم يكونوا من بين اللاجئين وإنما من أسرى الحرب الذين تم إجلاؤهم من تركيا على يد السلطات البريطانية، بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها. وهو ما تؤكده إحدى وثائق المفوضية الدبلوماسية الروسية

(*) أ. إ. دينيكين (١٨٧٢ – ١٩٤٧): أحد أهم منظمي الثورة المضادة إبان الحرب الأهلية في روسيا. كان ضابطًا في الجيش الروسي قبل الثورة برتبة فريق. بدأ منذ إبريل ١٩١٨ في قيادة الجيش التطوعي، ثم أصبح القائد العام "القوات المسلحة لجنوب روسيا". من المهاجرين البيض منذ عام ١٩٢٠. (المترجم).

(١) ي. ف. لوكونين. على ضفاف النيل "بجواز سفر تافه". مجلة الشتات الروسي في أفريقيا. موسكو، ٢٠٠١ . ص ٢٦.

(٢) ف. ف. بيلياكوف. مدينة موتى روسية في مصر – موسكو، ٢٠٠١، ص ١٢، ١٦، ١٧، ٢٩، ٣٤. قبرلن مجهولان. أرشيف المؤلف. صندوق "الروس في مصر". وثيقة ٣، صحيفة ١٠٤.

والقنصلية العامة في مصر[٣]. أما فيما يتعلق باللاجئين فلا نجد ذكرًا لأي منهم في وثائق القنصلية العامة عن عام ١٩١٩. ومن الواضح أن عددًا قليلاً للغاية منهم وصل في تلك الفترة إلى مصر قادمًا من روسيا. أما الخروج الجماعي فلم يبدأ إلا في شهر فبراير عام ١٩٢٠.

لم يكن باستطاعة الدبلوماسيين الروس ألا يكون لهم، بطبيعة الحال، دور في مصير مواطنيهم. ومن ناحية أخرى، كان اللاجئون يتوجهون بأنفسهم إليهم طلبًا للمساعدة، محيطين إياهم بمعلومات مكتوبة عن أوضاعهم، وقد امتلأ أرشيف القنصلية بالطلبات والاستفسارات التي قدمها اللاجئون[٤].

اللاجئون الروس في مصر في الفترة من ١٩٢٠ وحتى ١٩٢٢

وصل اللاجئون الروس إلى مصر على متن خمس سفن: ثلاث منها إنجليزية– "إمباير"، "جلوتشيستر كاسل" و"جيلمهورن كاسل"، واثنتين روسيتين – "سارلتوف" و" بارون بيك"، وهناك وثائق تصف في إيجاز عملية إجلائهم من روسيا إحداها وثيقة شاملة، وكذلك كانت هناك وثائق كل منها تختص بسفينة واحدة صاغها اللاجئون بأنفسهم لتقديمها للقنصلية الروسية. والأرجح أنها كتبت جميعًا في مطلع صيف ١٩٢٠ (لا يوجد سوى وثيقة واحدة مؤرخة في الثاني والعشرين من يونيو، أما باقي الشهادات فلا تحمل تاريخًا)[٥].

---

(٣) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ٨٢٠/٣، وثيقة ٧٠، صحيفة ١٧. ظلت المفوضية الدبلوماسية الروسية القيصرية السابقة والقنصلية العامة يعملان في مصر بشكل رسمي حتى أكتوبر عام ١٩٢٣، وهوما سوف نتناوله بالتفصيل في الفصل الثاني.

(٤) بعد إقامة العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفيتي ومصر في السادس والعشرين من أغسطس عام ١٩٤٣، قام المسئول عن الأرشيف الدبلوماسية الروسية، س. ب. رازوموفسكي (١٨٧٥ – ١٩٤٧) بتسليمها إلى اللجنة السوفيتية التي أرسلتها إلى موسكو، إلى أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية.

(٥) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ٨٢٠/٣، وثيقة ٢١٠، صحيفة ٦ – ١٦.

أبحرت "إمباير" من ميناء نوفوروسيسك في الثالث من فبراير عام ١٩٢٠تحمل على متنها ٦٣٤ فردًا كلهم من الضباط والرتب الكبيرة والجنود المرضى والجرحى، ممن كانوا يخدمون بالفعل بالقوات المسلحة لجنوب روسيا. ولم يكن من بين المسافرين على هذه الرحلة أي لاجئين مدنيين أوعائلات؛ بالإضافة إلى ٢٧ فردًا من الموظفين الروس (أطباء، ممرضات، ممرضون، قس، مترجم). وقد وصلت الحاملة إلى الإسكندرية في الخامس عشر من فبراير.

أما جولتشيستر كاسل" فقد غادرت ميناء سيفاستوبول في الخامس من فبراير ١٩٢٠ وعلى متنها ٤٨٠ فردًا من المرضى والجرحى من الجنود التابعين للجيش التطوعي كانوا يُعالجون في مستشفيات سيفاستوبول العسكرية ويفاباتوريا(*)، وكذلك ٢٧ زوجة من زوجاتهم وطفلين تم إجلاؤهم جميعًا. لم يكن هناك أي طاقم طبي على متن هذه السفينة، وقد توفي ستة أفراد أثناء الرحلة بسبب التيفود. وفي الخامس عشر من فبراير وصلت السفينة إلى الإسكندرية، وفي نفس اليوم وصلت "إمباير".

قامت "جيلمهورن كاسل" بنقل اللاجئين الروس إلى الإسكندرية على دفعتين، الأولى، في الثامن عشر من مارس. والثانية، في الثالث عشر من إبريل، ولكن النقل لم يتم مباشرة من روسيا، وإنما عبر ميناء سالونيك اليوناني. كان إجمالي ما نقلته السفينة ما يقرب من ١٢٩٠ جريحًا ومريضًا من الجنود، ٥٠ من الموظفين الذين سافروا من نوفوروسيسك على السفينتين "باناما" (٢٠ يناير) و"بريوين" (٥ يناير).

(*) يفباتوريا: ميناء في القرم يقع على البحر الأسود. (المترجم).

وقد أجلى الإنجليز على الباخرة "ساراتوف"[٦] من نوفوروسيسك بشكل أساسي ٧ ضباط وجنودًا آخرين من مختلف وحدات الجيش التطوعي، وكذلك من طلبة الكليات العسكرية (الكاديت) من فيلقي دونسكوي وفلاديفوستوك، الذين بلغ إجمالي عددهم ١٤٠١ طالب. وحملت السفينة على متنها أيضًا عددًا من المدنيين من بينهم الفنان إيفان بيليبين ولودميلا وفالنتينا ابنتا الكاتب يفجيني تشيريكوف. وقد غادرت "ساراتوف" ميناء نوفوروسيسك في السابع من مارس واضطر معظم ركابها، بمن فيهم ٣٠٠ من الكاديت وجميعهم في سن المراهقة، إلى النوم على سطحها مباشرة، على الرغم من أن الفصل كان شتاءً. وفي الثامن عشر من مارس وبعد الحجز في الحجر الصحي في البوسفور، وصلت "ساراتوف" إلى ميناء فاماجوستا في قبرص. وفي بادئ الأمر أعلنت السلطات الإنجليزية أن اللاجئين الروس سوف يعيشون في معسكر محلي كان مخصصًا في السابق لاحتجاز أسرى الحرب الأتراك. ولكن وبعد خمسة أيام، واصلت "ساراتوف" إبحارها إلى الإسكندرية، حيث وصلت إليها في الخامس والعشرين من شهر مارس. وعلى الرغم من أن وبائي التيفود والحصبة أخذا في الانتشار بين ركاب السفينة، فإنه لم تحدث حالة وفاة واحدة.

"بارون بيك" هي آخر حاملة نقلت الجرحى الروس. وقد غادرت ميناء نوفوروسيسك في السادس والعشرين من مارس، عندما ظهر جنود الجيش الأحمر عند حدود المدينة. وقد حملت على متنها ٤٢٣ فردًا من الجرحى والمرضى و٤١ فردًا من الطاقم الطبي. توجهت "بارون بيك"، مثل

---

(٦) بنيت سفينة الأسطول التطوعي "ساراتوف" في إنجلترا في عام ١٨٩٢. تبلغ حمولتها ٨٩٥٠ طنًا. بها ٢٦ قمرة فقط، بينما تبلغ الأماكن المخصصة للمسافرين لمسافات طويلة على أسطح السفينة ١٥٢٠ مكانًا. انظر: م. بوجينبول. دراسة حول ظهور ونشاط الأسطول التطوعي على مدى خمسة وعشرين عامًا في الخدمة. سان بطرسبورج، ١٩٠٣. ص ٢٣٤، ٢٣٥.

"ساراتوف"، إلى ميناء فاماجوستا، ولكن تم رفض استقبال اللاجئين الروس فيه، ومن ثم اتخذت طريقها إلى الإسكندرية حيث وصلت في الثاني عشر من إبريل، وفي طريقها لقي ١٧ فردًا من ركابها حتفهم بسبب التيفود.

على هذا النحو الذي تكشفه لنا الوثائق، يتبين لنا أن الذين وصلوا إلى مصر في بداية عام ١٩٢٠ بلغ عددهم نحو ٤٣٥٠ فردًا. وهو العدد المؤكد، إذ إن العديد من المصادر اختلفت بشأنه. وقد أشار ف. ف. بيللين، ابن الطبيب الروسي المهاجر الشهير، الذي عاش في القاهرة ف. إ. بيللين، في مقالته الموجزة: "حياة الروس في مصر"، إلى وصول ستة آلاف لاجئ روسي إلى مصر في عام ١٩٢٠ على متن السفن القادمة من نوفوروسيسك وأوديسا..."[٧]. وقد أورد د. فلامبورياني رقمًا أكثر دقة هو أربعة آلاف شخص[٨]. أما ي. ف. لوكونين، فكتب استنادًا إلى ما نشره المهاجرون أنه "وفقًا لبعض المعلومات، فقد وصل إلى مصر خلال عام ١٩٢٠ نحو ستة آلاف فرد، تم نقلهم من نوفوروسيسك وأوديسا فقط. في الوقت الذي تبدو فيه التقديرات الأخرى أكثر دلالة، فيما بعد، وصل إلى هنا ستة آلاف شخص قادمين من القسطنطينية"[٩].

وتشير الوثائق أيضًا وعلى نحو أكثر دقة إلى الأماكن التي تم نقل اللاجئين منها، وخاصة من نوفوروسيسك وسيفاستوبول وجزئيا من يفباتوريا، وليس من أوديسا، كما أكدت بعض المصادر السابقة.

---

(٧) ف. ف. بيللين. حياة الروس في مصر. // ب. ي. كوفاليفسكي. الروس في المهجر. باريس، ١٩٧١. ص ٣١٩.

(٨) Flamburiani . Dimitri. Les Russes sur la Terre Egyptienne. 2 me Edition. Alexandrie. 1936. P. 5.

(٩) ي. ف. لوكونين. مصدر سابق. ص ٢٧.

وأخيرًا، تعطينا هذه الوثائق تصورًا عن هذا الطريق الذي وصل عبره هذا الخليط من روسيا إلى مصر على السفن الإنجليزية والروسية، الذين كان غالبهم من الجنود الجرحى أو المرضى الذين كانوا يخدمون في صفوف الجيش التطوعي. وهؤلاء يمكن بالكاد أن نسميهم مجازًا باللاجئين، إذ إنهم غادروا روسيا على غير إرادة منهم. فقد قررت قيادة الجيش التطوعي وحلفاؤهم من الإنجليز إجلاء هؤلاء الجنود، الذين لم يعد باستطاعتهم، بسبب إصاباتهم وأمراضهم، حمل السلاح والوقوف في مواجهة الهجوم المطَّرِد للجيش الأحمر، فقد كانت أرواح هؤلاء عرضة لمخاطر شديدة في حالة وقوع نوفوروسيسك والقرم. وكما يتضح من الوثائق لم يتم اختيار النقطة النهائية للإجلاء على الفور. وعلى أية حال فقد كان من الضروري أن تكون هذه النقطة قريبة من مستعمرات التاج البريطاني الواقعة جنوبي روسيا.

أما بخصوص سالونيك اليونانية، فيبدو أن الإنجليز كانوا ينظرون إليها منذ البداية باعتبارها مجرد نقطة عبور بالنسبة للمهاجرين الروس، الذين لم يكن بمقدورهم البقاء فيها لفترة طويلة دون موافقة من حكومة اليونان المستقلة. وبالنسبة لقبرص، الواقعة تحت الإدارة البريطانية، فالأرجح أنه لم تكن بها بنية تحتية قادرة على استيعاب مثل هذا العدد الكبير من اللاجئين. وعلى الجانب الآخر فإن مصر، التي تم اعتبارها محمية بريطانية منذ ديسمبر عام ١٩١٤، كانت مسرحًا للعديد من المعارك حامية الوطيس أثناء الحرب العالمية الأولى ضد القوات التركية، وكان بها عدد من المعسكرات أقيمت للأسرى الأتراك، الذين أعيدوا إلى بلادهم تدريجيا بعد انتهاء العمليات العسكرية. لم يضع الإنجليز في حسبانهم أن المناخ والبيئة الثقافية والدينية

في قبرص، أكثر مناسبة بالنسبة للروس منها في مصر. وقد كتب أحد الكاديت فيما بعد قائلاً: "لو كانت نقطة وصول الرحلة معروفة للفيلق (فيلق كاديت دونسكوي – المؤلف) لَمَا قَبِلَ عشر الفيلق على الأرجح الموافقة على ركوب السفينة "ساراتوف"(١٠).

ما إن وصل اللاجئون الروس إلى الإسكندرية حتى تم نقلهم على الفور إلى الحجر الصحي. كانت ظروف الإقامة هناك طبيعية تمامًا، أو هكذا بدت بعد رحلة بحرية طويلة. يؤكد يوري جونتشاروف أنه "يجب أن ندرك أن الجميع غادروا مبنى الحجر الصحي بأسف شديد. فهناك كان باستطاعة البحارة أن يناموا على مراتب وأن يأكلوا حتى الشبع. كما أنهم كانوا يتسلمون سجائر، وكانت هناك أيضًا حديقة جنوبية رائعة بها نخيل ونباتات متنوعة"(١١).

بعد انقضاء فترة الحجر الصحي تم إرسال اللاجئين إلى القاهرة بالقطار ليقيموا في العباسية الواقعة على حدود المدينة، حيث أعد لهم معسكر خاص هناك. لم يتبق سوى المرضى الحاملين للعدوى وقد أدخلوا إلى المستشفى في سيدي جابر بالقرب من الإسكندرية. أما اللاجئون الذين وصلوا في نهاية شهر مارس، سواء على متن السفينة "ساراتوف" أو الذين وصلوا على متن "جيلمهورن كاسل"، فقد تم إرسالهم إلى معسكر في منطقة التل الكبير، حيث لم يعد لهم مكان في العباسية.

---

(١٠) يوري جونتشاروف. فيلق كاديت دونسكوي في مصر. أفريقيا في عيون المهاجرين. موسكو، ٢٠٠٢ . ص ١٨.
(١١) المصدر السابق. ص ١٩.

في البداية تم توزيع الجنود المرضى والجرحى، من الألمان والأتـــراك والبلغار في المعسكر – المستشفى في العباســـية. وقـــد أرســـلت الـــسلطات البريطانية الأسرى إلى أوطانهم بهدف إخلاء المعسكر حتـــى يتـــسنى لهـــا استقبال المجموعة الأولى من اللاجئين الروس القـــادمين إلـــى الإســـكندرية. وعندما اقتربت الحاملة "إمباير" من الشواطئ المصرية كان إعداد المعـــسكر لاستقبال النزلاء الجدد قد انتهى على وجه السرعة(١٢).

اقام اللاجئون في العباسية في عنابر يتسع الواحد منها من ٥٠ إلى ٦٠ فردًا. وفي خيام تتسع الخيمة من ١٠ إلى ٢٠ فردًا. وكان اللاجئون قد أقاموا في البداية في الحجر الصحي ثم رُفع الحجر عنهم في الأول من مارس، غير أنه لم يُسمح لهم بزيارة المدينة إلا في العشرين من مارس. كـــان حُـــرَّاس المعسكر من الأستراليين ثم من الهنود بعد ذلك. كانت تصاريح زيارة المدينة تسمى Pass، وكان يتم تحديد عددها وتسليمها بواسطة القائد الإنجليزي، ولم يكن يسمح سوى لستة عشر فردًا في اليوم بالزيارة ولمدة تتراوح ما بين ١٤ و١٩ ساعة(١٣).

لم يكن بمقدور اللاجئين المقيمين في العباسية تدبير شئون حياتهم على هواهم. وإنما كانت هناك بعض الاستثناءات. فقد سُمح بإقامة كنيـــسة فـــي إحدى الخيام. وتبرعت البطريركية اليونانية في البداية بتقديم بعض اللـــوازم الكنسية وكذلك فعلت البعثة الدينية الروسية في القدس، وكان القس يوليتكارب فيلاتوف يقوم بأداء الخدمة في الكنيسة(١٤).

---

(١٢) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ٣/٨٢٠، وثيقة ٢١٠، صحيفة ٧، قصاصة ٧.

(١٣) المصدر السابق.

(١٤) المصدر السابق. وثيقة ١٩٣، صحيفة ٨، قصاصة ٥١، ٥٨.

وفي ربيع عام ١٩٢٠ جرى إنشاء لجنة القاهرة لمساعدة اللاجئين الروس، وذلك بمبادرة من الدبلوماسيين الروس وممثلي الجالية الروسية في مصر، وترأست اللجنة الإنجليزية الليدي كونجريف. وكان كل من يستطيع المساعدة يقوم بها، فتطوع طبيب الأسنان إسرائيل سولومونوفيتش جولدنبرج، وكان يمارس عمله في القاهرة في شارع قصر النيل في المنزل رقم ٤٠، بعلاج اللاجئين بالمجان. أما رجل الأعمال إرنست يجوروفيتش ماليسون فقد تبرع إلى صندوق اللجنة بمبلغ ٥٠٠ جنيه مصري، بينما تبرع ممثل شركة التأمين "روسيا"، ج. خورميوز، بمبلغ ٢٥٠ جنيهًا مصريًا، وكانت تعد أموالاً طائلة بمقاييس ذلك الزمان. أما السكان المحليون فقد أسهموا أيضًا في هذه التبرعات وخاصة المسيحيين. فقد أرسل بطريرك الإسكندرية فوتيوس إلى اللجنة ٥٥ ثم ٦٦ جنيهًا مصريًا، قام على جمعها رعيته لمساعدة اللاجئين، وقد تبرعت السيدة حرم نجيب باشا بطرس غالي، الأرمينية الأصل، وهي من أعرق العائلات القبطية في مصر، بمبلغ رمزي مقداره عشرة جنيهات مصرية. وقد ذهبت هذه الأموال بصفة خاصة إلى شراء مواد غذائية إضافية للاجئين، إذ إن حصص الغذاء المخصصة للأسرى كانت متواضعة للغاية[١٥].

ونتيجة لتعافي المرضى والجرحى من اللاجئين الروس، فقد جرى نقلهم من العباسية إلى معسكر أكثر اتساعا في التل الكبير، وفي أوائل شهر مايوعام ١٩٢٠ تمت إزالة معسكر العباسية نهائيًا. أما المرضى الذين تبقوا والذين بلغ تعدادهم نحو ٥٠٠ مريض، فهؤلاء أدخلوا إلى المستشفى العسكري الملحق بمعسكر التل الكبير، أما الذين كانوا بحالة شديدة من المرض تستدعي علاجًا مكثفًا، وهؤلاء بلغ عددهم سبعين فردًا، فقد تم توزيعهم على المستشفيات الأجنبية الموجودة في القاهرة[١٦].

---

(١٥) المصدر السابق. صحيفة ١٣، ١٩ – ٢١، ٣٣، ٨١.
(١٦) المصدر السابق. وثيقة ١٩٤، صحيفة ٢٨، قصاصة ٢٨.

وفي التل الكبير، الواقع على أطراف الصحراء، أقام اللاجئون الروس حتى بداية عام ١٩٢١، لكن جزءًا منهم كانوا أوفر حظًا، ففي الثامن عشر من مايو أرسلت مجموعة من اللاجئين، من المدنيين بصفة خاصة، قادتهم الظروف من السفينة "ساراتوف" إلى هذا المعسكر مباشرة، أرسلت خطابًا إلى السفير الروسي أ.أ. سميرنوف جاء فيه: "لقد حلت الآن أيام شديدة القيظ وجاء موعد رياح الخماسين التي انعكست آثارها على الحالة الصحية للذين جرى إجلاؤهم وهؤلاء ينتمي غالبهم إلى مناطق شمال روسيا، ونتيجة لذلك وقعت حالات ضربة شمس وأمراض في القلب والمعدة. وأصبح الصيف وارتفاع درجات الحرارة في التل الكبير يمثلان ظروفا مناخية قاتلة بالنسبة لصحة وحياة اللاجئين، وخاصة ضعاف الأبدان منهم والذين بلغوا من العمر أرذله. ونتيجة لذلك فإن خمسمائة فرد تم إجلاؤهم، تعذبوا من جراء ما عانوه في الوطن وطوال الرحلة، وجميعهم إخلاص لا يلين لبلدهم وللحرية والثقافة، يتوجهون إليكم برجاء حار أن تنظروا إليهم بعين العطف لنقلهم في أقرب فرصة إلى مكان آخر يكون أفضل لهم من ناحية المناخ والإعداد، بحيث يتلاءم على نحو ما وحياة هؤلاء المثقفين". وقد وقَّع سميرنوف على الالتماس بقوله: "لقد نجحت في نقل ثلاثمائة شخص إلى سيدي بشر"(١٧).

كانت سيدي بشر آنذاك ضاحية من ضواحي الإسكندرية، وهي الآن أحد أحيائها وتقع على شاطئ البحر المتوسط، ويتسم مناخها بالاعتدال أكثر من القاهرة؛ فضلاً عن التل الكبير. ليس من قبيل المصادفة أن الملك وحاشيته ومعهما الحكومة كانوا ينتقلون جميعًا إلى الإسكندرية طوال أشهر الصيف الخمسة. أضف إلى ذلك أن "عاصمة مصر الشمالية" في هذا الزمن كانت مستقرًا للعديد من الأوربيين، ليس فقط من الإنجليز، وإنما من

---

(١٧) المصدر السابق. وثيقة ١٩٣، صحيفة ١٣٥ ، ١٣٦.

الفرنسيين والإيطاليين واليونانيين، الذين كانوا أقرب دون شك إلى الـــروس من المصريين. يصف أحد الصحفيين الروس الإسكندرية بعد أن زارها فـــي عام ١٩١٢ بقوله : "يبلغ تعداد المدينة ٤٠٠٠٠٠ نسمة. والإسكندرية، إذا ما استثنينا الحي العربي، مدينة أوربية خالصة، نظيفة، أنيقـــة، لهـــا كـــورنيش جميل، فسيحة، وفي ميادينها المشجرة تنتصب تماثيل لعوب. فنادقها رائعـــة ودور العرض بها عديدة وفيها كل أنواع المقاهي"[١٨]. من هنا كان نقل جزء من اللاجئين إليها بمثابة هدية حقيقية.

أما "المعسكر الروسي" في التل الكبير فقـــد ورد وصـــفه فـــي مـــذكرات فـــالنتين تشيريكوف على النحو التالي: "حوله سهل رملي أجرد لا نهايـــة لـــه؛ وفوق الرؤوس شمس أفريقية لافحة. مدينة صغيرة من الخيام تحيطها أســـلاك شائكة، وفي كل مكان حرس من الهندوس. لا يوجد هنا أي منظر طبيعي علـــى الإطلاق، وفي الليل يعوى ابن آوى. وجدنا في المعسكر بضع مئات من بـــشر في حالة من الفقر المزري وغالبهم في وضع مهين أخلاقيًا للعسكرية الروســـية. نصفهم تقريبًا من الجرحى والمصابين بداء التيفود الطفحي"[١٩]. كانت الطبيعـــة المحيطة بمعسكر التل الكبير شديدة الوحشية، إلى حد أن المقيمـــين فيـــه مـــن الروس سمّوه "التل السيبير" (نسبة إلى سيبيريا – المترجم)[٢٠].

يمكننا أن نتعرف على نحو مفصل عن معسكر التل الكبيـــر والوضـــع الصحي له من تلك الوثيقة التي سجلها الطبيب فسيفولد شيفاندين في العاشـــر من يوليو عام ١٩٢٠[٢١].

---

(١٨) مجلة "نوفـــوي فـــريميا" ("العصر الحديث")، العدد ١٢٩٤٨. ٢٩ مارس ١٩١٢.

(١٩) إ. ي. بيليبين. مقالات، خطابات، مذكرات عن فنان . لينينجراد، ١٩٧٠ . ص ١٨٥.

(٢٠) الكسندر يابلونوفـــسكي. خطابات مياجر. أفريقيا في عيون المهاجرين. موســـكو، ٢٠٠٢. ص ١٥.

(٢١) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ٣/٨٢٠، وثيقة ١٩٤، صحيفة ١٢ – ٢٤ مع قصاصة.

"كان "المعسكر الروسي" مقسمًا إلى ثلاثة أجزاء. خصص الأول للنساء وعائلات اللاجئين، والثاني للرجال، الذين ليست لديهم عائلات. أما الجزء الثالث فكان المستشفى. كان كل سكان المعسكر يعيشون في خيام.

بلغت مساحة معسكر عائلات اللاجئين ٣٣٠٠٠ متر مربع تضم ٢٩٢ خيمة يعيش فيها ٣٦٤ فردًا (١٠٥ رجال، ٢٠٥ نساء و٥٤ طفلاً). وفي كل خيمة يسكن من فرد إلى ثلاثة أفراد.

أما معسكر الضباط والجنود الذين يتماثلون للشفاء فتبلغ مساحته ٢٥٥٠٠ متر مربع تضم ٣٤٥ خيمة يعيش فيها ١١٥٤ فردًا (٦٧٢ ضابطًا و٤٨٧ جنديًا) يعيش في كل خيمة ثلاثة ضباط، ولكل خمسة جنود، وأحيانًا كل سبعة، خيمة واحدة.

كانت الخيام مصنوعة من الكتان وجميعها على هيئة مخروطية واحدة دون نوافذ. وفي الجزء العلوى من الخيمة ثلاث فتحات للتهوية. الأرض ترابية، مساحة كل خيمة ٧,٦٥ مترًا مربعًا.

تم تأثيث الخيام في كلا المعسكرين بنفس الطريقة، فالأثاث مُصنَّع من الحديد والأسِرَّة ذات شبكات حديدية وأطر خشبية بدون طلاء وخزانة صغيرة لكل فرد، لم تكن هناك أية مقاعد أو كراسٍ. لكل سرير مرتبة ومخدة صغيرة وبطانية وناموسية، ولا توجد ملاءة للسرير. وبالإضافة إلى ذلك خُصص لكل خيمة طست مجلفن لغسيل البياضات، وفانوس واحد توضع فيه شمعة وجوال واحد لكل فرد يضع فيه الخبز. كانت الأواني مطلية بالميناء: لكل طبق واحد وكوز، ولكل سكين وشوكة وملعقة. فيما بعد أعطاهم الإنجليز إناءً من الصفيح لتناول الحساء.

بالإضافة إلى ذلك، فلم يكن بالمعسكر الثاني أي أثاث إلا في خيام الضباط. فالجنود لم تكن لديهم أسِرَّة أو مراتب أو خزائن صغيرة. فكانوا ينامون على غطاء من المشمع على الأرض مباشرة ودون وسادات.

تم تجهيز كلا المعسكرين بمطاعم كبيرة مبنية من الطوب والحجارة ومسقوفة. وقد وزعت فيها الموائد والأرائك.

في البداية كان الإنجليز يعطون النساء نصف وجبة غذائية وربع وجبة للأطفال أقل من ١٢ سنة. لم يكن الطعام كافيًا، وحتى تشعر النساء وأطفالهن بالشبع، كان الرجال يتنازلون لهن عن جزء من وجباتهم. كان الغذاء يوزع بالتساوي بين سكان المعسكر دون تمييز للنوع أو العمر. وحيث إن الرجال الموجودين في معسكر العائلات كانوا قلة – ١٠٥ رجال فقط و٢٥٩ امرأة وطفلاً، فإن الطعام لم يكن كافيًا. كان اللاجئون يعيشون في مجاعة، باستثناء عدد قليل كان باستطاعتهم شراء الطعام. وبدءًا من العشرين من يونيو بدأوا في إعطاء النساء ثلاثة أرباع وجبة والأطفال نصف وجبة. وقد أدى ذلك إلى تحسين تغذية اللاجئين بعض الشيء.

كانت الوجبة تحتوي على ٣٠٠٨ سعرات حرارية، لكنها كانت فقيرة في الزلال والهيدروكربونات. بالإضافة إلى ذلك كان جزء من الطعام لا يصلح أصلاً للأكل. وقد ذكر أحد الأطباء الروس إلى "أننا قد توصلنا، بناء على هذه المعلومات، إلى أن الطعام الذي يقدم إلى اللاجئين في معسكر تل الكبير (الكتابة القديمة للتل الكبير – المؤلف) كان سيئ الإعداد".

كان جزء من التعيين (الخبز، الشاي، السكر، الدهن، اللبن، المربى) يُسلم مباشرة للاجئين، أما باقي الطعام فيقدم في إناء مشترك. وقد ورد في إحدى الوثائق أن "الطعام كان يُعد بإهمال ودون مذاق. كان الحساء هو

الوجبة الوحيدة الساخنة التي تقدم للاجئين طوال اليوم. وكانت قطع اللحم صغيرة للغاية، أما الحساء فكانت تعلوه دائمًا طبقة سميكة من الدهن الجامد تجعل من هذا الطبق الساخن الوحيد مثيرًا للاشمئزاز. جدير بالملاحظة أن الطعام كان يقوم على إعداده الروس بمساعدة أسرى أتراك مستأجرين.

كان الحساء يُقدم في المطاعم في الساعة الرابعة مساء. وقبل ذلك كان من الممكن أخذ ماء ساخن لإعداد الشاي مرتين، في السابعة والحادية عشرة صباحًا. كان اللاجئون يعدون الشاي ويأكلون ما يُقدم لهم عينًا من خبز ودهن ومربي، وكانوا يعدون الشاي أيضًا عند الغذاء.

كان اللاجئون من كبار السن المنهكين، الذين أخذوا في التماثل للشفاء يتلقون، دون النظر إلى نوعهم وأعمارهم، تعيينًا إضافيًا بتعليمات من طبيب المعسكر الروسي. وكانت الزيادة تتكون من بيضة وخمسين جرامًا من اللبن المحفوظ وملء ملعقة كبيرة من الكاكاو.

كان الماء يصل إلى المعسكر من بئر ارتوازية ولكن ليس على مدار اليوم، وإنما من الساعة الخامسة إلى الثامنة صباحًا، ثم من الحادية عشرة إلى الثانية عشرة والنصف. ومن الواضح أنها مدة غير كافية. وفي أشد أوقات النهار حرارة بعد منتصف اليوم، لم يكن باستطاعة اللاجئين أن يستحموا، باستثناء عشرة أشخاص من كل معسكر يوميًا. كانت المياه الساخنة غير متاحة، فكانوا يغسلون ملابسهم بالمياه الباردة، أو بتعبير أدق، بمياه فاترة، حيث إن مواسير المياه كانت ممتدة فوق سطح الأرض، ومن ثم كانت تسخن بسرعة.

كان المستشفى العسكري في التل الكبير مميزًا عن المعسكرين الآخرين. فقد توزع المرضى فيه على عنابر كبيرة ذات أسقف رباعية مائلة

مساحتها ٣ × ٤ أمتار. ثلاثة عنابر منها مُجمعة في واحد. وقد بلغ عدد هذه العنابر ٣٩ عنبرًا، في كل عنبر ثلاثي خمسون سريرًا، وبذلك يكون المستشفى بأكمله مجهزًا لما يقرب من ألفي فرد. على أنه وفي العاشر من يوليو، عند إعداد هذه الوثيقة، كان العدد الإجمالي به ٦٦٢ مريضًا.

كان تنظيم عنابر المستشفى وما تحتويه من أوانٍ لا يختلف إطلاقًا عن المعسكرين الأولين، لكن المرضى، خلافًا للأصحاء، كانوا يتسلمون ملاءات يجرى استبدالها كل أسبوعين.

كان المستشفى مكونًا من عدة أقسام؛ الأمراض الباطنة، والجراحة، والعيون، وأمراض النساء والتوليد، والأمراض المعدية، الأمراض والزُهَرية وكذلك عيادة لعلاج الأسنان. كان قسما أمراض النساء والأمراض الزهرية يقعان بعيدًا عن بعضهما بعضا. ويرى الطبيب الروسي أن المستشفى كان مُجهزًا بشكل مرضٍ تمامًا. وكان هناك معمل ملحق به لإجراء التحاليل وصيدلية بها المستحضرات الطبية الضرورية.

كان الطعام في المستشفى مُشبعًا ومليئًا بالسعرات أكثر من الطعام الذي كان يتناوله اللاجئون الأصحاء. فكانت وجبة الغداء مكونة من طبقين ساخنين. عادة ما كان الطبق الأول مطبوخًا من اللحم أو البورش (حساء من الكرنب والبنجر – المترجم) مع دجاج أو شريحة من اللحم. وبناء على تعليمات الأطباء كان بعض المرضى يتناولون أيضًا على نحو إضافي سمكًا طازجًا وبيضًا وليمونًا أو عصير ليمون وكذلك بعضًا من النبيذ.

كان طاقم المستشفى من الروس، باستثناء أربعة أطباء من الإنجليز أحدهم يقوم بمهام الرئيس. أما الطاقم الطبي فكان مكونًا من ٢١ طبيبًا و٢ من الصيادلة و٢٨ ممرضة و٣ ممرضين وقس والرئيس ومترجم

وإداري وكبير للممرضين و١٥٣ ممرضًا مساعدًا بإجمالي ٢١٢ فردًا. فإذا كان عدد المرضى الموجودين في هذا الوقت في المستشفى ٦٦٢ مريضًا. عندئذ يمكن القول إن هذا الطاقم كان أكثر من كاف. كان الأطباء الروس يتبعون إداريًا للإنجليز، وكانوا يتقاضون رواتب.

وعلى الرغم من أن الأطباء والمرضي كانا يتقاسمان مصيرًا واحدًا باعتبارهم من اللاجئين، فقد كانت علاقة الأطباء والمرضى، مع بعض الاستثناءات، "تتسم بالبرودة والرسمية" كما ورد في الوثيقة. الظاهر، في رأينا، أن الأطباء كانوا يضمرون في أعماق نفوسهم كراهية للمرضى، إذا كانوا يشعرون أن هؤلاء المرضى وراء تركهم روسيا وعائلاتهم. بينما كان عمل الممرضات والممرضين، في رأي كاتب الوثيقة، يلقى استحسانًا كبيرًا، وهو ما لا يمكن قوله بشأن عمل بعض الممرضين الذين "كانوا يعملون في معظم الأحوال بتهاون ودون اهتمام". إجمالاً فقد رأى كاتب الوثيقة أن اجتماع موقع المستشفى في الصحراء مع المناخ الحار والعواصف الرملية ثم الرعاية الطبية السيئة "وضعت المرضى، على نحو أو آخر، في موقف عصيب".

هذه هي الصورة الموضوعية التي رسمها الطبيب الروسي، وإليكم وجهة النظر الشخصية التي عرضها واحد من المهاجرين، وهو الصحفي الكسندر يابلونسكي إذ يقول: "يمكن وصف حياة اللاجئين الروس في المعسكر الإنجليزي بكلمة واحدة – الفقر.

فقر مدقع لا مثيل له، مزرٍ لأبعد الحدود"(٢٢).

---

(٢٢) الكسندر يابلونوفسكي. مصدر سابق. ص ٩.

لقد أصابت الدهشة مؤلف هذا الكتاب أثناء دراسته التي قام بها للمدافن العسكرية الإنجليزية في التل الكبير، عندما اكتشف القبور الروسية لعام ١٩١٩ فقط. أي قبور أسرى الحرب الروس في فترة الحرب العالمية الأولى، كما سبقت الإشارة. أما قبل فترة وجود "المعسكر الروسي" في عام ١٩٢٠، فليس لها أثر. وتبعًا لشهادة يابلونوفسكي "فقد دُفن هنا موتانا دون قبور، ولسبب ما لم يُدفنوا في جبانة عامة، حيث تنمو زهور الدفلي وأشجار النخيل، وإنما دُفنوا فرادى. مربع رملي محاط بالأسلاك الشائكة يقع في صحراء صفراء بعيدًا عن مخيماتنا. هذه هي حياتنا. إلى هنا أحضروا موتانا الروس على نقالات المرضى. لفُوهم في ملاءات المستشفى القديمة ودفنوهم في الرمال.

لقد شكّل أحباؤهم صلبانًا من الأحجار البحرية الصغيرة البيضاء فوق القبور، أو كتبوا أسماء الموتى على صفيح المعلبات الفارغة ودقوها على الصلبان الخشبية.

إنها، بلا شك، أكثر المقابر الفقيرة مدعاة للحزن رأيتها في هذا الزمن. ليس هناك أضرحة أو أكاليل زهور أو شواهد تعلو القبور، وإنما بحر مترامٍ من الرمال، وفي السماء تسبح السحب فوقهم. صمت مطبق وهدوء أبدي للصحراء"[٢٣].

واستنادا إلى تقرير الطبيب الروسي، فقد بلغ عدد الموجودين في "المعسكر الروسي" في التل الكبير، إبان إعداد هذا التقرير، ٢٤٠٠ فرد، بينما وصل عدد اللاجئين الآخرين إلى ألفين على النحو التالي:

---

(٢٣) المصدر السابق.

٥٤ على الأقل توفوا، ٣١ بقوا في معسكر العباسـية، ٢٣ فـي التـل الكبير[٢٤]. وكما أشرنا من قبل فقد استقر جزء مـن المرضـى المـصابين بأمراض معدية (لا يُعرف عددهم) في مستشفى سيدي بشر العسكري، تـم توزيع ٧٠ مريضًا وجريحًا من العباسية على مختلف مستـشفيات القـاهرة، بينما جرى نقل ٣٠٠ فرد (على الأغلب عند إعداد التقرير وربما أكثر مـن ذلك) من التل الكبير إلى سيدي بشر. ٣٢٦ فردًا كانوا موجودين في معسكر دونسكوي لفيلق الكاديت بالقرب من الإسماعيلية[٢٥]. وقد جرى ترحيل جزء من اللاجئين الذي تعافوا، الأرجح أنهم كانوا من الجنود، إلى القرم[٢٦]. أمـا الباقون فقد خرجوا في هذا الوقت، على ما يبدو، من المعسكر كما فعل، على سبيل المثال، إيفان بيليبين والأختان تشيريكوف وتفرقوا في أنحـاء مـصر، وربما يكونون قد غادروها.

لم يُصر الإنجليز على حتمية بقاء اللاجئين في المعسكرات. فمن كـان منهم يملك مالاً أو أشياء ذات قيمة أوكان باستطاعته أن يعول نفسه، كـانوا يسمحون له بمغادرة المعسكر والعيش على نحو مستقل. في البداية كان البنك الوطني تحت رقابة الإنجليز، مثل كل شيء فـي مـصر، يقـوم بتحويـل الروبلات إلى جنيهات مصرية وبأسعار مرتفعة. فالجنيه الواحد مقابل ألـف روبل. وهكذا تم استبدال ٢,٢٥ مليون روبل. ونظرًا لوصول لاجئين جـدد وتدهور وضع الجيش التطوعي على جبهات الحرب الأهلية انهـار سـعر الروبل في مصر ليباع الألف روبل مقابل ٠,٠٥ من الجنيه[٢٧].

---

(٢٤) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ٣/٨٢٠، وثيقة ١٩٤، صحيفة ٢٥ – ٢٧ مع قصاصة.

(٢٥) المصدر السابق . صحيفة ٦–٨.

(٢٦) مجلة "في المهجر". سيدي بشر، الإسكندرية . العدد رقم ٤، أكتوبر ١٩٢١. ص ٤٠.

(٢٧) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ٣/٨٢٠، وثيقة ١٩٤، صحيفة ٤٠.

وعلى الرغم من أن عدد المدنيين في صفوف اللاجئين لم يكن كبيرًا فإنهم لم يكونوا من الفقراء. كما أن نسبة كبيرة من بين الضباط العاملين بالجيش أو من الذين ارتدوا لتوّهم الملابس الرسمية بعد نشوب الحرب الأهلية مباشرة، كانوا من عائلات ميسورة. وجزء من هؤلاء أحضروا معهم من روسيا أموالاً أو مجوهرات يستطيعون بفضلها تحمل أعباء الحياة إلى أن يجدوا مصدرًا دائما للدخل.

عدد قليل آخر من اللاجئين جاءوا إلى مصر بمحض المصادفة. فعلى سبيل المثال كان البارون فاسيلي بتروفيتش فون إيجيرت، المحامي ومستشار الدولة، عائدًا هو وزوجته ناديجدا يوليفنا إلى وطنهما ليتوانيا واستقلا من نوفوروسيسك السفينة "ساراتوف" قاصدين القسطنطينية ليركبا منها القطار، لكنهما لم يجدا مكانا واحدًا فيه نظرًا لشدة الزحام فاضطرا لنقل أمتعتهما مرة أخرى والعودة إلى السفينة والإبحار مرغمين إلى الإسكندرية[٢٨]. ولمّا كانت لديهما أمتعتهما الخاصة وأموالهما، فقد غادر الزوجان معسكر اللاجئين ليعيشا حتى أيامهما الأخيرة في مصر[٢٩].

في يونيو من عام ١٩٢٠ افتتح في القاهرة مستوصف روسي. التحق بالعمل فيها تسعة أطباء، رفضوا الذهاب إلى التل الكبير بعد إغلاق معسكر العباسية. وقد ساهمت لجنة مساعدة اللاجئين الروس في إنشائها. وأعطى الأمير ميشيل لطف الله للأطباء الروس ٥٤ جنيهًا مصريًا لسداد الإيجار، أما السفير أ. أ. سميرنوف فأسهم بمبلغ ٣٥٠ جنيهًا ثمنًا للمعدات الطبية. وفي نفس الشهر استقبل أطباء المستوصف ٣٦ مريضًا من بينهم ١٨ مريضًا تم علاجهم بالمجان (كانت الأولوية للعلاج بالمجان للاجئين الروس)

---

(٢٨) المصدر السابق. الوثيقة ١٩٣، صحيفة ٩٠ ، ٩١.

(٢٩) ف. ف. بيلياكوف. مدينة موتى في مصر. ص ٣٦.

وفي يوليو تم علاج ٣٧٧ مريضًا ثم ١٢٤ آخرين. وقد بلغ عدد الذين تلقوا علاجًا طبيًا مجانيًا في العام الأول من إنشاء المستوصف ٤٠٦ لاجئين روس[٣٠]. وتبين لنا هذه الأرقام أن هناك مئات من الروس كانوا يعيشون بشكل مستقل في القاهرة في نهاية عام ١٩٢٠ وبداية عام ١٩٢١ بعد أن غادروا المعسكر. وهناك أيضًا عدد غير قليل منهم كان يعيش في الإسكندرية وفي بورسعيد.

وفي الوقت نفسه فقد واصل غالبية اللاجئين الروس حياتهم في المعسكرات لم يكن بمقدور الجنود السابقين؛ فضلاً عن العديد من الضباط، بل وحتى من يمثلون الطبقة الأرستقراطية العيش على نحو مستقل لافتقارهم إلى المال. في نهاية عام ١٩٢٠ كتبت البارونة أناسناسيا فاسيليفنا إنجلجاردت إلى السفير الروسي أ.أ. سميرنوف على قصاصة من الورق وبقلم رصاص رسالة من التل الكبير تقول "أرجوكم بشدة أن تساعدوني بقدر الإمكان في الحصول على ملاءة لمولود، حيث إنني لا أمتلك مالاً لشرائها"[٣١].

يمكن استنادًا إلى الوثائق السابقة أن نؤكد أن وضع اللاجئين الروس في التل الكبير لم يكن سهلاً وإن كان محتملاً، هذا إذا ما استثنينا الظروف المناخية. وقد حاول الإنجليز قدر الإمكان أن يوفروا للاجئين معيشة لائقة. في الرابع عشر من أكتوبر كتبت السيدة ماريا بتروفنا، أرملة اللواء البحري أ. ك. دريجينكو إلى السفير أ.أ. سميرنوف تقول: "لا يمكن إلقاء اللوم على الإنجليز في علاقتهم باللاجئين. وإذا كان الأمر يسير الآن على هذا النحو، فإن اللاجئين أنفسهم هم الملومون"[٣٢].

---

(٣٠) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ٣/٨٢٠، وثيقة ٢٢٢، صحيفة ١ ؛ وثيقة ٢٢٣، صحيفة ١٥، ٢٢ – ٢٤.

(٣١) المصدر السابق. وثيقة ١٩٣، صحيفة ٢٠٩.

(٣٢) المصدر السابق. صحيفة ٢١٨.

ومثلما كانت الأمور تجرى في معسكر العباسية، جرت في التل الكبير، حيث لم يكن باستطاعة اللاجئين هناك أن يكون لهم أى تأثير عملي على الجانب المادي لوجودهم. ومن ثم فقد سعوا على نحو فاعل منذ بداية وجودهم في المعسكر في تدبير أمور حياتهم الروحية. والأرجح أن عددًا من العوامل أدت دورًا في هذا الأمر كان على رأسها أن صدمة الإجلاء من روسيا إلى مصر، والتي أصابت إرادة اللاجئين في البداية بالشلل، أخذت في التراجع تدريجيًا، وأصبح من الواضح أنهم مضطرون للبقاء على أرض مصر لفترة طويلة، وبحلول فصل الصيف تعافي عدد كبير من المرضى والجرحى، وهؤلاء أصبح باستطاعتهم أن يمارسوا حياتهم على نحو أفضل.

كانت الكنائس الموجودة في كل من الأجزاء الثلاثة لمعسكر التل الكبير هي الأماكن الأساسية التي بدأ فيها العمل. ففي كنيسة معسكر العائلات تولى العمل القس الكسندر فولكوفسكي، وفي معسكر الضباط القس بيوتر جولوبياتنيكوف، وفي المستشفى الأب نيكولاي إيكونيكوف. تم إحضار بعض اللوازم الكنسية من معسكر العباسية الذي تم إغلاقه. ست أوان فضية وملابس كهنوتية كاملة أرسلتها البعثة الدينية الروسية في القدس[٣٣]. ولكنها لم تكن كافية بطبيعة الحال للكنائس الثلاث، ولهذا فقد جرى تصنيع جزء من اللوازم من المواد المتوفرة.

وعلى الرغم من الظروف الاستثنائية القائمة، فقد استمرت الحياة في المعسكر. كان الناس يتزوجون وينجبون ويموتون. حتى إن الأب جولوبياتنيكوف أعد شهادات للتعميد والوفاة وعقود للزواج[٣٤].

---

(٣٣) المصدر السابق. صحيفة ٣٨، ٣٩، ٥١، ٥٢، ٥٨، ٧٤ ؛ وثيقة ١٩٤، صحيفة ٣٠.
(٣٤) المصدر السابق. وثيقة ١٩٣، صحيفة ١١٦.

وفي الثالث من مايوعام ١٩٢٠ افتتحت في معسكر العـائلات بالتـل الكبير مدرسة، كان على رأسها البروفيسور أ.ن. فـاتتيف مـن جامعـة خاركوف، بالإضافة إلى ٢٨ مدرسًا يلقون دروسهم على ٧٦ طالبًـا. وقـد تطوع الإنجليز والدبلوماسيون الروس بتقديم الأدوات الكتابية. أمـا الكتـب الدراسية فقد كانت تمثل نقصًا حادًا، ولهذا لم يلجأ المدرسون بتكليف الطلاب بالقيام بواجبات منزلية[٣٥].

ومن هذه المدرسة كتب الكسندر يابلونوفسكي قائلاً: "كانـت المدرسـة الروسية التي افتتحناها في التل الكبير مدرسة فقيرة للغايـة. ولعلهـا أكثـر المدارس فقرًا في العالم لن تجد لها مثيلاً. وقد سمح لنا الإنجليز بعمل أسقف وإقامة أعمدة، مغطاة بالحصر. لم تكن هناك حوائط إطلاقًا وقد طلبنـا مـن الإنجليز (الذين أبدوا بعض التعنت) حصيرًا قديمًا وأقمناه بين الأعمدة علـى هيئة حوائط. بعد ذلك ألحفنا في طلب بعض موائد المطبخ والأرائك وهكـذا أصبح لدينا أثاث مدرسي. على أية حال لم تكن هنـاك نوافـذ للمدرسـة أو أبواب. كانت الأرضية من الرمل وفوق السطح راحـت العـصافير تبنـي أعشاشها. كان الطلاب والطالبات يأتون إلى المدرسة حفاة، أما المدرسـون فكانوا يأتون في أحذية المرضى وفي سراويل تبعث على الشفقة[٣٦].

وفي الجزء المخصص في المعسكر للمستشفى أقيمـت حلقـة ثقافيـة تنويرية انتشر نشاطها في الفور في الجزءين الآخرين. وقـد نظمـت إدارة الحلقة فصولاً في الكهرباء وفي مساحة الأراضي وفـي الرسـم الهندسـي والمحاسبة لإعداد اللاجئين للعمل المستقل. كانت هناك حلقة أيضًا لمحوالأمية (كانوا يسمونها "مدرسة الكتابة والقراءة"، كما أقيمت مكتبـة صـغيرة مـن حصيلة الكتب التي أحضرها اللاجئون معهم من روسيا)[٣٧].

---

(٣٥) المصدر السابق. وثيقة ١٩٤، صحيفة ٣١ ، ٣٢.

(٣٦) الكسندر يابلونوفـسكي. مصدر سابق. ص ١٠.

(٣٧) أرشيف العلاقات السياسية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ٣/٨٢٠، وثيقة ١٩٣، صحيفة ٢٢٦، ٢٥٨.

وسرعان ما ظهر في المعسكر نشاط آخر لهواة الفنون. وقد تلقى مؤلف هذا الكتاب من السيدة لودميلا يفجينيفنا تشيريكوفا، البالغة من العمر ٩٥ عامًا، رسالة من مدينة سان بطرسبورج في ولاية فلوريدا الأمريكية تقول فيها: "لا تنس أن تذكر وجود مجموعة كاملة من عازفي آلة البلالايكا. لقد كانوا يصنعون آلاتهم من خشب الكراسي ونجحوا في تقديم حفلات"(٣٨).

وفي المعسكر أقيم فرع لجمعية المحاربين القدماء الروس. وبفضل الجهود التي بذلتها الجمعية افتتحت في التل الكبير في صيف عام ١٩٢٠ ورشتان صغيرتان إحداهما لصناعة الأحذية كان يعمل بها ١١ فردًا، والثانية للخياطة يعمل بها ثلاثة أسطوات. كان الدبلوماسي الروسي س.ب. رازوموفسكي يرسل من القاهرة المواد الضرورية لورشة الأحذية. كانت الورشتان تخدمان اللاجئين؛ فضلاً عن تنفيذ طلبات السكان المحليين(٣٩).

في الخامس عشر من أكتوبر عام ١٩٢٠ أبلغت السلطات البريطانية السفير الروسي أ.أ. سميرنوف أنه سيتم في الأشهر القليلة القادمة نقل اللاجئين إلى صربيا. أما الذين يرغبون في البقاء في مصر، فهؤلاء بإمكانهم البقاء على أنهم سيفقدون الحق في الإعانة المادية. في هذا الوقت، بناء على المعلومات الإنجليزية، كان هناك ٢٧٣ لاجئًا، ١٢٨ عسكريًا، ٣٨ مدنيًا، ١٠٥ نساء وطفلين يعيشون على نحو مستقل.

على أنه ولأسباب غير معروفة فقد توقف تنفيذ هذه الخطة لمدة عامين تقريبا. ففي مطلع عام ١٩٢١ تم نقل اللاجئين الروس من التل الكبير إلى سيدي بشر بدلاً من نقلهم إلى صربيا. وهكذا نقل "المعسكر الروسي" من الصحراء إلى شاطئ البحر، على أن غالبية الروس الذين تم إجلاؤهم إلى مصر واصلوا حياة اللاجئين التي لا يحسدهم عليها أحد، وفي الواقع كانوا خاضعين بالكامل لعطف الإنجليز الذين آووهم على الأراضي المصرية.

---

(٣٨) أرشيف المؤلف. صندوق "الروس في مصر". وثيقة ٤، صحيفة ٢٧٥.

(٣٩) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ٣/٨٢٠، وثيقة ١٩٣، صحيفة ١١٤، ١٥٥، ١٥٦.

"المعسكر الروسي" فى سيدي بشر

كان المعسكر الذي انتقل إليه الروس مخصصًا في الأساس للأسرى الأتراك[٤٠]. وكان يقع على بعد أحد عشر كيلومترًا إلى الشرق من وسط مدينة الإسكندرية بين طريق السكك الحديدية وترعة المحمودية، إلى الجنوب من المعسكر كانت الأراضي الزراعية تمتد على مرمى البصر. وهي تشبه إلى حد كبير، كما وصفها د. فارلينايف في مقاله المنشور بمجلة "في المهجر"، "براري كوبان* عندنا... ولولا أن أشجار النخيل تظهر كثيفة على التل وإلى جوارها بيوت المصريين المسطحة، لاعتقدت لبرهة من الزمن أنك في السهول الروسية. ويزيد من هذا التشابه الأخصاص المحيطة بالزروع والتي لا تختلف كثيرًا عن أكواخ زارعي البطيخ عندنا في الجنوب".

كان المعسكر يقع على مساحة ٥٠ ألف ساجين (نحو٢٣ هكتارا ــ المؤلف) وهومقسم إلى أربعة أجزاء أطلق عليها الإنجليز اسم: كامب أ، ب. ج. د. خصص الأولان (أ. ب) للعائلات، بينما خصص ج للرجال ليصبح د للمستشفى. كان المعسكر محاطًا بالأسلاك الشائكة ومزودًا بالمياه والكهرباء، وكانت إدارة المستشفى إنجليزية، ولكنها خصصت لكل "كامب" رئيسًا روسيًا.

---

(٤٠) للمزيد عن وصف معسكر سيدي بشر انظر: "في المهجر". سيدي بشر، يناير ١٩٢٢، ص ٣٣ – ٣٨. العدد المذكور بحوزة أرشيف المؤلف.

(*) كوبان: منطقة تقع في شمال القوقاز في وادي نهر كوبان وروافده.

وخلافًا للتل الكبير، كان معسكر سيدي بشر مكونًا لا من خيام وإنما من عنابر من الإسبستوس بالنسبة للعائلات، ومن الخشب للرجال. كان الرجال غير المتزوجين يعيشون من ٣- ٥ أفراد في غرفة. أما النساء والعائلات فكانوا يسكنون في غرف مستقلة لكل منها مخرج على الشارع.

بلغ عدد الأسرّة في المستشفى خمسين سريرًا، سرعان ما اتضح أنه ليست هناك حاجة إلى مثل هذا العدد منها. ومن ثم لم يبق في المستشفى مع نهاية عام ١٩٢١ سوى ١٠٠ سرير فقط. وفي الوقت نفسه تم تخفيض عدد العاملين، ففي الأول من ديسمبر كان عدد العاملين بالمستشفى أربعة أطباء وسبع ممرضات وأربعين ممرضًا وخمسة إداريين، بينما وصل عدد المرضى إلى أربعة وثمانين مريضًا.

كانت الوجبة الغذائية توزع وفقا للمعايير التي يتلقى على أساسها الجنود الإنجليز وجباتهم. وكان اللاجئون هم الذين يعدون الطعام بأنفسهم. وبناء على ما ورد في المجلة المذكورة، لم تكن هناك أية شكاوى بخصوص الطعام.

في نهاية عام ١٩٢١ بلغ عدد المقيمين في "المعسكر الروسي" في سيدي بشر نحو ١٨٠٠ فرد – ١٢٠٠ من الرجال، ٤٠٠ من النساء و٢٠٠ من الأطفال. كانت أعمار الرجال تتراوح ما بين ١٦ إلى ٦٠ عامًا استدعوا للعمل الإجباري لخدمة المعسكر، وكانوا يقومون على تنفيذ مختلف الأعمال فيه. ومن بين هذه الأعمال إزالة الرمال من الطريق المؤدي إلى المعسكر وإحضار المواد الغذائية من المخزن إلى المطبخ، وتصنيف الأشياء وحفظ الأطعمة وتخزين الأمتعة. وكان سكان "كامب ج" يكلفون بالوردية كل أربعة أو خمسة أيام.

ومن المثير للانتباه في هذا الصدد، أن الإدارة الإنجليزية كانت تسمح للاجئين بالعمل في المدينة. وفي هذه الحالة كان هؤلاء يستأجرون من بين الذين لا يعملون أفرادًا يقومون بعملهم في أوقات وردياتهم. وكان هذا أمرًا مجزيًا لكل من هؤلاء وهؤلاء. "كان هذا يسمح للذين يعملون في المدينة بامتلاك شقة في الكامب والاحتفاظ بالوجبة، وبالنسبة للآخرين من الذين لا يجدون فرصة عمل أن يحصلوا على أجر متواضع يضاف إلى نفقاتهم".

وتعطي المجلة تقييمًا مثيرًا لأمزجة اللاجئين في معرض تأكيدها أنهم يعدون أنفسهم خليطًا متباينًا. "لقد ولّى ذلك الزمن عندما كان مجرد الوجود في صفوف الجيش التطوعي يمكن أن يحدد ملامح الأشخاص الذين انضموا إليه. إن انهيار ما عرف باسم حركة البيض والنقد الذي وُجه إلى طموحاتها الأيديولوجية والسياسية والاجتماعية وكشف جوانبه الغامضة، كل ذلك بث الفُرقة الحادة في صفوف الناس، كما لو كانوا يحاربون من أجل فكرة واحدة وقضية قومية مشتركة. إن عملية التفكيك البطيء والمستمر في نفس الوقت خلقت في المعسكرات مجموعات مختلفة ... وانقسم بحر اللاجئين إلى عدد من التيارات المتعارضة التي لن يلتئم شملها مطلقًا: لقد بقي البعض على الضفة اليمنى وذهب البعض الآخر إلى الضفة الأخرى".

يذكر مؤلف المقال أن غالبية اللاجئين "لم يحسموا أمرهم بشأن ما إذا كانوا سينضمون إلى روسيا الجديدة، التي لا تزال باقية في حدودها الإقليمية الحالية، أم يعيشون أسرى أحلامهم حول إصلاح الماضي وروسيا التاريخية". بالنسبة لهذه المجموعة" لم يكن الطريق واضحًا نحو مستقبل بعث الوطن، وهي لم تكن تعرف هل سيتم ذلك في سياق تدخل جديد (لا تريد هي أن تكون طرفًا فيه) أم أن ذلك سيتم عن طريق تطور البلشفية، إن بإمكانها أن تتطور. ومن هنا كان تكتيكها: الترقب المضني دون أمل".

على أن اللاجئين الروس في غالبهم لم يكونوا على استعداد أن يبقوا في حالة خمول لا نهاية لها في المعسكر. في عام ١٩٢١ كان هناك ما يزيد على ٦٠٠ شخص، أي ما يعادل ربع اللاجئين، يعيشون على نحو مستقل. وكما ذكرنا من قبل فقد كانت الإسكندرية في تلك الحقبة مدينة نصفها أوربي. ومن ثم فقد رحب الأوربيون بالروس للعمل لديهم مفضلين إياهم في أحوال كثيرة عن المصريين. كان الطلب كبيرًا بصفة خاصة على الفنيين والمهندسين، والميكانيكيين، والسائقين، والكهربائية. كما قامت مجموعة كبيرة من الروس بالعمل في شركة الترام كسائقين وكمسارية أو مفتشين. إجمالاً فقد كانت الأعمال متنوعة للغاية، من بيع السجائر في الشارع إلى الخدمة في إدارة التموين العسكرية الإنجليزية.

في أغسطس عام ١٩٢٠ أنشأ اتحاد الزيما(*) لعموم روسيا ممثلية له في مصر، وبدأ في تقديم المساعدة المادية للاجئين الروس. وقد تمثلت هذه المساعدة في تقديم قروض للحصول على معدات للعمل، ووضعت هدفًا لها توفير مصدر للعمل المستقل للاجئين. وقد استخدمت هذه القروض في شراء ماكينات الخياطة وآلات التصوير الفوتوغرافية، وماكينات لحرق الأخشاب وأجهزة للتدليك الطبي والتجميلي، ومعدات لورش تجميل الكتب وصناعة الخبز وشبكات للصيد. والأخيرة خصصت لمجموعة من اللاجئين الذين اشتروا على نفقتهم الخاصة زورقًا والذين استأجرهم الإنجليز ليعملوا بوصفهم عمال إنقاذ. وقد قدمت أيضا قروضا لشراء أجهزة تحاليل وأخرى لإصلاح السيارات التي يمتلكها اللاجئون. في الأعوام ١٩٢٠ – ١٩٢١ سمحت هذه القروض بتحسين أحوال ٢٥٠ – ٣٠٠ لاجئ فضلاً عن أفراد عائلاتهم(٤١).

(*) الزيما: المجلس المحلي المنتخب. (المترجم).

(٤١) مقال حول نشاط اتحاد الزيما لعموم روسيا (إبريل ١٩٢٠ – الأول من يناير ١٩٢٢). صوفيا، ١٩٢٢، ص ١٣٦ – ١٣٩.

لم تكن القروض كبيرة، وكانت مخصصة أساسًا لشراء أجهزة ومعدات للأعمال الفردية مثل ماكينات الخياطة أو التصوير الفوتوغرافي، وليست لإنشاء شركات أو ورش. واصل اللاجئون الذين تلقوا هذه القروض حياتهم في أغلب الأحيان في "المعسكر الروسي". على أن بعضًا منهم حاول أن يعمل بالتجارة على نطاق أكبر لا في سيدي بشر وإنما في الإسكندرية ذاتها. وفي أحد أعداد مجلة "في المهجر" الصادرة في أكتوبر عام ١٩٢١ نجد إعلانًا على الصفحة الداخلية من المجلة جاء فيه "افتتح مجددًا في مكانه القديم مطعم "موسكفا" ("موسكو") الروسي. العنوان. الإسكندرية، شارع حماميل رقم ١٢. يقدم الوجبات الروسية النموذجية الأصلية تحت إشراف طاهٍ خبير. إفطارا، وغداء، وعشاء صحيًا شهيًا، ومختلف أنواع الخمور والمشروبات الأخرى من مختلف الماركات. توجد أيضًا "فودكا روسية". شاي، قهوة، شوكولاته. مُقبِّلات ساخنة وباردة. المكان أنيق وفسيح. أسعار مناسبة جدًا. ضمان كامل لجودة الطلبات. رجاء التأكد بأنفسكم"[٤٢]. وكما أكد فيما بعد أحد اللاجئين المدعو د. فلامبورياني: "أن الروسي ليس تاجرًا بطبعه، ولهذا لم تنجح معظم المبادرات في هذا الصدد. لم يستمر مصنع الحلويات في القاهرة أو المطاعم الروسية وأكشاك التبغ والفطائر على الشواطئ أكثر من عدة شهور"[٤٣].

ومن اللافت للانتباه، كما أشارت المجلة، أن "العلاقة بين المعسكر وروسيا السوفيتية والشرق الروسي الأقصى كانت جيدة، وأنه كانت تصل إلى هنا تحديدًا كمية هائلة من الخطابات إلى اللاجئين". وبالإضافة إلى ذلك

(٤٢) "في المهجر". أكتوبر ١٩٢١. هذا العدد من المجلة موجود في قاعة المهجر الروسي في المكتبة الروسية الحكومية.

(٤٣) Flamburiani, Dimitri. Les Eusses sur la Terre Egyptienne. 2 me Edition

فإن بعض اللاجئين عادوا إلى الوطن. وأشارت مجلة "في المهجر" في عـــدد يوليو ــ سبتمبر عام ١٩٢١ أن ١٠٤ أشخاص غادروا "المعسكر الروســـي" في سيدي بشر إلى روسيا السوفيتية(٤٤).

في خريف عام ١٩٢١ جرى في "كامب ج" (للرجال) اســتفتاء حــول تقديم المساعدة للجائعين في روسيا. وعلى الرغم من الظروف المادية القاسية فإن ٣٥٨ شخصًا وافقوا على تقديم المساعدة، واعترض ٩٥، وامتنع ٤٥ عن إبداء الرأي. جاءت المساعدة على النحو التالي: الامتناع عن وجبة غذائيـــة لمدة ثلاثة أيام وتقديم طلب إلى رئيس المعسكر بإرسال ما يعادل قيمتها نقدًا إلى المكتب الأمريكي للمساعدة(٤٥).

انتقلت الكنائس الثلاث الموجودة في التل الكبير مع اللاجئـــين الـــذين انتقلوا أيضًا إلى سيدي بشر. وضعت إحداها في كامب الرجال ج، والأخرى في كامب العائلات، والثالثة في المستشفى. وقام اللاجئون بأنفسهم بتنـــسيقها ووضع اللمسات اللازمة عليها. وقد جمع اللاجئـــون جـــزءًا مـــن النفقـــات الضرورية لذلك، وقدمت القنصلية الروسية في الإسكندرية الجـــزء الآخـــر. نُقلت المنقولات الكنسية المعروفة باسم "البيت الروسي في الإسكندرية" إلـــى كنيسة كامب العائلات د. وفيها عـــاش موظفـــو البعثـــة الدينيـــة الروســـية والقساوسة الذين تم إجلاؤهم من فلسطين بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى. وقد عادوا جميعهم إلى فلسطين في نهاية عام ١٩٢٠ وأغلق "البيت الروسي". وقد قام بالخدمة فـــي كنيـــستي كامـــب "د" والمستـــشفى القـــس الكـــسندر فـــولكوفـــسكي بشكل دوري بسبب نقص القساوسة، بينمـــا تـــولى الأب إيبوليت شيشلوف بالخدمة في كامب "ج". ولعل من التفاصيل الصغيرة اللافتة

(٤٤) مجلة "في المهجر" . أكتوبر ١٩٢١. ص ٤٠.
(٤٥) المصدر السابق . ص ٢٨.

للانتباه أن الخدمة في كنيسة كامب "د" العائلي كان يديرها مجلس أبرشية منتخب، بينما لم تنجح كنيسة كامب "ج" للرجال (وكانت تحمل اسم القديس الكسندر نيفيسكي) في تنظيم مجلس مشابه. كان رئيس هذه الكنيسة ف. م. دوبريتسكي قد أشار إلى "أن هناك فتورًا ملحوظًا تجاه شئون هذه الكنيسة"(٤٦).

وفي سيدي بشر أدار اللاجئون الروس شئون حياتهم الاجتماعية والروحية على نحو أكثر فاعلية مما كان عليه الأمر في التل الكبير. والدليل على ذلك هو وجود عدد كبير هناك من الجمعيات الاجتماعية المختلفة.

كانت أكثر الجمعيات عددًا في أعضائها هي **الجمعية الروسية الثقافية التنويرية**. وكانت هذه الجمعية قد خرجت للنور قبل ذلك في التل الكبير، وبلغ عدد أعضائها ١٥١ عضوًا في الأول من يناير عام ١٩٢٢. وقد نظمت الجمعية دورات بصفة مؤقتة في محو الأمية والفنيات الكهربية والمحاسبة وأخرى في اللغات الفرنسية والألمانية بلغ عدد المشاركين فيها ٢٦٠ فردًا(٤٧).

أما المكتبة العامة فتضم ٥٤٦ كتابًا، ٣٠٢ مشتركًا، والمكتبة الدراسية ٣٤٣ كتابًا مدرسيًا، ومكتبة الطفل وقاعة للمطالعة بها ما يزيد على ٦٠ صحيفة بلغات مختلفة وجميعها يعمل بصفة مستمرة. وفي قاعة المطالعة كانت هناك صحيفة حائط تقدم المقالات المترجمة عن الصحف الإنجليزية والفرنسية التي تتناول الأحداث في شتى أنحاء العالم وفي روسيا في المقام الأول.

---

(٤٦) مجلة "في المهجر". يناير ١٩٢٢. ص ٢٨ ، ٢٩.
(٤٧) المصدر السابق. ص ١.

كتب د. فلامبورياني عن وجود صحيفة "إيميجارنت" ("المهاجر") في سيدي بشر[٤٨]. على أنه لا يوجد أي ذكر لها في المصادر الأخرى. الواضح أنه كان يعني صحيفة الحائط، والتي لم يرد ذكرها في تقرير نشاط الجمعية.

بدأت الجمعية الروسية الثقافية التنويرية في إصدار مجلة "في المهجر" شهريًا منذ يوليو عام ١٩٢١. بلغ إجمالي نسخ الأعداد الستة الأولى ٧١٨ نسخة. وقد أرسلت الجمعية نسخة واحدة من العدد الأول من المجلة إلى السفير الروسي أ. أ. سميرنوف. وقد ورد في الخطاب المرفق ما يفيد أنه "إبان إصدار المجلة كان على الإدارة تأمل أن نتمكن في المستقبل من تجاوز المصاعب المذكورة، وأن تصدر المجلة في مظهر أبهى وأكثر ثراء من ناحية المضمون، وذلك في ظل المساعدة الودية من جانب جميع الروس"[٤٩].

لم تكتف المجلة بإلقاء الضوء على حياة اللاجئين الروس في مصر، ولكنها كانت تنشر مواد في موضوعات غاية في التنوع. على سبيل المثال نشرت المجلة في عدد أكتوبر من عام ١٩٢١ مقالات "الاتجاهات الحديثة في علم القانون"، "قضايا الصحة الاجتماعية وعلاقتها بالحرب"، "صورة إنجليزي" لأندريه موروا في ترجمة عن الفرنسية، "الفوضى السياسية في أوربا"، "ما الذي جعل الثورة الروسية دموية على هذا النحو". كما ظهر عدد من المقالات مكرَّسة لبلد الإقامة مصر. وقد دأبت المجلة على نشر قصائد اللاجئين بانتظام. لا يمكن أن نختلف حول مضمون التقرير الذي أصدرته الجمعية عام ١٩٢١ والذي يؤكد على أنه "في ظروف اللجوء فإن إصدار مجلة في مصر يُعد عملاً بطوليًا"[٥٠].

---

(٤٨) Flamburiani. Dimitri. Op. cit. P. 13.

(٤٩) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ٣/٨٢٠، وثيقة ١٩٦، صحيفة ٨٧.

(٥٠) مجلة "في المهجر" . يناير ١٩٢٢. ص ٢.

كانت هناك أيضًا محاولة لإصدار مجلة للأطفال تحمل اسم "الكاتب الصغير". في عام ١٩٢١ صدر العدد الوحيد منها، وكان مكونًا من ١٢ صفحة وخمسة رسوم بلغ عدد النسخ ٥٠ نسخة.

لكن الجمعية لم تكتف بكل هذا النشاط، فقد قدمت المساعدة المادية للأطفال غير القادرين، كما ساعدت الطلاب على مواصلة تعليمهم، وأخذت في تنظيم المحاضرات. تعود عوائد الجمعية أساسًا إلى الاشتراكات المتواضعة التي يسهم بها الأعضاء، وبيع الأدوات المكتبية وأيضًا إلى مختلف أشكال التبرعات.

وفي سيدي بشر كانت **لفرقة "بيان" للموسيقي والدراما** شهرة واسعة(٥١). وقد بلغ عدد أفرادها ٣٥ فردًا. وقد قام الإنجليز بإعداد مسرح في المعسكر لتقديم العروض يتسع لستمائة مقعد. كانت العروض تقدم مرتين في الشهر بالمجان، أما باقي العروض فكانت بمقابل. كان ريبيرتوار الفرقة يتكون أساسًا من الأعمال المسرحية للكلاسيكيين الروس مثل "الخال فانيا" لتشيخوف و"مكان للنشاط" لأستروفسكي. كما تم تنظيم عروض للأطفال أيضًا.

تجمع أبناء روسيا الصغرى(*) في جماعة أطلقت على نفسها اسم **القطيع الأوكراني**. وقد بلغ عددها ثمانين عضوًا في نهاية عام ١٩٢١. وفي الأعوام ١٩٢٠ ــ ١٩٢١ صدرت عشرة أعداد من مجلة "على الأطلال"، كل عدد من ٥ – ٦ نسخ، على أنه وبسبب نقص الموارد المالية توقفت عن الصدور، كانت للجماعة قاعة للمطالعة ومكتبة بها صحف وكتب باللغة الأوكرانية.

---

(٥١) المصدر السابق. عن فرقة المعسكر و الجمعيات العامة الأخرى فيه انظر ص ٣٩ – ٤١.

(*) روسيا الصغرى: اسم أوكرانيا منذ منتصف القرن السابع عشر في الوثائق التاريخية لروسيا القيصرية. (المترجم).

أما جمعية المحاربين القدماء الروس والجنود المعـاقين فبلـغ عـدد المنضمين إليها ١٨٦ فردًا. واشترطت الجمعية على من يرغب في الانضمام إلى عضويتها أن تكون لديه بطاقة طبية مناسبة. كان من مهام هذه الجمعية توفير الدعم المادي لأعضائها. وفي الثاني عشر من نـوفمبر عـام ١٩٢١ أقيم في المعسكر حفل خيري لصالح الجمعية شاركت فيه كل الفرق الفنيـة في سيدي بشر.

اتحاد الطلاب الروس في مصر واتحاد الطلاب الروس في الإسكندرية. تمثلت مهمتهما الرئيسية في توفير إمكانية مواصـلة الدراسـة لأعـضائها المقيمين في المهجر. وضم الاتحادان نحو ٣٠٠ فرد. وعلى الرغم مـن أن الاتحادين لم يعملا بالـسياسة، فـإن لائحـة الأول لـم تعتـرف بالـسلطة السوفـيتية. وفي مطلع العام ١٩٢٢ أصدر اتحاد الطلاب الـروس فـي الإسكندرية العدد الأول من مجلته الخاصة التـي تحمـل اسـم "أوريـون" ("الجوزاء")(٥٢). وحيث إن معسكر سيدي بشر تم إغلاقه صيف هذا العام فقد كان هذا العدد هو العدد الأخير، على ما يبدو.

جمعية ستانيتسا(*) السكندرية في مصر وتجمع أبناء القوزاق الذين بلغ عددهم مائة فرد، وتتبع حكومة دونسكوي(**) في صوفيا. وكان هدفها توحيد جميع القوزاق في المهجر والدفاع عن مصالحهم.

---

(٥٢) نيدزيليسكي، يفجيني. ذكريات المعسكرات. أفريقيا في عيون المهاجرين. ص ١٢٢.
(*) ستانيتسا : قرية قوزاق كبيرة. (المترجم).
(**) حكومة دونسكوي: حكومة معادية لثورة ١٩١٧ حاربت السلطة السوفـيتية تحـت قيـادة الجنرال الكسي كاليدين (١٨٦١ – ١٩١٨) زعيم القوزاق المعادين للثورة في منطقة نهـر الدون الذي قاد حركة التمرد ضد الثورة السوفـيتية من أكتوبر ١٩١٧ وحتى يناير ١٩١٨. قتل رميًا بالرصاص. (المترجم).

جمعية التعاون بين الضباط الروس في الإسكندرية، وتضم ٥٠ عضواً ومهمتها تنبع من اسمها.

وقد ظهر في المعسكر لفترة قصيرة ما عرف باسم **الحلقة البولندية**. بلغ مجموع أعضائها ٤٠ فردًا، وكانت تسعى إلى سرعة إعادتهم للوطن. وقد نجح معظمهم في تحقيق هذا العدد وقد انفضت الحلقة لقلة عدد أعضائها.

جوقة روسيا العظمى للبلالايكا. تكونت من ١٤ فردًا، وكان هدفها تعريف المصريين بالموسيقى الروسية. كانت الفرقة تقدم حفلاتها ليس فقط في المعسكر وإنما خارجه أيضًا. ففي الحادي عشر من سبتمبر ١٩٢١، قدمت حفلاً كبيرًا في كازينو سان ستيفانو في الإسكندرية.

الأوركسترا الروسي لآلات النفخ. أنشئت بدعم مالي من الإنجليز وضمت ١٨ عازفًا.

الأوركسترا الروسي السيمفوني. تكون من ثمانية عازفين، وهو أقرب إلى فرقة تقدم موسيقى الحجرة. وكان يقدم حفلات لهذا النوع من الموسيقى بشكل غير منتظم.

الجوقة الروسية المختلطة. بلغ عدد أفرادها ٢٥ فردًا، أما جوقة الرجال فبلغت ١٦ فردًا. كان الريبيرتوار الخاص بها يتضمن أساسًا من الأغاني الروسية المدنية. وقد قدمت الفرقتان، مثل فرق المعسكر الفنية الأخرى حفلات خارج سيدي بشر. على سبيل المثال قدمت الجوقة المختلطة حفلا في مسرح "بل فيو" في الإسكندرية.

تكونت **الجوقة الكنسية** من ١٢: ١٥ مغنيًا. وكانت تقدم نشاطها في كنائس المعسكر وفي الإسكندرية أيضًا.

في فبراير من عام ١٩٢١ تأسست في سيدي بشر **جماعة محبي الطبيعة** وقد ضمت ١٥ عضوًا.

وفي سيدي بشر تكون منتخب كرة القدم، وكان قوامه سبعة لاعبين روس وأربعة إنجليز. وفي ربيع عام ١٩٢١ لعب الفريق اثنتين وعشرين مباراة أسفرت إجمالاً عن إحراز ٣٦ هدفًا لصالح المنتخب مقابل ٢٥ هدفًا. على أن المنتخب مُنيَ بالهزيمة في دوري الخريف، إذ إن المنتخب، كما أشارت مجلة "في المهجر" لم يكن يملك كرة يتدرب بها، كما أن أغلب لاعبيه كانوا يلعبون بأحذية عادية.

وفي ربيع عام ١٩٢١ بدأت في الصدور في المعسكر **الصحيفة المسموعة**، وهي أسبوعية ذات طابع مناهض للبلشفية.

في سيدي بشر ظهرت مدرسة ثانوية على غرار المدرسة التي ظهرت قبل ذلك في التل الكبير. وقام بالتدريس فيها عشرون مدرسًا، وبلغ عدد الدارسين فيها مائة تلميذ.

كانت **الجمعية العامة** بمثابة قلب الحياة في المعسكر. ففي المبنى الذي كانت تشغله أقيمت المعارض الفنية، وألقيت المحاضرات وقدمت الأمسيات الأدبية والموسيقية، كما وجدت به المكتبة وقاعة المطالعة.

اشتمل المعسكر على ورش للخياطة والأحذية وإصلاح الساعات والمصنوعات من الصفيح وصالون للحلاقة وستديو للتصوير الفوتوغرافي ومحل روسي صغير يبيع الأشياء القديمة.

في مطلع ربيع عام ١٩٢٢ أزيل "المعسكر الروسي" في سيدي بشر. وفي هذه الحقبة من الزمن غادر المعسكر سكانه الأوائل ليبدأوا حياتهم المستقلة. أما الذين لم يتمكنوا من العيش مستقلين، فقد أرسلهم الإنجليز إلى

صربيا وبلغاريا[٥٣]. ويبدو أن هؤلاء تصوروا أن التأقلم مع ظروف الحيـــاة في بلاد سلافـــــية أرثوذكسية سوف يكون أسهل بالنسبة للاجئين روس عنه في مصر الإسلامية.

قبل نقل اللاجئين من التل الكبير إلى سيدي بشر بفترة كبيرة، أقيم فـــي مصر "معسكر روسي" آخر يضم فيلق كاديت[*] دونسكوي. وقد تـــم ذلـــك بمبادرة من الفريق أ.ف. تشيريا تشوكين، الذي رأى أن اختلاط الكاديت مع اللاجئين كبار السن في معسكر التل الكبير أمـــر "ينطـــوي علـــى مـــصادر لا تنتهي للإغراءات والتأثير المفسد للشباب"[٥٤].

وقد أقام الإنجليز معسكرًا من الخيام للكاديت على ضفة بحيرة التمساح على الجانب المواجه لمدينة الإسماعيلية. في مذكراته يكتب أ. بليـــشاكوف، وهو أحد الكاديت الذين عاشوا هناك: "كان المعسكر يطل على مكان جميـــل خلف المدينة. كان أمامه طريق يبلغ اتساعه خمسة أو ستة ساجينات، ووراء هذا الطريق تبدأ البحيرة المتفرعة عن قناة السويس وتسمى بحيرة التمساح. كانت القناة تبعد نصف ميل عنا، ومن خلفها تمتد الصحراء تـــسير عبرهـــا خطوط السكك الحديدية، وخلف السكك الحديدية تمتد مرة أخرى الـــصحراء الليبية التي لا نهاية لها، وعلى اليمين تتراءى لنا المدينة، وخلفهـــا حديقـــة شاسعة من النخل الرائع ... تنعطف عندها قناة السويس، عموما فقد أنزلونا في مكان شديد الجمال"[٥٥].

---

(٥٣) ف. ف. بيللين . مصدر سابق.
(*) الكاديت: طلبة الكليات العسكرية في روسيا القيصرية وهم في سن المراهقة. (المترجم).
(٥٤) جونتشاروف، يوري. مصدر سابق . ص ١٩.
(٥٥) الاستشهاد من ج. ف. جورياتشكين، ت. ج. جريتسينكو، أ. إ. فـــومين. مـــصدر ســـابق. ص ١٨.

بلغ عدد نزلاء المعسكر ٢٨٦ من الكاديت من مختلف الأعمار، ٢٨ موظفًا و١٢ عضوا وعائلاتهم ليكون الإجمالي ٣٢٦ فردًا. كانت ظروف المعيشة على النمط الإسبرطي. لم تكن هناك أسرَّة في الخيام ولا حتى مراتب. كان الكاديت ينامون على لحاف واحد ويلتحفون بآخر[٥٦].

كان النزلاء يتلقون طعامًا جيدًا في المعسكر. يذكر يوري جونتشاروف أن الطعام كان وفيرًا، "قهوة، كاكاو، جبن، مربي، وكانت وجبتا الغذاء والعشاء مشبعتين إلى حد كبير". ومن ثم سرعان ما تعافى الكاديت.

كانت الدراسة تتم في عنابر من الحصير ثم أصبحت تدريجيا جزءًا من النظام على الرغم من نقص الكتب المدرسية وعدم الانتظام، كما كان الأمر في بلدهم نوفوتشيركاسك[*]. كانت هناك مشكلة أخرى أيضًا ذكرها الجنرال تشيرياتشوكين: "لم يقدم أحد أي شكوى ضد أي شخص، وفي مثل هذا الوضع يصعب أن نستنفر كل القوى التربوية والتعليمية"[٥٧].

كان معظم الكاديت يحبون ممارسة الرياضة وخاصة ألعاب القوة وكذلك الكرة الطائرة وكرة القدم. كان هناك فريق كرة قدم في كل فصل، وكان منتخب المعسكر يعد واحدًا من أفضل المنتخبات في الإسماعيلية. وكثيرًا ما كان هذا المنتخب يؤدي مباريات ودية مع المصريين والإنجليز والفرنسيين والهندوس والماليزيين[٥٨].

---

(٥٦) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ٣/٨٢٠، وثيقة ١٩٤، صحيفة ٨٠٦.

(*) نوفوتشيركاسك: مركز إقليم دونسكوي. (المترجم).

(٥٧) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ٣/٨٢٠ ـ وثيقة ١٩٤، صحيفة ٤.

(٥٨) يوري، جونتشاروف. مصدر سابق. ص ٢٠.

لم ينس المعلمون التربية الروحية لتلاميذهم. وقد أقيمت في إحدى الخيام كنيسة كان يقوم بالخدمة فيها الأب القس ديمتري تروديتسكي. وقد قام المُرتل ن.م. فيروشكين القوزاقي من الأورال بتأسيس جوقة رائعة، حتى إنها قامت بجولة فنية في فلسطين، ومنها أحضر أعضاء الجوقة أيقونة باركها بطريرك القدس الأرثوذكسي دميان وجزءًا من صليب واهب الحياة. وقد أسس المرتل أيضا أوركسترا لآلات النفخ، وقد تبرع عدد من البحارة من فلاديفوستوك المقيمين في بورسعيد بالآلات الموسيقية(٥٩).

وقد أصدر المعسكر مجلته الشهرية المخطوطة "ابن الدون في المهجر" من قطع A4 وعدد من ١٨ – ٢٤ صفحة. وقد تولى تحريرها الكاديت من الفصول العليا. الأول ف. عليموف، ثم جاء بعده إ. يجوروف. لم تتناول المجلة تقويم الحياة في المعسكر وإنما اهتمت بالإبداع الأدبي بطلاب فيلق الكاديت. كانت القصص والأشعار محلاة بالرسوم، إلى جانب ذكريات عن روسيا وأوصاف لمنطقة المعسكر. يذكر المحرر على الصفحة الأخيرة من العدد السابع من المجلة "أن النصف الثاني من المجلة ظهر خاليًا من الرسوم بسبب نقص أحبار الطباعة". وفي نفس المكان في العدد الثالث وردت هذه الملاحظة: "السادة قُرَّاء مجلتنا. نرجوكم استخدامها بعناية وألاَّ تحتفظوا بها لديكم في العنابر وإنما توصيلها للآخرين"(٦٠).

يمكن الحكم على الحالة النفسية للكاديت استنادا إلى المقطع التالي من قصيدة "في المهجر":

---

(٥٩) المصدر السابق. ص ٢٠-٢١.
(٦٠) الأعداد ٤، ٦، ٧ من مجلة "إبن الدون في المهجر" محفوظة في مكتبة أرشيف روسيا الاتحادية الحكومي.

تسودنا الروح الروسية فلا تغادرنا أبدا

وفي المساء، عندما يطبق الصمت

تطلق جوقتنا لحنها المدوي في إيقاع منسجم

فيردد صدى روحنا القوقازية

وها هو الهدوء يعود ليلف كل شيء في المعسكر

فنغطُّ في نوم تذوب فيه أعباء النهار

ونحلم بروسيا الغالية

بالبراري، بقُرى القوزاق الرحيبة

ممتدة فوق أراضينا الحبيبة[٦١].

كان لدى الكاديت مسرحهم، وكانت المسرحية الأولى لهم "الرومانسيون" من تأليف إ. روستان[٦٢].

في ربيع عام ١٩٢٢ أُعلن الكاديت أنهم سوف ينقلون إلى البلقان. وفي هذا الصدد يتذكر يوري جونتشاروف قائلا: "لقد كان لهذا الخبر أثر صادم. لقد أصبحت مصر بالنسبة للكاديت بلدًا عزيزًا على نفوسهم"[٦٣]. أرسل الإنجليز جزءًا من شباب الكاديت الأصغر سنًا إلى المعسكر الذي أقاموه لهم في بويوك ـ دير، غير بعيد عن إسطنبول، في محل إقامة السفارة الروسية السابق في الضاحية، وإلى "المدرسة الروسية"، أما الباقون فقد جاؤوا بهم إلى فارنا. وهناك أخذ فيلق كاديت دونسكوي في التلاشي حسب شهادة طلابه[٦٤].

---

(٦١) "ابن الدون في المهجر"، العدد ٤ . ص ٥ .
(٦٢) جونتشاروف، يوري. مصدر سابق. ص ٢١.
(٦٣) المصدر السابق . ص ٢٢.
(٦٤) المصدر السابق.

وهكذا انتهى وجود معسكرات اللاجئين الروس في مصر في منتصف عام ١٩٢٢، أما الذين بقوا ليستقروا على ضفاف النيل فقد بلغ عددهم نحو ١٥٠٠ فردًا[٦٥]، تحولوا إلى مهاجرين وانضموا إلى الجالية الروسية الصغيرة التي سبقتهم.

على أن ممثلي الموجة الجديدة من المهاجرين كانوا مختلفين تمامًا عن من سبقوهم في بعض السمات على الرغم من وحدة المصير الذي جمعهم. على أن مهمة واحدة كانت بانتظارهم جميعًا: أن يعيشوا وأن يتكيفوا مع ظروف بلد غريب عليهم، وثقافة مختلفة عن ثقافتهم، ودين آخر ولغة أخرى يصعب عليهم إتقانها؛ فضلاً عن مناخ صعب لم يتعوّدوا عليه. وهنا كان على كل مهاجر أن يجد لنفسه حلاً مستقلاً لهذه المهمة، وفي بعض الظروف النادرة كان الجميع مضطرين لأن يوحدوا جهوذهم كأبناء وطن واحد لمواجهتها.

الوضع الاجتماعي والاقتصادي للمهاجرين الروس وتأسيس الجالية الروسية (العشرينيات والثلاثينيات)

وصل اللاجئون الروس إلى مصر في لحظة فارقة في تاريخها. ففي سنوات الحرب العالمية الأولى دارت على أراضي سيناء المصرية رحى العمليات الحربية بين القوات الإنجليزية والتركية. كانت البورجوازية المصرية تتلقى آنذاك طلبات عسكرية ضخمة أسهمت في تقويتها، وبعد انتهاء الحرب أصبحت أكثر فاعلية في سعيها نحو الحصول على استقلال البلاد. أما

---

(٦٥) ف. ف. بيللين. مصدر سابق. ص ٣٢٠.

المصريون البسطاء فهم الذين حملوا على كاهلهم أوزار الحرب كلها. كان الآلاف منهم قد تم تجنيدهم للعمل في بناء التحصينات ليس فقط في مصر، وإنما في أوربا أيضا، ونظرًا لتقلص التجارة الخارجية في البلاد فقد ارتفعت الأسعار. وقد ربط المصريون الأمل في مستقبل أفضل بإلغاء الحماية البريطانية وإعلان الاستقلال. وقد كان لثورة أكتوبر في روسيا أثر كبير في مصر بشعاراتها التي دفعتها حول تحرير شعوب الشرق من هيمنة المستعمرين.

أدت هذه العوامل جميعها إلى قيام حركة التحرر الوطني. وفي مارس ١٩١٩ ونوفمبر وديسمبر ١٩٢١ اندلعت في مصر هبّات شعبية جبارة. وقد أخمدها الإنجليز، ولكنها أقنعتهم بضرورة تغيير شكل إدارتهم للبلاد. وفي الثامن والعشرين من فبراير ١٩٢٢ أعلنت الحكومة البريطانية عن إلغاء الحماية على مصر، واعترفت بها كدولة مستقلة. صحيح أن الإنجليز احتفظوا في مصر بجيشهم ومستشاريهم ووضعهم الاقتصادي، على أن المصريين اعتبروا الاستقلال خطوة إلى الأمام على طريق السيادة الكاملة على أرضهم.

استقرت في مصر جالية أوربية كبيرة كانت تتحكم في واقع الأمر في اقتصادها. وبحسب إحصاءات عام ١٩١٧ بلغ عدد الأجانب ٢٠٦ آلاف شخص ليصل بعد مرور عشر سنوات إلى ٢٢٥,٦ ألف (معظمهم من اليونانيين والإيطاليين والإنجليز والفرنسيين)[٦٦]، كانوا يملكون على تخوم العشرينيات ٩١٪ من الاستثمارات[٦٧].

---

(٦٦) أرشيف السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية. ملف ٨٧، قائمة ٨، دوسيه ٨، وثيقة ١٩، صحيفة ١١٥.

(٦٧) جمهورية مصر العربية . دليل . موسكو، ١٩٩٠ . ص ٦٠.

كان هذا الوضع مناسبًا للغاية بالنسبة للاجئين الروس، بقدر ما كان سببًا لتعاستهم. فمن ناحية فقد رحَّب الأوربيون، كما ذكرنا من قبل، بأن يعمل الروس لديهم مفضلين إياهم في كثير من الأحوال على المصريين، ومن الناحية الثقافية فقد كان الروس يميلون إلى الأوربيين. ومن ناحية أخرى فإن "المجتمع المصري"، كما أشارت مجلة "في المهجر"، "كان يتعامل مع الروس كجزء من الأوربيين، مع بعض الاستثناءات القليلة، إما بالمقاطعة أو، في أفضل الحالات، بلا مبالاة"[٦٨]. ترى الليدي كونجيريف، الإنجليزية ورئيسة لجنة مساعدة اللاجئين في مصر، أن الروس يعيشون "في بلد لا تريدهم"[٦٩] لا انطلاقًا من نزعة قومية، وإنما لأنهم جاءوا إليها في حقبة من الزمن راح المصريون يناضلون فيها ضد طغيان الأجانب. وبالمناسبة كانت هذه العوامل في العادة تتوازن مع بعضها بعضًا، ومنذ العشرينيات، عندما منيت حركة التحرر الوطني في مصر بالفشل، توقف المصريون عن مقاطعة المهاجرين الروس تمامًا.

كان هناك عامل آخر نوعي على الجانب المصري. وهذا العامل كان له تأثير إيجابي في البداية لصالح اللاجئين الروس، ثم لصالح المهاجرين فيما بعد. فمصر لم تكن قد اعترفت آنذاك بالسلطة السوفيتية، وفي الوقت نفسه واصلت الممثليات الروسية التي كانت تابعة فيما سبق للحكومة القيصرية. واصلت عملها بشكل رسمي. إضافة إلى ذلك فقد ألحَّ الإنجليز في البداية ثم منذ عام ١٩٢١ على الحكومة المصرية التكفل بتمويل هذه

(٦٨) مجلة "في المهجر" . يناير ١٩٢٢ . ص ٢٥.
(٦٩) المصدر السابق. ص ٢٤.

الممثليات، فقدمت للدبلوماسيين الروس ٤٠٠ جنيه مصري[٧٠]. صحيح أن مصر اعتبرت هذه الأموال ديوناً، وإن كانت لا تكفي لنفقات الممثليات. وقد بلغت نفقاتها في مايو١٩٢٣ على سبيل المثال ٦٣٧ر٤٨ جنيه مصري، وفي يونيو٤٦٣ر٣٣ جنيه. تمثل المصدر الوحيد للدخل من نشاط الممثليات في الضرائب القنصلية وقد بلغت ٥١,٦٨ جنيه مصري في نفس العام[٧١].

في عام ١٩٢٢ وبعد إزالة معسكرات اللاجئين الروس، اقتصرت الممثليات الروسية على كل من المفوضية الروسية والقنصلية العامة في مصر (الرئيس ــ السفير المفوض فوق العادة ألكسي الكسندروفيتش سميرنوف، السكرتير ــ سيرجي بافلوفيتش رازوموفسكي) ونيابة القنصلية في القاهرة (نائب القنصل – نيكولاي إيفانوفيتش فينوجرادوف)[٧٢]. وفي الإسكندرية واصلت القنصلية الروسية عملها وعمل بها الكسندر ميخايلوفيتش بتروف. أما القنصل الروسي في بورسعيد فكان أندريه ياكوفليفيتش نيسين (توفي في فبراير عام ١٩٢٣)[٧٣].

بعد الثورة وتوقف روسيا عن التمويل، بات الدبلوماسيون الروس ملزمين بربط الحزام. كانت المفوضية الدبلوماسية والقنصلية العامة تشغلان قبل ذلك شققا فسيحة في المنزل رقم ١٦ في شارع عماد الدين ــ أما نيابة القنصلية فكانت تشغل شقة مستقلة في المنزل رقم ٢ في شارع المغربي[٧٤].

---

(٧٠) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ٣/٨٢٠، وثيقة ٣٦٩، صحيفة ٧٣.

(٧١) المصدر السابق . صحيفة ٧٤، ١٠٤، ١٠٣.

(٧٢) المصدر السابق. وثيقة ٣٥٧، صحيفة ١٩.

(٧٣) المصدر السابق. وثيقة ٣٩٦، صحيفة ٢٣.

(٧٤) مصر في عيون الروس في منتصف القرن التاسع عشر ــ مطلع القرن العشرين . السياسة. الاقتصاد . الثقافة . منتخب من الوثائق. المقدمة، التعليق، الملاحظات والترجمة ج. ف. جورياتشكين. موسكو، ١٩٩٢. ص ٣١٤ ، ٣١٥.

وقد كان لزامًا أن تنتقل الممثليتان إلى مبنى أكثر تواضعًا في مكان واحد هو المنزل رقم ١٤، ويقع في شارع أبو السباع[٧٥]. وهو نفس ما فعله قنصل الإسكندرية أ.م. بتروف، إذ انتقل من الفيلا الفاخرة في شارع رشيد، المنزل رقم ٦٨[٧٦]، إلى محطة الرمل، للمنزل رقم ٢٤، حيث تم استئجار بضع شقق[٧٧]، واحدة منها وتقع في الطابق الثاني تم تخصيصها ككنيسة باسم القديس الكسندر نيفسكي، وقد نقلت إلى هنا في صيف ١٩٢٢ من معسكر اللاجئين في سيدى بشر[٧٨].

كان لوجود ممثليات دبلوماسية وقنصلية تعمل في مصر رسميًا، ثم استمرار فاعلية نظام الامتيازات الأجنبية أثر إيجابي لدى اللاجئين الذين شعروا بالأمان. وهو أمر بالغ الأهمية في ظل صدور قرار من اللجنة المركزية التنفيذية لعموم روسيا ومن مجلس قوميساري الشعب في الخامس عشر من ديسمبر ١٩٢١ بإسقاط الجنسية عن كل الأشخاص الذين غادروا البلاد بعد السابع من نوفمبر ١٩١٧ دون تصريح من السلطة السوفيتية. صحيح أن الدبلوماسيين الروس لم يكن باستطاعتهم تقديم مساعدة عادية ملموسة للاجئين، إلا أن هؤلاء الدبلوماسيين استغلوا علاقاتهم ونفوذهم لجمع التبرعات لصالح اللاجئين، وكانوا يقدمون لهم التوصيات لدى استقبالهم لهم في مكاتبهم.

---

(٧٥) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ٣/٨٢٠، وثيقة ٣٦٩، صحيفة ٢.
(٧٦) مصر في عيون الروس. ص ٣١٥.
(٧٧) فلاديمير بيلياكوف. أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار. ص ١٥١.
(٧٨) "مجلة بطريركية موسكو". العدد ٩، ١٩٨٢. ص ٦. استمرت الكنيسة تعمل حتى عام ٢٠٠١، و قد تم الاحتفال فيها في عام ١٩٨٨ بمرور ١٠٠٠ عام على اعتناق روسيا المسيحية.

كان النادي الروسي والعيادة الروسية في القاهرة يمثلان، إلى جانب الممثلية الدبلوماسية والقنصلية الروسية، مراكز لجذب المهاجرين. كان النادي قد تأسس على يد جمعية المواطن الروسي في القاهرة، والتي تأسست بفضل المهاجرين الروس في العقد الأول من القرن العشرين، أي قبل وصول اللاجئين بعدة سنوات. وقد كتب على استمارة الالتحاق بالجمعية وهي باللغتين الروسية والفرنسية عام "-١٩١"[٧٩]. كان مقر النادي في البداية موجودًا في مكتب المحامي ك. أ. تيخي[٨٠]. وبعد ذلك تم استئجار مبنى خاص به في المنزل رقم ٩ بشارع عماد الدين، حيث استمر يعمل على نحو جيد حتى بداية الثمانينيات[٨١]. كان النادي يشتمل على قاعة مجانية للمطالعة ومكتبة كان رصيدها من الكتب يزداد يومًا بعد الآخر حتى بلغ ثلاثة آلاف كتاب باللغة الروسية، كما كان هناك مطعم يقدم وجبات بأسعار زهيدة، ونظمت حلقة للشطرنج، وقدم النادي حفلات موسيقية ومسرحيات وأقيمت به أيام للثقافة الروسية[٨٢].

من اللافت للانتباه أن كلاً من ك.أ. تيخي وس.ب. يوريتسين[٨٣] عاشا في القاهرة قبل ظهور اللاجئين الروس فيها بمدة طويلة. أما الأول فقادته مهنته إلى مصر. كان تيخي يدافع عن مصالح المهاجرين الروس

---

(٧٩) أرشيف السياسة الخارجية الإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ٣/٨٢٠، وثيقة ٣. تشير بعض المصادر إلى أن النادي تأسس في عام ١٩١٧. انظر : ي: ف. لوكونين. المصدر السابق. ص ٢٥.

(٨٠) ف. ف. بيللين. مصدر سابق. ص ٣٢٠. كيريل أوسيبوفيتش تيخي وُلد في نامبوق في ١٨٧٧/٧/٢٦ وتوفي في القاهرة في ١٩٣٦/٣/١٦. انظر : فلاديمير بيلياكوف. مدينة موتى روسية في مصر. ص ٣٣.

(٨١) فلاديمير بيلياكوف. أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار. ص ٩٨، ١٠٢.

(٨٢) ي. ف. لوكونين. مصدر سابق. ص ٣٧.

(٨٣) لا توجد معلومات عن تواريخ ميلاد ووفاة سيرجي بتروفيتش يوريتسين. الواضح أنه غادر مصر بعد وفاة زوجته أليسا الكسندروفنا يوريتسينا. انظر فلاديمير بيلياكوف: مدينة موتى روسية في مصر. ص ٣٧.

في القاهرة، كما أشرنا في الفصل السابق، كان مهاجرًا سياسيًا اضطر لمغادرة روسيا بعد هزيمة ثورة ١٩٠٥ – ١٩٠٧. وعلى هذا النحو كان المهاجرون القدامى والجدد يشكلون جالية روسية واحدة على الرغم من الاختلاف في وجهات نظرهم السياسية. وقد ظهرت العيادة الروسية بفضل المهاجرين الروس أنفسهم. وقد بدأت العمل في يونيو ١٩٢٠ بعد أن جرى نقل آخر سكان معسكر مستشفى العباسية إلى التل الكبير، حيث قام الأطباء الذين تحرروا من أعباء المعسكر برئاسة ف. إ. بيللين(٨٤)، الرئيس السابق لمستشفى العباسية بتأسيس مجموعتهم المتخصصة، فتبرعوا بمبلغ وقدره ٥٤ جنيهًا مصريا لاستئجار مبنى من الأمير اللبناني المسيحي ميشيل لطف الله، الذي كان يعيش في القاهرة إلى جانب ٣٥٠ جنيهًا مصريًا أخرى من السفير أ.أ. سميرنوف لشراء الأجهزة والمعدات. وقد قدمت لجنة مساعدة اللاجئين الروس لهذه المؤسسة دعمًا ماليًا(٨٥). عمل في البداية في هذه العيادة تسعة أطباء من تخصصات مختلفة، وكان البروفيسور ك.إ. فاجنر مديرًا للعيادة، وكان قبل الثورة رئيسًا للقسم الطبي بجامعة موسكو(٨٦).

استقبل أطباء العيادة خلال العام الأول من وجودها ٢١١٠ مرضى، ٥٧٨ منهم تلقوا العلاج بالمجان، من بينهم ٤٠٦ روس، وقد كتب البروفيسور فاجنر في تقريره عن العام الأول من العمل يقول: "كنا جميعا أطباءً جددًا في القاهرة نقوم بعملنا في العيادة. لم يكن أحد يعرفنا بطبيعة الحال، وقد خاضت عيادتنا نضالاً صعبًا من أجل وجودها. والآن بعدما التفت الجمهور إلى العيادة التي نجحت في كسب بعض الثقة، وأصبح

---

(٨٤) عن ف.إ. بيللين والأطباء الروس البارزين الآخرين في مصر انظر الفصل التالي.

(٨٥) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ٣/٨٢٠، وثيقة ٢٢٣، صحيفة ٢٢ – ٢٤.

(٨٦) المصدر السابق. وثيقة ٢٢٢، صحيفة ١ . انظر أيضًا: ج. حوريانتشكين. عيادة روسية في القاهرة. "آسيا وأفريقيا اليوم"، العدد ١١، ١٩٩٨، ص ٧٥ – ٧٧.

لها جذور راسخة على نحو ما، ينبغي أن نفترض أن هذا النضال سوف يصبح أكثر يسرًا"[٨٧].

على أن العيادة كان مقدّرًا لها أن تعاني مرة أخرى من المصاعب. لقد أدت الحاجة إلى علاج الجزء الأساسي من اللاجئين الروس بالمجان إلى تراجع الدخل وخلقت مشكلات مالية. يؤكد البروفيسور فاجنر في تقرير له عن العامين ١٩٢١، ١٩٢٢، أنه "إن من يراقب عن كثب حياة ونشاط العيادة الطبية، التي بلغت لتوها عامين، سيعتقد أنها لم تعد بعد الآن صغيرة، بل على العكس، سيراها كبيرة بما فيه الكفاية. إن هذا الطفل الذي أتم عامين من عمره لا يزال واهنًا، ضعيفًا، إن السير دون يد ممدودة له من الخارج أمر مستحيل. انظروا إنه لم يقع حتى الآن ولم يتحطم، لكنه بحاجة إلى رعاية جيدة ومربية مخلصة، فالقوى الحيوية بداخله لا تزال شحيحة"[٨٨].

لكن أحدًا لم يعتن بهذه العيادة. لقد صادف العام الثاني من عمرها الانتفاضة المناهضة للمستعمرين في شهري نوفمبر وديسمبر من عام ١٩٢١ والتي صاحبتها صعوبات اقتصادية عانت من وطأتها آنذاك مصر، وأدت بالتالي إلى تراجع عدد المترددين على العيادة. فإذا كان أطباء العيادة قد استقبلوا في العام الأول ٢١١٠ مريضًا، فإنها في العام الثاني استقبلت ١٤٠٤ فقط[٨٩]. وأضاف البروفيسور فاجنر في تقريره قائلاً: "إن السكان العرب أصبحوا يقاطعون الأطباء الأوربيين بعض الشيء، وهذا رأى عام. وهذه المقاطعة كان يشعر بها حتى الأطباء الذين يعيشون في مصر ويتحدثون اللغة العربية بطلاقة"[٩٠].

---

(٨٧) المصدر السابق. وثيقة ٢٢٣، صحيفة ١٥، ١٨.
(٨٨) المصدر السابق . صحيفة ٢٧ أ.
(٨٩) المصدر السابق . صحيفة ٣١.
(٩٠) المصدر السابق . صحيفة ٢٨.

وحتى يتم الحفاظ على العيادة أُقيم في القاهرة حفل خيري لصالحها. وقد عاد دخله البالغ ٣٠٠ جنيه مصري على العيادة(٩١).

وقد ظهرت مشكلة أخرى. فعدد من الأطباء الذين رأوا في أنفسهم المهارة، افتتحوا عيادة خاصة وتركوا العيادة. وقد عبر البروفيسور فاجنر في تقريره أيضا عن ذلك بقوله: "تسنى لي للأسف أن ألاحظ أن بعضًا من الأطباء قد فقدوا اهتمامهم بالعيادة فيأتون دون التزام بالنظام، وأحيانًا يتغيبون عن مواعيد الاستقبال، والبعض الآخر توقفوا تمامًا عن المجيء إلى العيادة قاطعين بذلك علاقتهم بها. كنت أعتقد أن الأطباء الروس لا ينظرون إلى العيادة باعتبارها مكانًا يكسبون من وراءه بضع قروش، وإنما ينظرون إليها باعتبارها مؤسسة أسسها الروس، ولهذا فهي قريبة وعزيزة على قلوبهم، وأن كلاً منهم عليه أن يدعمها عن يقين أخلاقي، عن عزة نفس قومية"(٩٢).

يذكّر فلاديمير ابن ف.إ. بيللين "أن أفضل ما يميز حياة الروس في مصر هذه العلاقة الودودة التي تربط بين أعضاء الجالية"(٩٣). على أن فلاديمير كتب دراسته عن حياة الروس في مصر في الستينيات في باريس. والأرجح أن هذا الرأي كان صائبًا بالنسبة لتلك الحقبة التي استقرت فيها حياة المهاجرين بعد أن وجد كل منهم مكانا له في مصر. لقد كان الوضع في السنوات الأولى من الهجرة مختلفًا تمامًا كما شاهدنا في قصة أطباء العيادة الروسية. لقد كانت المصلحة الشخصية مقدمة عند الكثيرين على ما عداها.

---

(٩١) المصدر السابق . صحيفة ٢٧ أ.
(٩٢) المصدر السابق . صحيفة ٢٨.
(٩٣) ف. ف. بيللين. مصدر سابق. ص ٣٢١.

في خطاب له أرسله س.ب. رازوموفسكي إلى إ. بالاجوت في الثالث والعشرين من ديسمبر عام ١٩٢٩ يقول: "لعلك لاحظت بنفسك أن الثورة قد تركت أثرًا سيئًا للغاية بشكل عام على الروس جميعهم. لقد اتضح في واقع الأمر أن دماثة الخلق المعروفة التي كان يتميز بها الإنسان الروسي، والتي تحدث وكتب عنها الكثيرون لم تصمد أمام الاختبار. لقد بات الروس يعاملون الروس على نحو بالغ السوء. وقد تسنّى لي شخصيًا أن أُجرب معدن الإنسان الروسي دمث الخلق عند الشدة. لقد وقعت أنا نفسي في شدة، ورفض الروس مد يد المساعدة لي، بينما ساعدني الأجانب. ومن الذي ساعدني. إنهم أولئك الذين لم أقدم لهم أي خدمة في يوم من الأيام. هذا درس لك"[٩٤]. لنواصل حديثنا عن العيادة. لقد نجحت في الصمود. وعلاوة على ذلك فقد أسس الأطباء العاملون بها الجمعية الطبية الروسية. كان رئيسها ف. إ. بيللين. وفي عام ١٩٣٢ بدأت الجمعية في إصدار "نشرة العيادة الروسية"، وأخذ الأساتذة الروس بإلقاء التقارير الطبية في اجتماعهم الشهري. فيما بعد جرى تنظيم دورات في العيادة لأخصائي التدليك ورعاية المرضى، وبعدها رعاية العيادة ذاتها. لقد أسهم نشاط الأطباء الروس إسهامًا كبيرًا في إعداد جيل جديد من الأطباء المصريين[٩٥].

لقد تمثلت أهمية العيادة بالنسبة للمهاجرين الروس لا في كونها تتيح لهم العلاج بالمجان أو بمبلغ زهيد يحصلون في مقابله على مساعدة رفيعة المستوى من الأخصائيين، وإنما لأن هؤلاء الأخصائيين هم من أبناء وطنهم، الذين يمكن أن تعبر لهم بلغتك عن المشاعر الرقيقة، التي لا يمكن أن تعبر عنها لأجنبي حتى ولو كنت تعرف لغته. كان الأب سيميون نيديلكو هو الذي

---

(٩٤) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ٣/٨٢٠، وثيقة ٢٤٣، صحيفة ١٥.

(٩٥) ف. ف. بيللين. مصدر سابق. ص ٣٢٢.

يشرف على الشئون المالية في العيادة. وقد تم تجهيز إحدى الغرف الفسيحة فيها للكنيسة، حيث كان الأب سيميون يؤدى الخدمة فيها في أيام الآحاد. وقد قام الفنان إ. ى. بيليبين، الذي عاش آنذاك في القاهرة، بتصميم حاجب الأيقونات، وقام الفنانون المحليون: ف. أ. ستريكالوفسكي، ن. ف. سافينوف، س. ف. ديفوف، ف. ي. روتكوفسكى، ن. ل. بلاتونوف برسم الأيقونات. وقد جرى تكوين جوقة كنسية أيضًا[٩٦]. لم تكن الجالية الروسية في مصر متكاتفة فحسب، بل كانت مستقرة أيضًا. كان الناس يسافرون ويعودون. وقد قام الطياران مكسيموف ونايدينوف، على سبيل المثال، بالتطوع للعمل في جدة والحجاز في عام ١٩٢٠، وكانا قد سافرا إليها من مصر[٩٧]. من ناحية أخرى، جاء إلى مصر في منتصف العشرينيات فاسيلي جولينيشيف وبصحبته بناته الأربعة.[٩٨] في الخامس عشر من نوفمبر ١٩٢٥ كتب أ. م. بتروف إلى س. ب. رازوموفسكى قائلا: "إن لاجئينا مولعون إيجابيًا بجنون الترحال، وكثيرًا ما نلاحظ كيف أن عددًا من الذين استقرت بهم الحال نسبيًا يهبون مندفعين من أماكنهم فجأة بتأثير شائعات أو أخبار قرأوها أو خطابات تسلموها فيلقون بوظائفهم المضمونة ويسافرون مع عائلاتهم أو بدونها إلى بلاد بعيدة سعيًا وراء الأفضل. يفعلون ذلك دائمًا حتى دون أن يكون لديهم ما يكفي مؤونة الطريق، أوبلا أموال تكفيهم العيش في المكان الذي ذهبوا إليه إلى أن يجدوا عملاً يقيم أودَهم، وعادة ما يقعون بسبب ذلك في ظروف بائسة. وكثيرا ما جاء إلى مصر لاجئون توقفوا فيها في منتصف طريقهم إلى المكان الذي حدوده، وبعد أن ينفقوا أموالهم المخصصة لمواصلة الرحلة بلا طائل، يُضطر أغلبهم للبقاء هنا، فيعيشون عيشة تعسة شهورًا طويلة فيلحّون في التردد على الجمعيات

---

(٩٦) المصدر السابق. ص ٣٢٠ ، ٣٢١.

(٩٧) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية . ملف ٣١٧، قائمة ٣/٨٢٠، وثيقة ٢١٥، صحيفة ٧.

(٩٨) فلاديمير بيلياكوف. أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار. ص ١٤٢.

الخيرية والشخصيات العامة، بل يصل الأمر بهم إلى حد التسول من مواطنيهم الميسورين(٩٩).

كان القنصل الروسي في الإسكندرية يعلم بهذه المشكلة أفضل من مواطنه الدبلوماسي في القاهرة. كانت "العاصمة الشمالية"، بفضل وضعها الجغرافي، مركزًا ضخما لحركة المواصلات، حيث تلتقي فيها الطرق القادمة من أوربا المتجهة إلى الجنوب وإلى الشرق. في مذكراته كتب أ.ل. ماركوف (الاسم الأدبي شرقي) يقول: "في العشرينيات كنت واحدًا من أوائل الروس الذين نجحوا في الاستقرار في مصر. فبعد أن التحقت بالعمل في بوليس الميناء أصبحت أتقاضى مرتبًا ثابتًا، وأتيحت لي بعض الإمكانات لمساعدة أبناء بلدي، وبهذه المناسبة تحول بيتنا إلى "نُزُل" للعابرين من الروس عبر مصر". ويضيف قائلاً: "لقد جاء إلى هذه البلاد طامعون للعمل في فيالق أجنبية أو آخرون فروا منها؛ رحَّالة، منهم من يسير على قدميه ومنهم من يقطع الأرض على دراجة، ومنهم من خدم في صفوف الأسطول الصيني وسلاح الفرسان في باراجواي، ومنهم من هرب من جيش كمال (أتاتورك) والجيش الأحمر، بعضهم ذهب إلى جنوب أفريقيا وإلى أمريكا وأستراليا بحثًا عن عمل، والبعض جاء إلى هنا هربًا من العمل"(١٠٠). الواضح أن "الرغبة في تغيير المكان" كانت أمرًا لا يختص به الروس وحدهم الذين ألقت بهم المقادير إلى مصر، وإنما كانت سمة للمهاجرين كافة.

ازداد وضع المهاجرين الروس سوءًا بعد أن أعلنت الحكومة المصرية في السادس من أكتوبر عام ١٩٢٣، رفضها الاعتراف بالممثليات الدبلوماسية والقنصلية الروسية ثم توقفها عن دفع القروض بالأجل كرواتب. وعلاوة

---

(٩٩) أرشيف العلاقات السياسية الخارجية للإمبراطورية الروسية، ملف ٣١٧، قائمة ٣/٨٢٠، وثيقة ١٩١، صحيفة ١، ٢.

(١٠٠) الاقتباس من ي. ف. لوكونين. مصدر سابق. ص ٣٢ ، ٣٣.

على ذلك فقد أعلنت الحكومة إلغاء حقوق الامتياز الأجنبي بالنسبة للمواطنين الروس[١٠١]. وفي معرض شرحه لخلفيات هذا القرار، أكد القوميسار البريطاني الأعلى في مصر، سكوت، الحاكم الفعلي للبلاد : "أننا كنا مضطرين للأخذ في الاعتبار استمرار سلطة البلاشفة لمدة ست سنوات، وفي نفس الوقت عدم إظهار العناصر المناهضة لها المقاومة الكافية، مما دفع بنا لاعتبار الأخيرة من بقايا الماضي"[١٠٢]. تجدر الإشارة إلى أن إنجلترا، بعد أربعة أشهر من هذا القرار، أقامت في بداية فبراير ١٩٢٤ علاقاتها الدبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي. وإذا كان قرار عدم الاعتراف بالممثليات الدبلوماسية القيصرية السابقة بالنسبة للمُستَعمِر الحقيقي لمصر مدخلاً للاعتراف بروسيا السوفيتية، فإن الحكومة المصرية تصرفت من منظور مختلف تمامًا، إذ كانت مهتمة بالدرجة الأولى بإلغاء نظام الامتياز بالنسبة للمهاجرين الروس، وليس على الإطلاق بإقامة علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي.

في العامين ١٩٢٢ ، ١٩٢٣ ازدادت حركة الإضرابات حدة في البلاد. وكان على رأس هذه الحركة أعضاء الحزب الاشتراكي في مصر، الذي تأسس في عام ١٩٢١. وبعد مرور عام واحد على تأسيسه تحول إلى حزب شيوعي وانضم الكومينترن بقيادة أعضاء اتحاد العمال المصري إلى البروفينترن. وقد أثارت حركة الإضراب التي قادها الشيوعيون رعب الدوائر الحاكمة.

وتؤكد الواقعة التالية زيادة انتشار الأفكار الاشتراكية في مصر، فقد ظهر كتاب لينين "الدولة والثورة" في طبعته الأولى مترجمًا إلى اللغة العربية

---

(١٠١) أرشيف العلاقات السياسية الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ٣/٨٢٠، وثيقة ٢٠١، صحيفة ٢٥.

(١٠٢) المصدر السابق. وثيقة ٢٠٠، صحيفة ٥.

تحت اسم "مذكرات لينين" وذلك لصرف انتباه الرقابة عن الكتاب، الذي ظهر في بداية عام ١٩٢٢ في خمسة آلاف نسخة(١٠٣).

وقد شارك الأجانب أيضًا في الحركة الثورية ومن بينهم المهاجرون الروس، الذين استقروا في مصر قبل اندلاع الثورة في روسيا. وقد أظهر إدوارد زايدمان (أو زايدرمان) بن أوديسا نشاطًا ملحوظًا في هذه الحركة. ففي الأول من مايو عام ١٩١٩ ألقى خطابًا في الاجتماع الذي ضم آلاف العمال السكندريين. وفي التاسع عشر من أغسطس ١٩٢١ أبلغ رئيس بوليس الإسكندرية وزارة الداخلية أن القنصل الروسي أ.م. بتروف أخبره أن زايدمان، صاحب محل كتب في شارع أناستاسيا يوزع كتبًا بلشفية على المهاجرين الروس ويساعده في ذلك الضابط الأسبق في الجيش الأحمر الملازم الكسندر نيكولايف، الذي كان قد وقع في أسر دينيكين (قائد جيش البيض – المترجم) ثم تم ترحيله من روسيا. وقد ذكر أحد المخبرين، الذي زار المحل، أنهم كانوا يبيعون فيه نحو ٥٠٠ عنوانا من المراجع البلشفية باللغتين الإنجليزية والفرنسية، أما زايدمان فكان بصدد الانتهاء من ترجمة كتاب "نداء إلى الشباب" إلى اللغة العربية"(١٠٤). الأرجح أن هذا النداء كان خطاب لينين الشهير الذي ألقاه في مؤتمر الكومسومول (الشبيبة الشيوعية). أما الحلاّق أبرام ريزنيكوف وكان يمتلك محلاً في شارع فؤاد في وسط القاهرة، كان يحتفظ فيه في مطلع العشرينيات بالصحف السوفيتية التي

(١٠٣) أرشيف السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية . ملف ٤، قائمة ١٧، دوسيه ١٠٨، وثيقة ٢، صحيفة ٥٨.

(١٠٤) رفعت السعيد، تاريخ الحركة الاشتراكية في مصر ١٩٠٠ – ١٩٢٥، الطبعة الخامسة . القاهرة، ١٩٨١ . ص ١٨٥ – ١٨٧.

كان يتسلمها من البحارة الروس، وعلى أية حال فقد أحال ريزنيكوف المكان إلى نادٍ للمهاجرين الروس المناصرين للسلطة السوفـيتية(١٠٥).

كانت السلطات المصرية تلقي بشكوكها، وربما من دون أساس — على جزء من المهاجرين الروس تقوم بوظيفة همزة الاتصال بين الحزب الشيوعي المصري والكومنترن. لا عجب أن انهيار الحزب الشيوعي في عام ١٩٢٤ تزامن مع اعتقال وترحيل ٣٤ روسيًا من المهاجرين في يوليو من العام التالي إلى الاتحاد السوفـيتي على متن السفينة "تشيتشيرين"، وكان من بينهم عائلة ريزنيكوف. وكان من الممكن أن يقف الإبقاء على نظام الامتياز حجر عثرة في سبيل ذلك.

كان لترحيل المهاجرين الذين لا يعدون مواطنين سوفـيتيين أثر سلبي حاد في موسكو. وقد جاء في "تقرير الوضع الدولي والسياسة الخارجية للاتحاد السوفـيتي عن عام ١٩٢٥" أن "الحادث الذي وقع للسفينة "تشيتشيرين" التابعة للأسطول التجاري السوفـيتي أثر سيئ على نمو التجارة مع مصر. وأن على سفن الأسطول التجاري السوفـيتي الامتناع عن الوقوف بالموانى المصرية"(١٠٦). وقد أرسل قوميسار الشعب للشؤن الخارجية ج. ف. تشيتشيرين برقية غاضبة إلى نظيره المصري ذو الفقار باشا، عبر فيها عن "احتجاجه الشديد"، وأعرب "عن أمله الخالص" ألاَّ تتكرر مثل هذه الحوادث في المستقبل"(١٠٧). لكنها تكررت. في العامين ١٩٢٨، ١٩٢٩ تم ترحيل ١٣ روسيًا مهاجرًا آخرين إلى الاتحاد السوفـيتي، كانوا

---

(١٠٥) لمزيد من التفاصيل حول نشاط أ. ريزنيكوف انظر : فـلاديمير بيلياكوف. أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار، ص ٨٧ – ٩٣ .
(١٠٦) وثائق السياسة الخارجية للاتحاد السوفـيتي. المجلد ٩. موسكو، ١٩٦٤ . ص ٦٣٧.
(١٠٧) المصدر السابق. الجزء ٨، موسكو، ١٩٦٣ . ص ٤٧٧ – ٤٧٨ .

معروفين بتوجهاتهم الشيوعية، غالبيتهم من اليهود.[١٠٨] كما حدثت عمليات ترحيل أخرى بعد ذلك. وفي بداية ١٩٣١ أبلغت إدارة أو. جي. بي. أو(إدارة الدولة للشئون السياسية) إلى قوميسارية الشعب للشئون الخارجية تقريرًا يقول: "على الرغم من الاحتجاج الشديد الذي أعرب عنه قباطنة سفننا، فقد واصلت السلطات الإنجليزية ترحيل أشخاص ليست لديهم تأشيرات دخول إلى الاتحاد السوفيتي قسرًا على سفننا"[١٠٩].

في هذه الحالة من "التهديد البلشفي" توجست القيادة المصرية خيفة، ناهيك عن الإنجليزية، من إقامة علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي. وفي الوقت نفسه كان من الممكن أن تؤدي هذه الخطوة إلى المساعدة في زيادة العلاقات التجارية بين البلدين، الأمر الذي كان فيه تحقيق للمصالح المصرية.

وقد تسبب قرار الحكومة المصرية في زيادة الاستياء بين المهاجرين الروس. إذ وجدوا أنفسهم فجأة من دون أحد يدافع عنهم وبلا حصانة من أي نوع. كان المواطنون الروس، بناء على نظام الامتيازات، لا يخضعون، شأنهم في ذلك شأن ممثلي العديد من الدول الأوربية الأخرى، إلا للمحاكم القنصلية التابعين لها.

في الرابع من نوفمبر ١٩٢٣ عقدت جمعية المواطن الروسي في القاهرة اجتماعًا حضره ما يزيد على مائتي شخص ورأسه البروفيسور ك. إ. فاجنر، الذي قال في تقريره الذي أعده ليلقيه أمام الجمعية العامة لإدارة الجمعية: "الآن يحق لأي شاويش أن يأتي إلى مساكننا وأن يستهزئ بنا مثل الفلاحين. وسوف نظل بلا حول ولا قوة ما دمنا لا نعرف اللغة

(١٠٨) عبد الوهاب بكر . عودة النشاط الشيوعي في مصر . ١٩٢١ – ١٩٥٠ . القاهرة، ١٩٨٣ . ص ٣٥.

(١٠٩) أرشيف السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية. ملف ٥، قائمة ١١، دوسيه ٧٦، وثيقة ٥٥. صحيفة ١.

العربية، وعندما يستدعوننا أو حتى عندما يقتادوننا إلى الكراكونات. فإذا أضفنا إلى ذلك الدور المعروف للبقشيش و"تعالى بُكْرة"، فسوف نفهم عندئذ ببساطة كل روائع النظام الذي ينتظرنا"(١١٠).

على أن احتجاجات ممثلي الجالية الروسية لم تلق أي استجابة، كما أن الحكومة المصرية لم تفكر في الرجوع عن قرارها. عندئذ تقدم السفير أ. أ. سميرنوف باقتراح مفاده : إنشاء إدارة تابعة للحكومة المصرية للإشراف على شئون الروس وإشراك الممثليات القنصلية الروسية السابقة في أعمالها(١١١). وقد قوبل الاقتراح بترحيب، لكن الأمر تتطلب سنوات ثلاث لتحقيقه.

سرعان ما ساءت أحوال المهاجرين الروس أكثر. وفي الخامس من فبراير عام ١٩٢٤ توفي السفير أ.أ. سميرنوف. في خطابه المؤرخ الخامس عشر من ديسمبر عام ١٩٢٨ إلى ابن شقيقه المقيم في بوخارست، وصف س.ب. رازوموفسكي ظروف وفاة سميرنوف على النحو التالي: "قبل عامين تقريبا من وفاته بدأ أ.أ. سميرنوف يعاني بشدة من خراريج تعرف باسم خراريج النيل، تظهر أساسًا نتيجة للإقامة الطويلة في مناخ حار ورطب. وقد ظل يقاوم هذا المرض بنجاح على نحو أو آخر. ولكن ولسوء الحظ وقعت له حادثة، إذ صدمته سيارة أثناء سيره بدراجته في أحد شوارع القاهرة المزدحمة فوقع له كسر مضاعف في باطن إحدى قدميه، إلى جانب

---

(١١٠) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ٣/٨٢٠، وثيقة ٢٠٠، صحيفة ١٢.
(١١١) المرجع السابق. وثيقة ٢٠١، صحيفة ٢٤.

كسر آخر بسيط في أحد العظام الثانوية فيه. وقد تم نقله إلى أحد المستشفيات حيث أجريت له جراحة ناجحة، لكن التئام الجرح كان يتم على نحو سيئ بسبب مرض النيل. وهنا حدثت له مضاعفات نتج عنها تلوث الجرح ليلقى حتفه"[١١٢].

بوفاة سميرنوف فقدت الجالية الروسية المدافع المتحمس عن مصالحها، والذي على الرغم من أنه لم يعد ممثلاً رسميًا لهم، فقد ظل قادرًا على استخدام نفوذه وعلاقاته الواسعة للصالح العام. وعلاوة على ذلك فقد خيمت أيام سوداء على الدبلوماسيين الروس، الذين فقدوا تمامًا قدرتهم على بذل المساعدة المادية للمهاجرين؛ فضلاً عن توفير ما يبقيهم على قيد الحياة. المسألة أنه بعد القرار الذي تم اتخاذه بشأن عدم الاعتراف بالممثليات الدبلوماسية والقنصلية الروسية، اضطر سميرنوف أن ينقل الأموال الأميرية إلى حسابه الشخصي في البنك. وقبيل وفاته بفترة قصيرة وأثناء إقامته في المستشفى سلم س. ب. رازوموفسكي مبلغ ٦٣٥ جنيهًا مصريًا و٤٨,٥ قرش. بلغت نفقات الجنازة وديون أخرى ٦١٥ جنيهًا و٤٨,٥ قرش كان هناك مبلغ ٧٧٧ جنيهًا مصريًا و٨٥,٤ قرش أخرى أموالاً أميرية في حساب سميرنوف. وكانت أخته هي الوريثة المستحقة لاستلام هذه الأموال وكانت تعيش في أوربا، وكان الممثل لمصالحها في مصر هو أحد الأقارب البعيدين لسميرنوف وهو مستشار الدولة س.إ. نوفاكوف، الذي لم يظهر أي رغبة في أن يضع أموالاً أميرية تحت تصرف رازوموفسكي. وهنا بدأت مرحلة من التقاضي المضني استمرت خمس سنوات انتهت أخيرًا لصالح رازوموفسكي.

تتلخص "قضية ميراث سميرنوف" في هذه الوثيقة المثيرة للفضول.

---

(١١٢) المصدر السابق. وثيقة ٢٧٨، صحيفة ٢٤.

فقد تم العثور على إيصال باسم س. ب. رازوموفســـكي مؤرخ ٣٠ يونيو عام ١٩٢٩ بمبلغ ٥ر١٩٤ جنيه مصري حصل عليه "باعتباره راتبًا نظيـر الإشراف على أراشيف وخزانة الوكالة الدبلوماسية الروســية الــسابقة فــي مصر". وفي معرض تفسيره لهذا الأمر كتــب رازوموفـــــسكي يقــول : "نظرًا لأنني لم أتسلم أي راتب مقابل عملي منذ شهر يوليــو عــام ١٩٢٥، وحيث إنني لا أملك أي أموال أعيش منها، فإنني، مثلي في ذلك مثل الآخرين الذين يعيشون في الخارج، كنت مضطرًا أن أقتطع جزءًا من المال الموجود كرصيد من أجل حياتي وحياة أسرتي"[١١٣]. سوف نلاحــظ هنــا أن راتــب رازوموفـــسكي بلغ في عام ١٩٢٣ أربعين جنيهًا مصريًا شهريًا[١١٤].

في الحادي عشر من مايو عام ١٩٢٦ أعلنت الحكومة المصرية عــن تأسيس "المكتب الروسي" التابع لوزارة الداخلية، وتعيين الدبلوماسيين الروس السابقين رؤساء له. فــي البدايــة تــولى رئاســة مكتــب القــاهرة س.ب. رازوموفـــسكي، وقــد تركــه فــي يونيــو عــام ١٩٢٧ ليتــولاه ن. إ. فـــينوجرادوف. وتولى "المكتب الروسي" في الإسكندرية أ.م. بتروف. وقد تأسس "المكتب الروسي" ليخدم منطقة قناة السويس وآخر في بورسعيد. على أنه من غير المعروف من الذين تولوا رئاسة القنصلية الروسية بعــد وفــاة أ.ي. نيسين في فبراير عام ١٩٢٣، وبالتالي "المكتب الروسي". جدير بالذكر أن هذه المكاتب افتتحت في مباني القنصليات الروسية السابقة وبعضها حــل محلها[١١٥]. وكانت وظيفة "المكتب الروسي" تنحصر أساســا فــي تــسجيل المهاجرين الروس وإعطائهم بطاقات شخصية تسمى ليسيه – باص، وكذلك

---

(١١٣) المصدر السابق. وثيقة ٣٧٢، صحيفة ١٣.
(١١٤) المصدر السابق. وثيقة ٣٦٩، صحيفة ١٢ .
(١١٥) المصدر السابق. وثيقة ٢٠٥، صحيفة ٥٨ ؛ وثيقة ٢٤٢، صحيفة ٢، ١١، ٢٩.

شهادة بيانات للقيام بإجراءات الإقامة والتوثيق الضرورية[116]. على أن المكتب الروسي لم يكن من صلاحياته القيام بالوظائف القنصلية الأخرى مثل تسجيل المواليد والوفيات وعقود الزواج والطلاق وما إلى ذلك.

كان لزامًا على المهاجرين الروس أن يسجلوا أنفسهم سنويًا لدى "المكتب الروسي". وكان من يتجاوز مدة التسجيل يعاقب بدفع غرامة قيمتها جنيه واحد. لم تكن هناك أية إجراءات عقابية أخرى توقع على من يتغيب عن الحضور. وفي هذا السياق كتب س.ب. رازوموفسكي في ٢٦ نوفمبر عام ١٩٢٧ خطابًا إلى إ.ب. أوموف، الموظف السابق في القنصلية الروسية في الإسكندرية يقول: "أعرف كثيرًا من الروس الذين قاموا بتسجيل أنفسهم عندما شعروا بضرورة القيام بمختلف الإجراءات الرسمية، مثل السفر إلى الخارج واستخراج جواز سفر جديد وتسجيل عقد الزواج"[117].

بعد وفاة ن. إ. فينوجرادوف في عام ١٩٣٥ رأس "المكتب الروسي" في القاهرة العقيد ميخائيل فلاديميروفيتش سكارياتين. وقد ساعده في عمله بانتيليمون فيكتوروفيتش أنطاكي الذي حل محله في نهاية الأربعينيات بعد رحيل الأول إلى أوربا. واستنادًا إلى ف. ف. بيللين فقد استمر "المكتب الروسي" في نشاطه حتى عام ١٩٦٣[118]. ويبدو أنه لم تعد هناك حاجة لهذه الهيئات بعد أن تراجع عدد أفراد الجالية الروسية بشكل حاد.

بعد أن ترك رازوموفسكي وظيفة مدير "المكتب الروسي" بالقاهرة، خلت أيضًا برحيله وظيفة الأمين على الأراشيف الروسية الدبلوماسية. لكن

---

(١١٦) المصدر السابق. وثيقة ٢٤١، صحيفة ١٠.
(١١٧) المصدر السابق . وثيقة ٢٤٢، صحيفة ٣٠.
(١١٨) ف. ف. بيللين. مصدر سابق. ص ٣٢٠.

العديد من المهتمين بهذه الأرشيف كانوا كثيرًا ما يلجأون إليه طلبًا للنصيحة والمساعدة كما كانوا يفعلون في السابق. وكانت له إجابات طريفة ردًا على أسئلة.مكتب الاستعلامات القومي الأمريكي عن المهاجرين الروس في مصر، الذين أرسلهم إلى نيويورك في الأول من أكتوبر ١٩٢٩.

كتب رازوموفسكي أن إجمالي الروس من ٦٠٠ – ٦٥٠ روسيًا. من الواضح أن هذا الرقم أقل من الواقع إذا ما استندنا إلى مصادر أخرى ترى أن العدد أكثر مرتين ونصف المرة. ومن المحتمل أن يكون رازوموفسكي قد قصد عدد الروس المسجلين في "المكتب الروسي"، وربما قصد في الأغلب عدد الرجال فقط. وقد أورد الدبلوماسي السابق أيضا المكاتب الروسية فضلاً عن النادي الروسي والعيادة الروسية. كما أورد الجمعيات العامة ومن بينها الجمعيات الخيرية في القاهرة والإسكندرية وبورسعيد، وكذلك جمعية القرض الحسن في الإسكندرية. لكن الأمر الأكثر إثارة للانتباه هو وجهة نظره بشأن الأعمال التي كان يمتهنها الروس. يؤكد رازوموفسكي وهو يقدم لنا الأمر، أن "حصول الروس على عمل كان يتطلب توصيات خاصة وأحيانًا ضمانات أيضًا، الأمر الذي لم يكن ممكنًا في أغلب الأحوال"(١١٩).

إذن ماذا كان يعمل الروس؟ بحسب رازوموفسكي كان العمل الشائع هو قيادة السيارات، بما فيها سيارات النقل وكان عدد من المهاجرين يمتلكون سيارات ومنها سيارات نقل. وينوّه الدبلوماسي إلى شركة توتورين وبوكليفسكي لنقل البضائع ومقرها القاهرة باعتبارها "أكثر شركات السيارات التزاما". كان الروس يقودون سيارات الأجرة التي يمتلكونها أو التي يمتلكها آخرون وبعضهم كان يعمل سائقًا خاصًا.

---

(١١٩) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ٣/٨٢٠، وثيقة ٢٠٧، صحيفة ٩ .

يؤكد رازوموفسكي أنه كان هناك خليط صغير من الروس يعملون في وظائف مختلفة: حُجَّاب في المحاكم وكتبة في البنوك، وسائقي ترام، وكثير منهم كانوا يعطون دروسًا خصوصية في اللغات والرياضيات والموسيقي، والبعض قام بالتدريس في المدارس ومنهم "من عمل على نحو استثنائي عاملا في وظائف حكومية"(١٢٠).

كما رأينا من هذا الاستعراض الذي وضعه دبلوماسي روسي سابق، فإن المهاجرين الروس كانوا منتشرين في مختلف أوجه الأعمال في المجتمع المصري. ومن الواضح أن أكثر العلاقات اتساعًا مع السكان المحليين كانت من نصيب الروس من أصحاب المهارات الفنية. فهؤلاء كان مئات المصريين يترددون عليهم يوميًا.

ومن هذا الاستعراض أيضًا يتضح لنا أن السواد الأعظم من المهاجرين كانوا فقراء. ولعل أكثر ما يدل على ذلك هو كيف دفنوا بعد وفاتهم. لقد دفن أربعة أو خمسة مهاجرين روس في مدافن أرثوذكسية يونانية عامة في القاهرة والإسكندرية(١٢١). وقد بنيت في الإسكندرية في سبتمبر عام ١٩٣٤ قبور من الخرسانة المسلحة بأموال الجمعية الخيرية وأشرف على العمل ب. ف. ريربيرج(١٢٢). غير معروف تاريخ إنشاء قبور مماثلة في القاهرة والأرجح أنها بنيت تقريبًا في نفس الفترة. وتحتوي كل مقبرة على ستة وثلاثين لحدًا. وعندما كانت جميع اللحود تمتلئ بالموتى وتظهر الحاجة لدفن جثامين جديدة، كان يتم نقل أكثر الرفات تحللاً من لحدها لتوضع في صندوق من الحديد ويوضع على

---

(١٢٠) المصدر السابق.
(١٢١) لمزيد من التفاصيل انظر : فلاديمير بيلياكوف . مدينة موتى روسية في مصر .
(١٢٢) "مجلة بطريركية موسكو" . العدد ٦، ١٩٨٣ . ص ٢٢ .

أرض اللحد[١٢٣]. أما بالنسبة لشواهد القبور فقد نقلت الأسماء فور انتهاء الحرب العالمية الثانية لتوضع في لوحات تذكارية أساسية[١٢٤].

في الرابع عشر من فبراير عام ١٩٢٧ كتب س. ب. رازوموفسكي إلي الأميرة أ.أ. أورسوفايا قائلا: "كل شيء يجري هنا على الطريقة القديمة. الروس يعيشون ويتشاجرون، كما كان يحدث قبل ذلك"[١٢٥]. على هذا النحو استمرت الحال حتى اندلعت الحرب.

الجالية الروسية في مصر أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية

حتى مصر لم تسلم من رياح الحرب العالمية الثانية. فقد دارت على أراضيها عمليات عسكرية كثيفة. ففي خريف عام ١٩٤٢ اقتربت من الإسكندرية قوات دول "المحور". على أن هذه القوات توقفت في العلمين على بعد مائة كيلومتر من الإسكندرية على يد قوات الحلفاء، ثم منيت بالهزيمة وبحلول نهاية العام أزيحت بعيدا عن الحدود المصرية.

وترسم لنا يوميات القس الكسي ديختيريف صورة لحياة الروس في الإسكندرية في سنوات الحرب. نقدم هنا بعض مشاهد منها.

"١٢ يوليو (١٩٤٠). أقيمت اليوم الطقوس المقدسة بشكل احتفالي فريد، وقد امتلأت الكنيسة عن آخرها وبلغ عدد القرابين المقدمة وحدها أكثر من ثلاثين قربانا. هتفت بالصلاة عندما انطلقت الصافرة فجأة. للوهلة الأولى سرت بين المصلين حالة من الارتباك. هب البعض لإغلاق النوافذ، مع أن المفروض

---

(١٢٣) فلاديمير بيلياكوف . أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار . ص ٢٢٤ .

(١٢٤) أسماء الذين توفوا بعد عامي ١٩٤٦ ، ١٩٤٧ إما نقشت على اللوحات التذكارية الأساسية بحروف مختلفة، و إما وضعت على لوحات إضافية. على أنه وفقا لبعض المعلومات فقد تم بناء شواهد فوق القبور في القاهرة في عام ١٩٣٨ . أنظر أ. بوفكانو . أبرشيات أرثوذكسية في أفريقيا . مجلة "آسيا و أفريقيا اليوم"، العدد ١، ٢٠٠٣ . ص ٧١.

(١٢٥) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية . ملف ٣١٧، قائمة ٣/٨٢٠، وثيقة ٢٤٢، صحيفة ١ .

أن تترك مفتوحة أثناء الغارة، واندفع البعض الآخر ناحية الباب. وفي النهاية تغلبت الحكمة على الجميع وبقي الجميع في أماكنهم في الكنيسة. ركعوا وراحوا في صلاة حارة... وقد انتقل إليّ نفس الشعور العام، فأكملت الخدمة بكل عمق وأناة. حتى إنني شعرت بالخوف وتعجبت لما للصلاة من قوة.

٢٣ أغسطس. لم ينم أحد طوال هذه الليلة. وقد قضيت اليوم في الصلاة مع الأطفال. هل باستطاعتي، بعد ليلة رهيبة مسهدة، أن أعوّل على أن الآباء سوف يستجيبون لندائي ويسمحون لأطفالهم بالذهاب إلى الكنيسة. لا يمكن التأكيد على ما سيحدث في الغد... سبحان الله: لم يكتف الآباء بالسماح لأطفالهم بالمجيء، وإنما قام العديد منهم باصطحابهم، بل إنهم أحضروا معهم الشباب اليافعين أيضًا. باختصار، إن إسكندريتنا الروسية الجنوبية تغشاها السكينة، ومن الواضح أن الناس باتوا يملأون كنيستنا الصغيرة الرحبة بمشاعر الفرح والسرور.

١٣ يونيو(١٩٤١)، قضيت اليوم بطوله في زيارة أبناء الكنيسة. وقد تركت شقة أ انطباعاً شديدًا في نفسي. كانت كل الأبواب والنوافذ محطمة. أما البيت فامتلأ بالشقوق، وأما الشرفة فكانت تطل على منظر لخرائب بشعة، إذ لم يتبق من البيوت الثلاثة المجاورة سوى أطلال.

٢٢ يونيو. اجتمع في القدّاس عدد كبير من المصلين. وكعادته دائمًا كان أول من اقترب من الصليب هو القنصل الروسي (أ.م. بتروف — المترجم) وقال لي: "السوفييت والألمان في حالة حرب"[١٢٦].

يشير ف. ف. بيللين في دراسة له، أن كثيرًا من الروس في سنوات الحرب: "أدوا واجبهم، فقد ناضلوا من أجل نموذج للعالم الحر"[١٢٧]. الواضح أنه لم يكن يقصد انضمام المهاجرين الذين تطوعوا في صفوف قوات الحلفاء

---

(١٢٦) الاقتباس من : أ. بوفكالو. مصدر سابق . ص ٧١.
(١٢٧) ف. ف. بيللين . مصدر سابق. ص ٣٢٣.

فحسب، فالمعلومات في هذا الصدد كانت شحيحة للغاية، وإنما كان يقصد اشتراكهم الفاعل في حملة التضامن مع الاتحاد السوفيتي. وهكذا في فبراير ١٩٤٢ أقيم في القاهرة حفل فني كبير وسوق خيري لصالح مساعدة الاتحاد السوفيتي، وكان الراعي لهما هو الملك فاروق نفسه. وأثناء الحفل جرى تنظيم مزاد علني بيعت فيه مشغولات قامت على صناعتها سيدات من الجالية الروسية في مصر[(١٢٨)].

لم يكن بوسع هذه المناسبات أن تُدر، بطبيعة الحال، قدرًا كبيرًا من الأموال. لكنها أظهرت حالة من المزاج الوطني لدى الجمهور الأساسي للمهاجرين، أكثر حتي من حالة المعاداة للفاشية. وقد أكد المهاجر الروسي المقيم في باريس والذي شارك في الحرب والحاصل على وسام فارس من فرنسا ن. فيربوف "أن الوطن قد تعرض للهجوم وأن وجوده ذاته بات مهددًا. وبالنسبة للذين تربوا على الروح الروسية وعاشوا في البيئة الروسية، فإن روسيا أصبحت هي الدافع الرئيسي بلا شك لاشتراكهم في الحرب[(١٢٩)]

مثل هذا التصريح يمكن تطبيقه بطبيعة الحال على المزاج العام للمهاجرين الروس في مصر أيضًا. وعلى سبيل المثال، فقد خدم أبناء الفنان ستولوف الذي غادر روسيا حتى قبل قيام الثورة في صفوف الجيشين الإنجليزي والأمريكي أثناء الحرب[(١٣٠)] وقد قصَّت ابنة المهاجرين الروس تاتيانا نيكولايفنا مونتى، وكنيتها قبل الزواج سيريكوف (ولدت في عام ١٩٣٢) على المؤلف كيف أن إحدى العائلات الروسية في مصر، عائلة تيتوف، قد عانت كثيرا إبان سنوات الحرب بسبب وجودها في الخارج. وقد قرَّر الزوجان

---

(١٢٨) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٨٧، قائمة ١، دوسيه ٢، وثيقة ٢٠، صحيفة ١.

(١٢٩) في ذكرى الجنود الشهداء . باريس، ١٩٩١ . ص ٥.

(١٣٠) أرشيف السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية. ملف ٨٧، قائمة ٤، دوسيه ٦، وثيقة ١٤، صحيفة ١.

العودة إلى الوطن. لكن الزوجة توفيت قبل الرحيل بفترة قليلة[١٣١] وهنا أعلن تيتوف، البحار السابق، أن الوطن بحاجة إليه وعاد على الفور إلى هناك ولم يسمع عنه أحد من الجالية الروسية بعد ذلك، على أن تاريخ آل تيتوف ظل حيًا تتناقله الأجيال كمثال على الوطنية الحقيقية[١٣٢]. وبالمناسبة فإن رد الفعل الذي أبداه مواطنوه إنما يؤكد على أن تيتوف كان استثناءً.

كان لهزيمة قوات "المحور" في العلمين وطردهم من مصر، والتي تزامنت مع هزيمة القوات الفاشية في ستالينجراد أثر هائل في تغيير الرأي العام الذي كان مترددًا، وذلك لصالح الحلفاء وفتحت الطريق أمام تأسيس العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي، وهو ما أعرب عن رغبتهم في إقامتها قبل ذلك سياسيون مصريون. على سبيل المثال، في مارس عام ١٩٣٣ أعلن رئيس الوزراء يحيى باشا أمام البرلمان؛ أنه نظرًا لتراجع خطورة الدعاية الشيوعية فإنه يدرس بجدية قضية إقامة العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي[١٣٣].

من الواضح أن المصالح التجارية هي التي دفعت المصريين نحو اتخاذ هذه الخطوة. كانت مصر تبيع القطن دوريًا إلى الاتحاد السوفيتي، زد على ذلك أن بلادنا في منتصف الثلاثينيات ــ بحسب وزير التجارة المصري عبد السلام فهمي ــ كانت تشغل المركز الرابع في استيراده[١٣٤]. وبدوره فقد

---

(١٣١) استنادا إلى كتاب "مدينة موتي روسية" فقد توفيت زينايدا ق. تيتوفا في ٢٣ فبراير عام ١٩٣٤ وعمرها ٤٢ عامًا. على أنه انطلاقًا من قصة ت. ن. مونتي، يمكن أن نؤكد أن هذا التاريخ غير صحيح. الأرجح أن ز.ق. تيتوفا توفيت في عام ١٩٤٣ وليس في عام ١٩٣٤. وهناك العديد من هذه الأخطاء المشابهة إذا علمنا أن تسجيل الموتى في الإسكندرية كان يتم باللغة اليونانية ويتم إملاء الموظف المسئول عن السجل باللغة العربية الدارجة. والأرقام في العربية تبدأ بالآحاد ثم العشرات فيقال على سبيل المثال ثلاثة وأربعون، بينما في اليونانية العشرات ثم الآحاد فيقال "43".

(١٣٢) أرشيف المؤلف صندوق "الروس في مصر". وثيقة ٢٤، صحيفة ٢٠٢.

(١٣٣) أرشيف السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية. ملف ٨٧، قائمة ١، دوسيه ٢، وثيقة ٢١، صحيفة ١٤.

(١٣٤) المصدر السابق . صحيفة ٤٠.

صدَّر الاتحاد السوفيتي إلى مصر المنتجات البترولية والنسيج. وفي عام ١٩٣٣ تم تأسيس شركة خاصة هناك لاستيراد وتوزيع منتجات البترول السوفيتية[١٣٥].

غير أن الخوف من "الخطر الأحمر" في دوائر البلاط كان كبيرًا للغاية وراحت هذه الدوائر تسوّف طوال الوقت في إقامة العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفيتى. وتعكس الواقعة التالية الوضع في مصر في تلك الفترة. ففي عام ١٩٣٧ حظرت الحكومة كتابي هنري باربوس عن ستالين وجان جاكوبي عن لينين "حفاظاً" على الأمن العام[١٣٦].

فيما يتعلق بالاتحاد السوفيتى فقد نجح في منتصف العشرينيات في إقامة العلاقات الدبلوماسية مع مصر. وفي الثاني من يناير عام ١٩٢٨ أرسل نائب قوميسار الشعب للشئون الخارجية ل.م. كاراخان خطابًا للمندوب السياسي في تركيا يقول فيها: "على الرغم من كل الصعوبات، فإن علينا أن نقوم الآن بدراسة مسألة تجديد العلاقات الدبلوماسية مع مصر"[١٣٧]

كان للتحول الذي حدث في مسار الحرب دوره في تغيير الموقف. وفي السادس والعشرين من أغسطس عام ١٩٤٣ أقيمت في النهاية العلاقات الدبلوماسية بين مصر والاتحاد السوفيتي، وسرعان ما بدأت البعثة السوفيتية في ممارسة أعمالها في القاهرة.

أسهم وصول الدبلوماسيين السوفيت إلى مصر في تنشيط حملة التضامن مع الاتحاد السوفيتي. وقد رأست هذه الحملة إيرينا الكسندروفنا أوفتشينيكوفا وهي امرأة روسية، ابنة لتاجر كبير هاجر من روسيا بعد

---

(١٣٥) المصدر السابق - صحيفة ٦، ١١.
(١٣٦) المصدر السابق - صحيفة ٣٥.
(١٣٧) أرشيف السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية. ملف ٤، قائمة ١٧، دوسيه ١٠٨، وثيقة ٢، صحيفة ٢.

الثورة. وقد جاء نجاح مبادراتها في أغلبه نتيجة لوضعها الاجتماعي الرفيع. الواقع أن أوفتشينيكوفا كانت زوجة للأمير اليوناني بترو ابن عم الملك جورج الثاني. وقد عاشت العائلة المالكة في مصر بعد احتلال اليونان. وفي عام ١٩٤٣ أسست الأميرة إيرينا في سوريا ولبنان، حيث كانت الأوضاع فيهما أفضل من مصر، صندوق مساعدة مواطني الاتحاد السوفيتي. كانت الأموال التي يتم جمعها للصندوق من أدوية ولقاحات وملابس وسجائر ترسل إلى الكنيسة الأرثوذكسية الروسية. وردًا على هذه الطرود وصلت رسائل الشكر والامتنان من بطريرك موسكو وسائر روسيا الكسي ورسالة بتفيد أن هذه الأشياء قد تم توزيعها على جنود الجنرال روكوسوفيسكي(١٣٨).

في مطلع عام ١٩٤٤ تغيرت الظروف في مصر إلى الأفضل فأنشأت الأميرة إيرينا صندوقا مماثلا فيها كان على رأسه رئيس الوزراء شريف صبري. وقد انضم إلى رئاسة الصندوق كل من وزير المالية ومحافظ القاهرة، وهم من المقربين إلى الملك، وكان الملحق الإعلامي للصندوق الكاتب الشهير طه حسين. وقد كتب أول سفير سوفيتي في مصر ن. ف. نوفيكو فيما بعد يقول: "لم يكن من المنتظر أن يتلقى الصندوق المصري أية مساعدة مالية مثله مثل الصناديق الخيرية الأخرى. لكن كان من المستحيل أن نبخس أهميته السياسية. كان من الممكن أن يكون هذا الصندوق حلقة جديدة في سلسلة المؤسسات المختلفة التي كان بإمكانها المساعدة في دعم تعاطف الرأي العام المصري مع الاتحاد السوفيتي"(١٣٩).

بدأت الحملة لجمع المال بعرض الفيلم التسجيلي "ستالينجراد" يوم ١٥ مايو ١٩٤٤ في سينما "أوبرا" بالقاهرة. وقد حضر العرض النخبة السياسية في مصر وعلى رأسها الملك فاروق(١٤٠). وقد جلس السفير ن. ف.

---

(١٣٨) ن. ف. نوفيكوف. طرق ومفترق طرق دبلوماسي. موسكو، ١٩٧٦ . ص ٩٥.
(١٣٩) المصدر السابق . ص ٩٦.
(١٤٠) المصدر السابق . ص ١٠٢.

نوفيكوف إلى جوار الأميرة إيرينا(١٤١). وقد اشترى الصندوق بالأموال التي حصل عليها ٤٣٩١ زوجًا من الأحذية أرسلت إلى الأطفال اليتامى في ستالينجراد(١٤٢). وبدورها قامت الحكومة المصرية بإرسال شيك إلى البعثة السوفيتية قيمته ١٠٠٠ جنيه مصري لشراء الأشياء الضرورية لأطفال ستالينجراد(١٤٣). وقد نوهت مجلة "Colliers" الأمريكية في عددها المؤرخ ١٧ فبراير ١٩٤٥ إلى "أن الشعور السائد بين الأوربيين أن روسيا كسبت الحرب وحدها فعليًا هو شعور سائد بين المصريين أيضًا(١٤٤).

جدير بالذكر أنه مع انتهاء الحرب حدث تحول كبير في الرأي العام في مصر؛ فضلاً عن مزاج العديد من أعضاء جالية المهاجرين البيض أيضًا. وعن هذا التحول كتب مستشار البعثة السوفيتية في مصر د. س. سولود إلى موسكو قائلاً: "تتكون الجالية الروسية في القاهرة والإسكندرية أساسًا من المهاجرين البيض الذين تتمتع أغلبيتهم العظمى بشعور الإخلاص نحو الاتحاد السوفيتي"(١٤٥). وعلاوة على ذلك فقد ألغيت في مطلع العام ١٩٤٤ فقط الفقرة الأخيرة من لائحة "النادي الروسي" في القاهرة، التي تقول إن عضو النادي لا يمكن أن يكون شخصًا "يعترف بالسلطة الشيوعية في روسيا"(١٤٦). وقد لوحظ في بداية الحرب لدى بعض من أعضاء "النادي الروسي" أنهم يميلون بشدة ناحية معاداة السوفيت، كما كانوا متعاطفين أيضًا مع الفاشيست. ووفقا لبعض المعلومات، فقد كان الإنجليز يفكرون في إلقاء

---

(١٤١) أرشيف السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية. ملف ٨٧، قائمة ٨، دوسيه ٨، وثيقة ١٨، صحيفة ٩.

(١٤٢) المصدر السابق . قائمة ٢، دوسيه ٣، وثيقة ٤، صحيفة ٣٣ .

(١٤٣) المصدر السابق ، صحيفة ٣١.

(١٤٤) المصدر السابق ، قائمة ٨، وثيقة ١٨، صحيفة ٩.

(١٤٥) أرشيف السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية . ملف ٨٧، قائمة ٧، دوسيه ٥، وثيقة ١١، صحيفة ١.

(١٤٦) المصدر السابق . صحيفة ٦.

القبض على بعض المهاجرين الروس[١٤٧]. زد على ذلك أن مثل هذه الميول، ربما لأسباب أخرى، كان وراءها كراهيتهم للإنجليز، وهي كراهية كانت موجودة في ذلك الوقت أيضًا لدى جزء معين من المجتمع المصري. وقد سارت في القاهرة آنذاك مظاهرات رفعت شعار "إلى الأمام يا رومل!".

كان المهندس نيكولاي الكسندروفيتش فينيديكتوف (١٨٨٠ – ١٩٥٧) هورئيس "النادي الروسي"[١٤٨]، وكان يعتنق الأفكار الليبرالية. وكما كان يحدث في الماضي، كان النادي ينظم في مقره عروضًا مسرحية ويقيم أمسيات ومحاضرات. كانت هناك مكتبة غنية بعدد كبير من الإصدارات السوفيتية. كما كان به مطعم متواضع كان يتردد عليه ضباط إنجليز[١٤٩].

بقي في القاهرة مكان واحد كان المهاجرون الروس يتجمعون فيه، وإن لم يحظ بشعبية كبيرة، وهو "نادى الشباب الروسي". كان هذا النادي بمثابة جمعية ملكية وكان على رأسه البارون تاوبي[١٥٠]، وبعد صدور قرار إلغاء الفقرة الأخيرة من لائحة "النادي الروسي" بشأن عدم الاعتراف بالسلطة السوفيتية، انتقلت إلى هذا النادي جماعة الكشافة، التي كان من بين أعضائها، بحسب معلومات البعثة السوفيتية، فلاديمير وهو ابن ف. إ. بيللين مدير العيادة الروسية[١٥١]. وقد واصلت العيادة نفسها عملها، وكانت الجمعية التنويرية الثقافية الروسية تمارس نشاطها بكل همة في كل من القاهرة والإسكندرية[١٥٢]

---

(١٤٧) المصدر السابق . صحيفة ١.
(١٤٨) ف. ف. بيلياكوف. مدينة موتي روسية في مصر. ص ١٤.
(١٤٩) أرشيف السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية . ملف ٨٧، قائمة ٧، دوسيه ٥، وثيقة ١١، صحيفة ٥.
(١٥٠) المصدر السابق.
(١٥١) المصدر السابق . صحيفة ١٨ .
(١٥٢) المصدر السابق . صحيفة ١، ٢ .

كانت الجمعية الخيرية الروسية في القاهرة تتكون من ثمانين عضوًا. وقد نظمت هذه الجمعية في السادس عشر من مارس ١٩٤٤ حفلها الفني السنوي، الذي حضره الملك فاروق وعدد من أعضاء البلاط. بلغ صافي دخل هذا الحفل ٣٥٠٠ جنيه مصري. ذهب ٢٠% منه إلى المصريين المحتاجين، والباقي إلى الروس، وكانت الجمعية تدفع من ثلاثة جنيهات إلى أربعة شهريًا لاثنين وعشرين من المُسنين الروس. كما كانت تعطي نقودًا للمحتاجين للعلاج وللمصروفات الدراسية للأطفال[١٥٣].

ووفقا لإحصائيات الحكومة المصرية فقد بلغ عدد المواطنين الروس السابقين في عام ١٩٤٤ نحو ١٨٠٠ نسمة، منهم ما يقرب من ٨٠٠ يدينون بالأرثوذكسية، أي ما يعني على الأرجح أنهم روس من الناحية العرقية و ٨٠٠ يهودي و ٢٠٠ مسلم. كانت مصر مستعدة أن تمنح المسلمين فقط الجنسية المصرية، أما الباقون فلم تكن تمانع في السماح لهم بالإقامة الدائمة[١٥٤].

في واقع الأمر فإن المهاجرين الروس الذين كانوا يحملون الجنسية المصرية كانوا يعدون على الأصابع. وقد ورد في التقارير التي أرسلتها البعثة السوفيتية إلى موسكو في مطلع عام ١٩٤٤ أن "أقلية ضئيلة للغاية تحمل الجنسية المصرية"[١٥٥]. كما أشارت مجلة "البصير" القاهرية في عددها الصادر في الرابع من يوليو عام ١٩٤٥ في مقال لها مُكرس لتغيير أوضاع المهاجرين الروس، حيث ذكر محرر المقال أن "الذين حصلوا على الجنسية المصرية عدد قليل"[١٥٦]. المسألة أن الدبلوماسيين الروس أهابوا بالمهاجرين الروس الذين يقيمون في بلدان الشرق الأوسط، وخاصة بعد إقامة العلاقات

---

(١٥٣) المصدر السابق . صحيفة ١٧ .
(١٥٤) المصدر السابق . صحيفة ٢٦ ، ٢٧ .
(١٥٥) المصدر السابق . صحيفة ٥.
(١٥٦) أرشيف السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية . ملف ٨٧، قائمة ٨، دوسيه ٨، وثيقة ١٩، صحيفة ١٥ .

الدبلوماسية بين الاتحاد السوفيتي في البداية مع مصر ثم بعدها مع سوريا ولبنان، "نسيان الماضي" وأن يسجلوا أنفسهم في البعثات الدبلوماسية. وقد ذكر مراسل مجلة "Colliers" الأمريكية "أن عددًا من الأغنياء المحافظين لم يفعلوا ذلك"(١٥٧). من الواضح، بناء على ما يمكن فهمه من المقال الذي نشرته مجلة "البصير" أن تسجيل المهاجرين خلق شائعات عن إمكانية منحهم الجنسية السوفيتية.

أصبح الروس يشغلون مكانًا ثابتًا في البلاد بعد مرور ما يزيد على عشرين عامًا بغد الهجرة الاضطرارية من روسيا واستقرارهم في مصر. يذكر د. س. سولود في تقريره إلى موسكو والمؤرخ الخامس عشر من ديسمبر ١٩٤٣ "أن جميع المهاجرين الروس كانوا من أصحاب التخصصات وكانوا يعملون في الشركات البلجيكية واليونانية والمصرية. وكان هناك عدد آخر غير كبير يعمل في الهيئات الإنجليزية"(١٥٨)

كانت السلطات المصرية تتعامل مع المهاجرين الروس باحترام وتعاطف، على الرغم من قلة عددهم، وهو ما يؤكده بوضوح حضور الملك فاروق في الحفلات الفنية للجمعيات الخيرية. على أن الجالية الروسية بعد إلغاء ما يتعلق بها في نظام الامتياز في عام ١٩٢٣، بقيت كما هي دون توفير أي حماية لها. منذ هذا التاريخ أصبح أعضاء الجالية يحاكمون في القضايا الجنائية أمام المحاكم المصرية. وكان أعضاء الجالية الروسية يحاكمون في القضايا المدنية حتى عام ١٩٣٧ أمام المحاكم المختلطة، ثم أمام المحاكم المصرية بعد ذلك، بينما كانت المحاكم الشرعية المصرية هي المخولة بالنظر في قضايا الأحوال الشخصية(١٥٩).

---

(١٥٧) المصدر السابق . وثيقة ١٨، صحيفة ٧ .
(١٥٨) المصدر السابق . قائمة ٧، دوسيه ٥، وثيقة ١١، صحيفة ١.
(١٥٩) المصدر السابق . صحيفة ٢٧.

على إثر انتهاء الحرب مباشرة وقعت حادثة رأبت الصدع بين أفـراد الجالية الروسية وخاصة بين خصوم وبين مؤيدي الاتحاد السوفيتي، ففي يونيوعام ١٩٤٥ وفي سياق رحلة عبر بلدان الشرق الأوسط، زار مصر البطريرك الكسي، بطريرك موسكو وسائر روسيا، واستقبله الملك فاروق في حضور البطريرك خريستو فوروس اليوناني، بطريرك الإسكندرية وسائر أفريقيا، كما قام بزيارة الأمير اليوناني بطرس والأميرة إيرينا[١٦٠]، وقد تضمن برنامج زيارة البطريرك الكسي إلى مصر زيارة كنيسة القديس الكسندر نيفسكي الروسية في الإسكندرية، حيث قام رئيس الدير فيها القس ديختيريف بالاعتراف ليُقبل بعدها هو والإكليروس والرعية في معية بطريركية موسكو[١٦١]. وفي معرض تفسيره لهذه الخطوة كتب ديختيريف يقول: "لأننا سنبقى للأبد روسًا، فقد كنا في حاجة إلى الكنيسة الروسية، لقيادة روحية روسية، وهذه القيادة بالمناسبة لم تكن موجودة. لقد كنا نعاني من الوحدة روحيًا، وقد انعكس ذلك في وضعنا المأساوي كله"[١٦٢].

في مساء ذلك اليوم، الرابع عشر من يونيو، زار البطريرك وفد من أتباع الإبراشية وقد حملوا إليه أيقونة صعود المسيح رسمها ف. ب. نيكيتين، الذي كان ضمن أعضاء الوفد[١٦٣]. وفي اليوم التالي تسلم رئيس الدير شهادة من البطريركية تفيد قبول الإبراشية "في معية الكنيسة وتحت إشراف بطريركية موسكو"[١٦٤]. وبعد هذه الأحداث مباشرة حصل الكسي ديختيريف على الجنسية السوفيتية[١٦٥].

---

(١٦٠) "مجلة بطريركية موسكو" . العدد ٧، ١٩٤٥، ص ٩؛ ١٩٤٥، ص ٢٠ . بعد عام على هذه الزيارة قام الملك بنزع لقب أميرة من أوفتشينيكوفا وحرمانها من الإقامة في اليونان لما وجهته من نقد علني للنظام اليوناني. ولم يعرف مصيرها بعد ذلك. انظر : ن. ف. نوفيكوف . مصدر سابق . ص ١٠٥ .

(١٦١) "مجلة بطريركية موسكو"، العدد ٩، ١٩٤٥ . ص ٢٢ .

(١٦٢) الكسي ديختيريف، قس. فرحة غامرة. "مجلة بطريركية موسكو"، العدد ١٠. ص ١٣ .

(١٦٣) المصدر السابق.

(١٦٤) المصدر السابق.

(١٦٥) أرشيف السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية ، ملف ٨٧، قائمة ٩، دوسيه ١٣، وثيقة ٣، صحيفة ٧٦ .

على أن انتقال الكنيسة الروسية في الإسكندرية من كنيسة روسية مهجرية إلى بطريركية موسكو، لم يلق ترحيبا من أتباع الكنيسة. وقد اقترح القس خريستو فوروس، البطريرك اليوناني لكنيسة الإسكندرية الرافض للانتقال، اقترح في البداية زيارة كنيسة سان ستيفانو اليونانية في حي زيزينيا. وقد حصلت الأميرة العظيمة ميليتسا نيكولايفنا وابنها الأمير رومان بتروفيتش التي وصلت إلى الإسكندرية لتوها تصريحًا بافتتاح الإبراشية. في عام ١٩٤٧ افتتحت في إحدى الشقق المؤجرة كنيسة، حيث كان القس زوسيما والمطرود من إيطاليا، وكان كاهن الاعتراف للأميرة العظيمة، هو الذي يقوم بالخدمة فيها. وفي عام ١٩٥٤ انتقلت الكنيسة إلى فيلا مؤجرة للقيام فيها بعملها. وفي الرابع والعشرين عام ١٩٦١ أغلقت الكنيسة. ونقلت كل المتعلقات الخاصة بها إلى كنيسة القديس نيكولاي الروسية في حي هليوبوليس بالقاهرة. وقد شيد المبنى الصغير لهذه الكنيسة بأموال الجمعية الخيرية الروسية في القاهرة التابع "للملجأ الروسي" في عام ١٩٥٧. وكانت الكنيسة قائمة حتى عام ١٩٢٢ في شقة مؤجرة في هليوبوليس أيضًا[١٦٦]. كانت الكنيسة والملجأ موجودين في شارع أبوسمبل، المنزل رقم ١٢، وكانت الكنيسة تابعة للكنيسة الروسية في المهجر، وبعد اختفاء الجالية الروسية في منتصف الستينيات انتقلت ملكيتهما إلى اليونانيين[١٦٧].

من المعروف، أنه بعد أن وضعت الحرب أوزارها سرعان ما تردّت العلاقات بين الحلفاء وفتح ونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطاني بخطابه المؤسف الشهير الذي ألقاه في الخامس من مارس ١٩٤٦ في فولتون بالولايات المتحدة الأمريكية الباب أمام "الحرب الباردة". والحقيقة أن مثل هذه

---

(١٦٦) أ. بوفكالو. مصدر سابق. ص ٧٣.
(١٦٧) فلاديمير بيلياكوف. أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار. ص ١٠٢، ١٠٣.

التوجهات لدى الدوائر الحاكمة في الغرب كانت محسوسة حتى قبل استسلام ألمانيا. في السابع عشر من فبراير عام ١٩٤٥، كتبت مجلة "Colliers" الأمريكية تقول: "إن مشاعر الخوف والشك تجاه روسيا كانت من الضخامة، حتى إنه أحيانًا ما كان يطرح لا إراديًا السؤال: من نحارب، ألمانيا أم الاتحاد السوفيتي؟"(١٦٨).

كان من المستحيل ألا تنعكس التغيرات في المناخ الدولي على توجهات الدوائر الحاكمة في مصر أيضًا، وقد كانت هذه الدوائر وثيقة الصلة بالغرب. وقد جاء في الاستعراض الصحفي الذي أعدته البعثة السوفيتية في القاهرة؛ "أن الصحف العربية (المصرية – المؤلف) لم تنشر مقالاً واحدًا إيجابيًا عن الاتحاد السوفيتي طوال شهر أغسطس (عام ١٩٤٥)"(١٦٩).

وقد ازدادت حدة كراهية النظام الملكي للاتحاد السوفيتي بسبب اندلاع حركة التحرر الوطني في الأعوام من ١٩٤٦ إلى ١٩٤٨، والتي كانت تتسم بطابع معادٍ للملكية. وقد شارك الشيوعيون المصريون وغيرهم من القوى اليسارية في هذه الحركة بفاعلية كبيرة. من الممكن أن نقول؛ إن تغيرات سياسية قد وقعت في البلاد في تلك الحقبة. على أن الحرب الفلسطينية ضد إسرائيل والتي نشبت في مايو عام ١٩٤٨ أعطت الدوائر الحاكمة مبررًا للانقضاض على الحريات المدنية والسياسية لتقود حملة واسعة لملاحقة القوى الديمقراطية.

كان القس الروسي الكسي ديختيريف واحدًا من ضحايا هذه الحملة ومعه عدد آخر من المهاجرين، فبعد انتقال الكنيسة الروسية في الإسكندرية لتصبح تحت إشراف بطريركية موسكو، تعرض القس عدة مرات للهجوم من

(١٦٨) أرشيف السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية . ملف ٨٧، قائمة ٨، دوسيه ٨، وثيقة ١٨، صحيفة ٩ .

(١٦٩) المصدر السابق . صحيفة ٢٩ .

جانب "أتباع كازلوفتشان" أي أنصار الكنيسة الروسية في المهجر. ومن بين أكثر أصحاب النفوذ في هذه الجماعة العقيد سكارياتين، رئيس "المكتب الروسي" في وزارة الداخلية المصرية. ولكي تسترد هذه الجماعة كنيستها وتتخلص من ديختيريف، اتهمته بالدعاية للشيوعية(١٧٠).

في التاسع والعشرين من أغسطس عام ١٩٤٨ ألقي القبض على القس في الإسكندرية وأرسل إلى سجن كوم الدكة. وحيث إن ديختيريف كان مواطنًا سوفيتيًا، فقد هبت البعثة السوفيتية للدفاع عنه. وقد ورد في المذكرة المؤرخة السابع من سبتمبر أن "من المعروف أن بعض أعداء الاتحاد السوفيتي من المهاجرين الروس دأبوا على تهديد ديختيريف، وأنهم نشروا بشأنه شائعات ملفقة عن نشاطه". ولمّا لم يكن هناك أي اتهام رسمي موجه ضده، فقد اعتبرت البعثة السوفيتية أن اعتقاله غير قانوني وطالبت بسرعة الإفراج عن القس(١٧١).

لم يصل الرد على هذه المذكرة إلا بعد ثلاثة أشهر. أبلغت فيه الحكومة المصرية البعثة السوفيتية أن قرار نفي ديختيريف لأسباب تخص أمن الدولة كان قد صدر بحقه قبل ذلك في عام ١٩٤٦. لكن اعتقال القس جاء بسبب انتهاء تصريح إقامته وسوف يستمر حبسه في السجن حتى تقوم البعثة السوفيتية بترحيله إلى وطنه(١٧٢).

من الواضح أن الدبلوماسيين الروس حاولوا عن طريق المفاوضات السرية إطلاق سراح ديختيريف ومد تصريح إقامته في مصر، وهو ما يفسر

---

(١٧٠) الكسي (ديختيريف) أرشيمندريت. طريقي إلى الوطن. "مجلة بطريركية موسكو"، العدد ١٠، ١٩٤٩ . ص ٥٨ – ٦١ .

(١٧١) أرشيف السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية . ملف ٨٧، قائمة ٩، دوسيه ١٣، وثيقة ٣، صحيفة ٧٦ .

(١٧٢) المصدر السابق . ملف ٤، صحيفة ٧٦ ، ٧٧ .

على الأقل السبب وراء قضاء ديختيريف خمسة أشهر أخرى في السجن، الذي اضطر في النهاية على أية حال لمغادرة مصر. في الحادي عشر من مايو عام ١٩٤٩، سافر القس بالقطار تحت حراسة مشددة إلى بورسعيد، وهناك أجبر على الرحيل على السفينة السوفيتية "فيلنوس"[١٧٣].

كان من بين الذين أودعوا في السجن في الضاحية السكندرية أبوقير ثلاثة من المهاجرين الروس: أ. إ. كاريونينكو، أ. إ. بوريسوف ون. ستاركوفسكي. الأرجح أن ثلاثتهم قضوا في السجن زمناً أطول من الذي قضاه ديختيريف فيه. وهو ما يؤكده خطاب الأخير من موسكو إلى ف. إ. سكافيتسكي في الإسكندرية والمؤرخ ٢٠ يونيو ١٩٤٩، والذي يستفسر فيه إن كانوا لا يزالون في السجن. وكذلك كتب ديختيريف أنه "يسعي بشأن مسألتك". ما هي يا ترى هذه المسألة التي لم يذكرها في خطابه. الأرجح أن الحديث يدور هنا حول الحصول على تصريح لبعض الأشخاص للعودة للوطن. وقد ذكر القس أسماء عشرة أشخاص أ. إ. بوريسوف، أ. إ. وى. أ. كاربونينكو، ف. إ، م. ن وت. سكافينسكي، ق. ب. وز. ج. نيكتين، ج. ن. وب. ف. أليابييف[١٧٤]. من الواضح أن المساعي التي بدأها ديختيريف في هذه المسألة ذهبت سدى. وقد توفي على الأقل ستة أشخاص منهم هم: الزوجان كاربونينكو، الزوجان نيكيتين، أ. إ. بوريسوف وج. ن. أليابييف ودفنوا جميعًا في مصر[١٧٥].

بوصول البعثة الدبلوماسية السوفيتية إلى الأراضي المصرية في نهاية عام ١٩٤٣، ظهرت مرة أخرى جالية ناطقة بالروسية. اتسمت علاقات

---

(١٧٣) الكسي (ديختيريف) أرشيمندريت. طريقي إلى الوطن. ص ٦١ .

(١٧٤) أرشيف السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية. ملف ٨٧، قائمة ١٠، دوسيه ١٥، وثيقة ١٠، صحيفة ٥ .

(١٧٥) ف. ف. بيلياكوف. مدينة موتى روسية في مصر .

المواطنين الروس بعضهم ببعض بالفتور وكانت محدودة للغاية. فمن ناحية، لم يكن بمقدور الدبلوماسيين الروس أن يتجاهلوا وجود الجالية الروسية في مصر. وقد كتب ن. ف. نوفيكوف، أول سفير سوفيتي لدى مصر، كتب في مذكراته قائلا: "في هذه الحقبة في القاهرة (إبان سنوات الحرب ــ المؤلف) عاش عدد كبير من المهاجرين البيض"[١٧٦]. وكما ذكرنا من قبل فقد قام الدبلوماسيون الروس في الأسابيع الأولى على وجودهم في القاهرة بإحاطة موسكو علمًا بعدد وتنظيم الجالية الروسية وعن ميولهم وتوجهاتم. ومن ناحية أخرى، فقد تم تحذير المواطنين الروس أثناء قيامهم بإجراءات السفر إلى مصر في مأموريات، بأن إجراء أية اتصالات بالمهاجرين البيض أمر غير مرغوب فيه، لاحتمال أن يكونوا مصدرًا للاستفزاز. وقد كتب في هذا الشأن بصورة جيدة ي. ف. لوكونين في معرض حديثه عن استعداده للسفر إلى مصر في مأمورية عام ١٩٦١[١٧٧].

تنبغي الإشارة هنا إحقاقًا للحق أن كثيرًا من المهاجرين كانوا وراء معاملتهم على هذا النحو. كانت غالبيتهم تنظر إلى الاتحاد السوفيتي نظرة عدائية حتى الرمق الأخير من حياتهم. يتضح هذا الأمر جليًا عند النظر إلى قصة انتقال الكنيسة الروسية في الإسكندرية في عام ١٩٤٥ من كنيسة روسية في المهجر إلى بطريركية موسكو، منفصلة بذلك عن الجالية الروسية في "العاصمة الشمالية" لمصر. في الوقت نفسه فإن الكنيسة الروسية في القاهرة ظلت على حالها ولم تنتقل لتصبح تحت إشراف بطريركية موسكو. وعلاوة على ذلك فعندما اختفت الجالية الروسية في القاهرة عمليًا في مطلع الثمانينيات، فقد قام آخر رئيس للجالية، أ. ف. فولكوف، بتسليم الكنيسة

(١٧٦) ن. ف. نوفيكوف . مذكرات دبلوماسي، ١٩٨٩ . ص ١٩٠.
(١٧٧) ي. ف. لوكونين. مصدر سابق. ص ٢١ ، ٢٢ .

والملجأ لا إلى بطريركية موسكو، وإنما للبطريركية اليونانيــة الــسكندرية. وكان فولكوف قد رفض اقتراح ممثل الكنيسة الأرثوذكسية الروســية أخــذ الملجأ والكنيسة تحت وصايته على أساس "أنه بلشفي"، وقد أثار هذا التصرف من جانب فولكوف انتقاد عدد من المهاجرين(١٧٨).

استمرت العلاقات قائمة على أية حال بين السوفيت والروس. وقد قصّ طبيب الأسنان فيكتور برومبرج، وكان والده مهاجرًا من روسيا وكان طبيبًا مختصًا أيضًا بأمراض الفم، قصّ على مؤلف هذا الكتاب أنه "عندما افتتحت السفارة السوفيتية في الأربعينيات، كان الجميع يأتون إلينــا طلبًــا للعــلاج. واستمرت الحال على هذا النحو ثلاثين عامًا، حتى إننا لــم نكــن نــستقبل مرضى من أهل البلد على الإطلاق"(١٧٩). ويتضح لنا أن السوفيت توقفوا عن العلاج عند آل برومبرج بعد أن قام التمثيل التجاري للاتحاد السوفيتي بافتتاح عيادة طبية في القاهرة. ولسنوات طويلة ظلت أنطونينا ستريكالوفسكايا، وهي ابنة لأسرة من المهاجرين، تؤجر شقتها في الزمالك للخبراء الــسوفيت(١٨٠). أما مراسل وكالة تاس للأنباء، ف. شينيكوف فقد قام في مطلع الــسبعينيات بزيارة "النادي الروسي" في القاهرة وبنسيون "كيتي" الروسي في حلوان(١٨١).

في الخمسينيات تضاءل عدد أفراد الجالية الروسية بسرعة. وظهر أن هذه الجالية قد أصابها الهرَم. فالذين هاجروا إلى مصر في عمر الأربعــين، قد تجاوزوا الآن السبعين. كان هناك عدد كبير من العُزّاب الروس وهــؤلاء ظلوا يعانون من الوحدة. أما النساء فكن جميعهن متزوجات. أمــا حــالات

---

(١٧٨) ف. ف. بيلياكوف. أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار. ص ١٠٢، ١٠٣، ١٧٢ .

(١٧٩) المصدر السابق. ص ١٠١ .

(١٨٠) المصدر السابق. ص ١٧٧ .

(١٨١) ف . شينيكوف . الذكرى الطيبة للــروس. مجلــة "آســيا وأفريقيــا اليــوم"، العــدد ٤، ١٩٩٤ . ص ٥٨ .

زواج الروس من الأوربيين، ناهيك عن المصريات فكانت نادرة للغاية. ولعل السبب في ذلك يرجع إلى الحاجز الثقافي والديني، الذي لم يستطع أحد أن يتخطاه. وبسبب الوضع الاجتماعي والقانوني الصعب للمهاجرين، فقد اكتفت العائلات الروسية بإنجاب عدد قليل من الأطفال.

يشير ف. ف. بيللين إلى أنه بعد الحرب العالمية الثانية فإن "الغالبية تفرقت في بلدان عديدة، فكبار السن استطاعوا أن يجدوا أماكن لهم في دور المسنين في سويسرا وفرنسا. أما الشباب فذهب للالتحاق بالجامعات الأوربية والأمريكية لينهل من العلم"(١٨٢). وأضيف من عندي أنه لم يعد إلى مصر إطلاقًا.

لم يقدم بيللين تفسيرا لهذا الخروج من مصر. أما تاتيانا نيكولايفنا مونتي، وهي ابنة لمهاجرين روس، وكنيتها قبل الزواج سيريكوفا، فتعتقد أن الأمر يعود في ذلك إلى ثورة ١٩٥٢، التي أطاحت بالنظام الملكي. وقد أخبرت تاتيانا مونتي مؤلف هذا الكتاب "أن المهاجرين الروس قد أصابهم الذعر حقيقة. لقد عانوا من الثورة في روسيا، وهم يخشون ألا تسفر هذه الثورة عن أي خير"(١٨٣).

ويمكن بالرجوع إلى سجلات الجبانة الروسية في مصر تقدير حجم هذه الهجرة. وقد ذكرنا من قبل أن عدد الروس في مصر في عام ١٩٤٣ تم تقديره بنحو ٨٠٠ شخص. توفي منهم ٩٠ شخصًا في الفترة من عام ١٩٤٤ وحتى عام ١٩٥٢، ثم توفي ٢٥٠ شخصا تقريبا بعد عام ١٩٥٢(١٨٤). وهكذا غادر مصر بعد الثورة نحو ٤٦٠ مهاجرًا روسيًّا وتقلص عدد أفراد الجالية الروسية إلى ما يزيد على الضعف.

---

(١٨٢) ف. ف. بيللين . مصدر سابق . ص ٣٢٣ .
(١٨٣) فلاديمير بيلياكوف. أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار. ص ١٥٠.
(١٨٤) وفقا للإحصاء الوارد في كتاب : ف. ف. بيلياكوف . مدينة موتى روسية في مصر.

يقتبس ف. شينيكوف في مقاله أقوالاً ذكرها لـه مـدير مكتبـة "النـادي الروسي"، الكسندر فيكتوروفيتش فليروف[١٨٥] في مطلع السبعينيات تفيـد "أن في القاهرة الآن ما يقرب من مائة مهاجر روسي"[١٨٦]. وهـذا التقـدير يتفـق ومعلومات الجبانة الروسية. ففي الخمسينيات والستينيات توفي في مصر نحـو ١٦٠ مهاجرًا روسيًا. أما في السبعينيات فقد توفي ستون آخرون[١٨٧].

في مطلع الثمانينيات لم يعد للجالية الروسية وجود فعلي في مصر. فبعد عام ١٩٨٥ ظهرت في الجبانات المصرية تسعة قبور روسية جديدة فقط. في عام ١٩٨٧ توفي أ. ف. فولكوف، آخر رئيس للجاليـة الروسـية (مواليـد ١٩١٣)[١٨٨]. ما الذي تبقى الآن في مصر من الجالية الروسية؟

تبقت المقابر الروسية بالدرجة الأولي. إنها مجموعـات مـن اللحـود والشواهد القائمة عليها، وكذلك بعض المدافن في الجبانـات اليونانيـة فـي القاهرة والإسكندرية. هذا النصب الذي أقيم تكريما لبحارة السفينة الحربيـة "بيريسفيت" في الجبانة اليونانية في بورسعيد. هذه الـشواهد ذات الأسـماء الروسية المقامة أيضًا في الجبانـات المـصرية الأخـرى. واسـتنادا إلـى الإحصاءات التي قمنا بها، فإن الذين لفظوا أنفاسهم الأخيرة في مصر ودفنوا في ترابها بلغ عددهم ٨٣٠ روسيًا أرثوذكسيًا على أقل تقدير.

---

(١٨٥) توفي في ٢٥ نوفمبر ١٩٧٩ عن عمر يناهز ٩١ عامًا. انظر : ف. ف. بيلياكوف. مدينـة موتى روسية في مصر.
ص ٣٥ . وحيث إن المصنف في الجبانة كان يعمل في سجل مكتوب باللغة اليونانية، فقد ظن أن اسم هذا الشخص هو فلروف وليس فليروف.
(١٨٦) ف . شينيكوف . مصدر سابق.
(١٨٧) وفقا للإحصاء الوارد في كتاب : ف. ف. بيلياكوف . مدينة موتى روسية في مصر.
(١٨٨) المصدر السابق .

تبقت أيضًا بعض المباني المعمارية. هذه المجموعة المعمارية للبطريركية اليونانية في حي الحمزاوي بالقاهرة، "الملجأ الروسي" سابقًا، وكنيسة القديس نيكولاي في شارع أبوسمبل في حي هليوبوليس بالقاهرة، المدرسة العبيدية حيث يتلقى العلم فيها المصريون أيضًا (انتقلت المدرسة منذ فترة غير بعيدة نسبيا إلى مبنى جديد).

وقد تبقت أيضًا، كما أشار بحق ف. ف. بيللين، "الذكرى الطيبة عند المصريين، ثانيا، ثمار العمل التنويري والنهضة الاجتماعية للبلاد"(١٨٩). وعن إسهام الروس في اقتصاد مصر وثقافتها سوف نتحدث في الفصل التالي.

---

(١٨٩) ف. ف. بيللين . مصدر سابق.

الفصل الخامس

إسهام ممثلي الجالية الروسية

في الثقافتين المصرية والعالمية

لو أن أحدًا قام بدراسة تاريخ ووضع الجالية الروسية في مصر دون أن يلتفت إلى دراسة حياة ونشاط بعض من أبرز ممثليها، لأصبحت هذه الدراسة ناقصة. نفرٌ من هؤلاء، على سبيل المثال، كانوا دبلوماسيين قيصريين، أدوا دورًا مهمًا في حياة الجالية نفسها. وآخرون أسهموا إسهامًا غاية في الأهمية في اقتصاد مصر وثقافتها وفنها، أما علماء المصريات، فقد أسهموا بنصيب وافر في العلم العالمي واشتهروا بأنهم كانوا ممثلين على نحو واسع لأشهر العائلات في روسيا والمعلومات عنهم مفيدة تمامًا لوضع علم الأنساب.

للأسف فإن المواد المتاحة أمامنا في الوقت الحالي جزئية. على أننا على اقتناع تام أن هذه المواد تسمح لنا أن نضع صورة جماعية حقيقية للجالية الروسية في مصر.

الدبلوماسيون القيصريون السابقون، الأرستقراطيون والعسكريون:

من بين الدبلوماسيين القيصريين السابقين تجدر الإشارة إلى السفير ألكسي الكسندروفيتش سميرنوف (سان بطرسبورج، ١٨٥٧/٩/١٤ –

القاهرة، ١٩٢٤/٢/٥)، الأعلى من حيث الدرجة، الأقدم من حيث مدة خدمته والأقدر من حيث أداء الدور الذي أنيط به في حياة الجالية الروسية[(١)]. وهو يعد دبلوماسيا محترفا، أنهى كلية الدراسات الشرقية بجامعة بطرسبورج. وقد خدم في القسطنطينية وأثينا قبل القاهرة. حصل سميرنوف على لقب ياور البلاط الإمبراطوري في عام ١٩٠٢، وفي العام التالي رُقي إلى رتبة مستشار الدولة. وفي عام ١٩١١، وكان موجودا بالفعل في مصر، حصل هذا الدبلوماسي على رتبة سفير فوق العادة ووزير مفوض.

في الحادي والثلاثين من يناير ١٩٠٥ عُيِّن سميرنوف ممثلاً دبلوماسيًا وقنصلاً عامًا في مصر، وفي الثالث والعشرين من نفس العام وصل إلى مقر عمله. ومنذ عام ١٩٠٨ وحتى عام ١٩٢٣، أي حتى وفاته تقريبًا وهو عميد السلك الدبلوماسي في القاهرة.

اتسم دور سميرنوف في حياة الجالية الروسية بالتناقض. فمن ناحية، كان عليه تنفيذ تعليمات بطرسبورج بملاحقة المهاجرين من ذوي الميول الثورية. ومن ناحية أخرى راح يساعد اللاجئين الروس بكل الطرق بعد أن أصبح هو نفسه مهاجرًا بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧ فسعى لنقلهم من صحراء التل الكبير إلى سيدي بشر على شاطئ البحر، كما كان يستغل علاقاته ونفوذه لتنظيم الأعمال الخيرية لصالحهم ويقدم للاجئين قروضًا لاستغلالها في الأغراض التجارية ويتوسط لهم في الحصول على عمل يتكسبون منه.

---

(١) ف. ف. بيلياكوف. مدينة موتى روسية في مصر. ص ٣١. لمزيد من المعلومات عن سميرنوف وعمله في مصر. انظر: ج. جورباتشكين. القنصل العام الأخير في مصر. مجلة "آسيا وأفريقيا اليوم"، العدد ٥، ٢٠٠١. ص ٦٠ – ٦٣.

اشتغل سميرنوف قبل الثورة بجدية بالأدب، فكتب الشعر والنثر ونشر أعماله في التقاويم الأدبية إلى جانب الأدباء البارزين، حتى إنه كان يحلم بإصدار أعماله في كتاب. وقد نوّه س. فونفيزين، الذي التقى بالدبلوماسي في القاهرة، نوّه في كتابه أن سميرنوف "ليس بالدخيل على الأدب" وأضاف قائلاً: "إن روايته التاريخية "سكليرينا" هي دراسة شاعرية لأخلاق الشرق لفتت انتباه الجمهور والنقاد"(٢).

وعلى الرغم من مكانته الاجتماعية الرفيعة فقد كان سميرنوف بعيدًا كل البعد عن الغرور والصلف. ولعل ما ورد في وصيته الروحية ما يؤكد على ذلك، حيث كتب يقول: "أرجو أن تكون جنازتي متواضعة. أرجو عدم وضع أكاليل زهور أو إلقاء خطب، وأن يكون النُصُب بسيطًا"(٣). كانت الوصية موجهة لرفاقه فلم تكن لهذا الدبلوماسي أسرة.

رَأسَ الكسندر ميخايلوفيتش بتروف (موسكو، ١٨٧٦/٩/٢٢ – الإسكندرية، ١٩٤٦/٨/٦)(٤)، القنصلية الروسية في الإسكندرية، حيث كان عدد أفراد الجالية الروسية وأهميتهم يقارب أفراد الجالية في القاهرة من ناحية العدد والأهمية أيضًا. تخرّج بتروف في معهد لازاريفسكي للغات الشرقية في موسكو ثم التحق بالقسم الدراسى التابع لإدارة آسيا بوزارة الخارجية في بطرسبورج لمدة عام لصقل معارفه. ومثله مثل سميرنوف كان بتروف دبلوماسيًا محترفًا. عمل قبل وصوله إلى الإسكندرية في مدينة

---

(٢) س. فونفيزين. مصدر سابق. ص ١٣١ .
(٣) ج. جورباتشكين. القنصل العام الأخير في مصر. ص ٦٣.
(٤) ف. ف. بيلياكوف. مدينة موتى روسية في مصر. ص ٢٨. لمزيد من المعلومات عن بتروف انظر: ج. جورباتشكين. القنصل الروسي في الإسكندرية. مجلة "آسيا وأفريقيا اليوم". العدد ١١، ٢٠٠١. ص ٤٨ – ٥٠.

إيرزروم التركية ثم في القسطنطينية والقدس مرتين. وقد عُين للعمل في مصر في السادس والعشرين من يوليو عام ١٩١٠.

ومثل رئيسه في القاهرة، أدى بتروف أدوارًا متنوعة في حقب زمنية مختلفة في حياة الجالية الروسية. فمن المعروف مشاركته الفاعلة في القبض على وترحيل م. آداموفيتش وغيره من الثوريين، وأيضا مساعداته المتنوعة التي قدمها للاجئين الروس وللمهاجرين بعد ذلك بدءًا من عام ١٩٢٠. في عام ١٩٢٦ رَأس بتروف المكتب الروسي في الإسكندرية بعد أن التحق بالخدمة في الحكومة المصرية في نفس الوظيفة. وقد أعطى له ذلك مكانة رسمية متميزة، ووفر له إمكانات إضافية لمساعدة المهاجرين الروس. كان بتروف رئيسًا للجمعية الروسية السكندرية للقرض الحسن التي كانت تعطي قروضًا للمبادرات التجارية، وكانت تحظى بشعبية كبيرة بين المهاجرين، كما كانت تسعى أيضًا بذلك لتسهيل إقامة اللاجئين في مصر.

وفي نهاية عام ١٩٢١ وصلت إلى الإسكندرية للالتحاق ببتروف أمه أناستاسيا وابنته وكانت تسمى أيضًا باسم الأم(٥). على أن ابنته توفيت في الثالث والعشرين من أكتوبر عام ١٩٢٤ عن عمر يناهز السابعة عشر (وُلدت في الرابع من فبراير عام ١٩٠٧). أما بخصوص الأم، أناستاسيا ديمتريفنا وكنيتها قبل الزواج لوبوخينا، فقد عاشت حياة طويلة (تولا، ١٣/٣/١٨٥٨ الإسكندرية، ٢٦/١٢/١٩٤٢)(٦).

(٥) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣٢٧، قائمة ٣/٨٢٠، وثيقة ١٨٤، صحيفة ١٩.

(٦) ف. ف. بيلياكوف. مدينة موتى روسية في مصر. ص ٢٨ .

لا يزال مصير زوجة بتروف غامضًا. هناك امرأة تدعى الكسندرا بتروفنا مدفونة في "المقبرة الروسية" في الإسكندرية، كانت قد توفيت في الرابع من مارس عام ١٩٣١ عن عمر يناهز ٦٢ عامًا. على أنه من المستحيل أن تكون هي زوجة القنصل، ليس فقط لأنها كانت أكبر سنًا بعشر سنوات، وإنما لأن أم بتروف وابنته بل وبتروف نفسه، مدفونون جميعهم في قبور مستقلة في جبانة الشاطبي لليونانيين الأرثوذكس[٧]. والأرجح أن القنصل دفن زوجته فيها أيضًا وليس في جبانة عامة. وقد تكون زوجته قد ظلت في روسيا لسبب ما، وربما تكون قد توفيت في الوقت الذي وصلت فيه أم القنصل وابنته إلى الإسكندرية.

بعد وفاة أ.أ. سميرنوف في مطلع عام ١٩٢٤ أصبح سيرجي باقلوفيتش رازوموفسكي (١٨٧٥ – القاهرة ١٩٤٧/٩/٢٠) هو الشخصية المحورية في حياة الجالية الروسية في القاهرة[٨]. للأسف فإن المعلومات المتوفرة عن هذه الشخصية الواضحة تمامًا، كما تشهد عليها خطاباته، شحيحة للغاية. عمل رازوموفسكي قنصلاً للإمبراطورية الروسية لدى يافا[٩]، قبل نشوب الحرب العالمية الأولى، ومنها تم إجلاؤه إلى مصر، وفيها عين على درجة ملحق في المفوضية الدبلوماسية والقنصلية العامة في القاهرة[١٠]. وبعد أن قامت الحكومة المصرية بإغلاق هاتين الهيئتين في عام ١٩٢٣، أخذ على عاتقه مهمة الحفاظ على أرشيفيهما، وكان يعرّف نفسه في المكاتبات باسم "الأمين على أراشيف البعثة الروسية في مصر"[١١]. ومن الجلي أن رازوموفسكي

(٧) المصدر السابق .
(٨) المصدر السابق. ص ٢٩ .
(٩) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ٣/٨٢٠، وثيقة ١٦٤، صحيفة ٩ .
(١٠) المصدر السابق. وثيقة ٢٧٨. صحيفة ٢١ ؛ وثيقة ٣٣٩، صحيفة ١.
(١١) المصدر السابق. وثيقة ١٦٤، صحيفة ٩ .

تحديدا هو الذي قام في منتصف الأربعينيات بتسليم هذه الأراشيف إلى البعثة السوفيتية، الأمر الذي يستحق من أجله، بلا شك، امتناننا العميق. وهذه الأراشيف موجودة في الوقت الحالي في أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية في موسكو(صندوق ٣١٧، قائمة ٣/٨٢٠) والتي تم استخدامها على نطاق واسع في إعداد هذا العمل.

عندما تأسست المكاتب الروسية في مايو عام ١٩٢٦ التابعة لوزارة الداخلية، كان رازوموفسكي على رأس المكتب الروسي في القاهرة، بعد أن التحق بهذه الطريقة، مثله مثل أ.م. بتروف في الإسكندرية بالخدمة لدى المصريين. على أنه ولأسباب غامضة شغل هذا المنصب لمدة عام واحد فقط(١٢).

كان رازوموفسكي متزوجًا من ناديجدا قسطنطينوفنا (١٨٧٨ – ١٩٤٠) ودفنت معه في جبانة اليونانيين الأرثوذكس في القاهرة القديمة(١٣). لم تصل إلينا أي معلومات حول ما إذا كان لديهما أطفال أم لا.

في بداية العشرينيات كان نيكولاي إيفانوفيتش فينوجرادوف (١٠/١٢/١٨٨١ – القاهرة ٢٨/١٢/١٩٣٥) مديرًا للوكالة القنصلية الروسية في القاهرة(١٤). والمعلومات التي توفرت لدينا عنه شحيحة أيضًا مثل س. ب. رازوموفسكي. في مطلع عام ١٩٢٠ تم ترشيح فينوجرادوف، الذي كان يعمل قبل ذلك في الحبشة، للالتحاق للعمل بالوكالة القنصلية في مصر بغرض دعم طاقم الموظفين بها، حيث لم يكن قد تبقى فيه سوى السفير نفسه، علاوة على

---

(١٢) المصدر السابق. وثيقة ٢٤٢، صحيفة ٢، ١١ .

(١٣) ف. ف. بيلياكوف. مدينة موتى روسية في مصر. ص ٢٩ .

(١٤) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ٣/٨٢٠، وثيقة ٢٧٨، صحيفة ٢٧ ؛ ف. ف. بيلياكوف. مدينة موتى روسية في مصر. ص ١٥ .

س. ب. رازوموفسكي فقط. وقد وصل إلى القاهرة بصحبة زوجته ناديجدا وابنه نيكولاي وكان يبلغ من العمر آنذاك خمسة أعوام[١٥].

وفي صيف عام ١٩٢٧ شغل فينوجرادوف منصب مدير المكتب الروسي في القاهرة، والذي خلا بعد أن تركه رازوموفسكي[١٦]. وقد استمر في هذا المنصب حتى وفاته بعد ثماني سنوات.

إن المعلومات التي لدينا عن إيفان بافلوفيتش أوموف (؟ - الإسكندرية، ١٩٦١)[١٧]، السكرتير الأسبق للقنصلية الروسية في الإسكندرية أكثر وفرة. لقد وصل أوموف إلى مصر في نهاية عام ١٩١٢ وسرعان ما تزوج من مسيحية سورية ثرية تدعى الكسندرا. وفي ربيع عام ١٩١٧ تعرضت سمعته للبوار بسبب اتهامه بالابتزاز في إعفاء المواطن الروسي يفجيني بيفاروفيتش من الخدمة العسكرية. وقد قام البوليس بالقبض عليه متلبسًا بقبول الرشوة. وقد راح أوموف في البداية يؤكد أن هذا المال يخص الضابط الإنجليزي الذي اتخذ القرار النهائي في إعفاء المواطن من الاستدعاء إلى الجيش، لكنه عاد وأقر بذنبه. وقد اتخذت المحكمة القنصلية قرارًا بترحيل أوموف إلى روسيا. على أنه وبسبب الحرب كان الطريق الوحيد المؤدي إلى روسيا يمر عبر ميناء فلاديفوستوك فقط. أبحر أوموف على سفينة فرنسية من ميناء بورسعيد حتى ميناء يوكوهاما بعد أن ترك زوجته وابنه. ولكنه عرف هناك أنه قد عزل من الخدمة في وزارة الخارجية. وفي القنصلية الروسية في يوكوهاما أخبروه أنه مرة أخرى وبسبب الحرب لن يكون بإمكانه الوصول

---

(١٥) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ٣/٨٢٠، وثيقة ١٠٧، صحيفة ٢ .

(١٦) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ٣/٨٢٠، وثيقة ٢٤٠، صحيفة ٢٢ .

(١٧) ف. ف. بيلياكوف. مدينة موتى روسية في مصر. ص ٣٤ .

من فلاديفوستوك إلى موسكو. عندئذ كتب أوموف خطابًا إلى السفير سميرنوف يعرب فيه عن ندمه، ويطلب منه السماح له بالسفر إلى أسرته في الإسكندرية، وأن يعيش فيها باعتباره شخصًا عاديًا. وقد وافق السفير على طلبه، وفي شهر سبتمبر عام ١٩١٧ عاد أوموف إلى مصر(١٨).

كان أوموف شخصًا متعدد الجوانب. كان حفيدًا لأحد الديسمبريين الثوريين، نشأ وتربى في ضيعة أبيه، الذي كان بدوره من أبطال معركة بيلفيا (الحرب الروسية التركية – المترجم) وبوفولجي، تخرج في كلية سيمبيرسكي العسكرية، ثم معهد الهندسة الحربية في بطرسبورج. على أن مستقبله كضابط قد توقف أولعله اتخذ منحى آخر إذ التحق أوموف بمعهد لازاريفسكي للغات الشرقية في موسكو وفور تخرجه فيه قُبل للعمل بوزارة الخارجية ليُرسل به إلى الإسكندرية. كان أوموف يعرف عشر لغات، خمس لغات غربية وخمسًا شرقية. وبعد أن استقرت الأمور به فى مصر. سافر أوموف إلى لندن للدراسة في الكونسرفاتوار وبعد أنهى دراسته به قام بتدريس الموسيقى في الإسكندرية وقدم فيها عددًا من الحفلات(١٩).

وإلى جانب عمله بالموسيقى كان أوموف يقرض الشعر أيضًا. وقد أقنعه معارفه بأن يطبع مختارات من أشعاره في الولايات المتحدة الأمريكية في ديوان مستقل، وأن ينشرها بمناسبة الاحتفال بمرور مائة وخمسين عامًا على ميلاد بوشكين. وقد تضمن الديوان أربع مجموعات شعرية. كثير منها مكرس لروسيا(٢٠).

---

(١٨) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ٣/٨٢٠، وثيقة ٢٩٠، صحيفة ٢ – ٧، ٢٤.

(١٩) إيفان أوموف. الضيف الخفي. قصائد، Conn، Southbury، Churaevka، U.S.A، ١٩٤٩، ص ٩ – ١٠.

(٢٠) المصدر السابق.

وقد عمل أوموف أيضًا بالدراسات الأدبية والترجمة. وقد نشر في مطلع عام ١٩٢٢ مقالاً عن الشاعر العربي في القرن الحادي عشر أبو العلاء المعري في مجلة "أوريون" التي كانت تصدر في "المعسكر الروسي" في سيدي بشر، وضمّن مقاله بضعة أبيات للشاعر مترجمة إلى اللغة الروسية، كما كتب مقالات عن العروض العربية وترجمات لقصائد عمر الخيام[٢١].

كان لعائلة أوموف في عام ١٩٥٥ أربعة أطفال؛ ثلاثة أبناء وابنة. لكن القدر أصاب العائلة بمصيبتين قاسيتين. ففي صيف ذلك العام توفي الابن الأكبر بافل، وفي السابع عشر من سبتمبر توفيت يكاترينا البالغة من العمر ٢٩ عامًا إثر حادث أليم. كانت فتاة موهوبة، عازفة على آلة التشيلو وراقصة باليه وناقدة موسيقية. وقد نعتها صحيفة "الإجيبشان جازيت" القاهرية بقولها: "كانت فتاة ذات جاذبية نادرة، "كاتيا" كما كان يناديها أصدقاؤها، كانت من أكثر الشخصيات التي تمتعت بالشهرة ومحبة بين الشباب السكندري"[٢٢].

وتخليدًا لذكرى كاتيا أوموفا، أسست والدتها في يونيو ١٩٥٦ منحة دراسية باسمها في فصل الرقص في كونسرفاتوار الإسكندرية للطالب الموهوب من سن ست سنوات إلى ثلاث عشرة سنة. أما والدها فقد كتب ديوانًا بالفرنسية تضمن عددًا من القصائد الحزينة كرّسها لابنته. وقد نشر هذا الديوان بعد ثلاث سنوات من مصرعها[٢٣].

---

(٢١) يفجيني نيزديلنسكي. مذكرات المعسكرات. أفريقيا في عيون المهاجرين. موسكو، ٢٠٠٢، ص ١٢٦.

(٢٢) Oumov . Ivan. Offrande. Poems. Alexandrie. 1958 . P. 6.

(٢٣) المصدر السابق.

تبقى من عائلة أوموف ابنـــان؛ يوســـف عـــازف الكمـــان والكـــسندر المعماري[٢٤]. لا توجد أية معلومات عن الأول. أما الثاني فقد رحل بعد وفاة والديه، وفقا لبعض المصادر، إلى لندن[٢٥].

من بين المهاجرين الروس الذين عاشوا حتى أيامهم الأخيرة في مصر عدد قليل من الأرستقراط. من بينهم الأميرة نايجدا لانسكايا، وكنيتهـــا قبـــل الزواج الأميرة جولتسينا (١٨٩٢ – الإسكندرية، ١٩٣٧/١٢/١٧)، مغنيـــة، فنانة أعمالها على المسارح الإمبراطورية، ممرضة متطوعة فـــي ســـنوات الحرب؛ خانوما ماريا ميخايلوفنا ناخيتشيفانسكايا، كنيتها قبل الزواج فونتشير (تيمير – خان – شورا، القوقاز، ١٨٩٧/٥/١١ – القاهرة، ١٩٧٤/١/١٦)، أرملة ملازم سلاح فرسان الخان جيورجي ناخيتشيفانسكي؛ الأميـــرة ماريـــا ميخايلوفنا فولكونسكايا (توفيت في القاهرة ١٩٥٤/٢/٢٢ عن عمـــر ينـــاهز الثامنة والخمسين) ومستشار البلاط فاسيلي إسيليفيتش جولينيشيف كوتوزوف (بطرســـبورج، ١٨٦١/٤/٩ – الإســـكندرية، ١٩٢٧/١٠/٢)[٢٦]. وســـوف نتحدث فيما يلي عن الأخير وعن عائلته حديثًا خاصًا.

ف. ف. جولينيشيف كوتوزوف ينتمي إلى واحدة من أشـــهر وأعـــرق العائلات الروسية، فزوجته هي أناستاسيا فاســـيليفنا، وكنيتهـــا قبـــل الـــزواج سيرياكوفا وقد توفيت في بطرسبورج في الخامس عشر من مايو عام ١٩١٤. عاش فاسيلي فاسيليفيتش مع بناته الأربع بعد وفاة زوجته ليصل معهـــن إلـــى الإسكندرية في مطلع العشرينيات مرورًا بإسطنبول وبيروت[٢٧].

---

(٢٤) المصدر السابق.
(٢٥) أرشيف المؤلف. صندوق "الروس في مصر". ملف ٤، صحيفة ٢٨٢.
(٢٦) ف. ف. بيلياكوف. مدينة موتى روسية في مصر. ص ٢٣، ٢٦، ١٥ و١٦.
(٢٧) لمزيد من المعلومات عن عائلة جولينيشيف – كوتوزوف انظر: فلاديمير بيلياكوف، أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار. ص ١٤١ – ١٤٧ ؛ أ.أ. شومكوف. عائلة ســـيرياكوف. ســـان بطرسبورج، ص ١٤، ٤٠ – ٤٢ .

وبحسب الدراسة التي قام بها أ. أ. سومكوف، فإن بنات جولينيشيف – كوتوزوف هن أنا (١٨٩٢/٩/١٧)، أناستاسيا (١٨٩٥/١/١)، يلينا (١٨٩٧/١٢/٩) ويفدوكيا. على أن السيدة المصرية هنريتا سكاكيني، التي فتحت بيتها في السنوات الأخيرة لاستقبال يفدوكيا فاسيليفنا في سنوات عمرها الأخيرة بعد أن بلغت هذه المرأة الروسية أرذل العمر، كانت تسمّي بنات جولينيشيف أسماء أخرى: أولجا، فالنتينا وأنسيلما. وقد التحقت الأخيرة بسلك الرهبنة لتعيش في كنيسة روسية في القدس، ومن الجائز أن يكون هذا الاسم هو اسمها بعد انخراطها في حياة الرهبنة. أما أولجا وفالنتينا، كما ذكرت السيدة سكاكيني، فقد رحلتا عن مصر، فذهبت الأولى إلى فانكوفر في كندا، بينما ذهبت الثانية إلى شيكاغو في الولايات المتحدة الأمريكية. أما يفدوكيا فقد قضت حياتها كلها في الإسكندرية.

كان أصدقاء يفدوكيا فاسيليفنا – كوتوزوفا (١٨٩٧/١/٢٦ – ١٩٨٨/٢/٧) ينادونها دوللي فحسب، وكانت تعيش من دروس البيانو ومن مشاركتها في الحفلات كعازف مصاحب. وتؤكد السيدة سكاكيني أن دوللي لم تكن تميل للروس وكانت تتجنبهم. وعندما توفيت يفدوكيا سكاكيني، قامت السيدة سكاكيني بدفنها لا في جبانة الأرثوذكس وإنما في جبانة اللاتين في الشاطبي في الإسكندرية.

في عام ١٩٨١ قامت المخرجة أسماء البكري بتصوير فيلم تسجيلي مدته ٢٥ دقيقة عن جولينيشيفا كوتوزوفا تحت اسم "بورتريه". على أن بطلة الفيلم كانت تتحدث فيه في أغلب الوقت باللغة الفرنسية عن قريبها البعيد المارشال كوتوزوف(*) وعن سنوات الثورة في روسيا أكثر من حديثها عن نفسها.

(*) ميخائيل إيلاريونوفيتش كوتوزوف (١٧٤٥ – ١٨١٣): أمير سمولينسك (١٨١٢)، قائد الجيوش، جنرال فيلدمارشال (١٨١٢). شارك في الحرب الروسية التركية في القرن الثامن عشر. برزت مواهبه في اقتحام مدينة إيزمايل (إسماعيل). قاد القوات الروسية في الحرب الروسية النمساوية – الفرنسية في عام ١٨٠٥. قاد الجيش في الحرب الروسية التركية ١٨٠٦ – ١٨١٢. القائد الأعلى للجيش في الحرب الوطنية ١٨١٢. استطاع بفضل مرونته الإستراتيجية في ظروف التفوق العددي للعدو في معركة بورودينو من إرغامه على الانسحاب. هزم جيش نابليون عند فيازما وكراسني. (المترجم).

كان جد دوللي هوفاسيلي إيفانوفيتش جولينيشيف كوتوزوف (١٨١٤ – ١٨٧٩) العقيد متقاعد في الأركان العامة، وتعود أصوله إلى واحدة من أكثر العائلات قدما وعراقة، عائلة جافريل (القرن الحادي عشر). وهو من يمثل الجيل الرابع من أبناء عمومة الجنرال فيلد مارشال الأمير ميخائيل إيلاريايونوفيتش جولينيشيف – كوتوزوف.

من بين الأشياء التي تركتها دوللي للسيدة سكاكيني شيء لا شك له قيمة تاريخية وثقافية رفيعة. سيف كتب على نصله بالذهب "نحن الملكة العظيمة الإمبراطورة وحاكمة عموم روسيا أنّا يوحنوفنا، قد أنعمنا على القائد إيفان فاسيلييف بن فرولوف، قائد قوات دونسكوي بهذا السيف لما قدمه من خدمات جليلة. سان بطرسبورج في اليوم الرابع والعشرين من شهر مايو عام ١٧٣٧". وقد انتقلت ملكية هذا السيف إلى والدة دوللي ثم لأحد أحفادها وهو ميخائيل سيدروفيتش سيبرياكوف (١٧٣٦ – ١٨١٥) والذي تزوج من ابنة إيفان فاسيلييفيتش خرولوف، وتدعى أنّا. وحيث إن هذه الفتاة قد تيتمت في هذه الحقبة، فقد انتقلت إليها وفقا لعقد الزواج ممتلكات آل سيبرياكوف من القياصرة الروس إلى آل فرولوف.

كان هناك عدد كبير من العسكريين الذين هاجروا إلى مصر، ومن بينهم عدد من الجنرالات: الكسندر الكسييفيتش بيزكروفني (١٨٦٦/٨/٢٦ – الإسكندرية ١٩٤٨/٤/٢٦)، الكسندر سيرجييفيتش سافيتش (توفي ١٨٦٤/٢/٤ – القاهرة، ١٩٥١/١/١٠)، أندريه أندرييفيتش فاسيليف (توفي في الإسكندرية ١٩٥٤/١/٣٠ عن عمر يناهز الخامسة والثمانين)؛ وأخيه إيفان أندرييفيتش فاسيليف (محافظة بوجويافلينسكايا فويسكا دونسكوي، ١٨٦٠/٥/١ – القاهرة، ١٩٣٣/٤/٩)، إيفان كارلوفيتش زيسرمان (؟ – الإسكندرية / ١٩٣٨/١/٢٨) ؛ بوريس إيفانوفيتش نوفيكوف (توفي

في الإسكندرية ١٩٢٧/٧/٢٨ عن عمر يناهز الستين عامًا)؛ خريسانف لافروفيتش بوبيللو (توفي في القاهرة قبيل عام ١٩٤٧)؛ فيودور بتروفيتش ريربيرج (تفليس، ١٨٦٨/١٠/٩ – الإسكندرية، ١٩٢٨/٩/١٤)؛ أنطون فاسيلييفيتش خوبيرسكي (؟ – الإسكندرية، ١٩٢٠/٣/٣١)؛ نائب الأدميرال أندريه جيورجييفيتش بوكروفسكي (١٨٦٢/٨/١٤ – القاهرة، ١٩٤٤)[٢٨].

ليست لدينا أية معلومات عن حياة ونشاط هؤلاء الضباط. والاستثناء الوحيد هو؛ ف. ب. ريربيرج. أولاً، لأنه كان رسَّامًا رائعًا. ولهذا الجنرال السابق من هيئة الأركان العامة ثلاث لوحات رسمها في معسكر اللاجئين في التل الكبير في عام ١٩٢٠. واحدة من هذه اللوحات تصوّر منظرًا عامًا للمعسكر، والثانية لأحد اللاجئين وهو يعمل في ورشة الخياطة، والثالثة لمدخل إحدى كنائس المعسكر. وبفضل هذه اللوحات أصبح بإمكاننا أن نتخيل بشكل واضح مظهر وطريقة الحياة في "المعسكر الروسي". ثانيًا، في عام ١٩٢٥ وضع ف. ب. ريربيرج أثناء وجوده في الإسكندرية، كتابًا بعنوان "الأسرار التاريخية للانتصارات العظيمة والهزائم الغامضة (مذكرات شاهد على الحرب الروسية اليابانية ١٩٠٤ – ١٩٠٥)". وقد أصدر الكتاب ابنه بيوتر في مدريد في عام ١٩٦٧ في طبعه من ٥٠٠ نسخة. وقد وضع ف. ب. ريربيرج مؤلفًا آخر أيضًا هو مذكراته عن سنوات الثورة والحرب الوطنية في روسيا، وقد كتبها في الإسكندرية أيضًا[٢٩].

---

(٢٨) ف. ف. بيلياكوف. مدينة موتى روسية في مصر. ص ١٢، ٣٠، ١٤، ١٩، ٢٦، ٢٨، ٢٩، ٣٥.

(٢٩) قامت ت. ن. مونتي في حينه بإهداء المؤلف هذه اللوحات، وهي موجودة في أرشيفه، أما الكتاب فقد سلّمه لمكتبة معهد التاريخ العسكري في موسكو في روسيا الاتحادية. أما مذكرات ف. ب. ريربيرج فهي محفوظة في صندوق مكتبة "المهجر الروسي" في موسكو.

كان بيوتر فيودروفيتش ريربيرج، ابن الجنرال، هو صاحب المبـادرة لبناء "الجبانة الروسية" في الإسكندرية في عام ١٩٤٣. وقد رحل عن مصر فيما بعد ولم يعرف أحد مصيره. والأرجح أنه غادر مصر بعد وفـاة أمـه، لوبوف ستيبانوفنا ريربيـرج (تاجـانروج، ٢٥/١//١٨٧١ - الإسـكندرية، ٥/٢/١٩٥٠)[٣٠].

جدير بالذكر أيضًا النشاط الذي قام به عقيد خيالة فيلق إسماعيليـسكي الكسي ياكوفليفيتش فون بريتسل (بطرسبورج، ٢٤/٢/١٨٨٤، الإسـكندرية، ٥/٨/١٩٤٠)[٣١]. وقد قام في السنوات الأخيرة من حياته بإصـدار مجلـة "إسماعيلوفسكايا ستارينا. مواد تاريخية عن خيالة فيلق إسماعيلوفسكي"، وذلك في مدينة الإسكندرية. وقد صدر منها ثلاثون عددًا فحسب. وكـان بريتـسل يصدر كل عام من ثلاثة إلى أربعة أعداد يبلغ العدد من خمسين إلى سـتين صفحة، ثم أصبح يصدرها مرة واحدة سنويًا، ولكن في هذه المرة بلغ العـدد مائتي صفحة وأحيانًا أكثر من ذلك. كانت الطبعة الواحدة تصل من خمـس عشرة إلى عشرين نسخة وكانت توزع أساسًا وفقًا لقائمة تضم أسماء الـذين خدموا مع محررها. كانت المجلة تنـشر مقـالات تتعلـق بتـاريخ فيلـق إسماعيلوفسكي وسيرة حياة ضباطه. كان بريتسل يقوم على إعداد جزء من هذه المواد بنفسه، أما الجزء الآخر فكان يقوم بإعداده شركاؤه السابقون فـي الفيلق، وكانوا يقيمون في لندن وبراج وبلجراد وبعض المدن الأخـرى. لـم يكتف الكسي ياكوفليفيتش بتحرير هذه المواد فقط، وإنما كان يقـوم بإعـادة

---

(٣٠) ف. ف. بيلياكوف. مدينة موتى روسية في مصر. ص ٢٩.

(٣١) مجلة "إسماعيلوفسكايا ستارينا". العدد ٣٠، الإسكندرية، ١٩٤٠. ص ٤. وصلت مجموعـة المجلات، ما عدا العددين ١٧ و٢٩ منذ فترة غير بعيدة إلى أرشيف الـصندوق الروسـي الدولي للثقافة في موسكو.

كتابتها على الآلة الكاتبة بنفسه. وتعكس الملاحظة التالية والتي أبداها المحرر في العدد السابع من المجلة، مدى الجهد الذي بذله في ظروف معيشته في الإسكندرية حين يقول: "في الكراسات الحالية وكذلك في الكراسات التالية، سوف يلاحظ القراء تشابه علامتي التشديد والتخفيف. وهذا بسبب عطل في الآلة الكاتبة وعدم وجود علامة تشديد احتياطية في المجلات الموجودة هنا. ونحن في انتظار علامة تشديد جديدة ستأتي من أمريكا".

المثقفون والفنانون

يُعد الفنان الروسي البارز إيفان ياكوفليفيتش بيليبين (تاراخوفا، بالقرب من بطرسبورج، ١٨٧٦/٨/١٦ - لينينجراد، ١٩٤٢/٢/٧)[٣٢]، من أشهر المهاجرين الروس من بين هذه الفئة من المثقفين والفنانين في مصر.

أخيرًا كتب بيليبين في مذكراته يقول: "كُتب عليّ أن يلقي بي القدر في ظروف جديدة وغريبة، ولكنها ثمينة بالنسبة لأي فنان، في مصر، لأعيش وأعمل بها لخمس سنوات. لن أنسى ما حييت هذه الانطباعات عندما ذهبت للمرة الأولى إلى أحياء القاهرة الإسلامية الغابرة ذات المآذن المدهشة التي بنيت منذ زمن الهجرة، القاهرة بأسواقها وزحامها. لقد خيل لي أن صفحة من صفحات "ألف ليلة وليلة" قد بعثت إلى الحياة أمام عينيّ، عندها لم أصدق أن كل ذلك يحدث في الواقع حقًا"[٣٣].

---

(٣٢) لمزيد من التفاصيل حول الحقبة المصرية التي عاشها إ.ي. بيليبين في مصر، انظر: فلاديمير بيلياكوف. أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار. ص ١١٣ - ١٢٤، ١٥٧ - ١٦٨، ١٨٠- ١٨٩.

(٣٣) إ. ي. بيليبين. مقالات. خطابات، ذكريات عن فنان. لينينجراد، ١٩٧٠. ص ٦٠.

وصل بيليبين إلى مصر على متن السفينة "ساراتوف" قادمًا من ميناء نوفوروسيسك بصحبة مجموعة من اللاجئين، وذلك في شهر مارس عام ١٩٢٠ وبعد قضاء بعض الوقت في الحجر الصحي بالإسكندرية انتقل إلى معسكر التل الكبير. وحيث إنه كان يدَّخر بعضًا من المال فسرعان ما غادر معسكر اللاجئين في مايو ليستقر في عاصمة مصر.

في خطاب له لأحد أصدقائه في باريس كتب بيليبين يقول: "بعد عناء طويل استقر بي المقام في القاهرة. حصلت على عمل، لكن العائد قليل للغاية، حتى إنني وأنا في أرذل العمر أعيش عيشة طالب عمره عشرين عامًا. أحيانًا ما أشعر بالاضطراب والقلق من جراء ذلك، إذ لم يعد بإمكاني أن أشتري كتابًا، أو خرقة قديمة أرسم عليها. على أية حال فقد تمكنت من الحصول على بعض الكتب الضرورية وكذلك بعض المواد اللازمة لعملي، وإن جرى ذلك بصعوبة بالغة. هناك، كما تَعلم، مصرانِ: مصر القديمة الكلاسيكية، ومصر الإسلامية. أولاً وقبل كل شيء، فقد افتتنتُ بالثانية، فهي مفهومة لنا أكثر كما أنها أقرب إلى نفوسنا. وعلاوة على ذلك، فإن مصر الإسلامية الغابرة، إذا شئت، مفعمة بالحياة حتى الآن، وقد بقيت الأمور فيها على ما هي عليه تقريبًا منذ زمن بعيد. إن الأحياء الإسلامية في القاهرة لها خصوصيتها، العمارة الرائعة، الأشياء الضاربة في أعماق الزمن كثيرة هنا، أينما سرت تجد حولك أسواقًا ومحال صغيرة، بائعين وشحاذين، بدوًا وزنوجًا، جِمالاً وحَميرًا مزركشة، سجادًا وحلوى وفاكهة، باختصار اجلس وارسم حكاية شرقية.

أما مصر الأخرى – القديمة، المهيبة، الغامضة والمخيفة – فهي غارقة في الصمت، وعلى قدر هذا الصخب المدوي الذي يؤذي أذنيك، وهؤلاء الناس على اختلاف ألوانهم، من البيض إلى السود، من الذين يعتمرون الطرابيش إلى الذين يضعون العمائم، تظل بقايا هذا الماضي السحيق صامتة لا تنبس ببِنت شفة.

لا مصر القديمة ولا مصر الإسلامية هما مجال عملي، وإنما أصبحت بيزنطة هي تخصصي.

أقوم الآن برسم لوحة زخرفية كبيرة، ٥ر٥ X ٥ر٢ أمتار، سوف توضع لتزين غرفة مؤثثة على الطراز البيزنطي في منزل أحد الأثرياء اليونانيين. كما ترى، فإن مقاييس هذه اللوحة غير مألوفة بالنسبة لي، لكن العمل فيها أمر شيق للغاية. اللوحة تصوّر الإمبراطور والإمبراطورة وموكب للرجال والنساء، مدينة أيقونية وكثير من الزخارف. الأسلوب قريب من أسلوب القرن السادس، من مصر جوستينيان"[٣٤].

بعد أن تسلم الفنان مقدمًا مبلغًا كبيرًا تحت حساب إنجاز هذه اللوحة الكبيرة، استأجر بيتًا متوسطًا في قلب القاهرة في شارع الأنتكخانة رقم ١٣. كان هذا البيت يضم مرسمًا رحبًا وغرفتي معيشة. وقد أطلق بيليبين على مرسمه اسم "الأنتكخانة"، كما أطلق على نفسه اسم "يوحنا الأنتكخاني". وهناك كانت تلميذتاه لودميلا تشيريكوفا، ابنة الكاتب الشهير يفجيني تشيريكوف والتي أحبها الرسام، وأولجا ساندر وكذلك الكسندر سيرجييفيتش بيبيكوف الملقب "إيساول" يقومون بمساعدته في عمله. وقد أزيل البيت الذي عاش وعمل فيه بيليبين.

وقد سميّت الجدارية التي ذكرها الرسام في خطابه إلى صديقه في كتالوج أعماله "تبجيل إمبراطور وإمبراطورة بيزنطة"[٣٥]. رسم بيليبين هذه الجدارية في فيلا يملكها تاجر القطن اليوناني بيناكي في الإسكندرية. على أن

(٣٤) مجلة "طائر النار". باريس، العدد ٢، ١٩٢١. ص ٣٣ ، ٣٤ .
(٣٥) عن كاتالوج أعمال إ.ي. بيليبين. انظر: ج. ف. حولينيتس، س.ف. جولينيتس. إيفان ياكوفليفيتش بيليبين، موسكو، ١٩٧٢.

عائلة بيناكي رحلت عن مصر منذ زمن بعيد وبيعت الفيلا والعمل الفني الثمين بالمزاد. لا يعرف مكان هذه الجدارية. يمكن فقط أن نتعرف عليها من خلال صورة فوتوغرافية موجودة في أرشيف لودميلا تشيريكوفا، حيث يظهر بيليبين ومساعدوه على خلفيتها[٣٦].

أما التكليف الكبير التالي فكان لرسم أيقونات للكنيسة الجديدة الملحقة بالمستشفى اليوناني. وقد رسم بيليبين أيقونة "البشارة" الثنائية على البوابات الملكية كما رسم الملاكين ميخائيل وجبريل بحجم كبير على البابين الجانبيين للمذبح. في الثامن والعشرين من أغسطس عام ١٩٢١ كتب بيليبين أثناء وجوده في الإسكندرية إلى تشيريكوفا (لودميلا) خطابا جاء فيه: "كانت درجة الحراة اليوم مرتفعة على نحو غير عادي، كنا نتصبب عرقًا حتى أصابنا اليأس. ومع ذلك فقد واصلنا العمل قدر المستطاع. العمل في رسم الملائكة (بحجم كبير وباستخدام الألوان المائية) يتقدم دون كلل. وسوف تبدو جميلة"[٣٧]. وفي الواقع فقد جاءت الأيقونات التي رسمها بيليبين جميلة للغاية. وقد اختار الرسام الأسلوب الروسي للقرن الخامس عشر. ولا تزال هذه الأيقونات موجودة حتى الآن في كنيسة القديس بانتيليمون في المستشفى اليوناني في حي العباسية بالقاهرة. وهي في حالة ليست سيئة وإن كانت بحاجة إلى ترميمها[٣٨].

---

(٣٦) انظر الصورة الفوتوغرافية في كتاب فلاديمير بيلياكوف. أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار. ص ١١٧.

(٣٧) أرشيف المهجر الروسي. المركز الثقافي "بيت – متحف مارينا تسفيتايفا". صندوق "مجموعة هبات كومباني دي بيرس". ملف ك.ب ٧٠٩. إ. ي. بيليبين. ١٩١٨ – ١٩٢٥. عندما اطلع المؤلف في عام ١٩٩١ على خطابات بيليبين، كانت قد دخلت لتوها إلى الأرشيف ولم تكن صفحاتها قد رُمّمت بعد.

(٣٨) أيقونة "البشارة" مصورة على الصفحة الداخلية الأولى من كتاب: فلاديمير بيلياكوف. أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار.

ومن الأعمال الكبرى لبيليبين، والتي اكتشفها مؤلف هذا الكتاب أيضًا في المجموعة الخاصة الموجودة في القاهرة، اللوحة الرائعة المشهورة في الكاتالوج باسم "رقصة شرقية" (أتصور أن التسمية الأكثر دقة هي "موتيفات فارسية")(٣٩). وفي خطابه إلى لودميلا تشيريكوفا في مايو عام ١٩٢٣، كتب الرسام يقول: "تلقيت عرضًا من مدام نجيب باشا بطرس غالي: لوحة كبيرة (تبلغ مساحتها نحو أربعة أمتار مربعة) بأسلوب المنمنمات الفارسية"(٤٠). وبحسب التاريخ المسجل على اللوحة نفسها، فقد انتهى منها الرسام في العام التالي.

لم يتسن العثور على أية أعمال كبيرة مثل لوحة "بوريس وجليب في السفينة" أو "الفارس". وقد رسما ليونانيين من الأثرياء الذين رحلوا عن مصر في الخمسينيات. إن مصير هذه اللوحات غير معروف، مثلها مثل اللوحات الأصغر حجمًا والتي باعها بيليبين لجامعي الأعمال الفنية.

قام بيليبين أثناء وجوده في مصر بالعديد من الرحلات في أرجائها. فزار صعيد مصر مرتين، كما زار الكنائس القبطية القديمة في وادي النطرون، في الصحراء الغربية، كما حجَّ إلى الأماكن المقدسة في سيناء.

وقد أعجب بيليبين بشدة بالفنون المصرية المسيحية القبطية. وفي خطاب له إلى أحد أصدقائه في يناير عام ١٩٢٤ كتب يقول: "لم أتمكن من الاقتناء، لكن التقطت صورًا كثيرة لمصر القديمة وللفنون العربية، لكن أقربها إلى قلبي هو ما يعرف بالفن القبطي، وفي رأيي ببساطة الفن المصري ما قبل البيزنطي، وإنما دون التأثر بالتقاليد المصرية القديمة السابقة. إن هذا

---

(٣٩) مقطع من هذه اللوحة مطبوع على الصفحة الأخيرة من هذا الكتاب.

(٤٠) أرشيف المهجر الروسي. ملف ب. ك. ٩. إ. ي. بيليبين.

الفن هو في نفس الوقت السلف (المباشر وليس على نحـــو جـــانبي) لفننـــا الروسي. أود لو أنني تمكنت من إصدار ما لديّ من مواد. إن ما التقطته من صور، على الرغم من صغرها (٩ × ١٢ سم) لكنها بالغة الوضوح والدقة. كم من الأشياء هنا كان من الممكن عملهـــا ســـواء مـــن أجـــل المتـــاحف أو المدارس في روسيا"[٤١]. وعلى حد علمنا فهذا ما كان بنيّة الفنان أن يحققه ولكنه لم يتمكن من ذلك.

في مطلع عام ١٩٢٣ حضرت إلى بيليبين قادمة من روســـيا تلميذتـــه السابقة الكسندرا فاسيلييفنا شيكوتيخينا – بوتوتسكايا مع ابنها مستيسلاف، وقد تزوجا على الفور. وفي صيف عام ١٩٢٤ قامت العائلة برحلة إلى فلسطين وسوريا. وقد سجلها الفنان في مذكراته "القدس، البحر الميت، الجليل، دمشق. حكاية شرقية متصلة"[٤٢].

في أكتوبر عام ١٩٢٤ عادت عائلة بيليبين إلى الإسكندرية، حيث يعيش عدد من الأوربيين يفوق عدد الذين يعيشون منهم في القاهرة وحيث تمـــوج الحركة الفنية بالحياة، ومن ثم كانت هناك إمكانية أكبر لكسب المـــال. مـــن ديسمبر عام ١٩٢٤ وحتى يناير عام ١٩٢٥ تم تنظيم معرض خاص لبيليبين وزوجته. وبحسب ابن زوجة الفنان م.ن. بوتوتسكي "فقد ذهبت كـــل هـــذه الأعمال تقريبًا إلى أمريكا واليونان. وقد أثنت الصحافة السكندرية على هـــذا المعرض ثناء رفيعًا"[٤٣].

---

(٤١) إ.ي. بيليبين. مقالات. خطابات. مذكرات عن الفنان. ص ١١٤.
(٤٢) المصدر السابق. ص ٦١.
(٤٣) المصدر السابق. ص ٢٤٠.

وقد أشار بوتوتسكي في مذكراته إلى "أن بيليبين قام بنفسه برسم حوائط الكنيسة الأرثوذكسية السورية الكبرى في الإسكندرية"[٤٤]. على أننا لم ننجح في أن نجد أثرًا لهذه الجدارية (الفريسكا) من عمله. وكما اتضح لنا أن هناك كنيسة أرثوذكسية واحدة في الإسكندرية وهي خالية من الفريسكا. أكثر ما يرجح وجودها هو ما ورد في كتالوج أعمال بيليبين حيث ذكر فيه: "١٩٢٥. رسم أولي للفريسكا وحاجب أيقونات الكنيسة الأرثوذكسية السورية في الإسكندرية"[٤٥]. ويبدو أن الفنان توقف عند عمل الرسوم الأولية ولم يقم بعمل الفريسكا لأسباب ما.

عاش بيليبين في الإسكندرية حتى أغسطس عام ١٩٢٥ ثم غادر مصر بعد ذلك لينتقل إلى باريس.

كان بيليبين يحظى بشهرة واسعة بين أبناء الجالية الروسية. وكان عالما المصريات البروفيسور ف. س. جولينيشيف والبروفيسور ج. إ. لوكيانوف والصحفي س. ب. يوريتسين من أصدقائه. وفي مطلع العشرينيات قام الفنان، كما أشرنا من قبل، بعمل الرسوم الأولية لحاجب الأيقونات للكنيسة الروسية في القاهرة. أما المعلومات الخاصة بعلاقاته بالمصريين فأقل شهرة، وإن كانت الأرستقراطية المصرية بداهة على علم بوجود فنان روسي كبير يعيش في القاهرة. ومما يدل على ذلك أن عائلة بطرس غالي، وهي واحدة من أشهر العائلات في مصر، كلّفته بعمل لوحة لها.

من المؤكد أن الأيقونات ولوحة "موتيفات فارسية" لم تكن هي الأعمال الوحيدة التي رسمها بيليبين والموجودة في مصر حتى الآن. أما تلك الأعمال

---

(٤٤) المصدر السابق. ص ٢٣٩.

(٤٥) ج. ف. جولينيتس، س. ف. جولينيتس. مصدر سابق.

غير المعروفة (أو المعروفة فقط من خلال الكتالوج) فهـي محفوظـة فـي المجموعات الشخصية، والتي يتوقف اكتشافها على مشيئة القدر وحده.

يُعد النّحات **بوريس أوسكاروفيتش فريدمان كليوزيـل** (بطرسـبورج، ١٨٧٨/٤/٢٤ – القاهرة، ١٩٥٩/١٢/٣٠)[٤٦]. من أروع من يمثل جماعـة المهاجرين. وصل كليوزيل إلى مصر قادمًا من باريس في عام ١٩٢٩ ليتسلم وظيفته، بوصفه رئيسًا لقسم النحت الذي أنشئ لتوه في كلية الفنون الجميلـة بجامعة القاهرة وكانت تعرف باسم جامعة الملك فؤاد.

كان والد فريدمان. كليوزيل سويدي الجنسية يدين بالمذهب اللوثري، أما والدته فكان نصفها روسي ونصفها الآخر فرنسي، وكانت أرثوذكسية. لكنهما كانا يعتبران نفسيهما روسيّين، وهو ما سار عليه ابنهما فيما بعد، والذي تعمد على العقيدة الأرثوذكسية. تلقى بوريس أوسكاروفيتش تعليمه في بطرسبورج وستوكهولم. وقدْ اشتهر وهو لا يزال شابًا كنحات موهوب للحيوانات، ومنذ عام ١٩٠٧ بدأ يتلقى طلبات من شركة فابريجيه الشهيرة للحُليّ. ثم اشـتهر فريدمان كليوزيل بعد ذلك بتماثيله الصغيرة لفناني الباليه، ومن بينها تماثيـل لمشاهير راقصات الباليه مثل أنّا بافلوفا وماتيلدا كشيسينسكايا[٤٧].

في مطلع العشرينيات هاجر فريدمان كليوزيل إلى باريس. وهناك عمل أستاذًا بمدرسة الفنون التطبيقية وأثبت جدارته كمتخصص من طراز رفيـع. وهنا عرض عليه المصريون، الذين كانت لديهم علاقات ثقافية واسعة مـع الفرنسيين منذ الحملة الفرنسية، وظيفة ممتازة كنحات روسي في القاهرة.

---

(٤٦) لمزيد من التفاصيل عن ب. أ. فريدمان – كليوزيل انظر: فلاديمير بيلياكوف. أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار. ص ٢١٠ – ٢٣٠.

(٤٧) عن حقبة ما قبل الثورة في حياة فريدمان كليوزيل انظر ت. ف. فايريجيه، أ.س. جورينيا، ف.ف. سكورلوف. فايريجيه وحُلي بطرسبورج. سان بطرسبورج. ص ٥٦٧ – ٦٠٤.

أقام فريدمان كليوزيل وعمل في القاهرة، في حي الأزبكية، في المنزل رقم ٩ بشارع الجنينة. كان أعزبًا، وكانت هناك مديرة فرنسية تقوم على أعمال منزله. وفي عام ١٩٣٧ شغل تلميذه أحمد عثمان منصب رئيس القسم، وكان قد تبقت له عشر سنوات للخروج على المعاش، قضاها في التدريس بالجامعة باعتباره بروفيسورًا. وكثيرًا ما كان النحات الروسي يُسأل عن سر بقائه في القاهرة فكان يجيب: "أحب مصر، فما الذي يجعلني أتركها؟".

قام فريدمان كليوزيل بتعليم جيل كامل من النحاتين المصريين، ويعد في الواقع مؤسس المدرسة المصرية الحديثة في النحت، ومن ثم فقد أسهم إسهامًا كبيرًا في ثقافة هذه البلاد. وحتى سنوات قليلة مضت كان بعض من تلاميذه لا يزالون على قيد الحياة. وقد قام المؤلف في عام ١٩٩٩ بإجراء أحاديث في القاهرة مع كل من محمود الباجوري وحسين بيكار وكلاهما كانت أعمارهما تناهز الثمانين عامًا. وقد أثنيا ثناء جميلاً على النحات الروسي سواء باعتباره معلمًا أو إنسانًا. وقد عرض عليّ بيكار صورة شخصية لفريدمان كليوزيل رسمها له بريشته في عام ١٩٣٨[٤٨].

شارك فريدمان كليوزيل في الحياة الفنية بالقاهرة بكل نشاط، فكان يعرض أعماله في المعارض والبيناليات. فعلى سبيل المثال عرض له في معرض القاهرة الفني الذي أقيم في عام ١٩٣٥ تمثاله المعروف باسم "عروس النيل"، ويمثل فتاة عارية تجلس على ركبتيها، وقد أحنت رأسها انحناءة خفيفة إلى الأمام وقد استندت على يديها. وقد وضع التمثال بعد ذلك في نافورة حديقة الزهور في النزهة في الإسكندرية ولا يزال التمثال قائمًا هناك حتى الآن[٤٩].

---

(٤٨) هذه الصورة موجودة في كتاب فلاديمير بيلياكوف. أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار. ص ٢١٩.

(٤٩) انظر صورة التمثال في كتاب ج. جورياتشكين. قنصل روسي في الإسكندرية. مجلة "آسيا وأفريقيا اليوم"، العدد ١١، ٢٠٠١. ص ٤٩.

نال إبداع النحات الروسي تقديرًا رفيعًا من جانب النقد المحلي. كان كل شيء في الطبيعة يجتذب إليه فريدمان كليوزيل. في عام ١٩٥٣ كتب موريك برين يقول: "لم تكن الحيوانات عنده لتحظى باهتمام أقل مما يحظى به البشر. ولم تكن عملية إدراك العالم أمرًا عابرًا. كان يُعلم من حوله الإتقان في العمل، وكان يقول "ها أنا ذا أعيش في مصر منذ ثلاث سنوات، وما زلت أجد صعوبة في رسم الجمل". لم يكن فريدمان كليوزيل يرى أن من حقه أن يغير شكل الأشياء وفق هواه. كان يرى أنه من الضروري احترام أستاذية الطبيعة والأصالة. ولهذا كان ينفق وقتًا طويلاً في دراسة التشريح. وما إن يتأكد من أن "لحظة الصدق قد حانت" حتى يروح يضعها موضع التنفيذ. التحليل يساعد على التحضير، والتركيب يبعث في العمل الحياة. "الكلاب السلوقي" عنده تعدو بالفعل، وأما "بالاشوفا" فترقص وكأننا نراها على خشبة البولشوي.

تصميم الرقص بالنسبة لبوريس فريدمان كليوزيل ليست به أسرار. فبعد أن تمكن من دراسة عناصر الرقص وتفاصيله الدقيقة، بات بإمكانه أن يعيد إنتاجها بإتقان شديد في عنصري الجبس والبرونز. حتى السكون الذي يكتنف التمثال عند وضعية معينة دائما ما نحسه مفعمًا بالحياة.

من المستحيل أن يكون أكثر صدقًا.

من المستحيل أن يكون أكثر فنية"(٥٠).

هناك أعمال فنية أبدعها فريدمان كليوزيل لا تزال موجودة حتى الآن في مصر. وللأسف الشديد فإنها غير متاحة للمشاهد. كان بعض هذه الأعمال

---

(٥٠) Brin, Morik. Peintres et sculpteurs de l'Egypte contemporaine. Le Caire, 1935. P. 48-49

معروضًا في الفترة من عام ١٩٤٠ وحتى عام ١٩٦٥ في متحف الفنون الجميلة الذي كان موجودًا آنذاك في وسط القاهرة، وقد نقلت من هناك لتوضع في مخزن متحف الفنون الجميلة بالجزيرة بالقاهرة. عدا "عروس النيل" الموجودة في الإسكندرية، يمكن مشاهدة عملين آخرين فقط للنحات الروسي في القاهرة وضعا جنبا إلى جنب في مصر القديمة القبطية. الأول نحت بارز للقديس جورج على سلم كنيسة الروم الأرثوذكس(٥١)، والآخر تمثال نصفي لسميكة باشا مؤسس المتحف القبطي.

"أقرب إلى الطبيعة، أقرب إلى الله" على هذا النحو صاغ يفجيني كارلوفيتش فابريجيه، بن الصائغ الروسي البارز فابريجيه، مبدأ الإبداع عند فريدمان كليوزيل وذلك في كلمته في تأبين الفنان. وأضاف قائلاً: "لقد استطاع بفضل معرفته الجيدة بالتشريح أن يبعث بالإحساس في أعصاب وعضلات التماثيل. لقد أضفى على وجوهها الإحساس بالحياة، ونقل إليها القدرة على التعبير عن مشاعرها، كما بعث بالحركة في الراقصين. كانت أعماله مفعمة بالحياة والحيوية. إن العديد من المتاحف الكبرى والأعمال الخاصة في أوربا تحتفظ بأعماله لا بسبب قيمتها فقط، وإنما باعتبارها علامة على تقديرها الرفيع لأعماله"(٥٢).

بعد وفاة فريدمان كليوزيل، قامت مدبرة منزله ببيع منقولاته بما فيها تماثيله، التي كانت موجودة في مرسمه. وهي جميعها ضمن المجموعات الخاصة.

---

(٥١) انظر الصورة الفوتوغرافية لهذا النحت البارز في كتاب فلاديمير بيلياكوف. أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار. ص ٢٢٨.

(٥٢) مجلة "روسكايا ميسل" ("الفكر الروسي")، باريس، ١٩٦٠/٣/٢٩.

كان لفلاديمير الكسييفيتش ستريكالوفسكي (؟ - القاهرة، ٣٠/١٠/١٩٤٦) وأبنائه فسيفولد، رومان (١٩٠٣/١/٢ - القاهرة، ١٩٧٣/١١/١٦) ونيكولاي[٥٣]. إسهامهم الكبير في الثقافة المصرية. كانوا ثلاثتهم من الفنانين. الأب، وهو ضابط سابق، كان رسامًا للمناظر الطبيعية والطبيعة الصامتة ولوحات ذات موضوعات تاريخية، أما ولداه فكانا يعملان بالرسم العملي. فسيفولد كان يعمل رسامًا مع علماء الآثار الأجانب. وفي نهاية الثلاثينيات تعرّف إلى أمريكية تعمل في إحدى البعثات وأحبها، فطلق زوجته الروسية وسافر مع الأمريكية إلى الولايات المتحدة. أما رومان فكان يعمل بمستشفى الإسعاف في قصر العيني، في أحد المعامل، وكان يرسم الحشرات. كان نيكولاي يعمل أيضًا في مستشفى قصر العيني أثناء إجراء العمليات الجراحية النادرة والصعبة، فيرسم كل ما يقوم به الجراح ثم تضمّن رسومه في كتاب تدريس الجراحة. وفي عام ١٩٥٦ سافر نيكولاي إلى أخيه الأكبر فسيفولد، بعد أن خرج إلى المعاش وكان قد طلّق زوجته الروسية قبل سفره بعام. ويعد مصير الأخوين مجهولاً.

أشار ف. ف. بيللين إلى أن الفنانين ف، ن. ستريكالوفسكي وأبناءه رومان ونيكولاي وفسيفولد كانوا يلقون تقديرًا رفيعًا، وكانت لوحاتهم تزين متحف التاريخ والمتحف الزراعي والمتحف الحربي. وهناك صور لرسوم هيروغليفية موجودة في جامعتي هارفارد وشيكاغو، وهي من أعمال فسيفولد فلاديميروفيتش ستريكالوفسكي"[٥٤].

---

(٥٣) ف. ف. بيلياكوف. مدينة موتى روسية في مصر. ص ٣٢. للمزيد عن عائلة ستريكالوفسكي انظر: فلاديمير بيلياكوف. أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار. ص ٢٧٤ - ١٧٧.

(٥٤) ف. ف. بيللين. مصدر سابق. ص ٣٢٢.

تخرجت أنطونينا نيكولايفنا (كنيتها قبل الزواج فيودوروفا) في مدرسة الباليه في باريس. وبعد فاة والدها سافرت بصحبة أمها وأختها الكبرى في نهاية الثلاثينيات من باريس إلى القاهرة. مارست الرقص بعض الوقت ثم افتتحت بعد ذلك مدرسة للرقص الحديث في ميدان الأنتكخانة في قلب القاهرة. وقد انتقلت المدرسة بعد ذلك إلى النادي الروسي في شارع عماد الدين. وقد التقى المؤلف في عام ١٩٩٢ في القاهرة بأنطونينا نيكولايفنا، ولعلها ما زالت على قيد الحياة حتى الآن. أما نيكولاي وأنطونينا فلم يثمر زواجهما أطفالاً.

وقد جاء ف. ف. بيللين على ذكر فنانين روس آخرين عاشوا في مصر. فقد نوّه إلى أن "لوحات ي. كاسيسيتوف ومنمنماته نالتا شهرة كبيرة ليس في مصر فحسب، وإنما في الخارج أيضًا. كما أن لوحات أ. ديفوف وس. ديفوف ومنمنمات ماك وصور إ. ي. بيللين التي رسمها في بورسعيد، ورسوم ف. ي. روتكوفسكي وأيقونات ن. ف. سافين جميعها كانت مشهورة مثلها مثل روائع النحت التي صنعها ب. أ. فريدمان كليوزيل"[٥٥].

وقد تحدثنا سابقًا عن إ.ي. بيليبين وب. أ. فريدمان كليوزيل. وللأسف فإننا لم نتمكن من التعرف على باقي الفنانين باستثناء تاريخ ميلاد ووفاة فلاديمير ياكوفليفيتش روتكوفسكي (بطرسبورج، ١٨٨٧/٢/٢٦، القاهرة، ١٩٤٩/١٠/١٢)[٥٦].

---

(٥٥) المصدر السابق.

(٥٦) ف. ف. بيلياكوف. مدينة موتى روسية في مصر. ص ٣٠.

المؤرخون وعلماء المصريات

من بين هذه الكوكبة من المهاجرين الروس بـرزت شخـصية عـالم المصريات ذي الـشهرة العالميـة البروفيـسور فلاديميـر سـيميونوفيتش جولينيشيف (بطرسبورج، ١٨٥٦/١/١٧ – نيس، ١٩٤٧/٨/٩)(٥٧). تخـرج جولينيشيف في كلية الدراسات الشرقية في جامعة بطرسبورج، وبـدلاً مـن الدبلوم حصل مباشرة على درجة الدكتوراه بعد دفاعه عن أطروحته ليصبح بعدها أول أمين لمجموعة الآثار المـصرية بمتحـف الأرميتـاج. اسـتمر جولينيشيف في زيارة مصر كل عام وتنظيم مجموعته الخاصة، والتعـرف على القطع الأثرية النادرة التي اكتشفها العلماء وشراء مختلف القطع الأثرية لاستكمال مجموعته المتميزة من آثار مصر القديمة (عن هـذه المجموعـة تحدثنا آنفًا في الفصل الثاني).

في عام ١٩٠٩ اضطر جولينيشيف لفراق مجموعته الأثرية. وفي العام التالي تزوج من الفرنسية سيسليا ماتن ليسافرا معًا إلى نيس ليـستقرا بهـا. ومن هناك واظب عالم المصريات على زيارة بطرسبورج كل صيف حتـى نشوب الحرب العالمية الأولى. وبعد عام ١٩١٤ توقف عن الحـضور إلـى روسيا نهائيًا.

بدءا من عام ١٩٢٣ دأب جولينيشيف على قضاء فصل الشتاء في مصر، وفيها أسس قسم الدراسات المصرية في جامعة الملك فـؤاد (جامعـة القـاهرة) ليصبح أول رئيس له، وقد عمل في نفس الوقت أستاذًا بالمعهد العلمي الفرنـسي للآثار الشرقية.

---

(٥٧) لمزيد من المعلومات عن حياة ف. س. جولينيشيف في مصر، انظر: المستشرق الروسـي البارز ف. س. جولينيشيف وتاريخ حصول متحف الفنون الجميلة على مجموعته (١٩٠٩ – ١٩١٢). من أرشيف متحف الدولة للفنون الجميلة. موسـكو، ١٩٨٧. ص ٢٧٢ – ٢٧٣، ٢٩٢ – ٢٩٦؛ فلاديمير بيلياكوف. أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار. ص ١٢٥ – ١٣٧.

في عام ١٩٢٩ بلغ جولينيشيف من العمر ثلاثة وسبعين عاما، وعندها خرج على المعاش، لكنه استمر على زيارته السنوية لمصر كل شتاء. يقول عنه في مذكراته تلميذه المفضل، عالم المصريات الفرنسي جان سانت فـار جارنو: "عندما نلت آنذاك شرف التعرف إلى فلاديمير جولينيـشيف، كـان الرجل واحدًا من أكثر الشخصيات شهرة واحترامًا في مجتمع القاهرة. كـان جولينيشيف وزوجته يذهبان كل مساء يوميًا تقريبا إلى محل الحلويات الشهير في القاهرة "جروبي"، حيث يقضيان وقتهما، كما أشار جارنو، "بصحبة عدد كبير من الناس، إذ كانا حريصين على استقبال ضيوفهما، ولم يكـن هنـاك شخص مثقف واحد لم يكن يرغب في التعرف إليهما".

في يناير سافر الزوجان جولينيشيف إلى الأقصر، حيث تواصـلا مـع علماء آثار آخرين وتعرفا على أحدث اكتشافاتهم. كان العالم الروسي يحمل معه أينما ذهب صندوقًا كبيرًا يحتفظ فيه بمخطوطاته. وكذلك عدد لا يحصى من البطاقات كان يسجل عليها أمثلة من النـصوص باعتبارهـا نـصوصًا توضيحية كان بنيته استخدامها في عمله العلمي الأساسي فـي علـم النحـو المصري القديم. على أن هذا العمل بقي دون أن يُستكمل.

يقول جارنو في مذكراته: "عندما بدأ علمـاء المـصريات الفرنـسيون نشاطهم آنذاك باعتبارهم مبعوثين من المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، كانت سمعة جولينيشيف العلمية لا تبارَى. على أى أساس قامت هذه السمعة؟ أولاً وقبل كل شيء، على المزايا الشخصية لهذا العـالم الكبيـر والإنـسان الجذاب. الموهوب بشكل استثنائي روحًا وجسدًا. العالم الأكـاديمي والمعلـم والباحث والرياضي. صاحب الفكر والثقافة التي لا تقارن إلا بنبل محتده".

منذ مطلع العام ١٩١٩ اشترك جولينيشيف في وضع الكتالوج الشامل للمتحف المصري بالقاهرة. وقد اضطلع بمهمة وضع توصيف مجموعة المتحف من البرديات الهيراطيقية وقد أتم هذا العمل على نحو يقترب من الاكتمال. أما أعماله الأخيرة (وهي ستة أعمال على الأقل) فقد كتبها باللغة الفرنسية ونشرها بالقاهرة. وجدير بالذكر أن جولينيشيف كان يعرف ما يزيد على عشر لغات؛ فضلاً عن إجادته إجادة تامة للغات الفرنسية والإنجليزية والألمانية.

في نهاية الخمسينيات، طرح جارنو بعد أن أصبح هو نفسه عالم مصريات شهير ورئيسًا للمعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة، عددًا من الأسئلة حول شخصية جولينيشيف قال فيها: "هل هناك عالم مصريات غيره اكتشف ونشر وترجم مخطوطات (رائعة!) بهذا الكم الهائل من الروائع الأدبية؟ هل هناك علماء آثار آخرون أو أمناء متاحف ظهروا على هذا النحو من سعة الاطلاع أو الخبرة في جمع الآثار من هذا الخبير في النقوش؟". وقد أوصى البروفيسور الروسي بأرشيفه إلى جارنو تحديدًا، والآن يقوم العالم الفرنسي بوضع أساس مركز فلاديمير جولينيشيف للمصريات في باريس.

وها هو تقدير رفيع آخر للنشاط العلمي لجولينيشيف يأتي بعد خمسة وعشرين عامًا من وفاته: "يرى علماء المصريات أن جولينيشيف يعد أكبر علماء اللغة المصرية القديمة في كل العصور، وقد أصبح في حياته شخصية أسطورية"(٥٨).

---

(٥٨) ي. ب. كوفاليفسكي. المهجر الروسي. باريس، ١٩٧١. ص ١٨٢.

لا يماري أحد في إسهام جولينيشيف في الثقافة المصرية. وهو الذي ترّتب على يديه الكوادر الوطنية الأولى من علماء المصريات. وهناك من الحقائق التي تؤكد إسهام هذا العالم في الثقافة العالمية ككل. إن أعماله، سواء التي كتبها مباشرة بالفرنسية، أو التي تُرجمت عن الفرنسية، يعرفها كل عالم مصريات من كل الجنسيات، وهم يدرسونها ويستشهدون بها. أما المجموعة الفريدة للآثار المصرية القديمة التي جمعها جولينيشيف، فهي زينة متحف بوشكين للفنون الجميلة في موسكو، وهي تحظى بدورها بشهرة واسعة في أنحاء العالم، كما أنها تعد إسهامًا بارزًا في علم المصريات، مع التحفظ على ما يقال من أن هذه المجموعة قد تشكلت قبل هجرة العالم الروسي.

فلاديمير ميخايلوفيتش فيكينتيق (كوستروما، ١٨٨٢/٧/٦ – القاهرة، ١٩٦٠/٢/٩) هو تلميذ ومريد ف. س. جولينيشيف. أستاذ في علم المصريات[٥٩]. إذا كان جولينيشيف قد أولع بعلم المصريات منذ طفولته، فإن فيكينتيف قد بدأ اهتمامه بهذا العلم في فترة النضج بعد أن جرَّب العمل في عدد من المهن. وقد تخرج في كلية الآداب والتاريخ بجامعة موسكو وعمره ٣٣ عامًا[٦٠].

وإلى فيكينتيف تعود مبادرة إنشاء هذه المؤسسة العلمية التعليمية الفريدة في موسكو في عام ١٩١٨، وهي متحف معهد الدراسات الشرقية الكلاسيكية. في عام ١٩٢٢ سافر إلى الخارج في مهمة علمية. في البداية عمل في مكتبات ومتاحف برلين وباريس، وفي نوفمبر عام ١٩٢٣ جاء إلى القاهرة حيث قابل جولينيشيف.

---

(٥٩) فلاديمير بيلياكوف. مدينة موتى روسية في مصر. ص ١٤.

(٦٠) لمزيد من المعلومات عن حياة ف.م. فيكينتيف في روسيا انظر: أ. ف. توماشيفيتش. كلمة عن فلاديمير فيكينتيفيتش (استنادا إلى أرشيف متحف بوشكين للفنون الجميلة). مصر القديمة: اللغة – الثقافة – الوعي. موسكو، ١٩٩٩.

في خطاب لأحد أصدقائه في روسيا، كتب فيكينتيف في الثلاثين من مايو ١٩٢٤ يقول: "لقد تلقيت دعمًا علميًا كاملاً من جانب عالمنا الكبير في المصريات واللغويات فلاديمير سيميونوفيتش جولينيشيف. وقد واظبت على حضور دورة اللغة المصرية، التي كان جولينيشيف يقرأها للمرة الأولى هذا الشتاء في جامعة الملك فؤاد، وهي بمثابة عرض للنحو المصري المبني على نحو مستقل تمامًا، والذي يختلف جوهريا في بعض جوانبه عن النحو عند إرمان(*)"(٦١).

لا تزال الظروف التي دفعت فيكينتيف ليصبح مهاجرًا غير معروفة تمامًا. في مطلع عام ١٩٢٤ صدر قرار بضم مجموعات الشرق القديمة ووضعها في متحف الفنون الجميلة وتعيين فيكينتيف رئيسًا لقسم الشرق القديم في هذا المتحف. وبعد أن تم إبلاغ العالم في القاهرة بهذا القرار، وكانت الإدارة في موسكو قد سمحت له في البداية بمواصلة عمله العلمي في مصر. ثم صدرت تعليمات له بالعودة إلى موسكو. وقد طلب فيكينتيف مالاً يكفل له نفقات السفر وتصريحًا بالدخول إلى الاتحاد السوفيتي، لكنه لم يحصل على أي منهما. وبدلاً من ذلك تم إعفاؤه بدءًا من الأول من فبراير عام ١٩٢٦ من العمل بمتحف الفنون الجميلة ليصبح الطريق إلى الوطن بذلك مغلقًا.

على الرغم من أن فيكينتيف نشر سبعة وأربعين بحثًا علميًا، الجزء الأكبر منها كتبه في القاهرة، فقد دخل إلى تاريخ علم المصريات بوصفه معلّمًا أكثر منه عالمًا. كان فيكينتيف منذ شبابه مولعًا بالغموض. وكما أشار

(*) أدولف إرمان (١٨٥٤ – ١٩٣٧): عالم مصريات ألماني. له أعمال علمية في نحو اللغة المصرية القديمة وتاريخ الثقافة والديانة المصرية. أصدر أكمل قاموس في اللغة المصرية القديمة (المترجم).

(٦١) المرجع السابق. ص ٢٩٦.

الفهرس الإنجليزي الشهير للشخصيات "من هو في علم المصريات" إلـى أن "الأعمال الأخيرة لفيكينتيف كانت كثيرًا ما تتسم بغرابة النظريات والمفاهيم، الأمر الذي قلّل من قيمتها العلمية"[٦٢].

قام فيكينتيف بتدريس علم اللغة والأدب المصري وتاريخ الشرق الأوسط القديم بجامعة القاهرة منذ عام ١٩٢٤ وحتى وفاته. وهناك العديد من تلاميذه من الجيل القديم من أصبحوا من العلماء المصريين المشاهير في علمي الآثار والمصريات. ومن هؤلاء الأساتذة: علي حسن وجاب الله علي جاب الله اللذان شغلا في التسعينيات مناصب رفيعة في قسم الآثار المصرية وفي الأمانة العامة للمجلس الأعلى للآثار. وقد أثنى كلاهما على أستاذهما سواء باعتباره معلمًا وإنسانًا. وقد ذكرت الأستاذة تحفة حندوسة للمؤلف في عام ١٩٩٠، وكانت تشغل في هذا الوقت منصب رئيس قسم المصريات بجامعة القاهرة: "كان فيكينتيف متخصصًا قويًا وإنسانًا رائعًا. كان طوال الوقت يبث فينا فكرة تعاقب الحضارات المصرية. لقد تعلمنا على يديه باستمتاع بالغ"[٦٣].

أما الكسندر نيكولايفيتش بيانكوف (بطرسبورج، ١٨/١٠/١٨٩٧ – بروكسل، ١٩٦٦/٧/٢٠)[٦٤]. فكان عالم مصريات من طراز مختلف. فقد شاهد وهو في سن المراهقة مجموعة جولينيشيف، التي كانت تعرض هناك بشكل عارض ومنذ هذه اللحظة وطوال عمره صار "مريضًا" بمصر القديمة.

---

(٦٢) Bawson, w.. Who was who in Egyptology. London. 1972. P. 293-294.

(٦٣) أرشيف المؤلف. صندوق "الروس في مصر". ملف ٣. ، صحيفة ١٥٣.

(٦٤) عن أ.ن. بيانكوف انظر:

Daumas Francois. Alexandre Piankoff (1897 – 1966). Bulletin de l'Institut francais d'Archeologie orientale. No. 65. Le Caire. 1967.

وقد تصادف أن كان موجودًا في فرنسا في سنوات الحرب العالمية الأولى، جنديًا يخوض الحرب، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها راح يستكمل ما انقطع من تعليمه في برلين. وقد عاش بيانكوف وعمل في باريس في الفترة من عام ١٩٢٤ وحتى عام ١٩٤٠ وحصل على الجنسية الفرنسية. وقد سافر إلى مصر هربًا من الاحتلال النازي، وعمل فيها باحثًا في المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، حيث كان جولينيشيف لا يزال يعمل به.

كان بيانكوف عالمًا كبيرًا. خلقت شهرته ترجماته للنصوص المرسومة على جدران مقابر الفراعنة. وقد حاول من سبقوه ترجمة هذه النصوص معتمدين فقط على علوم اللغة. أما العالم الروسي فقد أثبت أن إدراك المغزى الحقيقي لهذه النصوص لا يمكن أن يتحقق إلا بربطها بالعقائد الدينية للمصريين القدماء.

ويعتبر كتاب "توابيت توت عنخ آمون" الصادر في نيويورك بالإنجليزية عام ١٩٥٥، هو البحث الرئيسي وأكثر أعمال بيانكوف شهرة. وقد حرمه الموت من إعداد عمل آخر أساسي شامل هو "نصوص الأهرام".

وقد ورد في النعي الذي كتبه عالم المصريات الفرنسي فرانسوا دوما في بيانكوف: "كان علينا أن نعرف ألكسندر بيانكوف حق المعرفة، أن نقدّر روعة النقاش معه، أن نقترب من فكره الذي كان مشغولاً دائمًا بحل المشكلات الأساسية، بالبحث الدائم الموجه دائما لإدراك العالم والبشرية، حيث وهب لهما حياته، على نحو أكثر اتساعا، لكي نفهم قيمة العالِم الذي فقدناه وأي ثروة فقدنا. كان إنسانًا متواضعًا ولم يكن يتحمل أن يُثني عليه أحد بالحديث. ربما لهذا مر كثيرون بالقرب منه دون أن يوفوه حقه من التقدير"[٦٥].

---

(٦٥) Ibid.. P. 227

كان بيانكوف عضوًا في المركز الوطني للأبحاث العلمية في باريس. وفي عام ١٩٦٤ حصل على درجة أستاذ وأنعم عليه بالميدالية الفضية لنشاطه العلمي.

وقد ذكر إيجور الكسندروفيتش مويسييف، الذي تعرف إلى بيانكوف في ١٩٦٧ أثناء جولة قام بها مع فرقته إلى القاهرة، أن عالم المصريات الروسي كان يحلم بالعودة إلى الوطن. وقد سمح له بالعودة فقط في منتصف الخمسينيات بعد وفاة ستالين. وقد أخبر مويسييف قائلاً: "إن أولادي يدرسون في أوكسفورد، وقد تقدم بي العمر، ولا أحد منهم بحاجة لي هناك. لقد انتهى كل شيء الآن"(٦٦).

توفي بيانكوف فجأة في بروكسل بعد أن غادر القاهرة لزيارة أقاربه. ومن اللافت للانتباه أنه على الرغم من أنه كان يحمل الجنسية الفرنسية فقد دخل تاريخ علم المصريات باعتباره عالمًا روسيًا(٦٧).

يُعد البروفيسور جريجوري إيفانوفيتش لوكيانوف (موسكو، ١٨٨٥/١١/٢٣ - القاهرة ١٩٤٥/٧/١٢) شخصية بارزة في الجالية الروسية(٦٨). أنهى دراسته في كلية الرياضيات بجامعة موسكو ومعهد موسكو للبوليتكنيك، حيث تم اختياره في عام ١٩١٢ أستاذًا للطيران. عمل لوكيانوف أيضًا في معمل الديناميكا الهوائية تحت رئاسة الأستاذ ن.ي. جوكوفسكي. تلقى تدريبًا في فرنسا وألمانيا وإنجلترا وإيطاليا. وما إن بدأت

---

(٦٦) فلاديمير بيلياكوف. أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار. ص ٢٠٣.
(٦٧) Blue Guide Egypt. 2 nd Edition. New York, 1988. P. 64
(٦٨) فلاديمير بيلياكوف. مدينة موتى روسية في مصر. ص ٢٤.

أحداث الحرب العالمية الأولى حتى قدر أن يغير مهنته، وفي عام ١٩١٧ أنهى الدراسة بمعهد الآثار في موسكو. ثم ألقت به المقادير إلى فلاديفوستوك، حيث قام بتدريس الرياضيات بعض الوقت في جامعاتها. وفي عام ١٩٢٠ سافر إلى أوربا بعد أن حصل من حكومة كولتشاك على منصب ملحق بالتمثيل التجاري في يوغسلافيا، لكنه توقف في القاهرة وهناك قرر الإقامة بها "للظروف الصحية التي تمر بها زوجته" على حد قوله. وفي القاهرة قضى السنوات الثلاث الأولى في العمل سكرتيرًا خاصًّا لسفير تشيكوسلوفاكيا وفي الوقت نفسه راح يدرس هو وجولينيشيف اللغة المصرية القديمة(٦٩). وقد تعرف لوكيانوف إلى إ.ي. بيليبين. وفي رسالة للفنان (بيليبين) كتبها إلى ل.ي. تشيركوفا في الثاني من سبتمبر عام ١٩٢١ يقول: "آل لوكيانوف يرسلون إليك السلام. التقطت صورة فوتوغرافية له عند لوحته الحجرية، أما هو فقد راح ينظر بعيدًا إلى أعلى كأنه يحلم"(٧٠).

في السنوات التي تلت ذلك اشتغل لوكيانوف أساسًا بدراسة الآثار المصرية وإرسالها إلى المتاحف الأجنبية. ووفقا لبعض المصادر فقد كان هو نفسه يتاجر في الآثار(٧١). كان الأستاذ لوكيانوف يلقي أيضًا بمحاضرات عن مصر القديمة. وقد قام بكتابة ستين بحثًا علميًّا من أشهرها "تطور عبادة الشمس في مصر القديمة"، صدر في القاهرة باللغة الفرنسية في عام ١٩٣١(٧٢).

(٦٩) أرشيف السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية. ملف ٨٧، قائمة ٢، دوسيه ٣، وثيقة ١٢، صحيفة ٣،٤.

(٧٠) أرشيف المهجر الروسي. ملف ك. ب ٧٠٩. إ. ى. بيليبين. ١٩١٨ – ١٩٢٥.

(٧١) فلاديمير بيلياكوف. أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار. ص ١٤٠.

(٧٢) أرشيف السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية. ملف ٨٧، قائمة ٢. دوسيه ٣، وثيقة ١٢، صحيفة ٥ – ٨.

في عام ١٩٤٤ اقترح لوكيانوف على البعثة السوفيتية في القاهرة أن تبيع مجموعتها الخاصة من الآثار المصرية إلى متحف الفنون الجميلة في موسكو أو إلى الإرميتاج. وقد لقي اقتراحه اهتمامًا كبيرًا، على أنه وحتى يتم اتخاذ قرار نهائي في هذا الشأن فقد طُلِبَ من البعثة أن ترسل معلومات عن العَالِم نفسه. وقد ورد في التقرير الذي وُضع في نهاية عام ١٩٤٤، أن لوكيانوف يتمتع بسمعة طيبة باعتباره شخصًا وطنيًا، وأنه نشر عددًا من المقالات ذات صبغة إيجابية عن الاتحاد السوفيتي في الصحف المحلية الناطقة بالفرنسية. على أن توصيفًا آخر جاء بعد ذلك في هذا التقرير يرى أن "من بين الصحفيين في القاهرة مهاجرين روسا، وأن في داخل أوساط المثقفين في القاهرة سرت شائعات كثيرة تصف لوكيانوف أوصافًا سلبية: فهو مثقف ذكي ومدبر دسائس غير أمين وانتهازي. كما أن العالِم الروسي القديم جولينيشيف لم يتحمل لوكيانوف ولم يعتبره عالِمًا جادًا". وقد أضاف كاتب التقرير قائلاً إن "لم نتمكن من التأكد من كل هذه الشائعات حتى الآن، وأن من المستحيل الوثوق فيها بشكل كامل"[٧٣]. إضافة إلى ذلك فيبدو أن هذا التقرير كان له أثر كبير، إذ لم تظهر أية معلومات في الأراشيف على إتمام هذه الصفقة. وقد توفي لوكيانوف بعد ذلك مباشرة.

كانت يليزافيتا سيرجييفنا لوكيانوفا (موسكو، ١٨٨٨/٩/٢٣ - ؟) زوجة البروفيسور لوكيانوف عالمة أيضًا، كانت كنيتها قبل الزواج يلاجينا. أنهت لوكيانوفا في عام ١٩١٠ كلية الآداب والفلسفة بالجامعة النسوية في موسكو، ثم درست دورة في تاريخ الفنون في جامعة روما، وفي الفترة من عام ١٩١٢ إلى عام ١٩١٥ عملت في متحف الفنون الجميلة في موسكو لتنتقل منه إلى معهد الآثار حيث تعرفت فيه إلى لوكيانوف. وفي عام ١٩١٦ تزوجا[٧٤].

---

(٧٣) المصدر السابق. قائمة ٧، دوسيه ٥، وثيقة ١١. صحيفة ٢٢ ، ٢٣.

(٧٤) المصدر السابق. القائمة ٢، دوسيه ٣، وثيقة ١٢، صحيفة ٢.

تخصصت لوكيانوفا في دراسة الفنون البيزنطية ولها ثمانية عشر بحثًا علميًا. أشهرها كتابها "الأيقونة الأرثوذكسية ومجموعة كنيسة القديس جورج في القاهرة القديمة"(٧٥).

في الثالث عشر من مارس عام ١٩٤٥ نشرت لوكيانوفا في صحيفة "لا بورص إجيبسيان" القاهرية مقالة ضافية بعنوان "الروح الروسية". وقد بينت فيها أن الطبيعة والدين هما العنصران الرئيسيان لبناء الروح الروسية. وقد تركت المقالة انطباعًا جيدًا لدى البعثة السوفيتية بما احتوت عليه من روح الولاء والإخلاص نحو الاتحاد السوفيتي، على أنه في حديث خاص للمؤلف كان هناك إيحاء بأن هذا التحليل خاطئ(٧٦)، لعله بسبب الدين.

بعد وفاة زوجها غادرت لوكيانوفا مصر بصحبة ابنتها إيرينا، والأرجح أن البروفيسور هو وحده الذي دفن في مصر.

ينبغي أن نذكر أيضًا أوليج فاسيلييفيتش فولكوف (١٩١٣ – القاهرة، ١٩٨٧)(٧٧). كان فولكوف هو آخر رئيس للجالية الروسية. وفي عهده تحديدًا تم بيع النادي الروسي وتسليم اليونانيين الملجأ والكنيسة.

لم يكن فولكوف مؤرخًا من ناحية تعليمه. وإنما كان مدرسًا للغة الفرنسية في الكلية الألمانية في حي هليوبوليس بالقاهرة. ظهر لديه الولع بالتاريخ والآثار بعد خروجه إلى المعاش. أدى مهمته وفقا للعقد المبرم بينه

---

(٧٥) Lukianoff, Elizabeth. Orthodox icons and collection of the monastery of St. George in Old Cairo, 1943.

(٧٦) أرشيف السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية. ملف ٨٧، قائمة ٤، دوسيه ٧، وثيقة ٢١، صحيفة ٥٦ – ٦١.

(٧٧) فلاديمير بيلياكوف. مدينة موتى روسية في مصر. ص ١٥.

وبين المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية. ألَّف فولكوف أربعة كتب[٧٨]. وهناك كتابان آخران لم يصدرا لأسباب غير معلومة، وهو ما صرح به للمؤلف في عام ١٩٩١ الرئيس العلمي للمعهد الفرنسي السيد كريستيان ديكوبير، ولا تزال المخطوطات الخاصة بهما محفوظة في أرشيف المعهد. أحدهما عبارة عن كتالوج للأماكن الأثرية في مصر، والثاني مجموعة مقالات تحت عنوان "الإسكندرية في عيون الرحَّالة"[٧٩].

كان فولكوف رجلاً طويل القامة رشيقًا محافظًا على الأساليب القديمة في السلوك، لم يفقد أبدًا حاسة الدعابة. لم تكن لديه أسرة. وفي فترة ما عاش معه في مصر أخ يدعى بيوتر، لكن بيوتر غادر مصر إلى لندن، ولكنه عاد فور وفاة فولكوف إلى القاهرة ليتفقد أشياء أخيه الشخصية. كان أكثر شيء قيمة من بين هذه الأشياء هي المكتبة، وقد اقتنى المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية الجزء الأكبر منها، أما الباقي فقد بيع لتجار الكتب القديمة. وكان مؤلف هذا الكتاب قد حصل في حينه على الكتاب المقدس الذي كان يملكه فولكوف. وبحسب الخاتم الموضوع على غلاف الكتاب الداخلي الذي يذكرنا بالشعارات الملكية، فإن فولكوف كان يمثل عائلة نبيلة. كان الخاتم يصور قلعة ودرعًا وخوذة فارس وسيفين متقاطعين وحصانًا يشب واقفا على ساقيه الخلفيتين[٨٠].

---

(٧٨) Volkoff. Oleg V. Comment on visitait la vallee du Nil: Les "Guides" de l'Egypt. Le Caire. 1967 ; A la recherché 969 – 1969. Histoire de la ville des "Mille et Une Nuits". Le Caire. 1970; Voyageurs Russes en Egypte. Le Caire . 1972.

(٧٩) أرشيف المؤلف. صندوق "الروس في مصر". ملف ٣. صحيفة ١٧١.

(٨٠) فلاديمير بيلياكوف. أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار. ص ٩٤، ١٠٢، ١٣٨ – ١٤٠.

الأطباء والمهندسون

ضم المهاجرون الروس بينهم عددًا كبيرًا من الأطباء. ويرجع ذلك، كما أشرنا من قبل، إلى إجلاء المرضى والجرحى بصورة رئيسية من روسيا إلى مصر ومعهم طاقم طبي وذلك في عام ١٩٢٠.

سنورد فيما يلي أسماء الذين عاشوا في مصر حتى وافتهم المنية بها وهم: فيكتور إيميليفيتش بيللين (خاركوف، ١٨٨٨/١١/١٥ - القاهرة، ١٩٥٣/١٢/١٢)، بوريس فاسيلييفيتش بولجاكوف (١٨٨٥/١٢/٢٦ - القاهرة، ١٩٥٧/١٢/١٤)، الكسندر الكسندروفيتش فولكنيشتاين (١٨٩١/١٢/١٥ - القاهرة، ١٩٦٣/٢/١٢)، فالينتين يفتانوف (؟ - القاهرة، ١٩٤٦/٦/٨)، بيوتر أندرييفيتش جيتكوف (توفي في القاهرة ١٩٥٦/٦/١٤ عن عمر يناهز الخامسة والستين)، نيكولاي إيليتشيف (توفي في الإسكندرية ١٩٤٣/١٠/١٠ عن عمر يناهز الخامسة والستين)، فياتشيسلاف دانيلوفيتش كازاكوف (١٨٧٩/١٠/٥ - القاهرة، ١٩٧١/١١/٢)، ليديا ديمترييفنا كوتيتونسكايا (١٨٨٤/٣/١ - القاهرة، ١٩٥٢/٦/٢٨)، فلاديمير ميخايلوفيتش نوفوسيلتسيف (توفي في القاهرة ١٩٦٠/٤/٢٤ عن عمر يناهز الثانية والسبعين)، ماريا إيفانوفنا صافونوفا - آيمي (١٨٩٨ - القاهرة، ١٩٥٥/١١/٢٢)، قنسطنطين ياكوفليفيتش تيبلوف (توفي في الإسكندرية ١٩٥٤/١/٢٥ عن عمر يناهز الثالثة والسبعين)، الكسندرا مكسيموفنا ترويتسكايا (توفي في الإسكندرية ١٩٤٧/٨/١٦ عن عمر يناهز أربعة وسبعين عامًا) وزوجها ميخائيل ديمترييفيتش ترويتسكي (١٨٨٧ - الإسكندرية، ١٩٥٣/١١/١٣)[٨١].

---

(٨١) فلاديمير بيلياكوف. مدينة موتى روسية في مصر.

عدد كبير من الأطباء، الذين عاشوا في مصر في البداية غادروها بعد ذلك. على سبيل المثال، عندما افتتحت في عام ١٩٢٠ في القاهرة العيادة الروسية، عمل فيها أيضًا، إلى جانب بيللين وفولكينشتاين، الجرَّاح بلاتونوف وطبيب الأطفال تسيبينيوك وطبيب العيون ساندر، والأطباء رابينوفيتش وجوين ومالتسيف، وهؤلاء لم تكن تخصصاتهم معروفة. ورأس ناركيريير المعمل، وكان قد وصل إلى مصر قبيل الحرب العالمية الأولي وأنشأ في تلك الآونة معملاً طبيًا خاصًا في حلوان(٨٢).

كان ك. إ. فاجنر هو أول مدير للعيادة الروسية، وكان قد غادر روسيا بعد أن أصبح أستاذًا قديرًا في جامعة موسكو. وبعد أن قضى في مصر بضع سنين عاد إلى الوطن، إلى وارسو، حيث توفي هناك في الثلاثينيات(٨٣).

بعد رحيل فاجنر رأس ف.إ. بيللين طبيب الأذن العيادة الروسية عدة سنوات دون تغيير. وكان بيللين إبنًا لأستاذ بجامعة خاركوف، وقد أنهى في عام ١٩١٢ هذه المؤسسة التعليمية. سافر إلى برلين وفينا وهامبورج للتدريب ليعود بعدها ليرأس قسم الأذن بعيادة الجراحة بجامعة خاركوف. عمل رئيسا للقطار الطبي في سنوات الحرب العالمية الأولى. في مايو عام ١٩١٩ التحق بالجيش التطوعي وأصبح كبيرًا للأطباء في نقطة الإجلاء والتوزيع في خاركوف. في يناير عام ١٩٢٠ تم تعيين بيللين رئيسًا لحركة إخلاء المرضى والجرحى بمنطقة نوفوروسيسك، كما عين فور وصوله إلى مصر رئيسًا لمستشفى المعسكر الروسي في حي العباسية بالقاهرة(٨٤).

---

(٨٢) أرشيف السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية. ملف ٣١٧، قائمة ٣/٨٢٠، وثيقة ٢٢٢، صحيفة ١.

(٨٣) ف. ف. بيللين. مصدر سابق. ص ٣١٩.

(٨٤) أرشيف العلاقات السياسية الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧، قائمة ٣/٨٢٠، وثيقة ٢٢٠، صحيفة ١.

في عام ١٩٣١ وصل إلى مصر قادمًا من إنجلترا البروفيسور ج. ف. فون أنريب (١٨٨٩ – ١٩٥٥) أستاذ الفسيولوجيا الروسي الشهير، والذي كان تلميذا للعالم الشهير إ.ب. بافلوف. رأس أنريب قسم الفسيولوجيا بكلية الطب بجامعة القاهرة، وإلى جانب قيامه بالتدريس أدار العمل العلمي بها. وقد قام فون أنريب بنشر أشهر اكتشافاته في مجال النشاط العصبي للإنسان في القاهرة تحديدًا، كما قام هذا العالم الروسي والمعلم بتعليم مجموعة كبيرة من أطباء الفسيولوجيا المصريين[٨٥].

على مدى ثمانين عامًا عملت بالقاهرة عائلة برومبرج بعيادة الأسنان، التي أسسهاميناخيم خايموفيتش برومبرج (توفي في القاهرة في عام ١٩٦٢ عن عمر يناهز ستة وسبعين عاما)، وكان قد أنهى كلية الطب بجامعة يورييفسكي (طارطو– إستونيا). عاش وعمل في لاتفيا، ثم هاجر في عام ١٩٢٢ إلى فلسطين، على أن الحياة لم ترق له هناك فانتقل إلى القاهرة. ولد ابنه فيكتور في عام ١٩٢٢ في فلسطين، وفي عام ١٩٤٥ تخرج في جامعة بيروت ليصبح أيضًا طبيبًا للأسنان. كان المصريون يذهبون إلى عيادة آل برومبرج للعلاج إلى جانب المهاجرين الروس والدبلوماسيين السوفيت. وكان يعتبر نفسه مصريًا على الرغم من أنه لم يحصل على جنسية البلاد، وإنما كان يحمل بطاقة شخصية فقط Laissci passei تتيح له الذهاب لتجديد الإقامة في مصر كل عشر سنوات[٨٦].

(٨٥) فلاديمير بيلياكوف. أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار. ص ١٠٠ – ١٠٢.
(٨٦) فلاديمير بيلياكوف. أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار. ص ١٠٠ – ١٠٢.

أشار ف. ف. بيللين إلى أن "الأستاذين أنريــب وب. ف. بولجــاكوف أسسا جيلاً جديدًا من الأطباء المصريين". وفي سياق تقديمه إجمالاً للخدمات التي قام بها الأطباء الروس في مصر كتب بيللين أيضا قائلاً: "لقــد أســس الأطباء الروس الجمعية الطبية الروسية وبدأ رئيسها ف. إ. بيللين في عــام ١٩٣٢ إصدار "نشرة العيادة الروسية". كانت الجمعية تعقد اجتماعاتها مــرة كل شهر. وفيها قرأ البروفيسور بلاتونوف وأطباء آخرون محاضراتهم. وفي الجمعية أيضًا نظمت دورات للتدليك وكيفية رعاية المرضى وأخيرًا تم إنشاء مستشفى تابع للعيادة"[٨٧].

كان عدد المهندسين بين المهاجرين أقل كثيرًا من الأطبــاء وهــو مــا يفسره مرة أخرى خصوصية تشكل الجالية الروسية. ومن بين هؤلاء مهندس المواصلات ميخائيل إيفانوفيتش ستاريتــسكي (١٨٦٨/١٠/٢٨ – القــاهرة، ١٩٣٥/٣/١٦)[٨٨]. عاش ستاريتسكي زمنًا طويلاً في بورسعيد حيث عمــل في شركة قناة السويس. وفي العشرينيات قام بتمثيل مصالح الجانب الروسي إبان الأعمال التي جرت بشأن رفع مكونات السفينة "بيريسيفت"[٨٩].

ســيرجي نيكــولايفيتش ليليافــسكي (١٨٩١/٦/٢٦ – القــاهرة، ١٩٦٣/٧/٢٩)[٩٠]، مهندس آخر يعمل في مجال المواصلات أيضا، وكــان أحد الذين شاركوا في بناء السد الصغير في دلتا النيــل[٩١]. ومــن اللافــت للانتباه أنه توفي بعد وفاة زوجته يكاتيرينا سبيريدونوفنا بعشرة أيام[٩٢]. كانت صدمة ليليافسكي بموت رفيقة عمره فوق احتماله.

---

(٨٧) ف. بيلياكوف. المصدر السابق. ص ٣٢٦.
(٨٨) ف. ف. بيلياكوف. مدينة موتى روسية في مصر. ص ٢٣.
(٨٩) أرشيف العلاقات السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملــف ٣١٧، قائمــة ١/٨٢٠، وثيقة ٥٦٥، صحيفة ٧٨.
(٩٠) ف. ف. بيلياكوف. مدينة موتى روسية في مصر. ص ٢٣.
(٩١) ف. ف. بيللين. المصدر السابق. ص ٣٢٦.
(٩٢) ف. ف. بيلياكوف. مدينة موتى روسية في مصر. ص ٢٣.

وفي نهاية الأربعينيات كان مدير التنقيب عن الذهب في وادي الفواخير بالصحراء الشرقية، بشهادة عالم الآثار البلجيكي فيرنان ديبونو، مهندسًا روسيًا، غير أن ديبونو لم يستطع أن يتذكر اسمه(٩٣).

قد يُطرح تساؤل مفاده ما إذا كان من الممكن اعتبار نشاط المهاجرين هو إسهام في الثقافة الروسية أم المصرية؟ من وجهة نظرنا أن الإجابة عن هذا التساؤل إجابة واحدة أمر مستحيل، فالأمر يتوقف على نوع النشاط.

إذا ما تحدثنا عن إنتاج مادي، في مجال الخدمات والتعليم، ففي هذه الحالة يمكن أن نؤكد بشكل محدد أن المهاجرين الروس، المهندسين والأطباء والمعلمين قد أسهموا في الثقافة المصرية تحديدًا، إذ إن نشاطهم لم يكن له أي أثر على الوطن.

وعلى الجانب الآخر، العلماء ورجال الفن. هنا يمكن الحديث مرارًا وتكرارًا حول إسهام هؤلاء في الثقافة المصرية، فضلاً عن الثقافة العالمية ككل، ومن ثم في الثقافة الروسية. إن أعمال علماء المصريات ف. س. جولينيشيف، ف. م. فيكينتييف، أ.ن. بيانكوف، ج.إ. لوكيانوف، أ.ف. فولكوف، وعالم الفسيولوجيا ج. ف. فون أنريب معروفة للمصريين؛ فضلاً عن الروس، كما أن أعمال الرسام إ.ف. بيليبين والنحات ب. أ. فريدمان – كليوزيل في فترة هجرتهما في مصر موجودة بشكل أساسي في مصر، وكذلك في المتاحف وضمن المجموعات الخاصة في مختلف بلاد العالم. وبعض من هذه الأعمال التي نالت شهرة بفضل مطبوعات الباحثين في روسيا التي ساعدت بذلك في إثراء الثقافة الروسية أيضًا.

---

(٩٣) ف. ف. بيلياكوف. أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار. ص١٤١ .

وفي بعض الأحيان يصبح تحديد تبعية نشاط هذا المهاجر أو ذاك قطعيًا أمرًا بالغ الصعوبة بشكل عام. خذ مثلاً. لقد نشر إ. ب. أوموف في الولايات المتحدة الأمريكية ديوانًا شعريًا باللغة الروسية، أما ديوانه الثاني فقد نشره باللغة الفرنسية في مصر. في الحالة الأولى يمكن القول، من وجهة نظري، إنه إسهام في الأدب الروسي، على الرغم من أن هذه الأشعار لم تنشر في الوطن. أما في الحالة الثانية فإنه أقرب إلى تعريف "الثقافة الأوربية المصرية" – فهو يعد ظاهرة ثقافية متفردة للأوربيين، الذين كانوا يعيشون في مصر بصفة دائمة.

خاتمة

إن دراسة تاريخ تطور العلاقات الإنسانية بين روسيا ومصر تسمح ، من وجهة نظرنا، أن نطرح عددًا من الاستنتاجات حول مغزاها بالنسبة للتبادل الحضاري ونمو العلاقات بين البلدين. وسوف نحاول في إيجاز صياغة هذه الاستنتاجات.

١- ينبغي أن نؤكد بالدرجة الأولى أن العلاقات الإنسانية بين شعبينا قد ساعدت على خلق نموذج إيجابي لروسيا والروس في مصر. وفي سياق تعاملهم مع الروس، سواء الرحَّالة منهم أو المهاجرين، ظل المصريون على اقتناع أن الروس ليست لديهم عجرفة الممثلين، التي لدى الأوربيين الآخرين، وأن الروس يتعاملون معهم بندية تامة، الأمر الذي أثار مشاعر التعاطف لدى المصريين تجاه الروس وتجاه روسيا ككل. وفي الشرق أدى تصور الشريك المحتمل في بعض الأحيان دورًا حاسمًا في التفاعل بينهما. ولهذا فإن تشكل النموذج الإيجابي لروسيا وللروس في مصر ساعد بشكل محدد على تطور العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية بين البلدين.

٢- سمحت العلاقات الإنسانية العريضة بتوسيع مدارك الروس بتاريخ الحضارة المصرية وتراثها الثقافي. ونتيجة للرحلات التي قام بها الروس إلى مصر ظهر العديد من المؤلفات التي تناولت هذا البلد وشعبه وآثاره التاريخية. وقد تكونت مجموعات كبيرة من الآثار المصرية لدى المتاحف

والأشخاص، كان لها دور شديد الأهمية في حركة التنوير في روسيا. فإذا ما أخذنا في الاعتبار أن مصر واحدة من أهم الحضارات القديمة، لوجـدنا أن معرفة الروس بها قد وسع من معرفتهم بمجمل الحضارة الإنسانية.

٣- لقد كان "للأسلوب المصري" أثره الواضح في إثراء العمارة والفن الروسيين "على سبيل المثال في البوابات المصرية والهرم الموجودين فـي تسارسكوي سيلو، وفي الجسر المصري في بطرسبورج ومداخل القصور في بافلوفسك وأرخانجلسكوي وأوستانكينو وكوزمينكي وغيرها من الأماكن، وقد أصبحت كل هذه النماذج جزءًا لا يتجزأ من الثقافة الروسية.

٤- وقد كان لظهور الموتيڤات المـصرية فـي الـشعر الروسـي، والأعمال الأدبية أثر كبير بلا شك في ثرائها. لا يمكن تصور إبداع فلاديمير سولوفيوف وقنسطنطين بالمونت وإيفان بونين ونيكولاي جوميلـوف وعـدد آخر من الأدباء الروس دون أن تكون مصر عنصرًا أساسيًا في مؤلفاتهم.

٥- وبفضل السائحين الروس والمهاجرين على وجـه الخـصوص، تعرّف المصريون على الثقافة الروسية، وذلك من خلال الجوقـات وفـرق الباليه والموسيقى الكلاسيكية والمسرح، التي تكونت جميعها من أعداد مـن المهاجرين والتي عرضت أعمالها بنجاح كبير في مدن مصر الكبرى. كمـا كان للحرفية الرفيعة التي عرض بها الروس فنونهم إلـى جانـب تقـديمهم لأنفسهم كنموذج إنساني إيجابي أثر بالغ ظهر فيما بعد في دعوة المـصريين للخبراء السوفيت تحديدًا وليس الغربيون في إنـشاء المـدارس المـصرية الوطنية للموسيقى الكلاسيكية والباليه والرقص الشعبي والسينما والسيرك.

٦- أصبح تقليد قيام الروس الأرثوذكس بالحج إلى سيناء، وهو التقليد الذي استمر لقرون طويلة، عنصرًا شديد الأهمية في سياق الحياة الروحية الدينية لروسيا، مثله في ذلك مثل الحج إلى الأراضي المقدسة، كان يلقى تقديرًا رفيعًا باعتباره مأثرة روحية تطهرية، هدفها الخلاص الروحي.

٧- ساعدت التبرعات التي قدمها الروس الأرثوذكس جنبًا إلى جنب مع السياسة التي تنتهجها الحكومة الروسية في دعم أبناء الدين الواحد في هذه البلاد في الحفاظ على المقدسات والآثار المسيحية. وقد تخطت أهمية هذا الدعم الحدود المصرية والروسية ليصبح عنصرًا شديد الأهمية للعالم الأرثوذكسي بأسره.

٨- في نهاية القرن التاسع أقام ممثلو الجالية الروسية في مصر في القاهرة والإسكندرية، وحتى في منتجع حلوان. وقد ساعد وجود المصحات الروسية والأطباء الروس فيها على زيادة السياحة العلاجية القادمة من روسيا، ومن ثم المساعدة في شفاء آلاف المواطنين الروس.

٩- من بين المهاجرين الروس عاش ممثلون عن مختلف المهن؛ أطباء ومهندسون وعلماء ورجال الثقافة. وهؤلاء استطاعوا الاندماج في الحياة المحلية، كما أسهموا في تطور مصر في مجالات الصحة والتعليم والعلوم والثقافة والاقتصاد. وقد أسهمت السياحة القادمة من روسيا إسهاما ملحوظًا في الاقتصاد المصري باعتبارها واحدة من مصادر العملات الصعبة.

١٠- لقد جاء المهاجرون الروس إلى مصر من بلد أكثر تقدمًا اقتصاديا وسياسيًا. ومثلهم مثل الأوربيين الآخرين الذين استقروا في مصر، كان لهم إسهامهم في حركة التنوير السياسي للمصريين وفي انتشار الأفكار الاشتراكية. كما كان هناك عدد من ممثلي الجالية الروسية من أعمدة الحركة العمالية في مصر.

لقد أسفر جمع المواد الخاصة بالعلاقات الإنسانية الروسية المصرية على أرض مصر نفسها عن عدد من النتائج العملية. يمكن إيجازها على النحو التالي:

١- تم وضع توصيف لمدينة الموتى الروسية في مصر كشف عن دفن نحو ٨٥٠ روسيًا أرثوذكسيًا توفوا في مصر. وبفضل الجهد الذي قام به المؤلف في دراسة سجلات المقابر، جرى اكتشاف ١٧٦ اسمًا روسيًا غاب أصحابها في الثري وتحت شواهد القبور التذكارية. وكذلك تم تصحيح تواريخ حياة ووفاة عشرات من هؤلاء الناس. إن توصيف مدينة الموتى له أهمية كبيرة سواء عند دراسة تاريخ الجالية الروسية في مصر، أو عند إجراء الأبحاث الخاصة بأنساب الموتى.

٢- تم في دير سانت كاترين والكنائس التابعة له اكتشاف عدد كبير للغاية من الآثار الثقافية المادية ذات الأصول الروسية: مخطوطات، كتب قديمة، وثائق، أيقونات، لوازم كنسية وملابس رهبان. وقد تم التعرف على وجود عدد من الحجاج جاءوا إلى مصر في الفترة ما بين القرن الخامس عشر وحتى القرن التاسع عشر من خلال أوراق أو مذكرات تركوها خلفهم هنا.

٣- عُثر على ثلاث أيقونات ولوحة تزيينية من أعمال الرسام الروسي البارز إ.ي. بيليبين وتمثالين ونحت بارز قام بعملهم الموظف السابق في مصنع "فابريجيه" الشهير ب. أ. فريدمان – كليوزيل ، وجميعها تم نشرها.

٤- تم العثور على كتب المهاجرين: أ.ف. فولكوف، ي. س. لوكيانوفا، ف. ب. ريربيرج، إ. ب. أوموف، د. فلاميورياني. وتم اكتشاف

وإرسال إلى موسكو المصدر الفريد في تاريخ المهجر الأبيض في مصر، وهو عدد من مجلة "في المهجر"، وكان قد صدر في "المعسكر الروسي" في سيدي بشر في الأعوام ١٩٢١ - ١٩٢٢. كما تم أيضًا اكتشاف ثلاث لوحات للرسام ف. ب. ريربيرج تصور حياة اللاجئين الروس في معسكر التل الكبير في عام ١٩٢٠ وأرسلت إلى موسكو.

٥- اكتشف أيضا سيف القائد فرولوف، وهو أثر ذو قيمة تاريخية وثقافية كبيرة، وكانت الإمبراطورة أنًا يوهانوفنا قد أهدته له في عام ١٩٣٧، وهو من آثار عائلة جولينيشيف - كوتوزوف، نشرت صورة له مع وصفه. وقد تسلم المؤلف نسخة من فيلم تسجيلي تم تصويره في عام ١٩٨١ عن آخر ممثلي عائلة جولينيشيف كوتوزوف يفدوكيا فاسيليفنا.

٦- بعد قيام المؤلف باكتشاف قوائم في الأرشيف بأسماء البحارة الروس للسفينة "بيريسفيت"، الذين لقوا حتفهم، قامت وزارة الدفاع في الاتحاد السوفيتي ، بناء على مبادرة منه ، بإعداد وإقامة لوحتين تذكاريتين جديدتين على المقبرة اليونانية الأرثوذكسية في بورسعيد. إحداهما نقش عليها أسماء كل الذين استشهدوا ، وعلى الأخرى أسماء الذين جرى دفنهم. وقد فرضت الحكومة السوفيتية في البداية حمايتها للنصب التذكاري للبحارة الروس، ثم الحكومة الروسية فيما بعد.

٧- وبناء على مبادرة من المؤلف أيضًا تم ترميم الكنيس المقام على "المقبرة الروسية" في جبانة الروم الأرثوذكس بالقاهرة على نفقة السفارة الروسية، وكذلك تم ترميم شاهديّ قبريّ البروفيسور ج. إ. لوكيانوف والسفير أ.أ. سميرنوف المقامين متجاورين.

ينبغي في الختام أن نشير إلى أننا لا نعتبر العمل على دراسة العلاقات الإنسانية بين روسيا ومصر في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين اكتمل تماما. فلا تزال أمامنا مهمة فهرسة ووصف الآثار الثقافية المادية ذات الأصول الروسية الموجودة في دير سيناء. كما أن موضوع "مصر في الثقافة الروسية" يستحق بحثًا صافيًا. وهناك نقص كبير في تاريخ نشأة ونشاط الجالية الروسية في مصر وممثليها. علاوة على ذلك أصبح من الممكن القول الآن وبكل ثقة؛ إن هذه العلاقات قد أرست أساسًا متينًا للتفاهم بين الشعبين الروس والمصري، وأنها أصبحت تمثل تربة خصبة يمكن من خلالها أن تتطور فيما بعد، وعلى نحو قوي كل أوجه التعاون المصرية الروسية.

ملحق

١- شهادة امتياز إلى دير سانت كاترين[١]

بفضل ونعمة من الثالوث، قمنا نحن الحكام والأمراء العظام، يوهان الكسييفيتش وبيوتر الكسييفيتش والقيصرة العظيمة الأميرة صوفيا الكسييفنا، الحكّام العظام والقياصرة والأمراء العظام، حكّام موسكو وكييف وفلاديمير ونوفجورود، قياصرة فازان وأستراخان وسيبيريا، حكّام بسكوف، أمراء سمولنسك وتفير ويوجورسك وبيرم وفياتسك والبلغار وغيرها، الأمراء العظام لأراضي نوفجورود نيزوفسكايا وتشيودونيجوف وريازان وروستوف وياروسلاف وبيلوزيرسك ويودورسك وأوبرورسك وكوندينسك وكل أقاليم الشمال، حكّام كاباردينسك وشيركيسيا وجورسك، أمراء العديد من الأراضي والضياع في البلاد الشرقية والغربية والشمالية التي ورثناها عن آبائنا وأجدادنا، فنحن ورثتها وسادتها وحكامها، منحنا نحن القياصرة العظام جبل سيناء المقدس وشجرة العليقة المقدسة، شهادة الامتياز لرئيس الأساقفة

---

(١) أرشيف دير سيناء. قائمة جرد رقم ٤ - ٩٢. اكتشف المؤلف هذه الشهادة إبان بعثة إلى دير سانت كاترين في مطلع عام ٢٠٠٣. وقد كتبت على صحيفة ورقية مزدوجة مقاس ٥٢ × ٤٦ سم. النص مزين بزخارف ذهبية مع صورة للتاج الملكي. الشهادة مغطاة بغطاء من الحرير الأصفر عليه وشي نباتي مقاسه ٦٥×٥٠ سم، مثبت برباطين مُعلق بهما خاتم من الشمع الأحمر عليه شعار القيصر قطره ٦ سم. الغطاء ملصق على ورقة بوصلة من نسيج سميك ذي لون بني عليه زهور مذهبة. قام بفك شفرة النص ن. ج. جولوفنينا.

يوهانيكي والأرشيمندريت كيريل، اللذين حملاها إلى الجبل المقدس، إلى هذا الدير ليعطياه شهادة الامتياز. بعد أن أرسل إلينا في العام الماضي، إلى قيصرنا العظيم، من جبل سيناء المقدس، حيث يوجد هذا الدير، من خلال رئيس الأساقفة يوهانيكي نيابة عن المجمع كافة والأرشيمندريت كيريل. وقد تفضلنا بوضع دير جبل سيناء المقدس، أن يصبح بكل من فيه من قساوسة بوضع هذا الكنز الرباني العظيم وباعتباره من المقدسات الجديدة التي ستكون تحت حماية دولتنا بدلاً من القيصر جوستينيان، وسوف يتمتع برعاية قيصرنا وحُكّامنا. وسوف نرسل إليه القساوسة. وها نحن السادة العظام والقياصرة والأمراء العظام يوهان الكسييفيتش وبيوتر الكسييفيتش والحاكمة العظيمة صوفيا الكسييفنا، حكام روسيا الكبرى والصغرى والبيضاء لتقوم دولتهم برعاية هذا الجبل المقدس والدير وشجرة العليقة المقدسة من أجل عقيدتنا المسيحية الطاهرة.

صدرت شهادة الامتياز التي منحناها في مدينة موسكو العظيمة الظافرة صيف ٧١٩٧ (١٦٨٩) في اليوم الخامس من شهر فبراير.

كتب المرسوم الحكومي الكاتب بوريس ميخايلوف.

٢- تعليقات الروس في سجلات زوار دير سيناء

سجل ١٨٩٧ - ١٩٣٤

١- "٥/١٨ يوليو١٩٠٢. أستاذ مساعد خاص بجامعة سان بطرسبورج أ. أ. فاسيليف: بطرسبورج، روسيا".

٢- "٣٠ أبريل ١٩٠٢، وصلت إلى سيناء البعثة العلمية الروسية يمثلها البروفيسور ن.ي. مار، الأستاذ المساعد الخاص أ. أ. فاسيليي والأمير إ.أ. دجفاخوف الحاصل على درجة الماجستير وقامت على تجهيزها جامعة سان بطرسبورج الإمبراطورية وجمعية الآثار الإمبراطورية، سان بطرسبورج : ٦ يوليو غادر الدير أ. أ. فاسيليف المتخصص في الدراسات البيزنطية للقيام بالمهام المنوطة بتنفيذها. في الثلاثين من يوليو سوف يغادر سيناء باقي أفراد البعثة بشعور تام بالرضا على المكتبة، وعلاوة على ذلك فإننا قد أسهمنا قدر ما استطعنا بمبلغ ستمائة وسبعين فرنكا ذهبيًا تعبيرًا عن امتناننا الصادق إلى دير سانت كاترين العظيم وقساوسته المبجلين. ٣٠ يوليو/ ١٢ أغسطس. ن. مار، إ. دجفاخوف".

٣- بعد أن قضيت في الدير شهرًا ونصف، أتقدم بخالص الشكر للاستقبال الطيب والمساعدة التي تلقيتها أثناء قيامي بأعمالي العلمية والفنية لكل العاملين وكل الآباء في الدير. ن. بكلانوف. أكاديمية الفنون. سان بطرسبورج".

٤- "أتقدم بخالص الشكر للاستقبال البشوش والحفاوة رفيعة المستوى التي قوبلت بها. لقد قضيت في الدير أحد عشر يومًا وأشعر بالأسي لاضطراري لمغادرة هذا المكان الرائع وهؤلاء الناس الممتازين. سيرجي شوكين من موسكو. ٦/١٩ نوفمبر ١٩٠٧".

٥- "أتقدم بعميق الامتنان لآباء دير سيناء للمساعدة التي قدمها لي أثناء قيامي بدراسة المخطوطات الموجودة في مكتبتهم القيمة. فلاديمير روزوف ٩ يوليو١٩٠٨".

٦- "١٢ مايو ١٩١٠. الكسي سميرنوف. سفير الإمبراطورية الروسية فوق العادة والوزير القائم بالأعمال لدى مصر، ياور جلالة الإمبراطور.

٧- نائب مدير ديوان وزارة الخارجية ياور ومستشار الدولة نيكولاي بوجينبول.

٨- سكرتير سفارة روسيا الإمبراطورية لدى القسطنطينية البارون رولف رودولفوفيتش أونجيرن شتيرنبيرج".

٩- "من ١٤ يوليو١٩١٢ وحتى ٦ أغسطس قمت بالعمل في مكتبة المخطوطات بدير سانت كاترين. أتقدم بعميق الامتنان إلى أ. ديكيي وسكيفو فيلاكس لاهتمامهم الدائم واستعدادهم لتوفير كل وسائل الراحة للباحثين. أتقدم بالشكر العميق أيضًا لكل قساوسة الدير لرعايتهم القلبية الخالصة لي. إن المرء ليشعر هنا وهو يعيش في قلب الصحراء بعيدا عن الوطن أنه في بيته. إ. الأب البروفيسور بأكاديمية اللاهوت إ. كاريبينوف. ١٩١٢/٨/٧".

١٠- "سوف أظل أتذكر دائما بكل السعادة هذا الوقت الذي قضيته في ضيافة دير سانت كاترين. أشكر من كل قلبي الأب الأرشيمندريت نيوفيت وقساوسة الدير على حفاوة الاستقبال وعلى الرعاية المؤثرة. ٩ أبريل (٢٧ مارس) ١٩٢٢. ميخائيل (اسم العائلة غير واضح)".

١١- "لقد قضيت في دير سانت كاترين أربعة أيام مرت سريعة غمرتني فيها سعادة بالغة. أتقدم بوافر الشكر للأب رئيس الدير ولكل القساوسة الذين استقبلونا بكل حفاوة ومودة. عظمة قمم الجبال في سيناء تحاكي هنا الأراضي المقدسة الغابرة، الروح تشعر تلقائيًا بالسكينة مقتربة من الله، والكلمات تتردد أكثر وضوحًا وبيانًا حتى إن الدير يكاد ينطق قائلاً: "على الأرض السلام وبالناس المحبة". سيرجي فيدبافسكي. مهندس تعدين. روسيا". (نهاية عام ١٩٣١).

١٢- "أشكركم أيها السادة، الذين أتاحوا لي أن أرى سيناء جبل الله، وأن أركع له عنده. إن ذكرياتي عن الجبل المقدس لن تتمحى أبدًا عن ذكرياتي أو ذكريات رفاقي. أتقدم بالشكر العميق لفخامة الأسقف بورفيري على ما قدمه لنا من حسن الضيافة والمودة وأصلي على راعية دير سيناء المعذبة العظيمة كاترين أن تحقق بصلواتها المأثرة المختارة، أن تحرس الأرض الروسية، التي ترتبط ارتباطا وثيقا بسيناء. الأسقف أناستاسي. رئيس الشمامسة فينيامين. ٢٤ – ٢٥ نوفمبر ١٩٣٢".

١٣- "لم يره أحد في أي مكان". إنجيل الحواري يوحنا. أمام مذبح الله في جبل حوريب. يوم القديسة كاترين ١٩٣٢. دير سيناء.

عند سفح جبل الألواح

حيث أظهر الله قوانينه لموسى

احترقت يد جوستينيان

أمام مذبح المصباح العالي

ولا يزال الآباء السيناويون

يحافظون عليه مشتعلاً

أما الجبل المقدس فيتلألأ

كل مساء في جوار العليقة

رمز الظهور السماوي

ياروسيا الكلمة الطيبة

نحمل إليك أحزاننا .

فلملمي الألواح المحطمة. جريجوري لوكيانوف".

١٤-"سوف أحفظ طوال عمري ذكرياتي عن أرض سيناء المقدسة العظيمة. فليحفظ الله العلي فلاديك بورفيري سنوات مديدة. القس ميخائيل بولسكي. ١٩٣٢".

سجل ١٩٣٤ - ١٩٥٠

١- "زار هذا المكان المقدس بيوتر ياكوفليفيتش تشيلكوفسكي الذي وصل من سوريا إلى مصر. وقد زار أيضًا الدير. ١٩٣٧/٦/١٠. بيوتر تشيلكوفسكي".

٢- "أنجدني يا إلهي وارحمني. وقد وصل العُبَّاد م. ماريا من جبل يليونسكايا في الرابع من يناير ١٩٣٨. قاموا بعمل القُداس هم وم. أنطونينا وم. فالينتينلي".

٣- ٣ فبراير ١٩٥٠. الخميس. أنّا تيبونتينوفا، راهبة دير يليونسكايا".

٤- ١٩٥٠/١٠/٢٠. شكرًا لله الذي يسر لي زيارة جبله المقدس في سيناء. لتنتصر قوانينه التي لا تنقض في بلادي البعيدة روسيا في النهاية.

ساعدني يا إلهي. الكسندرا جافريلوفا. هليوبوليس".

سجل ١٩٣٤ – ١٩٥٣

١- ١١-١٤/٩/١٩٣٧. خالص الشكر للحفاوة الودية التي قُدمت لنـــا. ساشا، ماريا فيديايفسكايا وكنيتها قبل الزواج فنينا. ســيرجي فيديايفــسكي. مهندس تعدين. روسيا – فورونيج – والآن Guebel Asmar Sinii".

٢- "من الخامس عشر من نوفمبر وحتى الثامن ديسمبر عام ١٩٥٠ يسر الله لنا السفر إلى المعذبة العظيمة القديسة كاترين التي ساعدتنا على إنهاء حجنـــا إلى الأراضي المقدسة وإلى سيناء في مصر. الشكر للذي نظّم وقادني إلى هـــذه البقعة التي يشعر المرء أن الروح القدس تحلق فوقها. كثير مـــن الانطباعـــات الرائعة. في كل خطوة آثار وطني الغالي روسيا المقدسة. لنتقاسم الأفكار بفضل الله مع الروس الأرثوذكس الآخرين. بارك اللهم أن تأخذني عبر ســيناء إلـــى الأراضي المقدسة. شكر من روسيا إلى فخامة فلاديك بورفيري الثالث وإلى كل قساوسة الدير. الكسندرا جافريلوفا. Heliopolis , Egypt".

٣- ١٥ – ٢٢ أغسطس ١٩٥١. شكرًا للـــه للحج الرائع للمرة الثانية إلى جبل سيناء، جبل سانت كاترين وما حوله. شكرًا للـــــه علـــى أدائـــي الصلاة. الكسندرا جافريلوفا. Heliopolis - Egypt".

٤- من ٢١/٨/١٩٥١. شكرًا لله وإلى القديسة المعذبة العظيمة كاترين أنهما يسرا لي أنا الخاطئ أن أقوم بالحج إلى هذا الحصن الضائع في الجبال. البقعة التي لا تنساها روسيا المقدسة. وعلى كل خطوة خطوتها فيه. ليهـــب اللـــه وطننا الخلاص من نير الكفر لتصبح من جديد حصن الأرثوذكسية في العالم أجمع. أ.م. جافريلوف. القاهرة. شكر من القلب لفلاديـــك بـــورفيري الثالث وإلى كل قساوسة الدير على مودتهم وكرم استقبالهم.

١- "٣/٢٨ – ١٩٥٩/٣/٣١. هل من الممكن أن يعدد المرء الانطباعات السعيدة والعميقة التي عاشها على مدى ثلاثة أيام من الوجود في الدير في سيناء؟ بريق النجوم الرائع في الليالي التي غاب فيها القمر. الجوزاء فوق الصخرة ووراءها وثبة الكلب الأكبر؟ قراءة "المرج اللاجئ" بعد الفجر مباشرة على منظر قطيع الجمال وأطفال البدو. لقاء شخص "من الجانب الآخر"، عميق الثقافة ويعاني مثلما عانى دوستويفسكي على الرغم من أنه قرأه في ترجمة إنجليزية ... نيكولاي ستاركوفسكي".

٢- "٥٩/٤/٨. أعبر عن امتناني العظيم لحفاوة الاستقبال والاهتمام. لقد استمتعنا كثيرًا بزيادة بالأثر الرائع للثقافة المسيحية. قنصل الاتحاد السوفيتي في بورسعيد أ. تشيكوف. نائب قنصل الاتحاد السوفيتي في بورسعيد فلاديمير بيروجوف. نائب قنصل الاتحاد السوفيتي في بورسعيد ف. كامينسكي".

٣- "١٩٦٠/١/١٨. سعدت غاية السعادة بمشاهدة هذا الأثر القديم للثقافة الإنسانية. ممتن للاستقبال الودي. أرتور فلاستوفسكي. موسكو، الاتحاد السوفيتي".

4- "April 25. 1960. Vladimir Orichenko (Unesco), USSR".

٣- أبو الهول

شعر ق. ر[1]

لقرون طويلة وهو رابض بصدره العريض في قيظ الصحراء

أبو الهول رافعًا رأسه في كبرياء، مطلاً بعينين ثابتتين على المدى البعيد ...

فقط تلال من الرمل تنبسط في الخلاء الفسيح من حوله

– من الذيّ شيّدك أيها الحارس الراسخ في لهيب الصحراء؟

من الذي نحت جوارحك الجبارة بكل بساطة ودون تكلف؟

ما المعنى الذي أضفاه عليك بهذا السكون الأبدي؟

وما الذي يجعلك تبتسم على هذا النحو بحيث يختلط الحزن فيك بالغموض؟

حكايات قديمة تروي عن هروب العذراء وطفلها السماوي من فلسطين إلى مصر.

كان الطريق شاقًا. ومن زرقة السماء فاضت أشعة الشمس الحارقة

على سطح السهب الرملية.

وها هما الأم ووليدها يهجعان بين براثن أبي الهول الجرانيتية

والصنم ينشر ظل أحضانه عليهما فيخفف من القيظ الذي لا يطاق.

وإذا بالليل يهبط صامتًا لتتراءى السماء باللون الأزرق

مزدحمة بآلاف النجوم.

حلم لذيذ عذب داعب الأم عند أقدام المعبود

---

(١) قصائد ق. ر. الطبعة الثانية ١٨٧٩ – ١٨٨٥ سان بطرسبورج ، ١٨٨٩. ص ٩٨ – ١٠٠.

وقد رقد المُخلّص في سلام على يديها ...

عندها أحس أبو الهول بلمسة مخلوق سماوي

فابتسم محاولاً أن يدرك سر الخلاص

– حدّثني، ألأنك تعيش وحيدًا في الصحراء

لا تزال قسماتك تحتفظ حتى الآن بهذا الأثر العميق لسر مكنون

وأنك ستظل مبتسمًا لقرون عديدة قادمة؟

أثينا. ٩ يناير ١٨٨٣

٤- تقرير لجنة طاقم السفينة "بيريسيفت" إلى كيرينسكي وزير الحربية والبحرية والمؤرخ في ٢١ يوليو عام ١٩١٧

يتقدم طاقم السفينة "بيريسيفت" إليكم معالي الوزير بطلب التصريح بإفادتكم في إيجاز بالأحوال التي نعيشها بعد غرق السفينة دون ذنب منا. إننا معذبون، متعبون نفسيا وبدنيًا وليس باستطاعتنا أداء عملنا في هدوء وسكينة في بريست، ونطلب عودتنا إلى روسيا.

بغد غرق السفينة "بيريسيفت"، أرسل الطاقم الذي تم انتشاله من المياه إلى المستشفى العسكري الإنجليزي في بورسعيد. وهناك أعطوا لكل منا اللوازم التالية من الزى الرسمي الإنجليزي: ١ سترة، ١ بنطلون، ١ كاب، ١ حذاء (كانت معظم الأحذية ممزقة)، ١ قميص، ١ سروال (لم يحصل الجميع عليه)، ١ جورب، ١ حمّالة، ١ فوطة، ١ منديل (لم يحصل عليه سوى عدد قليل) ٢ ملاءة قديمة، طاقم سفرة . بعد يومين من وصولنا وُزع الطاقم على

عنابر، يتبع العنبر لعشرة أفراد، في البداية كنا ننام على الرمل مباشرة، ثم اشتروا لنا بعدها قرشًا من قماش سميك ولكنه لم يكف الجميع. أما الذي كان موجودًا فسرعان ما اهترأ ولم يعد صالحًا، ولم يكن من الممكن في الأساس أن يحمينا بدرجة كافية من برد الأرض. لم يعطونا ألحفه أو وسادات، وهكذا نمنا كل على ملاءة واحدة فقط على الأرض. كان البعض يتغطى بالملاءة ويضع يده تحت رأسه، علما بأن الرمل كان مغطى بالقاذورات وكانت الملاءات تتغير مرة واحدة بعد مدة طويلة. عشنا في تعاسة في انتظار نقلنا إلى مكان آخر للخدمة.

سرعان ما بليت الملابس الرسمية التي تسلمناها. وكم كان مؤلمًا أن نشاهد البحار الروسي يسير في المدينة رث الثياب، مقارنة بالجندي الإنجليزي الذي كان يرتدي ملابس حسنة..تقدمنا إلى رئاستنا بطلب ذكرنا فيه احتياجاتنا، لكن النتيجة كثيرًا ما كانت تأتي مفاجئة لنا. على سبيل المثال، عندما تقدم رفاقنا الذين كان من نصيبهم أحذية مهترئة، طلبا إلى المفتش الملازم أول تاراسينكو- أوتروشكوف بتغييرها، فإنهم بدلاً من الاستجابة لطلبهم جاء الأمر لهم بعدم مغادرة عنابرهم لساعات طويلة. وهو نفس ما حدث لآخرين تقدموا بطلبات مشابهة. في النهاية لم يتحمل ذوي القلوب الغليظة، الرئيس والمفتش، رؤية حالتنا الرثة، وبعد مرور شهر شهرين من وجودنا في المعسكر قرروا تجديد دولابنا. تم طلب توزيع قميص واحد لكل منا وسروال واحد لم تكف أعدادها للجميع (وهذه كانت تبدو وكأنها صُنعت للموتى)، ١ جورب، ١ فوطة، ١ كيس مخدة، أشياء لا تصلح، بشهادة الطاقم بالإجماع لأي شيء على الإطلاق. وإضافة إلى الأعراض السابقة التي تسلمناها تم توزيع: علبة شمع لكل عشرة أفراد، ١ إبرة، ١ بكرة خيط لكل ٣٠ فردًا. في هذا الوقت كانت الملابس الرسمية والجوارب التي تسلمناها منذ شهر ونصف الشهر مضى

قد تبددت أو تكاد. فتم توزيع غيرها بشكل إضافي من نوعية رديئة وبكميات لا تكفي، وهكذا أصبح البحار الروسي شبه عار، منسيًا تمامًا من قبل قيادته. لم نر رئيسًا اتخذ أية إجراءات لسرعة تلبية احتياجاتنا القانونية وترحيلنا من مصر.

وحتى مرتباتنا توقفت لفترة طويلة. في نهاية الشهر الثاني فقط من وجودنا ألقى المفتش إلى كل واحد منا بشلنين وكأننا شحاذون. لم تكن لدينا نقود أو قروض لنشتري لأنفسنا صابونًا أو تبغًا وقد صبرنا صامتين على البرد والقذارة. وها هي الثورة تندلع لنشعر بالحرية في أن نطالب بحقنا القانوني. توجهنا إلى إيفانوف، القبطان الأول، بطلب مستحقاتنا. وفي اليوم التالي ظهر المفتش في المعسكر ومعه النقود وبدأ في دفع شلنين لكل فرد في الطاقم بناء على الكشف. لكن الطاقم رفض هذه النقود. عندئذ جمع المفتش الطاقم وسأله: كم تريدون؟ خمسة أم عشرة شلنات ؟ ثم أضاف قائلا إنه حتى لو أعطى كلاً منا جنيها إسترلينيا فإن ما سيتبقى مع القائد سيكون قليلاً للغاية. لكن الطاقم لم يقبل الاقتراح وانفضوا على الفور. وفي اليوم التالي صباحًا حضر القائد واستدعى المندوبين إليه في الخيمة وراح يحاول إقناعهم أن يتخلوا عن مطالبهم، وقال إنه لا يستطيع صرف المرتبات حيث لا يملك صلاحيات لذلك.

وقد أعلن المندوبون أن الطاقم بمساعدة أمناء المخازن بإمكانهم تسوية الرواتب بدقة دون سجلات. وهنا راح القائد يستند إلى عدم وجود نقود قائلاً: لم أتسلم سوى مائة وخمسين ألفًا. كنت أظن أن الإنجليز أعطونا الملابس الرسمية على سبيل الهدية، لكنني اضطررت لدفع أربعين ألفًا لهؤلاء السفلة، والآن عليّ أن أرسل الجرحى والمرضى إلى فلاديفوستوك وما إلى ذلك. ومن ثم اقترح أن يدفع لكل واحد من الطاقم جنيهًا إسترلينيًا كحد أقصى. وبالإضافة إلى ذلك قال القائد إنه سيذهب بنفسه معنا إلى روسيا، وأنه سيساعدنا هناك في الحصول على كل مستحقاتنا القانونية على وجه السرعة. لكن المندوبين أصروا على موقفهم.

عندئذ قال القائد إنه سيرسل برقية إلى بترو جراد للتصريح له بالاستجابة الكاملة للطاقم، ووعد بالرد النهائي بعد ثمانية أيام. وافق المندوبون على انتظار البرقية دون أن يأخذوا أية مبلغ مقدمًا. مرت ثمانية أيام ولم تصل أية برقية حتى ولا بعد ذلك. وخلال هذه الأيام حاولت القيادة كسر إرادة الطاقم وإجباره على أخذ مقدم، مُستَخدمة في ذلك كل الإجراءات. وقد تم تحريض الطاقم من قبل أشخاص ثقات منه على قبول المقدم، وقد حاول المفتش من خلال إجراء لقاءات شخصية صَرْف نقود مستغلاً كل الفرص المتاحة. على سبيل المثال، بعد أن قابل أحد البحارة خارجًا إلى المدينة دون إذن سأله في لطف: هلاً جئتني لصرْف النقود؟ لكنه تلقى ردًا سلبيًا وهنا اندفع القائد يشتمه لخروجه دون إذن. كان الخروج من المعسكر لكسب بعض المال أمرًا مسموحًا به، أما الخروج للنزهة فكان يعد جريمة. بدأ الرفاق يضعفون، فالجنيه المقترح بعد حياة طويلة دون نقود قد غيّر من أحوالهم كثيرًا، وهكذا راحوا وأخذوا النقود خلافًا للاتفاق العام. وهكذا ظللنا دون نقود إلى أن سافرنا إلى فرنسا. وقد سلّمنا القائد قبل سفرنا بيومين ثلاثة مستحقاتنا منذ لحظة غرق سفينتنا دون أن يخشى أن يبقى هو نفسه دون نقود.

عشنا ثلاثة شهور تغطينا القذارة، نرتدي أسمالاً رثة دون عمل نقوم به، ننظر إلى بعضنا البعض ونادرًا ما نرى ضباطًا، باستثناء الملازم زارين، الذي كان يأتي لتبادل الحديث معنا، فيقرأ علينا الصحيفة التي كانت تمثل بالنسبة لنا أمرًا شديد الأهمية بعد الثورة، عندما بات أي خبر من الوطن يترك في نفوسنا بالغ الأثر. ها هو زمن الرحيل الذي انتظرناه طويلاً يأتي وها نحن نغادر مصر إلى روسيا، وقد علمنا أننا سنتوقف في فرنسا في طريقنا إلى الوطن.

٥- ديمتري فلامبورياني
الروس على التراب المصري
مقال تاريخي[١]

في عام ١٩١٨ قامت سفن عديدة فرنسية وإنجليزية بنقل أعداد كبيرة من اللاجئين من شتى المشارب، الذين نجوا بأنفسهم من الإرهاب الأحمر، إلى جميع موانئ الأرض، من جرينلاند إلى رأس الرجاء الصالح.

هذه السفن نفسها أنزلت في عام [٢]١٩١٩ في ميناء الإسكندرية حمولتها "الحية"؛ أربعة آلاف لاجئ روسي من العسكريين والجرحى والمرضى من جيش الجنرال دينيكين (وبعد ذلك من جيش الجنرال فرانجيل)، بصحبة عائلاتهم ومتاع قليل.

ومن جديد قامت السلطات البريطانية التي قادت منذ البداية عملية إجلاء الجيوش الروسية من القرم بتوزيع القادمين على المعسكرات الخالية في الصحراء، في التل الكبير.

وسرعان ما تم نقل الروس إلى سيدي بشر بالقرب من الإسكندرية (بينما جرى إنزال مجموعة من طلبة الكليات العسكرية القيصرية الكاديت في الإسماعيلية)، في أحد المعسكرات التي كان يشغلها أسرى الحرب الأتراك ثم من بعدهم قوات الهندوس.

صحيح أن الفرق بين التل الكبير وسيدي بشر لم يكن كبيرًا، نفس الرمال الحارقة، نفس النظام الذي يتبعه المحتجزون، نفس الأمور المسلية

---

(١) ترجمة عن الفرنسية. Flamburiani . Dimitrl. Les Russes sur la Terre Egyptienne. Aperque historique. 2me Edition. Alexandrie. 1936.

(٢) في عام ١٩٢٠ وليس في عام ١٩١٩. التعليقات التالية للمؤلف.

البسيطة والساذجة، نفس الهموم. لكن عدة نخلات في الضاحية ونسيمًا عليلا آتيًا من البحر القريب كانا يخففان الأمر قليلاً على المهاجرين.

سرعان ما احتوى النسيان أمر العقارب وعواء الثعالب الجائعة التي كانت تهيم ليلاً بالقرب من معسكر التل الكبير.

لم يكن هناك أكثر من هذه الخيام الهشة التي تعكس حوائطها حر النهار الذي لا ينتهي، وبرد الليل القارس. الآن أصبح المهاجرون يشغلون مساكن من الخشب وعنابر بنيت بشكل متناسق.

وفي هذا الجانب المنسي في الصحراء في ضاحية الإسكندرية ظهرت، كما بفعل السحر، حياة مفعمة بالنشاط.

مدينة بأكملها بكل شوارعها وأزقتها، بكل مؤسساتها الاجتماعية والترفيهية برزت من بين الرمال تحت ظلال عدد قليل من النخيل، ترقبها نظرات البدو الفضولية المرتابة.

كان أكثر ما أدخل السرور على قلوب الروس هو إحساسهم بالقرب من الإسكندرية، قلب الثقافة. وكانوا يعتبرون السفر إلى القاهرة أو إلى غيرها من الأماكن بمثابة رحلة كاملة.

في سيدي بشر لم تكن هناك حاجة للحصول على إذن لمغادرة المعسكر. كانوا يخرجون ويعودون بل ويقضون ليلهم في الخارج، أما الحراس الهندوس فكانوا يواصلون حراسة كل منافذ المكان دون جدوى وبإحساس شديد بالغيرة.

كانت المساحة التي يشغلها هذا المعسكر رحبة للغاية، في الواقع فقد أقيمت عليها عدة معسكرات. كان الإنجليز المهتمين بكل شيء يعتبرون أنفسهم مسئولين عن اختيار القادمين الجدد بكل دقة.

خذ مثلاً، لقد تم إسكان العُزاب وحدهم وإحاطتهم بسياج من الأسلاك الشائكة، في حين أقامت العائلات على مسافة أبعد قليلاً وأخيرًا معسكر العائلات المتميزة والذي كان الروس يطلقون عليه "معسكر الجنرالات".

وبعد أن تمت إحاطة المعسكر بسياجين من الأسلاك الشائكة، وتم تفويض البوليس بحراسة البوابة من بين الهندوس ذوي الطول الفارع والقوام النحيف، على أن الإنجليز سمحوا للمهاجرين بأن يدبروا إقامتهم ويعيشون على النحو الذي يريدونه.

على سبيل المثال كان الجندي أو الضابط أو المرأة العجوز أو الطفل يدورون في هذه المدينة، كأنهم يقفون على خشبة مسرح، وهذه صفحة من كتاب حياتهم الكئيبة التعيسة.

أما في سيدي بشر، فكانوا يتصرفون كأنهم في بيوتهم أو هكذا تقريبًا. في هذه المدينة النائمة، البعيدة عن الضجيج راح الجميع يستعيدون ذكريات الماضي ويأملون في مستقبل أفضل. كان الذين ما زالوا على إيمانهم يصلّون، بينما انهمك في العمل من كان باستطاعته أن يعمل.

كان من المعتاد مشاهدة هذا العقيد العجوز، الذي شارك في ثلاث حملات والحاصل على أوسمة فارس عديدة روسية وأجنبية وهو يبيع السجائر في شوارع الإسكندرية للشباب المتسكع في فرح وهو يقتل الوقت في بارات ومقاهي المدينة.

وهذا الكمساري المتواضع في الترام، الذي لا يختلف في مظهره عن زملائه، والمضطر للعمل ثماني ساعات وأحيانا اثنتي عشرة ساعة دون راحة في بيع التذاكر، كان يوما ما ضابطًا رائعا في سلاح الفرسان. وهذا النقيب، شاهد على ملحمة بورت آرتور، وهو بطل من أبطال الحرب العظمى ويعمل الآن سائق سيارة أجرة.

من المحتمل أن يكون هؤلاء النُدُل العاملون في أحد بارات شارع البورصة القديمة كانوا يسيرون بعظمة في استعراضات في صالونات عاصمتي روسيا.

أما أكثر الأعمال انتشارا والتي كان يمارسها من لم يستطع الحصول على عمل فكان الجلوس في العنابر مستسلمين لقدرهم.

على أنهما لم يكونوا ليجلسوا وقد عقدوا أذرعتهم، وإنما يعملون لكي يبدو الكوخ الذي يعيشون فيه وكأنه بيت روسي حقيقي.

يمكن هنا رؤية العلم الوطني ذي الألوان الثلاثة يرفرف في الهواء دون أن يمثل هذا أي ازدراء أو إهانة لأحد.

هنا تعمل محال في بيع الأغراض المطلوبة يوميًا، يمكنك أن تجد شيئًا في الورش الصغيرة.

خيمتان كبيرتان تحولتا إلى كنيسة شاهدت تحت سقفها المهتز بطريرك الإسكندرية.

أغراض كنسية صُنعت بمهارة مدهشة وصبر لا ينفد من صفيح العلب.

ثلاث مدارس تمت إقامتها بالمعسكر: هنا بإمكان الأطفال دراسة اللغات الأجنبية، حتى يصبحوا قادرين على مواجهة المستقبل بكل ثقة، إلى جانب دراستهم للغة وتاريخ وطنهم العظيم.

لم يكن هناك شيء يقف في طريق التعلم على الرغم من أن الفصل بأكمله كان يدرس في كتاب وحيد تم العثور عليه مصادفة وسط المتاع.

وبعد الدروس، كرة القدم والتنس في الساحات الرياضية التي أنشئت بجهد شخصي لتكافئ الأطفال على ما بذلوه من جهد.

قدمت الإدارة الإنجليزية للمعسكرات إلى المهاجرين المساعدة عن طيب خاطر. ربما لم يكن من الممكن دون هذه المساعدة أن توجد المدرسة أو الأتيليه أو الكنيسة أو المسرح.

جاء إنشاء المسرح بفضل الجهد والصبر المتواصلين للفنانين وهواة الفن.

ما إن استقر المسرح تحت خيمته المبتكرة حتى أصبح يتمتع بشعبية مستحقة.

بالطبع لم يكن مسرحًا فخمًا من ناحية المظهر، ولكنه كان روسيًا تمامًا من ناحية زخارفه الداخلية وديكوراته وستارته وحرفية فنانيه وموسيقاه وأغانيه. كل شيء فيه يذكرك بالوطن البعيد.

تأسس كل من الأوركسترا النحاسي، الذي كان يقرب الروس من الفوكس تروت، وكذلك فرقة الباليه على يد الموسيقيين أنفسهم وقد عملوا جميعهم تحت قيادة م. نيكيتين وسكبوا ألحانهم على الصحراء المترامية.

أما البدو، هؤلاء الرعاة الحالمون، فكانوا مبهورين من قوة الجوقة ذات الأربعين صوتًا، كل صوت أفضل من الآخر، وكثيرًا ما كانوا يبكون من التأثر.

وقد أسس هذا بداية لاتجاه جديد في الفن لم يكن المصريون يعرفونه من قبل وسرعان ما استوعبوه وأحبوه.

دفعت الرغبة في توصيل فنهم إلى الأجانب، الذين أعجبوا به، والذي ساعدهم في تحسين حياتهم، دفعت الروس إلى الخروج خارج إطار المعسكر.

كانت هناك أمسيات وحفلات وغناء فرديّ وجميعها نالت نجاحًا وشعبية.

كان سيرجي فادييف وتيودور فوكرام، زينايدا شوبيرت ول. بريوبزجينسكي وغيرهم كثيرون هم رواد هذه الحركة.

أحرزت جوقة ن. أفاناسييف نجاحًا كبيرًا، وقد حازت فيما بعد على لقب جوقة البطريركية.

في عام ١٩٢١ التقي كاتب هذه السطور بزينايدا شوبيرت مُؤسسة فرقة "بان" الروسية، والتي عرضت أعمالها على مسرحي "أوليمبيا" و"كونكورديا".

كانت للفرقة شعبية كبيرة وقد عرضت مسرحيتها في قالب الباليه الشهير "الخفاش". وقد توقفت الفرقة بسبب الأحداث السياسية التي أذهلت البلاد.

أحيانًا كان الحنين والحزن يسيطران على سكان سيدي بشر. كانت الأيام الرتيبة تمر دون أدنى تغيير. كانت الكتب القليلة في مكتبة المعسكر قد قرأت وأعيدت قراءتها مرات ومرات.

لجأ البعض في محاربة الملل إلى تعلم اللغة العربية. آخرون أولعوا بالتصوير أو الرياضة البدنية أو المسرح، وهناك من تحمس لفكرة إنشاء متحف صغير، ولم يسلم الأمر من أشخاص راحوا يقضون أيامهم جالسين تحت النخيل يراقبون الحشرات.

أنشأ الأطفال فريقًا للكشافة ومن أجلهم أقيمت حديقة خاصة.

تعلم الأطفال أثناء لعبهم الرسم والغناء والتطريز. وصدرت صحيفة "المهاجر" متواضعة ولكن في إخراج رشيق.

بعض من اللاجئين أنهكه الحنين إلى الوطن، فسعوا للعودة إلى روسيا. على أن "أصحاب القرار" هناك في الاتحاد السوفيتي، ومن بينهم من تغلب هواه على قراره اعتبرهم أشخاصًا غير مرغوب فيهم، وأنه لا نفع من ورائهم فاضطروا للعودة مرة أخرى إلى سيدي بشر. وهناك سارت بهم الأيام سيرها القديم.

مرة أخرى الوقوف عند موقد الطبخ، مرة أخرى الحساء المشترك والجدل بشأن من له الحق في علب المحفوظات الفارغة، المربي نفسها واللحم المملح الإجباري.

في خريف عام ١٩٢١ قام الإنجليز بإجلاء الروس إلى بلغاريا لأسباب سياسية واقتصادية. أما الذين استطاعوا الحصول على عمل فهؤلاء كان لهم الحق في البقاء في مصر.

كان المصريون يتعاملون مع الأمر دون قلق باعتبار أن عددًا قليلاً من الضيوف الموسكوفيين قد آثروا العيش في بلادهم.

كان هناك لاجئون آخرون من اليونانيين والأتراك والأرمن. وسوف يكون إلى جوارهم روس أيضًا.

كانت هناك جاليات فرنسية وإيطالية وألمانية وسويسرية ويونانية انضمت إليها الجالية الروسية.

أصبح ظهور الروس أمرًا عاديًا، ولم يعد منظر الضباط الفقراء وهم يبيعون السجائر يثير الشفقة.

"الموسكوفيون" الذين نادرًا ما صُنِّفوا باللاجئين والذين كانوا دائما ما يوصفون بطيبة القلب، راحوا يعبرون الآن دون أن يلحظهم أحد وقد مل الناس من شكواهم الدائمة.

لقد ولّى الزمن الذي كان سكان الإسكندرية الكوزموبوليتانية يعتبرون أن الروس جميعا إما أمراء أو جنرالات أو مليونيرات.

على أنه مهما كان هؤلاء الناس أمراءً أو بورجوازيين صغارًا، فقراءً أم أثرياء، فقد دبوا بأحذيتهم في عام ١٩٢١ فوق أرصفة شوارع شريف وفؤاد وكتبوا بدمائهم أمجد صفحات تاريخ الحرب العظمى.

هذا الحطام المتناثر المختفي كان من قبل على قمة السلطة إلى أن ألقت به اليد الحديدية المسلحة في لجة العاصفة وحرمتهم من المال والروح وأغرقتهم في العدم.

كثيرون، وخاصة من بين الطبقات الوسطى الأممية في الإسكندرية، تعاملت بصدر رحب مع الوافدين الجدد وقدمت لهم المساعدة.

جزء من الروس تمت دعوتهم للعمل في مختلف الشركات والهيئات، على سبيل المثال، تمتلئ عنابر الترام في الوقت الحالي بعدد كبير من العاملين الروس.

البعض التحق بالعمل في البوليس، والبعض الآخر اختاروا مهنة سائق السيارة، وهؤلاء استطاع كثير منهم امتلاك سيارات خاصة. أما المهندسون والأطباء فهؤلاء، بطبيعة الحال، كان حصولهم على عمل أكثر يسرًا. وفي القاهرة الآن عيادة روسية تعمل منذ عدة أعوام، وهناك أيضًا عيادات خاصة في الإسكندرية وبورسعيد.

أما النساء فكن يعملن في التدريس والخياطة وتعليم الغناء والموسيقى.

وفي مجال فن المسرح كانت هناك أسماء شهيرة مثل الأميرة لانسكايا، م. راديتسكايا، خوسمان، وكذلك خ. بيريبليتينكو في الإسكندرية والسيدة ز. خان كلاموفا في القاهرة.

الروسي ليس تاجرًا بطبعه، ولذلك فإن المبادرات في هذا الشأن لم يكتب لها النجاح. مصنع الحلوى في القاهرة، المطاعم الروسية، أكشاك السجائر ومحال الشطائر على شاطئ البحر لم تلبث أن أغلقت أبوابها بعد عدة شهور فقط من بدء نشاطها.

ومع ذلك فإنه بفضل المساعدة والمشاركة الودية للسيدات ك. كومانوس، م. باراسيفا، ف. بودين، ب. بيناكي، والسيد موليسون، والبطاركة فوتي وميليتي استطاعت الجالية الروسية الصغيرة أن تتجنب البطالة.

لقد نجح كل من "نادي الدراما الروسي" في القاهرة و"اتحــاد الفنــانين الروس" في الإسكندرية في لم شمل الجالية بقيامهم بتقديم مسرحيات وأمسيات راقصة من وقت لآخر.

من بين أربعة آلاف شخص تم إجلاؤهم في عام ١٩١٩ إلــى مــصر، استقرت بضع مجموعات فيها، بعد أن كونت جالية صغيرة في الإســكندرية برئاسة أ. بتروف، وفي القاهرة برئاسة م. فبنــوجرادوف وفــي بورســعيد برئاسة س. سوبيريفسكي.

بمرور الوقت أصبح الروس مواطنين مصريين[١]، وتأقلموا على الحياة في بلد كوزموبوليتاني تعددي ليفقدوا تدريجيا للأســف! ملامحهــم القوميــة وعاداتهم وطباعهم.

على أنه مهما كانت أخطاء وغرابة أطوار الروس وخصالهم الــسلبية، التي تأثرت كثيرا بالآخرين، فقد عانوا في الواقع ما لم يعانه أي شعب آخــر من شعوب العالم.

لقد عاشوا حياة ثقافية تميزت بالذوق الرفيع أحياناً في ظروف كان من الممكن لو عاش فيها غيرهم لفقدوا شجاعتهم ولتحولوا بسببها إلى وحوش.

لن ينسى الروس للأبد مــصر، وســوف يــذكرون بمــشاعر دافئــة سماءها الزرقاء وطيبة الملك فؤاد الأول الذي سمح لهــم أن تكــون مــصر وطنهم الثاني.

---

(١) خطأ : الذين حصلوا على الجنسية المصرية يعدون على الأصابع.

٦- الكسندر بيانكوف
(١٨٩٧ - ١٩٦٦)[١]

كان من الضروري أن نتعرف إلى الكسندر بيانكوف، وأن نعطي كل روعة الحديث معه، رجاحة عقله، المنشغل دائما بحل المشكلات الأساسية، المتجه دائمًا للبحث عن الإدراك الأشمل للكون وللإنسانية، التي وهبها حياته، ما يستحقانه من تقدير رفيع لكي نفهم قدر العالم الذي خسرناه، وأي ثراء روحي فقدناه. كان إنسانًا متواضعًا ولم يكن يتحمل أن يتحدث عنه الناس، ومن ثم فإن من المحتمل أن يكون هناك الكثير من الذين عبروا بجواره ولم يعرفوا قدره. وعلاوة على ذلك فإن تواضعه كان ينبع من فهمه الميتافيزيقي للعالم. كان الإنسان بالنسبة له كائنا ضئيلا بالنسبة للكون، حتى إن الغرور الذي يعبر عنه هذا الإنسان بدرجة، صغرت أم كبرت، يلحق به الضرر أكثر من أن يجلب إليه السرور. هل من الممكن أن يكون لهذه الأهمية التي نضفيها على أنفسنا أي أثر على أي نحو على عظمة الكون؟ كانت المهمة الأساسية أمام بيانكوف هي الإحاطة الكاملة بموضوع دراسته. وكانت محاولة بيانكوف كشف السُتُر عن أسرار الكون هي، من وجهة نظره، العمل الوحيد الجدير باهتمامه. وقد قضى هذا العالم نحبه في سكينة تامة في العشرين من يوليو عام ١٩٦٦ في بروكسل، إلى حيث سافر لرؤية أقاربه هناك. وكان قد استشار طبيبه قبيل وفاته بفترة قصيرة بشأن ألم يشعر به في صدره. مات بيانكوف مبتسمًا وبسرعة أذهلت كل من أحاط به. كانت لديه خطط عديدة للمستقبل. لقد فاجأه الموت وهو في حمى العمل: كان قد أوشك

---

(١) ترجمة عن الفرنسية. Bulletien de l'Institut francais d'archeologie Orientale (eifao). No. 65. La Caire . 1967. P.p 227 – 230.

على الانتهاء تمامًا من ترجمة نصوص دينية غابرة استخرجت من مقابر فراعنة الدولة الحديثة. كان عليه أن يوفر نفقات جديدة لكي ينشر أعماله الخاصة بسراديب وادي الملوك، وأحد هذه الأعمال خاص بمقبرة رمسيس الأول قد ظهرت في تقارير المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية. أما نصوص أهرام أون، فقد نشرت في الولايات المتحدة الأمريكية وكان بيانكوف يحلم بكتابة عمل علمي شامل بعنوان "نصوص الأهرام".

كيف اتجه بيانكوف إلى علم المصريات؟ لقد ظهر لديه هذا الميل في شبابه المبكر. عندما كان يبلغ من العمر أحد عشر أو اثني عشر عامًا اصطحبه ذووه لمشاهدة مجموعة جولينيشيف المعروضة في متحف الإرميتاج في مدينة بطرسبورج، حيث وُلد في الثامن عشر من أكتوبر عام ١٨٩٧. لقد وقع بيانكوف أسيرًا لما رآه. على أنه. من المفترض، أن يكون قد بدأ التعليم من الدراسات الكلاسيكية. أضف إلى ذلك أن أباه لم يكن معجبًا بولع ابنه بالشرق. زد على ذلك أن القدر قد حرمه من هذا الأب قبل أن ينهي الكسندر الشاب، الذي سبق أن فقد أمه وهو في الحادية عشرة من عمره، تعليمه العالي. ما إن اجتاز الكسندر بيانكوف امتحان البكالوريوس في موسكو حتى اندلعت الحرب العالمية الأولى ومعها وقعت أحداث الثورة في روسيا مما اضطره إلى مغادرة الوطن. لكنه لم يكن يخشى المخاطر، فها هو في عام ١٩١٧ يلتحق بالجيش الفرنسي الشرقي ويتخذ موقعه على الجبهة في سالونيكي حتى انتهاء العمليات الحربية.

منذ عام ١٩٢٠ أصبح بيانكوف طالبًا أمريكيا يحصل على منحة دراسية بعد أن استقر في برلين، وقد كرّس حياته لدراسة الأدب واللغة المصرية. كان معلموه هما إيمان وسيتخي. وقد ترك لنا مذكرات رائعة عن فترة دراسته على يديهما، وكثيرًا ما رجعت إليها لأقرأها وأنا أبتسم لما ورد فيها.

وقد استغل الكسندر هذه الفترة لكي يبدأ في دراسة الأدب واللغة الألمانية، كما درس أعمال علماء ما وراء نهر الراين في الفلسفات الشرقية. كان يقرأ أعمال فوركة في الفلسفة الصينية، وكذلك أمهات الكتب، التي احتوت على الأساس الروحي للهند القديمة.

في عام ١٩٢٤ سافر إلى باريس وبقي هناك حتى عام ١٩٣٩. وهناك واصل في البداية دراسته في السوربون، وفي عام ١٩٢٩ أصبح طالبًا للدراسات العليا. وبعد عامين ناقش رسالته وموضعها "القلب في النصوص المصرية" ليحصل على درجة الدكتوراه من جامعة باريس. أظهر بيانكوف اهتماما بالأدب واللغة وبعلم اللاهوت. على أن اهتمامه باللغات الشرقية بما فيها اللغة المصرية التي كان يقوم بتدريسها آنذاك سوتا ودريوتون. وقد بدأ في المواظبة على حضور محاضرات مدرسة اللغات الشرقية الحية ليحصل في النهاية على الشهادات التي تمنحها. في الحادي والثلاثين من أغسطس عام ١٩٢٥ حصل على شهادة في اللغة التركية، وفي الثالث من أغسطس عام ١٩٢٦ حصل على شهادة في اللغة العربية، ثم حصل في الثاني عشر من نوفمبر عام ١٩٢٧ على شهادة أخرى في اللغة الفارسية.

ومن عام ١٩٢٨ وحتى عام ١٩٣٩ عمل بيانكوف في معهد بيزنطة في شارع ليل بوصفه متخصصا في اللغتين العربية والقبطية. تناولت مقالاته الأولى موضوعات دينية، وهو ما يشهد على اتجاه أبحاثه. وفي عام ١٩٣٦ حصل على الجنسية الفرنسية. بدأ بيانكوف في الاهتمام بمقابر فراعنة الأسرة الحديثة، على أنه في عام ١٩٣٩، عندما اعتزم السفر إلى مصر، إذا بالحرب تقف حجر عثرة أمام مخططه. تم تجنيده في بداية الحرب على أنه أعفي من الخدمة العسكرية في عام ١٩٤٠ بسبب إصابته بانفصال في شبكية العين.

وبعد أن سافر في مهمة علمية إلى القاهرة بدعوة من المعهد الفرنسي، إذا به يستقر فيها حتى وافته المنية. بدءا من عام ١٩٤٧ فقط، كان بيانكوف يغادر القاهرة في إجازات قصيرة إلى أوربا، إلى فرنسا على وجه الخصوص.

في البداية كان يكتفي بإنجاز المهام التي كلفه بها المعهد الفرنسي، وقد استمر في وظيفته هذه حتى عام ١٩٤٦. وما إن استقرت الأمور مع إنجلترا (الدولة المستعمرة) حتى خرج إلى المعاش. كانت بحوثه على امتـداد هـذا الزمن بأكمله مكرسة لدراسة النصوص الطويلة لملوك الفراعنة الموجودة في السراديب، وقد نشر كل الحكايات المشهورة المعروفة باسم "كُتب الأبـواب". ثم قام بعد ذلك بترجمته الرائعة "أدوات توت عنخ آمون الدينية". نتيجة لولعه الشديد بهذه الأشياء التي كانت تبدو بشعة للوهلة الأولى، استطاع بيـانكوف بفضل عمله العلمي الدقيق أن يكتشف فيها الطقوس، التي يمكن تـسميتها ب "تشمس الفرعون". على أنه اعترف لي أنه يرى أن الاتجـاه الميتـافيزيقي، الذي تقوم على أساسها هذه الأعمال الدينية، تشترك في خصائص كثيرة مع مذهب ألوهية الكون (تمجيد الموتى). إن الشخصية البشرية للفرعون تضيع في المحيط الإلهي اللا نهائي مثل قطرة ماء، وبعد أن تنفصل في لحظة عن الكون الشاسع، تعود لتذوب فيه.

في هذا الوقت تحديدا خاطب صندوق بوللينجين العالم المعروف طالبًـا منه أن يقوم بترجمة كل الأعمال الدينية العديدة التـي يملكهـا إلـى اللغـة الإنجليزية. وقد خصّ بيانكوف هذا الصندوق بعملين عظيمين مـن أعمالـه المنشورة هما: "توابيت توت عنخ آمون" و"مقبرة رمسيس السادس". والأخير يجمع بين دفتيه كل النصوص الدينية للفراعنة المصريين. وقد ألحق بيانكوف بهذا الكتاب مجموعة من البرديات أُخذت أساسًا من المتحف المصري وتحمل

عنوان "برديات الأساطير" وهي مزودة بهامش علمي للعالم نفسه. نال بيانكوف سمعة رفيعة وكان كل شخص يبدأ في دراسة المشكلات الدينية يلجأ إليه.

وفي هذه الفترة أصبح عضوًا في مركز البحوث العلمية الوطنية في باريس. في عام ١٩٤٦ حصل على درجة أستاذ ومُنح الميدالية الفضية لقاء نشاطه العلمي. على أنه ظل دائما إنسانًا بسيطًا نزيهًا. عاش في القاهرة ولم يكن يسافر إلا إلى فرنسا وفي فصل الصيف فقط. كان من دواعي السرور أن تراه عندما يزور المعهد الفرنسي لكي يدبر أموره الإدارية الخاصة بعمله. بالتأكيد كان يقوم بهذه الأعمال بكل جد ودأب. على أنه كان من الواضح أن هناك مشكلات تؤرقه. لقد انتقل الأمر إلى قضايا البوذية وفلسفة هايدجر، وظهور عبادة آتون في كتب الفراعنة المنتشرة في السراديب. كان بيانكوف صاحب ثقافة واسعة بكل ما يتعلق بالموضوعات سابقة الذكر. كان الرجل باستطاعته أن يسترجع مقاطع كاملة من ريبو أو موليير، من شكسبير أو جوته.

طلبت مصلحة الآثار من بيانكوف أن ينشر كل النقوش المكتوبة على المقابر في وادي الملوك. وكان المعهد الفرنسي قد تعهد بنشر هذه الأعمال. وقد انتهى العمل في "مقبرة رمسيس الأول" وتم نشره. وها هو الكسندر بيانكوف يعود مجددًا لدراسة "نصوص الأهرام". ولمّا كان مقتنعا أن منهج زيتيه اللغوي المحض غير كافٍ. فراح ينظر إلى الأهرام باعتبارها كُلاً لا يتجزأ، فأعاد بعث النقوش في سياقها الأثري القديم. وقد بدأ عمله بكتاب "مقبرة الملك أوناس" المكرس لصندوق بيللينجين.

أعد بيانكوف ترجمة كاملة من نصوص فراعنة الدولة الحديثة مدعومة بمقدمة وتعليقات. على أن الموت قطع هذا العمل في ذروته. لم تمثل وفاة هذا العالِم تجربة مريرة بالنسبة لأقاربه ومحبيه، وإنما رأوا أن أي رجل وهب حياته للعلم وأخلص له يتمنى مثل هذه الخاتمة. إن مواصلة العمل بعده ووضع الخطط لذلك لن يخمد. أما هو فقد ذهب لملاقاة الضوء الذي وعدته به الآلهة، أن يصل إلى عمق الفكر الذي سعى طوال عمره للوصول إليه.

فرانسوا دوما.

٧- إحياءً لذكرى الذين رحلوا . ب. أ. فريدمان - كليوزيل[١]

رحل بوريس أوسكاروفيتش عن عالمنا. أيام تتلوها أيام تأخذ معها بعيدًا إنسانًا مبدعًا كبيرًا، نحاتًا ومعلمًا، استطاع أن ينقل لتلاميذه معارفه وأفكاره.

كان شعاره في العمل: "كلما ازددت اقترابا من الطبيعة، كلما ازددت قربًا من اللــه". ولأنه كان عليما بالتشريح فقد أعطى تماثيلــه الأعــصاب والعضلات، وأضفى الحياة على الوجه، واستطاع أن ينقل التعبير النفــسي، وأن يبعث بالحركة في الراقــصين. إن العديــد مــن المتــاحف الكبــرى والمجموعات الخاصة في أوربا تحتفظ بأعماله لا بسبب قيمتها فقط، وإنمــا تقديرًا لإبداعه.

درس ب. أ في شبابه في مدرسة شتيجليتس في بطرسبورج، ثم التحق بعد ذلك بأكاديمية الفنون ليدرس على يد تشيجوف (صاحب تمثال "الخطوات الأولى" المنحوت من المرمر) ثم على يد بوبوف (صاحب تمثال "فيرنا" مــن

---

(١) صحيفة "روسكايا ميسل" ("الفكر الروسي"). العدد ١٥٠٥. باريس ، ١٩٦٠/٣/٢٩.

مقتنيات متحف الكسندر الثاني). بعدها درس في أكاديمية الفنون في ستوكهولم، وبعد مرور عامين ذهب لزيارة أكاديمية الفنون في باريس ومدرسة توماس للفنون.

بعد أن عاد إلى روسيا أصبح ب. أ مساعدًا للأكاديمي أبيكوشين، وعمل معه في صناعة تمثال الكسندر الثالث الذي نحته أبيكوشين لوضعه في موسكو.

فيما بعد أصبح ب. أ موظفا لدى ك. فابريجيه صائغ البلاط الملكي، وفي عام ١٩٠٥ أرسله فابريجيه إلى فرع شركة ق. فابريجيه في لندن ليعمل في بلاط الملك إدوارد السابع[١]. ومن بين الأعمال العديدة التي قام على صنعها ب. أ نموذج لتمثال صغير للحصان "بيرسيمون" المفضل لدى الملك إدوارد السابع، وقد قام فابريجيه بعمل نسخة أخرى من الفضة له. وقد شهدت ورشة فابريجيه صناعة شطرنج من الأحجار الملونة، من اليشب، وعلى ما أذكر، من الكاخالوج الأخضر الشاحب ومن ابتكارات ب. أ. المضحكة أن جعل الضفادع خضراء والفئران باللون الشاحب.

في عام ١٩١٠ صمم ب. أ تماثيل "باليه من المنحوتات" فنحت عددًا من راقصي وراقصات الباليه المشاهير: أنّا بافلوفا (كانت الدراسة الخاصة بساقيها بالمقاس الطبيعي وهي من مقتنيات متحف لندن منذ عام ١٩١٦)، كارلوتا زامبيلي، دي بولم، شفارتس (اقتناها متحف لوكسمبورج)، كشيسينسكايا، شولار، نيجينسكي، م. م. موردكين (اقتناها ملك السويد جوستاف الخامس).

---

(١) الصواب في عام ١٩٠٧. انظر: فابريجيه.ت. ف، جورينيا أ. س ، سكورلوف ف. ف. فابريجيه والمصوغات البطرسبورجية. سان بطرسبورج، ١٩٩٧. ص ٥٨٣.

في عام ١٩١٤، إبان الحرب، قام ب. أ، بناء على رغبة الأمير قنسطنطين قنسطنطينوفيتش بعمل تمثال بالحجم الطبيعي للأمير الراحل أوليج.

وفي مسرح الكسندريسكي في بطرسبورج وفي موسكو تنتصب منحوتات لوجوه الفنانين العظام: ف. ن. دافيدوف، ق. أ. فارلاموف، ج. ن. فيديتوفا، م. ن. يرمالوفا، ف. ف. ستريليسكا، ي. م. يوريىڤ. ولا تزال جميعها موجودة حتى الآن في متحف للمسرح بلينينجراد.

وللفنان تمثال لرأس الملك جوستاف الخامس في ستوكهولم بالمتحف الوطني وكذلك تمثال آخر موجود في القصر الملكي للملك جوستاف الخامس وهو يمارس رياضة التنس (أنجزه ب. أ خلال العامين ١٩١٧ – ١٩١٨)، أما في "فازا تياتر" في استوكهولم فيعرض له منذ عام ١٩٢٣ البورتريه الرائع لفنان الكوميديا الكسي رونجفال (فارلام السويدي).

في عام ١٩٢٩ تلقي ب. أ دعوة لزيارة مصر، حيث أسس بالقاهرة المدرسة العليا للنحت بأكاديمية الفنون[١]، وعلى مدى اثني عشر عامًا نقل إلى تلاميذه خبرته في الفن والتعبير وتماثل الوجوه وقوة الحركة والرشاقة وتقنية النحت. ونتيجة لهذا الجهد قام بنحت ثلاثة تماثيل كبيرة في مصر. وفي منتصف عام ١٩٥٩ قام بناء على طلب الدولة بعمل تمثال نصفي للرئيس ناصر.

بعد أن أنهى ب. أ عمله في الأكاديمية أسس مدرسته الخاصة والتي لا تزال قائمة حتى الآن، وقد نجح في دفع عدد من تلاميذه الموهوبين إلى الظهور، كما عرضت لهم مدموازيل إد أعمالهم في معرض أقامته في عام ١٩٥٩.

---

(١) الصواب قسم النحت بكلية الفنون الجميلة بجامعة القاهرة.

لسنوات طويلة ظل الناس يرددون أسـماء التماثيـل التـي نحتهـا ب. ا في مصر: في الإسكندرية: تمثال الملك فؤاد الأول، رأس سـميكة باشـا أمـام المتحف القبطي(١)، "عروس النيل" في حديقة النزهة. أما في القاهرة وفي متحف الفنون الحديثة: رأس الدكتور والي (عمل استثنائي)، "دراسة لفيـل"، الـرقص الياباني توشسا كوموري ويحمل اسم "راقص من كمبوديا"، تمثال نصفي للويس هويستيكور (السكرتير العام الحالي لأكاديمية الفنون في باريس) و"المستحمة" وقد اقتناها المتحف بعد ذلك في عام ١٩٣٠. وفي مصر القديمة وعلى السلم العلوي لكنيسة سان جورج نحت بارز للقديس جورج بحجم كبير.

عندما كان الجميع يستعد لاستقبال مناسبة استقبال العام الجديد الـسعيدة في ٣٠ ديسمبر ١٩٥٩ انطفأت شعلة حياة الفنان النحات البـارز بـوريس أوسكاروفيتش فريدمان كليوزيل عن عمر يناهز الثانية والثمـانين. تغمـده اللــه برحمته.

وقد عانت أخته الوحيدة مارسيلينا أوسـكاروفنا وابنــة أخيــه كيــرا بوريسوفنا لوعة فقده.

يفجيني كارل فابريجيه

(١) غير دقيق. المتحف القبطي موجود بالقاهرة.

ببليوجرافيا

المصادر والمواد الأرشيفية

أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. صندوق ١٤٢. القسم اليوناني. القائمة ٤٩٧، ١٨٢٥ – ١٩١٧.

– الملف ٧٧٢، بورفيري ، الأرشيمندريت – اختياره رئيسًا لدير سيناء. ١٩٠٥.

– الملف ٧٧٤ ، رسالة السينودوس المقدس لاسم رئيس أساقفة دير سيناء، بورفيري. ١٩٠٦.

– الملف ٨٥٩، شجرة العليقة الملتهبة، مناولة الزكاة في قلاية سيناء. ١٨٥٠.

– الملف ٣١٠٨. نيوفيت، أرشيمندريت دير سيناء، مَنحهُ وسام القديسة أنًا من الطبقة الأولى والقديسة أنًا من الطبقة الثانية. ١٩٠٩.

أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. صندوق ١٤٩. القسم التركي. القائمة ٥٠٢ أ. ١٨١٨ – ١٩١٤:

– الملف ٤٦٤. المراسلات الخاصة بإبلاغ السلطات المحلية بميلاد مواطنين روس في مصر. ١٨٩٢.

– الملف ٧٤٩. تشيتشيت قنسطنطين، بلاغ عن حالة وفاة. ١٨٩٢.

– الملف ١٢٢٧. بشأن وصول ٤٠٠ يهودي من سميرنا إلى مصر – من أصل روسي. ١٨٩٣.

– الملف ٢٦٥١. الإنجيل المطبوع باللغة السلافية في كنيسة كييفو – بيتشيرسكي في عام ١٧٠٧. ١٨٦٢.

– الملف ٣٧٠٦. الآثار التي تم الحصول عليها من مصر وتركيا واليونان لصالح متحف الأرميتاج. ١٨٥٧.

– الملف ٣٧٧٣. الآثار المهداة من الحكومة المصرية. ١٨٨٩.

– الملف ٣٩٣٢. دير سيناء. ١٨٨٤.

– الملف ٣٩٣٦. دير سيناء. ١٨٩١.

– أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. صندوق ١٤٩. القسم التركي (الجديد). القائمة ٥٠٢ ب. ١٨١٨ – ١٩١٧:

– الملف ٨٩. سميرنوف، ياور. تعيين مفوض دبلوماسي. خطاب اعتماد. ١٩٠٥.

- الملف ٩٢. مظاهرة ضد القنصلية الروسية في الإسكندرية بسبب اعتقال ثلاثة أشخاص بيتوا النية لتفجير السفينة ر.و.ب و ت. ١٩٠٧.

- الملف ٩٦. زواج يوركييفيتش من الأميرة صالحة. ١٩١٠.

- الملف ١٣٠. نيسين. القنصل الفخري في بورسعيد. ١٩١٠.

- الملف ١٤٦. نيسين. القنصل الفخري في بورسعيد. ١٩١٧.

- الملف ٨٧٧. الكسييفا يفجينيا بتروفنا، بورجوازية من مدينة أوديسا. وفاتها في مصر. ١٩١٤.

- القائمة ٨٨٠. وفاة أرشميندريت بالقاهرة. ١٩١٠.

- القائمة ٨٩٨. وفاة بروفوتينوفا الكسندرا يفجينيفنا في الإسكندرية. ١٩١٢.

- الملف ٩٠٣. وفاة المعماري بوسيه قنسطنطين فرانتسيفيتش. ١٩٠٦.

- الملف ٩١٢. بلاغ عن وفاة جارجانوفا زينايدا نيكولايفنا، زوجة مهندس التعدين في حلوان. ١٩١٣.

- الملف ٩١٧. بلاغ عن وفاة جوريتشيف إيفان يفيموفيتش في الإسكندرية. ١٩١٢.

- الملف ٩١٩. بلاغ عن وفاة جروخولسكي فلاديسلاف فلاديسلافوفيتش في حلوان. ١٩٠٩.

- الملف ٩٣٤. بلاغ عن وفاة السيناتور زاكريـفـسكي إيجناتي بلاتونوفـيتش في مصر. ١٩٠٦.

- الملف ٩٣٨. بلاغ عن وفاة إيـفـانوف فيودور فيودوروفـيتش في الإسكندرية. ١٩١٣.

- الملف ٩٦٤. بلاغ عن وفاة كوّل جيرمان أوتو في القاهرة. ١٩٠٦ - ١٩٠٧.

- الملف ٩٦٦. بلاغ عن وفـاة كوروتـشكا فيـودوت (فيودوسـي) سافـوفـيتش في الإسكندرية. ١٩١٤.

- الملف ٩٧٤. بلاغ عن وفاة ليبيديف الكسندر نيكولايـفـيتش فـي حلوان. ١٩٠٩.

- الملف ٩٧٩. ليسجافت، بروفيسور. وفاة. ١٩١٠.

- الملف ٩٨١. بشأن ميراث ليبوسوف ميخائيل ستيفانوفـيتش، فلاح من محافظة خيرسونسكايا_ الذي تركه بعد وفاته في بورسعيد. ١٩١٢.

- الملف ٢٢٢٣. بلاغ إلى القنصلية التركية حول المهاجرين الروس، ١٩١٣.

- الملف ٢٢٨٦. صباح الدين فؤاد، أميرة تعيش في القاهرة. الجنسية. ١٩١٦.

- الملف ٢٧٨٢. بلاغ حول وفاة ماركوف، بحار السفينة "كورنيلوف" في بورسعيد. ١٩٠٩.

- الملف ٢٨١٥. بلاغ حول وفاة أرلوف من معية. الجنرال ى.إ. ف في حلوان. ١٩٠٨.

- الملف ٢٨٥٩. بلاغ حول وفاة الأمير سـفـياتوبولك مارسـكي، فـلاديمير نيكولايـفـيتش في الإسكندرية. ١٩٠٦.

- الملف ٢٨٦٦. بلاغ حـول وفـاة سكوليموفـسكي ميتشيـسلاف فـيكتوروفيتش عضو لجنة المستشارين في حلوان. ١٩٠٩.

- الملف ٢٨٦٨. بلاغ حول وفـاة المستـشار موتـشافـا بـوريس أندرييـفـيتش في حلوان. ١٩٠٩.

- الملف ٢٨٧٨. طلب من أولجا تارانوفـسكا بالحفاظ علـى مقبـرة تازانوفـسكي فياتشيسلاف في حلوان. ١٩١٢.

- الملف ٢٨٨٤. بلاغ حول وفاة المحامي تيميتـشينكو - ياريـشينكو فيودور إيـفـانوفـيتش في حلوان. ١٩٠٩.

- الملف ٢٩١٣. بلاغ حول وفاة تشيخوفـسكايا لـودميلا فـي عـام ١٩١٣ في حلوان. ١٩١٥.

- الملف ٢٩١٤. بلاغ حول وفاة تشيركون آدم جريجوريـفـيتش، الفلاح من محافظة مينسكايا في السويس: ١٩١٢.

- الملف ٢٩٢٤. بـلاغ حـول وفـاة النبيـل شـماكوف ميخائيـل الكسندروفـيتش في القاهرة. ١٩٠٦.

- الملف ٢٩٢٧. بلاغ حول وفاة شوريجين بولييـفكت تيخونوفـيتش في حلوان. ١٩١٠.

- الملف ٢٩٣٦. بلاغ حول وفاة ياكوبونيس بافل في الإسكندرية. ١٩٠٨.

- الملف ٢٩٧٨. بلاغ حول وفاة المواطنين الروس: إزنار أ.ن، ميتسيكيفيتش م. إ. تشاكينا ن. س في حلوان. ١٩٠١.

- الملف ٤٣١٢. دير سيناء. التماس إلى شخصية رفيعة. ١٩٠٨.

- الملف ٤٤٧٠. التقرير السنوي للسير إيلدون جورست حول المحاكم المختلطة في مصر. ١٩١٢.

- الملف ٥٣١٨. فخامة رئيس أساقفة دير سيناء، بورفيري التماس بشأن السماح بالسفر إلى روسيا. ١٩٠٦.

- الملف ٥٣٤١. آداموفيتش. تذمر ثوري في أوساط البحارة الروس في القسطنطينية. ١٩١٣.

- الملف ٥٣٤٢. الحركة الثورية في مصر. ١٩١٣.

- الملف ٥٥١٤. المهمة العلمية التي يقوم بها بروفيسور الأكاديمية الدينية بينيشيفيتش فلاديمير نيكولايفيتش إلى سيناء. ١٩٠٧.

- الملف ٥٥٩٥. منح خديو مصر الأمير محمد علي، بطرس باشا غالي، حسن باشا عاصم، محمد ياور شهادات الأوسمة. ١٩٠٢.

- الملف ٥٨٣٩. تسليم يوريتسين سيرجي مذكرة قضائية. ١٩٠٩.

- الملف ٦٥٠٨. السماح لبورفيري رئيس أساقفة سيناء بالسفر إلى روسيا. ١٩١٤.

- الملف ٦٥٨٦. قائمة محاضر، مصر. ١٨٧٦- ١٨٨٠.

- الملف ٦٥٨٧. قائمة محاضر، مصر. ١٨٨٠.

- الملف ٦٥٨٨. قائمة محاضر، مصر. ١٨٨٤.

- الملف ٦٥٨٩. قائمة محاضر، مصر. ١٨٨٥-١٨٨٨.

- الملف ٦٥٩٠. قائمة محاضر، مصر. ١٨٨٩.

- الملف ٦٥٩١. قائمة محاضر، مصر. ١٨٩٠.

- الملف ٦٥٩٢. قائمة محاضر، مصر. ١٨٩١ - ١٨٩٣.

- الملف ٧٢٨٠. اللاجئون في الإسكندرية. ١٩١٦.

- الملف ٧٢٨١. رعاية السلافيين في مصر. ١٩١٦.

- الملف ٧٣٦٤. تفويض لازوموفسكي س. ب، نائب القنصل الروسي في يافا بتسيير شئون قنصليتي روسيا في السويس وبورسعيد. ١٩١٦.

- الملف ٧٣٨٤. استدعاء المواطنين الروس المطلوبين للتجنيد في القوات الإنجليزية في مصر. ١٩١٦.

- الملف ٧٥٦١. تقدير المواطنين الدوري: بوليس الإسكندرية، منحه أوسمة روسية لتقديمهم خدمات جليلة في قضية القبض على الثوري آداموفيتش. ١٩١٣.

- الملف ٧٦٣٨. بيانات إحصائية بشأن التعداد العام لسكان مصر. ١٩٠٤ - ١٩٠٧.

- أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. صندوق ١٥١. الأرشيف السياسي. القائمة ٤٨٢:

- الملف ٨٤٧. مصر. تقارير وخطابات. ١٩٠٣.
- الملف ٨٥٤. مصر. برقيات. ١٩٠٥.
- الملف ٨٥٥. مصر. مراسلات عامة. ١٩٠٥.
- الملف ٨٥٦. مصر. رسائل عاجلة وخطابات. ١٩٠٥.
- الملف ٨٥٩. مصر. رسائل عاجلة وخطابات. ١٩٠٧.
- الملف ٨٦٠. مصر. برقيات. ١٩٠٧.
- الملف ٨٦٢. مصر. رسائل عاجلة وخطابات. ١٩٠٧.
- الملف ٨٧٢. مصر. برقيات. ١٩١٢ – ١٩١٣.
- الملف ٨٧٤. مصر. رسائل عاجلة وتقارير. ١٩١٣.
- الملف ٨٧٦. مصر. رسائل عاجلة وتقارير. ١٩١٥ – ١٩١٧.
- الملف ٢٤١٤. العيادة الروسية في حلوان. ١٩١٥.

- أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. صندوق ١٥٤. القسم الآسيوي. القائمة ٧١٠/١. ١٨١٣ – ١٩١٧. قضايا غير سياسية:

- الملف ٣٤٤. فينوجرادوف. ١٩١١.
- الملف ٣٥٠. جولينيشيف – كوتوزوف. ١٩٠٧.
- الملف ٣٩٠. مالك ق. أ. ١٩٠٩.
- الملف ٤١٠. بتروف أ.م. ١٩٠٤.

- الملف ٩٧٧. التابوت الذي أهداه واشكوف إلى الإمبراطور. ١٨٢٧.

أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. صندوق ١٥٩. قسم الموظفين والشئون الاقتصادية. القائمة ٤٦٢. الضياع الموجودة في بيصاربيا. ١٨٤٩ – ١٩١٧:

- الملف ٨١. شهادة حول "الضياع التابعة للأديرة الخارجية في روسيا". ١٨٧٣ – ١٩٠٠.

- الملف ٩٦. مراسلات حول إعادة النظر في حقوق الأديرة الخارجية في ضياع موجودة في بيصاربيا. ١٩٠٩.

- الملف ١٠٤. قائمة بالضياع. ١٨٨٠.

- الملف ١٠٨. النسب بالضياع من رأس مال دير سيناء. ١٨٧٣ – ١٨٩٣.

- الملف ١٧٢. جرد الضياع. ١٩١٠ – ١٩١٢.

- الملف ١٨٥. بشأن الأديرة. ١٨٩٣.

- الملف ١٨٩. الضياع التابعة للأديرة ورؤوس أموالها. ١٨٩٩ – ١٩١٧.

- أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. صندوق ١٨٠. السفارة في القسطنطينية. القائمة ٥١٧/١. ١٧٩٨ – ١٨٥٣:

- الملف ٣٥٢٠. مراسلات السفير الروسي لدى القسطنطينية ستروجانوف مع رئيس أساقفة جبل سيناء قنسطنطين. ١٨١٩ – ١٨٢١.

- الملف ٣٥٢٢. مراسلات القائم بالأعمال الروسي في القسطنطينية مينيشاكي مع رئيس أساقفة جبل سيناء قنسطنطين ١٨٢٤ – ١٨٢٦.

- الملف ٣٥٢٥. قائمة بالهبات الكنسية المخصصة للأديرة اليونانية في تركيا. ١٨٢٧.

- الملف ٣٥٤٨. مراسلات السفير الروسي لدى القسطنطينية بوتينيف مع رئيس أساقفة سيناء. ١٨٣٩.

- الملف ٣٥٥١. مراسلات السفير الروسي لدى القسطنطينية بوتينيف مع رئيس أساقفة سيناء. ١٨٤٠.

- الملف ٣٥٧٠. نسخة من قائمة وجهاء الكنائس والأديرة الذين كانوا يتلقون مساعدات سنوية من روسيا. ١٨٤٧.

- أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. صندوق ١٨٠. السفارة في القسطنطينية. القائمة ٢/٥١٧. ١٨٥٦ - ١٩١٤:

- الملف ٣٤١٩. اللوازم الكنسية التي ترسلها روسيا للكنائس الفقيرة في الشرق. ١٨٩٤.

- الملف ٣٤٢٠. كالسابق. ١٨٩٨.

- الملف ٣٤٢١. كالسابق. ١٨٩٩.

- الملف ٣٤٢٢. كالسابق. ١٩٠٠.

- الملف ٣٤٢٣. كالسابق. ١٩٠١.

- الملف ٣٤٢٤. كالسابق. ١٩٠٢.

- الملف ٣٤٢٥. كالسابق. ١٩٠٣.

- الملف ٤٩٠٩. الأجراس. ١٨٩٩ - ١٩٠٣.

أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. صندوق ٣١٧. المفوضية الدبلوماسية والقنصلية العامة في مصر. ١٧٨٣ – ١٩٣٢. القائمة ١/٨٢٠ :

– الملف ٥٠٦. التجنيد. ١٩١٤ – ١٩١٦.

– الملف ٥٠٧. بدء الحرب. حالة الحصار في مصر والحرب مع تركيا وبلغاريا. ١٩١٦.

– الملف ٥٠٨. المواطنون الروس المطلوبون للتجنيد في مصر. ١٩١٦ – ١٩١٩.

– الملف ٥٦٥. السفن الحربية و البحارة في مصر. الطرّاد الروسي "بيريسيفت"، غرقه والمراسلات بشأن انتشاله. ١٩١٦ – ١٩١٨.

– الملف ٥٦٦. الحجاج. ١٨٣٦.

– الملف ٥٦٧. دير سيناء. ١٨٦٧ – ١٨٧٩.

– الملف ٥٦٩. الأديرة، ١٨٧٢.

– الملف ٥٧١. بطريرك الإسكندرية و دير سيناء ١٨٨٢ – ١٨٩٢.

– الملف ٥٧٤. المهام والبعثات العلمية إلى مصر ١٩٠٩ – ١٩١٢.

– الملف ٥٧٦. سيناء. ١٩٠٩ – ١٩١٢.

– الملف ٦٥٧. اللاجئون وتقديم المساعدة لهم. ١٩١٤ – ١٩١٦.

– الملف ٦٥٨. اللاجئون في مصر. ١٩١٥ – ١٩١٧.

– الملف ٦٥٩. اللاجئون. ١٩١٦ – ١٩١٩.

– الملف ٦٦٥. هيئة المدرسة (العبيدية). ١٨٦١.

– الملف ١٠٧١. القضايا الشخصية للمواطنين الروس. ١٩١٧–١٩١٩.

أرشيف العلاقات السياسية الخارجية للإمبراطورية الروسية. صندوق ٣١٧. المفوضية الدبلوماسية والقنصلية العامة في مصر. ١٧٨٣ – ١٩٣٢. القائمة ٨٢٠/٢ :

– الملف ٣٥. قائمة المواطنين الروس المقيمين في القاهرة، وطلب الرعاية الروسية لهم. ١٨٢٤ – ١٨٣٢.

– أرشيف العلاقات السياسية الخارجية للإمبراطورية الروسية. صندوق ٣١٧. المفوضية الدبلوماسية والقنصلية العامة في مصر. ١٧٨٣ – ١٩٣٢. القائمة ٨٢٠/٣ :

– الملف ٤. مراسلات السفير الروسي سميرنوف مع السلطات البريطانية والمصرية بشأن وضع المواطنين الروس في مصر. أغسطس ١٩١٥ – نوفمبر ١٩١٦.

– الملف ٥٤. مراسلات المفوضية الدبلوماسية في مصر بشأن اللاجئين الروس. ١٩٢١.

– الملف ٧٠. المراسلات مع القنصلية في الإسكندرية بشأن أسرى الحرب الروس في مصر. ٢٠ سبتمبر ١٩١٨ – ٨ مارس ١٩١٩.

– الملف ١٠٧. بشأن وصول فينو جرادوف إلى مصر في مهمة لدى المفوضية الدبلوماسية الروسية. ١٩٢٠.

– الملف ١٦٤. شهادات وجوازات سفر ومعلومات عن التحريات التي تمت بشأن بعض الأشخاص. ١٥ ديسمبر ١٩١٠ – ٢٨ سبتمبر ١٩٢٩.

- الملف ١٦٦. جوازات سفر وبطاقات هوية ووثائق أخرى خاصة بالمواطنين الروس في مصر في الفترة من عام ١٩١٩ و حتى عام ١٩٢٦.

- الملف ١٦٩. شهادات أعطتها القنصلية الروسية في مصر لمختلف الأشخاص. ١٩٢٠ – ١٩٢٨.

- الملف ١٨١. عن وصول مواطنين روس إلى مصر ومغادرتهم لها. ١٩٢١.

- الملف ١٩١. عن جوازات سفر "مزورة". ١٩٢٥.

- الملف ١٩٢. مراسلات السفير الروسي مع القنصليات الروسية في مصر بشأن ترحيل ضباط الحرس الأبيض إلى جيش سيبيريا في الشرق الأقصى عبر قناة السويس. ١٩١٩.

- الملف ١٩٣. اللاجئون الروس في مصر. ١٩٢٠.

- الملف ١٩٤. بشأن أوضاع اللاجئين الروس في مصر. ١٩٢٠.

- الملف ١٩٥. جول وقف المساعدة المادية المقدمة للاجئين الروس. ١ ديسمبر ١٩٢٠ – ٢٥ أبريل ١٩٢١.

- الملف ١٩٦. اللاجئون الروس في مصر، يناير – ديسمبر ١٩٢١.

- الملف ٢٠٠. وضع الروس في مصر. ١٩٢٣.

- الملف ٢٠١. حول قرار مجلس الوزراء المصري المؤرخ ٦ أكتوبر ١٩٢٣ حول إلغاء حقوق الامتياز التي يتمتع بها المواطنون الروس، وسحب اعتراف الحكومة المصرية بالممثليات الدبلوماسية والقنصلية الروسية. ٣ أكتوبر ١٩٢٣ – ١٣ أكتوبر ١٩٢٣.

- الملف ٢٠٢. بشأن وضع الجالية الروسية في مصر ومصير الأراشيف القنصلية للقضايا ونشاط نائب القنصل في القاهرة. ٥ نوفمبر ١٩٢٣ – ٤ أبريل ١٩٢٩.

- الملف ٢٠٣. المراسلات التي تمت بين القنصلية في الإسكندرية واللاجئين الروس بشأن وضعهم ومد يد المساعدة لهم. ١٢ يناير – ١٦ ديسمبر ١٩٢٤.

- الملف ٢٠٥. قوائم المواطنين الروس المقيمين في مصر. ١٩٢٦.

- الملف ٢٠٧. بيانات عن عدد اللاجئين الروس ووضعهم في مصر. ١٩٢٩.

- الملف ٢٠٨. قوائم المواطنين الروس المقيمين في الإسكندرية.

- الملف ٢٠٩. مسوّدة الخطاب المرسل إلى الحكومة الأمريكية حول وضع الممثليات الدبلوماسية والقنصلية الروسية، وكذلك وضع اللاجئين الروس في الخارج وتقديم مساعدات مالية للاجئين من الحكومة الأمريكية.

- الملف ٢١٠. بيانات عن إجلاء الضباط والجنود المرضى والجرحى من جيش الحرس الأبيض التطوعي من نوفوروسيسك إلى مصر. يناير ١٩٢٠.

- الملف ٢١٢. قوائم الطاقم الطبي في مستشفى التل الكبير. ١٩٢٠.

- الملف ٢١٣: قوائم الأشخاص الذين أخذوا إجازات مرضية من التل الكبير. ١٩٢٠.

- الملف ٢١٤. الطلبات المقدمة من اللاجئين الروس إلى الهيئة الروسية للصليب الأحمر في القاهرة لصرف ملابس. نوفمبر ١٩٢٠.

- الملف ٢١٥. المراسلات التي تمت مع لجان هيئة الصليب الأحمر الروسية من أجل مساعدة اللاجئين الروس في مصر. ١٩٢٢.

- الملف ٢٢٠. طلب من ف. إ. بيللين بشأن إلحاقه في وظيفة طبيب بالمفوضية الدبلوماسية الروسية في مصر. ١٩٢٠.

- الملف ٢٢١. بشأن حق الأطباء الروس في ممارسة العمل الطبي في مصر. ١٩٢١، ١٩٢٢.

- الملف ٢٢٢. العيادة الروسية في مصر. ١٩٢٠.

- الملف ٢٢٣. التقرير السنوي بشأن نشاط العيادة الروسية في القاهرة. ١٩٢٠، ١٩٢١.

- الملف ٢٢٩. قائمة أعضاء الجمعية الروسية للاجئين "إنيرجيا" في الخامس من إبريل عام ١٩٢٤.

- الملف ٢٣٤. المراسلات التي تمت مع فابريجيه صائغ البلاط حول إرسال أحجار كريمة إلى بطرسبورج وإمكانية بيع مشغولاته في مصر. ١٢ يوليو ١٩٠٨ – ١٤ سبتمبر ١٩٠٨.

- الملف ٢٣٧. المراسلات التي بين كل من السفير الروسي لدى مصر أ.أ. سميرنوف و س.ب. رازوموفسكي مع رئاسة جمعية المحاربين القدماء الروس. ١٩٢٠، ١٩٢٧، ١٩٢٨.

- الملف ٢٤٠. المراسلات التي تمت مع مختلف الشخصيات حول إنشاء مكتبة روسية في القاهرة. ٢ يناير ١٩٢٥ – ٢٦ سبتمبر ١٩٢٨.

- الملف ٢٤١. المراسلات التي تمت بين السكرتير السابق للبعثة الروسية في مصر س. ب. رازوموفسكي والهيئات الروسية في مصر وشخصيات مختلفة. ١٩٢٦، ١٩٢٧.

- الملف ٢٤٢. مراسلات مع شخصيات مختلفة. ١٩٢٧.

- الملف ٢٤٣. مراسلات مع شخصيات مختلفة. ١٩٢٧ – ١٩٢٩.

- الملف ٢٤٤. مراسلات مع شخصيات مختلفة.

- الملف ٢٤٥. ترجمة الخطاب الموجه للقنصل العام الروسي لدى مصر بخصوص الشئون الكنسية في سيناء. ١٨٨٩.

- الملف ٢٤٦. وثائق دير سيناء. ١٨٩٣ – ١٩٢٦.

- الملف ٢٧٨. قضية ميراث السفير الروسي في مصر سميرنوف والقضايا المالية للبعثة الروسية في مصر بعد وفاة سميرنوف. ١٩٢٤ – ١٩٢٨.

- الملف ٢٧٩. بشأن وصية سميرنوف. ١٩١٦.

- الملف ٢٨٠. قضية نوفاكوف. ١٩٢٤.

- الملف ٢٩٠. قضية السكرتير السابق للقنصلية الروسية في الإسكندرية أوموف. ١٩١٧ – ١٩٢٣.

- الملف ٣٢٠. قضية اتهام المواطنين الروسيين ياكوب ويوسف ديفليتيانوف بالاحتيال وممارسة أعمال ربوية.

- الملف ٣٢١. مذكرة المحامي زوجراب التي قدمها إلى وزارة الخارجية المصرية بشأن حقوق المحاكم الروسية في مصر وعلاقتها بالقضايا الجنائية للمواطنين ياكوب ويوسف ديفليتيانوف. ١٩٢٣.

- الملف ٣٣٩. قائمة بالشكاوى المقدمة إلى موظفي المفوضية الدبلوماسية الروسية في مصر. ١٩١٧ – ١٩١٨.

- الملف ٣٥٧. تقرير عن عام ١٩٢٢.
- الملف ٣٦٩. التقرير المالي للقنصلية عن عام ١٩٢٣.
- الملف ٣٧٢. التقرير المالي للقنصلية عن عام ١٩٢٩.
- أرشيف السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية. الصندوق ٥. السكرتير ليتفينوف:
- قائمة ١١، دوسيه ٧٦، ملف ٥٥. بشأن سوء المعاملة التي تتعرض له سفن الاتحاد السوفيتي في الموانئ المصرية والفلسطينية من جانب السلطات الإنجليزية. ١٩٣١.
- أرشيف السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية. الصندوق ٨٧. تقرير عن مصر:
- قائمة ١، دوسيه ٢، ملف ٢٠. عرض للصحافة المصرية. ١٩٤٢.
- قائمة ١، دوسيه ٢، ملف ٢١. عرض زمني للأحداث السياسية في مصر. ١٩٣١ - ١٩٤٢.
- قائمة ٢، دوسيه ٣، ملف ٣. مذكرات البعثة في مصر إلى اللجنة القومية للشئون الخارجية للاتحاد السوفيتي. ١٩٤٤.
- قائمة ٢، دوسيه ٣، ملف ٤. مذكرات وزارة الخارجية المصرية إلى بعثة الاتحاد السوفيتي. ١٩٤٤.
- قائمة ٢، دوسيه ٣، ملف ١٢. المهاجرون في مصر. ١٩٤٤.
- قائمة ٢، دوسيه ٥، ملف ٣١. مراسلات بشأن أسرى الحرب. ١٩٤٤.

- قائمة ٤، دوسيه ٦، قائمة ٣. مذكرات بعثة الاتحاد السوفـيتي إلى وزارة الخارجية المصرية. ١٩٤٥،

- قائمة ٤، دوسيه ٦، ملف ١٤. الروس البيض في مصر. ١٩٤٥.

- قائمة ٤، دوسيه ٧، ملف ٢١. ترجمة مقالات من الصحف المصرية قامت بها بعثة الاتحاد السوفـيتي في مصر. ١٩٤٥.

- قائمة ٤، دوسيه ٨، كلف ٤٧. تقويم زمني بالأحداث التـي جـرت في مصر. ١٩٤٥.

- قائمة ٥، دوسيه ٩، ملف ٢. مذكرات متبادلة بين البعثة المـصرية ووزارة الخارجية في الاتحاد السوفـيتي. ١٩٤٦.

- قائمة ٦، دوسيه ١٠، ملف ٢. مذكرات متبادلة بين وزارة الخارجية المصرية وبعثة الاتحاد السوفـيتي في مصر. ١٩٤٦.

- قائمة ٧، دوسيه ٥، ملف ١١. المهاجرون البـيض فـي مـصر. ١٩٤٤.

- قائمة ٨، دوسيه ٨، ملف ١٨. عرض الصحافة المصرية أعدته بعثة الاتحاد السوفـيتي في القاهرة. ١٩٤٥.

- قائمة ٨، دوسيه ٨، ملف ١٩. عرض للصحافة المـصرية أعدتـه بعثة الاتحاد السوفـيتي في مصر. ١٩٤٥.

- قائمة ٩، دوسيه ١٣، ملف ٣. مذكرات بعثة الاتحـاد الـسوفـيتي في مصر إلى وزارة الخارجية المصرية. ١٩٤٨.

- قائمة٩، دوسيه ١٣، ملف ٤. مذكرات وزارة الخارجية المـصرية إلى بعثة الاتحاد السوفـيتي في مصر. ١٩٤٨.

- قائمة ١٠، دوسيه ١٥، ملف ١٠. قضايا حماية مصالح مواطني الاتحاد السوفيتي والمواطنين الأجانب. ١٩٤٩.

- أرشيف السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية. الصندوق ٥٠. القسم القنصلي:

- قائمة ٣٠، دوسيه ٣٦٣، ملف ٨. مذكرات السفارة البريطانية إلى وزارة خارجية الاتحاد السوفيتي. ١٩٤٣. الجزء الأول.

- قائمة ٣٠، دوسيه ٣٦٣، ملف ٩. مذكرات السفارة البريطانية إلى وزارة خارجية الاتحاد السوفيتي. ١٩٤٣. الجزء الأول.

- قائمة ١٠، دوسيه ٣٦٣٥، ملف ١٠. مذكرات قوميسارية العلاقات الخارجية إلى السفارة البريطانية. ١٩٤٣.

- أرشيف المهجر الروسي. المركز الثقافي "منزل – متحف مارينا تسفيتايفا" (موسكو). صندوق "مجموعة هبات كومباني دي بيرس":

- ملف ك ب ٧٠٠. توقيعات مثقفي المهجر الروسي.

- ملف ك ب ٧٠٢. توقيعات مثقفي المهجر الروسي.

- ملف ك ب ٧٠٤. توقيعات مثقفي المهجر الروسي.

- ملف ك ب ٧٠٩. إ. ي. بيليبين. ١٩١٨ – ١٩٢٥.

- أرشيف دير سيناء

- جرد رقم ١٤ أ. دفتر تسجيل التبرعات لصالح دير سانت كاترين، الواردة من السينودوس المقدس. ١٧٥٦ – ١٧٥٨.

- جرد رقم ٤ – ٨٩. شهادة امتياز القيصر ميخائيل فيودوروفيتش. ١٦٣٠.

- جرد رقم ٤-٩٠. شهادة امتياز القيصر الكسي ميخايلوفيتش. ١٦٤٤.

- جرد رقم ٤-٩١. شهادة امتياز القيصرين بيوتر ويوهان الكسييفيتش. ١٦٩٤.

- جرد رقم ٤-٩٢. شهادة امتياز القيصرين بيوتر ويوهان الكسييفيتش والقيصرة صوفيا الكسييفنا. ١٦٨٩.

- جرد رقم ٤-٩٣. شهادة امتياز القيصر الكسي ميخايلوفيتش، ١٦٤٨.

- جرد رقم ٤-٩٤. شهادة امتياز القيصرين بيوتر ويوان الكسييفيتش. ١٦٩٣.

- سجل زوار الدير من عام ١٨٩٧ وحتى عام ١٩٣٤.

- سجل زوار الدير من عام ١٩٣٤ وحتى ١٩٥٠.

- سجل زوار الدير من عام ١٩٣٤ وحتى ١٩٥٣.

- سجل زوار الدير من عام ١٩٥٧ وحتى ١٩٦١.

الأرشيف الحكومي لروسيا الاتحادية. الصندوق ٩٥٢٦. إدارة مجلس وزراء الاتحاد السوفيتي المفوض لشئون أسرى الحرب والمعتقلين. القائمة الأولى:

- ملف ١٩٢. ترحيل المواطنين السوفيت من الجزائر وتركيا والمغرب واليونان. ١٩٤٥/١٠/٣٠ – ١٩٤٦/٤/٢٧.

- ملف ٣٧٥. المراسلات الخاصة بقضية الترحيل من رومانيا وإيطاليا ومصر وإنجلترا وفنلندا والسويد والنرويج. ١٩٤٧.

- الملف ٤٢٧. المراسلات التي تمت مع الجهات المفوضة في إيطاليا ويوغوسلافيا بشأن ترحيل الأسرى والمعتقلين من إيطاليا ويوغسلافيا وألمانيا ومصر. ٢، ٣ - ١٩٤٦/١٢/٣٠.

- ملف ٤٣٢. المراسلات التي تمت بشأن الجرد الشخصي لمواطن الاتحاد السوفيتي الذين تم ترحيلهم من مختلف البلدان (القوائم التي استخدمها جيش الجنرال أنديرس). ١٩٤٧.

- ملف ٤٤٢. قوائم المواطنين السوفيت الذين عقدوا قرانهم والذين استقر بهم المقام في فرنسا، قائمة المواطنين السوفيت، الذين خدموا في فيالق أجنبية. ١٩٤٦.

- ملف ٥٠٧. قائمة المواطنين السوفيت الموجودين في الخدمة في "الجيش البولندي" الذي يقوده الجنرال أنديرس تحت قيادة بريطانية على أراضي إنجلترا وسكوتلاندا. ١٩٤٧.

- الأرشيف الحكومي الروسي للأسطول البحري الحربي. الصندوق ٤١٧. رئاسة الأركان البحرية:

- قائمة ٤، ملف ٦٤١٧. التقارير، البرقيات، المراسلات حول تحديد أشخاص طاقم الطرّاد الغارق "بيريسيفت" العاملين على سفن أخرى مع طاقم أسطول أرخانجلسك. ١٩١٧.

الأرشيف الحكومي الروسي للأسطول البحري الحربي. الصندوق ٤١٨. رئاسة الأركان البحرية، القائمة الأولى:

- ملف ١٠٠. مسألة ترميم الطرّاد "بيريسيفت" الغارق في بورسعيد في اليابان وإنقاذ طاقمه.

- ملف ١٠٢. مسألة غرق الطرّاد "بيريسيفت" ١٩١٧.

- ملف ١٠٣. تقرير عميل الأسطول البحري الحربي في فرنسا إلى نائب القنصل في الإسكندرية والمراسلات مع لجنة بحث وتقصي ظروف شراء وإيجار وغرق الطرّاد "بيريسيفت".. ١٩١٧.

- الأرشيف الحكومي الروسي للأسطول البحري الحربي. الصندوق ٢١-ر. اللجنة المركزية للأسطول الحربي لعموم روسيا. القائمة الأولى:

- ملف ٢٧. المراسلات التي تمت مع رئاسة الأركان الحربية، ووزارة مشاة البحرية، النائب العام للبحرية الحربية وغيرهم بشأن تسريح المحطة الجوية في آبو، وعن وضع طاقم السفينة الغارقة "بيريسيفت" الموجودين في مدينة بريست. ١٩١٧.

- الأرشيف الحكومي الروسي للتاريخ الاجتماعي السياسي. الصندوق ٢، القائمة الأولى:

- الملف ٩٩٥١. تقرير ف. أ. رختانوف بشأن الرحلة إلى بلدان الشرق. ١٩١٩.

المصادر المنشورة

- آداموفـيتش م (خ. أرل). "البحار" و البحارة أمام القضاء (مـذكرات). مواد في تاريخ الحركة العمالية في روسيا. الإصدار ٢. موسكو، ١٩٢٤.

- آداموفـيتش م. الطريق إلى التـسجيل (اسـتنادا إلـى مـذكراتي الشخصية). مواد في تاريخ الحركة العمالية. الإصدار ٣. موسكو، ١٩٢٥.

- آداموفـيتش م. إضراب صيف عام ١٩٠٦. مواد في تاريخ الحركة العمالية في روسيا. الإصدار ٥. موسكو، ١٩٢٥.

- آداموفـيتش م. في البحر الأسود. (مقـالات النـضال الماضـي). موسكو، ١٩٢٨.

- آداموفـيتش م. السجن المستعاد. موسكو، ١٩٢٨.

- آداموفـيتش م. الهروب. موسكو، ١٩٢٨.

- آداموفـيتش م. التسجيل للبحر الأسود. موسكو، ١٩٢٩.

- آداموفـيتش م. الحلقة تضيق. الأسطول القيصري تحـت الرايـة الحمراء. وثائق و مذكرات عن مشاركة البحـارة فـي الحركـة الثوريـة. موسكو، ١٩٣١.

- أدلربيرج، نيكولاي. من روما إلى القدس. سان بطرسبورج، ١٨٥٣.

- أفرييـفـسكي ف. مصر. الإسكندرية، القاهرة وضواحيها، سـقارة وضفاف النيل حتى الشلالات الأولى. وصف رحلـة مـن ١٨٨٠ وحتـى ١٨٨١. سان بطرسبورج، ١٨٨٤. الطبعة الثانية. سان بطرسبورج، ١٨٨٦. الطبعة الثالثة. سان بطرسبورج، ١٩٠١.

- أنتوني (كابوستين) أرشيمندريت. من مذكرات. متعبد فـــي ســيناء. كييــف، ١٨٧٢،

- أفريقيا في عيون مواطنينا. موسكو، ١٩٧٤.

- بابوريكو أ. إ. أ. بونين. مواد بيوجرافية من عام ١٨٧٠ وحتى عام ١٩١٧. الطبعة الثانية. موسكو، ١٩٨٣.

- بالمونت، قنسطنطين. بلاد أوزيريس. موسكو، ١٩١٤.

- بيلي، أندريه. أرابيسك. موسكو، ١٩١١.

- بيلي، أندريه. شعر. موسكو، ١٩٨٨.

- الكتاب المقدس، العهدين القديم والحديث. سان بطرسبورج، ١٨٩٢.

- بريوسوف، فــاليري. يوميات. ١٨٩١ – ١٩١٠. موسكو، ١٩٢٧.

- بريوسوف، فــاليري. الأعمال الكاملة في سبعة أجزاء. موســكو، ١٩٧٣ – ١٩٧٥.

- بولجاكوف م. أ. قصص، قــصص قــصيرة، مقــالات ســاخرة. موسكو، ١٩٨٨.

- بونين إ.أ. الأعمال الكاملة في تسعة أجزاء. موسكو، ١٩٦٦.

- نشرة المؤتمر الرابع للكومينترن. موسكو، ١٩٢٢.

- في مصر. شعر ق. ر. مجلة "نيــفــا" العدد ٣٦، ١٩١٣.

- فـليـيـف، سليمان. الطريق إلى الوطن. مذكرات. سليمان فـلييف. مطر من لؤلؤ. موسكو، ١٩٦٣.

- فـيرسايـف ف. ف. الأعمال الكاملة. موسكو، ١٩٢٩.

- فـلاديمير إيليتش لينين. سيرة حياة في اثني عشر جـزءًا، سـان بطرسبورج، ١٨٩٤.

- موتيـفـات شرقية. قصائد وأشعار. موسكو، ١٩٨٥.

- في ذكرى المحاربين الشهداء. أسماء الروس الذين استـشهدوا فـي صفوف الجيش الفرنسي والمقاومة. ١٩٣٩ – ١٩٤٥. باريس، ١٩٩١.

- المستشرق الروسي البارز ف. س. جولينيـشيـف وتاريخ اقتنـاء متحف الفنون الجميلة لمجموعته (١٩٠٩ – ١٩١٢). مـن تـاريخ متحـف الدولة للفنون الجميلة. الإصدار ٣. موسكو، ١٩٨٧.

- جلوشينسكي إ.ب. قناة السويس. سان بطرسبورج، ١٨٧٠.

- جونتشاروف ريوري. فيلق دونسكوي للكاديت في مصر، أفريقيا في عيون المهاجرين. موسكو، ٢٠٠٢.

- جوميلوف، نيكولاي. قصائد و أشعار. لينينجراد، ١٩٨٨.

- جوميلوف، نيكولاي. يوميات أفريقية. نداء أفريقيا. موسكو، ١٩٩٢.

- دى بيرس. الآثار المستعادة. ملحمة بوشكينية في المهجر الروسي. كاتالوج المعرض. موسكو، ١٩٩٩.

- دينيسيفسكي م. رحلت جلال الإمبراطور ولي العهد الإمبراطور نيكولاي الكسندروفيتش إلى الشرق. الطبعة الثانية محققة ومزيدة. سان بطرسبورج. كييف، ١٨٩٠.

- وثائق السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي. الأجزاء من الأول إلى السابع. موسكو، ١٩٥٩ – ١٩٦٣.

- الآثار المصرية القديمة من متاحف الاتحاد السوفيتي. كتالوج المعرض المقام في متحف بوشكين للفنون الجميلة. المقال الافتتاحي س.إ. خودجاش. موسكو، ١٩٩١.

- الحجاج الروس القدامى. إعداد ف. جريكوف (عالم السلالات)، سان بطرسبورج، ١٨٩١.

- الإسكندرية القديمة. رحلة الأرشيمندريت قسطنطين أرشيمندريت دير كييف – يكاترين اليوناني. موسكو، ١٨٠٣.

- الإسكندرية في عيون الروس في منتصف القرن التاسع عشر – مطلع القرن العشرين. السياسة. الاقتصاد. الثقافة. مواد ملحقة بسلسلة "شعوب وثقافات". الإصدار الخامس عشر. شعوب الشرق الأوسط. الكتاب الثاني. الإعداد. المقدمة، التعليقات، الملاحظات و الترجمة ج. ف. جورياتشكين. موسكو، ١٩٩٢.

- يليسييف أ. ف. الطريق إلى سيناء. ١٨٨١. سان بطرسبورج، ١٨٨٣.

- يليسييــف أ.ف. رحلة حول العالم. مقالات ومشاهد مــن رحــلات في ثلاثة أرباع العالم القديم في أربعة أجزاء. ســان بطرســبورج، ١٨٩٨. الطبعة الثانية، سام بطرسبورج، ١٩٠١.

- يلباتييــفــسكي س. مصر. ســان بطرســبورج، ١٩١١، الطبعــة الثانية. سان بطرسبورج، ١٩١٢.

- جيــفـــاجو أ. ف. عبــر النيــل حتــى خــط ٢٢ شــمالاً. أ. ف. جــيــفــاجو – طبيب، مقتنٍ، عالم مصريات. الجزء الأول، بروكسل، ١٩٧١.

- إيــفــانوف، فيتشيسلاف. Car arclens. موسكو، ١٩١٤.

- إيــفــانوف، فيتشيسلاف. الأعمال الكاملة. الجزء الأول. بروكسل، ١٩٧١.

- إيــفــانوف، فيتشيسلاف بيليبين. مقالات، خطابات، مذكرات عــن فنان. لينينجراد ـــ ١٩٧٠.

- القدس و سيناء. مذكرات الرحلة الثانية التي قام بها أ.س. نــورزف إلى الشرق. سان بطرسبورج، ١٨٧٨.

- من خطابات ق.ر. السلافــيون والشرق. الإصدار الأول. بــراج، ١٩٢١. كتاب الرحلات. مذكرات الرحَّالة الروس من القرن الحادي عــشر وحتى القرن الخامس عشر. موسكو، ١٩٨٤.

- كوفاليفسكي ي. ب. رحلة إلى أعماق أفريقيا. الجزءين الأول والثاني. سان بطرسبورج، ١٨٤٩.

- كوفاليفسكي ي. ب. الأعمال الكاملة في خط أجزاء. سان بطرسبورج، ١٨٧١ - ١٨٧٢.

- كونداكوف ن.ب. الحروف الأولى في تصوير الآلهة على صورة حيوانات في المخطوطات اليونانية والسلافية القديمة من القرن العاشر وحتى القرن الحادي عشر في مكتبة دير سيناء . ١٩٠٣.

- كوبتيف أ. مذكرات عن رحلة إلى القسطنطينية والقاهرة والقدس في عام ١٨٨٧. سان بطرسبورج، ١٨٨٨.

- ق. ر. يوميات. مذكرات. أشعار. خطابات. موسكو، ١٩٩٨.

- كراسنوف أ.ن. من مهد الحضارة. سان بطرسبورج، ١٨٩٨.

- لينين ف. إ. خطاب إلى ف. أ. روتشتاين، ٢٩ نوفمبر ١٩٠٨. الأعمال الكاملة، الجزء ٤٧.

- لينين ف. إ. خطاب إلى ف. أ. روتشتاين، ٨ يوليو ١٩٠٨. الأعمال الكاملة. الجزء ٤٧.

- لينين ف. إ. خطاب إلى تلاميذ مدرسة كابري، ٣٠ أغسطس ١٩٠٩. الأعمال الكاملة. الجزء ٤٧.

- لينين ف. إ. خطاب إلى هيئة تحرير صحيفة "برافدا"، ١٩ يوليو ١٩١٢. الأعمال الكاملة. الجزء ٤٨.

- لينين ف. إ. خطاب إلى ف. أ. روتشتاين، ٣٠ نوفمبر ١٩١١، الأعمال الكاملة. الجزء ٤٨.

- لينين ف. إ. خطاب إلى ف. أ. روتشتاين، ١٥ يوليو ١٩٢٠، الأعمال الكاملة. الجزء ٥١.

- لينين ف. إ. خطاب إلى ف. أ. روتشتاين، ١٣ أغسطس ١٩٢١، الأعمال الكاملة، الجزء ٥٣.

- لينين ف. إ. خطاب إلى ى. ف. ستالين، ٨ ديسمبر ١٩٢٢، الأعمال الكاملة، الجزء ٥٤.

- ليونتي، الأرشيمندريت. تاريخ حياة جريجوروفيتش الصغير (مقتطفات). رحلة عبر الشرق في عصر يكاتيرنيا الثانية. موسكو، ١٩٩٥.

- سيرة حياة وإبداع ف. إ. شاليابين في جزءين. الطبعة الثانية. لينينجراد، ١٩٨٨ – ١٩٨٩.

- لوزينيان س. تاريخ تمرد على بك على الباب العالي العثماني. ترجمة عن الألمانية. موسكو، ١٧٨٩.

- مايسكي إ.م. مذكرات سفير سوفيتي. الكتاب الأول. رحلة إلى الماضي. موسكو، ١٩٦٤.

- ماركوف، يفجيني. رحلة إلى الشرق. تساريجراد والأرخبيل. في بلاد الفراعنة. سان بطرسبورج، ١٨٩٠.

- مواد في تاريخ رئيس أساقفة جبل سيناء. "مجموعة مقالات أرثونكسية سلافية"، الإصدار ٥٨، سان بطرسبورج، ١٩٠٩.

- موردوفتسيف د.ل. رحلة إلى الأهرامات. سان بطرسبورج، ١٨٨١.

- موردوفتسيف د.ل. الأعمال الكاملة في أربعة عشر جزءًا. موسكو، ١٩٩٥ – ١٩٩٦.

- مورافييف أ. ن. علاقات روسيا بالشرق في المسائل الكنسية. الجزء الأول، سان بطرسبورج، ١٨٥٨. الجزء الثاني. سان بطرسبورج، ١٨٦٠.

- نيدزيليسكي، يفجيني. مذكرات المعسكر. أفريقيا في عيون المهاجرين. موسكو، ٢٠٠٢.

- مقابر لا تنسى. مدن الموتى الروسية في المهجر من ١٩١٧ وحتى ١٩٩٧. في ستة أجزاء. موسكو، ١٩٩٩.

- نوفيكوف ن. ف. مذكرات دبلوماسي. موسكو، ١٩٨٩.

- نوفيكوف ن. ف. طرق ومفترق طرق دبلوماسي. موسكو، ١٩٧٦. وصف للمخطوطات اليونانية في دير سانت كاترين في سيناء. الجزء الأول. سان بطرسبورج، ١٩١١. الجزء الثالث. براج، ١٩١٧.

- وصف لرحلة الأب إيجانتى إلى تساريجراد وجبل أفون والأراضي المقدسة ومصر في الأعوام ١٧٦٦ – ١٧٧٦. "مجموعة مقالات أرثوذكسية فلسطينية"، الإصدار ٣٦. سان بطرسبورج، ١٨٩١.

- وصف البطريرك جيراسيم لجبل سيناء المقدس. ترجمة من اليونانية سميرنوف. موسكو، ١٧٨٣.

- نقال حول نشاط اتحاد الزيما لعموم روسيا في الخارج (أبريل ١٩٢٠- ١ يناير ١٩٢٢). صوفيا، ١٩٢٢.

- حاج من كييف، أو دليل الأديرة والكنائس في كييف. كييف، ١٨٤٩.

- الحج إلى الأراضي المقدسة نهاية القرن الرابع. "مجموعة مقالات أرثوذكسية فلسطينية"، الإصدار ٢٠، سان بطرسبورج، ١٨٨٩.

- سيناء : الآثار والكتابات القديمة. رئيس التحرير ف. ن. بينيشيفيتش. الإصدار الأول، سان بطرسبورج، ١٩١٢، الإصدار الثاني. لينينجراد، ١٩٢٥.

- مراسلات ف. إ. لينين وهيئة تحرير صحيفة "إيسكرا" مع المنظمات الاشتراكية الديمقراطية في روسيا. ١٩٠٠ – ١٩٠٣. في ثلاثة أجزاء. موسكو، ١٩٦٩ – ١٩٧٠.

- بتروف ن.إ. مجموعات الأيقونات الشرقية القديمة والصور الموجودة في الكتب القديمة، التي أوصى بها المقدس بورفيري (أوسبينسكي) إلى جمعية الآثار الكنسية التابعة لأكاديمية كييف الروحية. كييف، ١٨٨٦.

- رحلة الحجاج المشاة فاسيلي جريجوريـفـيتش - بارسكي - بلاكي - ألبوف، ابن مدينة كييـف، قس أنطاكيا، إلى الأماكن المقدسـة الموجـودة فـي أوربا وآسيا وأفريقيا والتي قاموا بها في عام ١٧٢٣ وانتهت في عـام ١٧٤٧. سان بطرسبورج، ١٧٧٨.

- رحلة أ. أومانتس إلى سيناء مع مقتطفات ملحقة عن مـصر والأرض المقدسة في جزءين ١-٢. سان بطرسبورج، ١٨٥٠.

- المجموعة الكاملة للمراسيم والأوامـر الـواردة فـي قائمـة اعتنـاق الإمبراطورية الروسية للعقيدة الأرثوذكسية:

- الجزء ١. ١٧٢١. سان بطرسبورج.

- الجزء ٢. ١٧٢٢. سان بطرسبورج.

- الجزء ٣. ١٧٢٣. سان بطرسبورج.

- الجزء ٤. ١٧٢٤-١٧٢٥. يناير ٢٨. سان بطرسبورج، ١٨٧٦.

- الجزء ٥. ٢٨ يناير ١٧٢٥ - ٥ مايو ١٧٢٧. سـان بطرسـبورج، ١٨٨١.

- الجـزء ٦. مـن ٨ مـايو ١٧٢٧ حتـى ١٦ ينـاير ١٧٣٠. سـان بطرسبورج، ١٨٨٩.

- الجزء ٧. من ١٩ يناير ١٧٣٠ حتـى ٢٣ ديـسمبر ١٧٣٢. سـان بطرسبورج، ١٨٩٠.

- الجزء ٨. ١٧٣٣ - ١٧٣٤. سان بطرسبورج، ١٨٩٨.

- الجزء ٩. ١٧٣٥ – ١٧٣٧. سان بطرسبورج، ١٩٠٥.

- الجزء ١٠. ١٧٣٨ – ٢٠ نوفمبر ١٧٤١. سان بطرسبورج، ١٩١١.

- الجزء ١١. ٢٥ نوفمبر ١٧٤١ – ١٧٤٣. سان بطرسبورج، ١٨٩٩.

- المجموعة الكاملة للمراسيم و الأوامر الواردة في قائمة اعتناق الإمبراطورية الروسية للعقيدة الأرثونكسية. الجزء الأول. ١٧٦٢ – ١٧٧٢، سان بطرسبورج، ١٩١٠.

- المجموعة الكاملة من المخطوطات الروسية. الجزءان ٩ ، ١٠. المخطوطة البطريركية أو مخطوطة نيقية. موسكو، ١٩٦٥.

- بورفيري (أوسبينسكي)، أرشيمندريت. الرحلة الأولى إلى دير سيناء في عام ١٨٤٥. سان بطرسبورج، ١٨٥٦.

- بورفيري (أوسبينسكي)، أرشيمندريت. الرحلة الثانية إلى دير سيناء في عام ١٨٥٠. سان بطرسبورج، ١٨٥٦.

- بورفيري (أوسبينسكي)، أرشيمندريت. رحلة إلى مصر وإلى دير القديس أنطون العظيم والقديس بولص الطيبي في عام ١٨٥٠. سان بطرسبورج، ١٨٥٦.

- بورفيري (أوسبينسكي)، أرشيمندريت. الشرق المسيحي، مصر وسيناء. مناظر، مقالات، الخطط والاشتراكات لرحلة الأرشيمندريت بورفيري. سان بطرسبورج، ١٨٥٧.

- بورفيري (أوسبينسكي)، أرشيمندريت. رأي حول مخطوطة سـيناوية تتضمن العهد القديم غير مكتمل، والعقد الجديد كاملاً مع رسالة القديس الحواري برنابا وكتاب إيرما. سان بطرسبورج، ١٨٦٢.

- بورفيري (أوسبينسكي)، أرشيمندريت. وصف لمخطوطـات يونانيـة موجودة في دير سانت كاترين. الجزء الأول. سان بطرسبورج، ١٩١١. الجزء الثاني. براج، ١٩١٧.

- رسالة القيصر إيـفـان فـاسيلييـفـيتش إلـى يـواقيم بطريـرك الإسكندرية مع التاجر فـسيلي بوزنياكوف ورحلة التاجر بوزنياكوف إلى القدس وإلى غيرها من الأماكن المقدسة عام ١٥٥٨. موسكو، ١٨٨٤.

- بوزانوف إ. بين النيل و البحر الأحمر. موسكو، ١٨٨٤.

- الدليل إلى أماكن الشرق المقدسة. سان بطرسبورج.

- رحلة فاسيلي جوجارا في عام ١٦٣٤. حكايات شعبية روسية جمعها إ. ساخاروف. الجزء الثاني. سان بطرسبورج، ١٨٤٩.

- رحلة فـولني إلى سـوريا فـي الأعـوام ١٧٨٣، ١٧٨٤ و ١٧٨٥. ترجمة عن الألمانية. الأصل باللغة الفرنسية. موسكو، ١٧٩١.

- رحلة السيد سونيني إلى مصر العليا والسفلى مع وصف للبلاد عادتهـا وتقاليدها وديانتها وسكانها. ترجمة عن الفرنسية. موسكو، ١٨٠٩.

- رحلة دنيس القساوسة إيبوليت فـيشينسكي إلى القدس وإلى سيناء وإلى أيون – أوروس (اليونان) (١٧٠٧ – ١٧٠٩). "مجموعة مقـالات أرثوذكـسية فلسطينية". الإصدار ٦١. سان بطرسبورج، ١٩١٤.

– رحلة إلى الأماكن المقدسة الموجودة في أوربا وآسيا وأفريقيا في العامين ١٨٢٠ و ١٨٢١ قام بها كيد برونيكوف من سكان قرية بافلوف. موسكو، ١٨٢٤.

– رحلة تريفون كوروبينكوف ويورى جريكوف التاجرين من موسكو. حكايات شعبية روسية جمعها إ. ساخاروف. الجزء الثاني. سان بطرسبورج، ١٨٤٩.

– رحلة إلى سيناء في عام ١٨٨١. انطباعات رحلة. آثار دير سيناء. الأب ن.ب. كونداكوف. أوديسا، ١٨٨٢.

– رحلة إلى الشرق والأرض المقدسة في معية الأمير العظيم نيكولاي نيكولايفيتش في عام ١٨٧٢ قام بها د. أ. سكالون. سان بطرسبورج، ١٨٨١.

– رحلة إلى مصر والنوبة في العامين ١٨٣٤ – ١٨٣٥ قام بها أفرام نوروف في جزءين ١-٢، ١٨٤٠. الطبعة الثانية. سان بطرسبورج، ١٨٥٣.

– رحلة أرسيني سوخانوف في عام ١٨٥١ إلى الأماكن المقدسة. حكايات شعبية روسية جمعها إ. ساخاروف. الجزء الثاني. سان بطرسبورج، ١٨٤٩.

– رحلة إيونا رئيس الشمامسة في عام ١٦٥١ إلى الأماكن المقدسة. حكايات شعبية روسية جمعها إ. ساخاروف. الجزء الثاني. سان بطرسبورج، ١٨٤٩.

– رحلة إلى الأرض المقدسة. مذكرات الحجاج والرحّالة الروس في القرون ١٢-٢٠. موسكو، ١٩٩٥.

– بوشكين أ. س. الأعمال الكاملة في عشرة أجزاء. موسكو، ١٩٨١.

- الدين والكنيسة في القرن الثامن عشر. كتالوج مجموعة مكتبة الدولة التاريخية العامة. الطبعات الصادرة من ١٧٢٥ وحتى ١٨٠٠. موسكو، ١٩٩٨.

- روسيا في الأرض المقدسة. وثائق ومواد في جزءين. موسكو، ٢٠٠٠.

الهجرة العسكرية الروسية من عشرينيات وحتى الأربعينيات. وثائق ومواد. الجزء الأول. هكذا بدا المنفى. ١٩٢٠ - ١٩٢٢:

- الكتاب الأول. الخروج. موسكو، ١٩٩٨.

- الكتاب الثاني. في المهجر. موسكو، ١٩٩٨.

- الهجرة العسكرية الروسية من العشرينيات وحتى الأربعينيات. وثائق ومواد، الجزء الثاني. آمال لم تتحقق. ١٩٢٣. موسكو، ٢٠٠١.

- سافيلوف ل. م. من البوسفور إلى الأهرام. موسكو، ١٩١٦.

- سافيلوف ل. م. في بلاد شمس الظهيرة. موسكو، ١٩١٠.

- ساخاروف إ.ب. رحلات الروس إلى الأرض المقدسة. سان بطرسبورج، ١٨٣٩.

- الأماكن المقدسة القريبة والبعيدة. ملاحظات كتاب روس رحَّالة في النصف الأول من القرن التاسع عشر. موسكو، ١٩٩٥.

- سيناء، بيزنطة، روسيا. الفن الأرثوذكسي في القرون من السادس وحتى العشرين. كتالوج المعرض الذي أقيم في متحف الأرميتاج في الفترة من ١٩ يونيو وحتى ١٨ سبتمبر ٢٠٠٠. سان بطرسبورج، ٢٠٠٠.

– سيبياجين ف. رحلة الأمير العظيم نيكولاي نيكولايـــفـــيتش الكبير إلى تركيا وسوريا وفلسطين ومصر في عام ١٨٧٢. سان بطرسبورح، ١٨٧٣.

– سوكولوف ن. أ رحلة ف. إ. شاليابين إلى أفريقيا. موسكو، ١٩١٤.

– سولوجوب ف. أ. مصر الحديثة (تقرير عـــام وانطباعـــات رحلـــة). سان بطرسبورج، ١٨٧١.

– شعر ق.ر. الطبعة الثانية. ١٨٧٩ – ١٨٨٥. سان بطرسبورج، ١٨٨٩.

– تركيا ومـــصر. مـــن مـــذكرات ن. ن. مورافـــييــــف (كارســـكي) ١٨٣٥ و١٨٣٣. موسكو، ١٨٦٩.

– أوموف، إيـــفـــان. الضيف الخفي. أشعار.

Churaerka. Southbury. Conn., USA. 1949.

– أوختومسكي إ.إ. رحلة الإمبراطور نيكولاي الثاني إلى الشرق. ســـان بطرسبورج، ١٨٩٣.

– فونفيرن س. سبعة أشهر في مصر وفلسطين. سان بطرسبورج، ١٩١٠.

– خيتروف ف. ن. فلسطين وسيناء. دليل بيليوجرافي. "مجموعة مقالات أرثونكسية فلسطينية"، الجزء الأول، الإصدار الأول. سان بطرسبورج، ١٨٧٦.

– رحلة الأرشيمندريت أجريفين. رئيس التحرير الأرشـــيمندريت ليونيـــد. "مجموعة مقالات أرثونكسية فلسطينية"، الإصدار ٤٨. سان بطرسبورج، ١٨٩٦.

– رحلة فارسونافي إلى مصر وســـيناء وفلـــسطين. كتـــاب الـــرحلات. موسكو، ١٩٨٤.

- رحلة جوست فاسيلي. "مجموعة مقالات أرثوذكسية فلسطينية". الإصدار ٦. سان بطرسبورج، ١٨٨٤.

- تشيريكوفا، لودميلا. ذكريات عن بيليبين. مجلة "تراثنا"، العدد ٦، ١٩٩١.

- القاموس الموسوعي. الناشرون: ف. أ. بروكهاوس (لايبزج) و إ. أ. إيفرون (سان بطرسبورج). الجزء الثاني والعشرون. سان بطرسبورج، ١٨٩٧.

- يابلونوفسكي، الكسندر. خطابات مهاجر. أفريقيا في عيون المهاجرين. موسكو، ٢٠٠٢.

- مراجع باللغة الروسية

- عبد العزيز، خليل. الصحافة اليومية في مصر. ١٩٦٠ – ١٩٧١. موسكو، ١٩٧٦.

- أفجوسطين (نيكيتين)، أرشيمندريت. الحجاج الروس عند المقدسات المسيحية في مصر. سان بطرسبورج، ٢٠٠٣.

- أفجوسطين (نيكيتين)، أرشيمندريت. سيناء وروسيا. عرض للعلاقات الأدبية الكنسية. التراث الثقافي لمصر والشرق المسيحي. الإصدار الأول. موسكو، ٢٠٠٢.

- أينالوف د. ف. الأيقونات السيناوية ذات اللوحات المرسومة بالشمع. "التوقيت البيزنطي"، العدد التاسع. ١٩٠٢.

- الكسيّ (ديختيريف)، أرشيمندريت. طريقي إلى الوطن. "مجلة بطريركية موسكو"، العدد ١٠، ١٩٤٥.

- الكسينيسكي، فلاديمير. بضع كلمات عن المتطوعين الروس في صفوف قوات فرنسا الحرة. أفريقيا في عيون المهاجرين. موسكو، ٢٠٠٢.

- ألفييفا، فاليري. الحج إلى سيناء. موسكو، ١٩٩٨.

- الخولي، أمين. العلاقات بين النيل والفولجا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. موسكو، ١٩٦٢.

- الرافعي، عبد الرحمن. انتفاضة ١٩١٩ في مصر. موسكو، ١٩٥٤.

- أرخيبوفا س. ڤ. د. ج. بوريلين و قضية حياته. الآثار المصرية غير المنشورة الموجودة في الصناديق المتحفية في إيفانوفو. أعمال مركز ڤ. س. جولينيشيڤ لعلوم المصريات التابع لجامعة الدولة الروسية للعلوم الإنسانية. الإصدار الأول، ٢٠٠٢.

- بابكوف إ. إ. عبر أفريقيا. رحلات ي. ب. كوفاليفسكي، ڤ. ڤ. يونكر، أ. ڤ. يليسييفا. موسكو، ١٩٤٩،

- بيزسونوف س. ڤ. أرخانجلسكوي. موسكو، ١٩٣٧.

- بيلوفا ج. أ، شيركوفا ت. أ. الروس في بلاد الأهرام. الرحّالة. العلماء. جامعو الآثار. موسكو، ٢٠٠٣.

- بيلياكوف ڤ. مقهى "سيفاستوبول". "البرافدا"، ٣ أغسطس ١٩٨٧.

- بيلياكوف ڤ. جمهورية زفتى. "البرافدا"، ٢٢ مارس ١٩٨٨، الإصدار الأول.

- بيلياكوف ف. مينشيكوف إ. صراع على الرمال. "البرافدا"، ٨ مايو ١٩٨٨.

- بيلياكوف ف. مراسل من لندن. "البرافدا"، ٤ نوفمبر ١٩٨٨.

- بيلياكوف ف. "صراع على الرمال". خاتمة ما نشر. "البرافدا"، ١٣ فبراير ١٩٨٩.

- بيلياكوف ف. "مسلة في بورسعيد". "البرافدا"، ٢٧ مارس ١٩٩٠.

- بيلياكوف ف. الرجل ذو الاسم الغريب. "البرافدا"، ١٠ أبريل ١٩٩٠.

- بيلياكوف ف. إيفان، نيكولاي و غيرهم. "البرافدا"، ٢٦ مايو ١٩٩٠.

- بيلياكوف ف. طائر النار يحلق نحو أفريقيا. "البرافدا"، ٩ سبتمبر ١٩٩٠.

- بيلياكوف ف. من أنت أيها الحاج خليبنيكوف؟ "البرافدا"، ٢٣ سبتمبر ١٩٩٠.

- بيلياكوف، فلاديمير. يوحنا من الأنتكخانة. "صدى الكوكب"، الأعداد من ٤٦ – ٤٧، ١٩٩٠.

- بيلياكوف، فلاديمير. في دير سيناء؟ "البرافدا"، ٥ يناير ١٩٩١.

- بيلياكوف، ف. الوطن يتذكر. افتتاح لوحات تذكارية جديدة للبحارة الروس في بورسعيد. "البرافدا"، ١ مارس ١٩٩١.

- بيلياكوف، فلاديمير. إلى أين ألقت بك المقادير أيها السيد؟ مقابر روسية في أفريقيا. "برافدا – بليوس"، مايو ١٩٩١.

- بيلياكوف، فلاديمير. جرس لا يصلصل. "البرافدا"، ١٦ سبتمبر ١٩٩١.

- بيلياكوف، فلاديمير. سيف كوتوزوف. "البرافدا"، ١١ نوفمبر ١٩٩١.

- بيلياكوف، فلاديمير، وديشلوك، ميخائيل. شجرة العليقة الملتهبة. "صدى الكوكب"، العدد ٢٥، ١٩٩١.

- بيلياكوف، فلاديمير. شجرة العليقة الملتهبة. "حول العالم"، العدد ١، ١٩٩٢.

- بيلياكوف، فلاديمير. نقوش على الأحجار. في إثر بعثة ف. جولينيشيف. "البرافدا"، ١ فبراير ١٩٩٢.

- بيلياكوف، فلاديمير. لم ترد في الكتالوجات. اكتشاف لوحة مجهولة لـ إ.ي. بيليبين. "صدى الكوكب"، العدد ١٤، ١٩٩٢.

- بيلياكوف، فلاديمير. بحثًا عن أيقونة روبيلوف. "صدى الكوكب"، العدد ٣١، ١٩٩٢.

- بيلياكوف، فلاديمير. جندي سوفيتي في مصر. "البرافدا"، ٩ مايو ١٩٩٢.

– بيلياكوف، فـلاديمير. "لم نحارب من أجل نظام ستالين، وإنمـا ضـد الفاشية!"، هكذا تحدث المحاربون القدماء الذين حـاربوا فـي شـمال أفريقيـا "البرافـدا"، ٣١ أكتوبر ١٩٩٢.

– بيلياكوف ف. لاجئون روس في مـصر. "آسـيا و أفريقيـا اليـوم"، الأعداد ١١، ١٢، ١٩٩٢.

– بيلياكوف، فـلاديمير. في أثر "بيريسيـفـت". الروس فـي مـصر. القاهرة، ١٩٩٤.

– بيلياكوف، فـلاديمير. سيمفونية شـاليابين الليليـة. "حـول العـالم"، العدد ١٢، ١٩٩٤.

– بيلياكوف، فـلاديمير. علبة نشوق العقيد كوفـاليـفـسكي الذهبيـة. "معادن أوراسيا"، العدد ٦، ١٩٩٦.

– بيلياكوف، فـلاديمير. تحيـة لـشجرة العليقـة الملتهبـة. "تـرود"، ٥ مارس ١٩٩٧.

– بيليـاكوف، فـــلاديمير. مـذكرات علـى الـصخور. "تـرود"، ٢٣ أغسطس ١٩٩٧.

– بيليـاكوف، فـــلاديمير. أغـانٍ روسـية علـى النيـل. "تـرود"، ٤ فبراير ١٩٩٨.

– بيليـاكوف، فـــلاديمير. متـرجم تـوت عـنخ آمـون. "تـرود"، ١١ أبريل ١٩٩٨.

- بيلياكوف، فلاديمير. رمال الصحراء ذكّرتهم بركام الثلوج في روسيا. "ترود -٧"، ١١ يونيو ١٩٩٨.

- بيلياكوف، فلاديمير. سيف كوتوزوف. "ترود"، ٢١ نوفمبر ١٩٩٨.

- بيلياكوف، فلاديمير. سوناتا القمر في الجيزة. رحلة في القاهرة بصحبة س. شاليابين. "ترود-٧"، ٢٠ نوفمبر ١٩٩٨.

- بيلياكوف، فلاديمير. أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار. الروس في مصر. موسكو، ٢٠٠٠.

- بيلياكوف، فلاديمير. كلابه السلوقي تبدو وكأنها حية. "ترود"، ٢٤ مارس ٢٠٠٠.

- بيلياكوف، فلاديمير. واحدة فقط في الإسكندرية كلها. "ترود"، ١ أغسطس ٢٠٠٠.

- بيلياكوف ف. ف. الأماكن المقدسة في سيناء وروسيا. أفكار تقرير المؤتمر العلمي "مصر القديمة والمسيحية". موسكو، ٢٠٠٠.

- بيلياكوف ف. ف. مدينة موتي روسية في مصر. "ترود"، ٣ أبريل ٢٠٠١.

- بيلياكوف ف. ف. رحلة طائر النار. "ترود"، ٣ أبريل ٢٠٠١.

- بيلياكوف، فلاديمير. فيلق روسي في أفريقيا. "فيتشيرني كلوب"، ٤ مايو ٢٠٠١.

- بيلياكوف، فلاديمير. هكذا أعادوا للأسماء الحياة. "ترود"، ٤ يوليو ٢٠٠١.

- بيلياكوف، فلاديمير. يوحنا من الأنتكخانة. "رحلة جول العالم"، العدد ٨، ٢٠٠١.

- بيلياكوف، فلاديمير. روسي في صحراء الجزيرة العربية. "رحلة حول العالم"، العدد ١٢، ٢٠٠١.

- بيلياكوف ف. ف. مدينة موتى روسية في مصر: معلومات جديدة "بشير علم السلالات". الإصدار ١٠. سان بطرسبورج، ٢٠٠٢.

- بيلياكوف، فلاديمير. غرام أميرة. من أجلها اعتنق النيل الروسي الإسلام. "ترود"، ٦ أغسطس ٢٠٠٢.

- بيلياكوف ف. ف. الأماكن المقدسة في سيناء وروسيا. التراث الثقافي لمصر والشرق المسيحي. الإصدار ١. موسكو، ٢٠٠٢.

- بيلياكوف ف. ف. روسيا و سيناء. ما الذي تخبؤه مخطوطات سيناء. "الأرشيف الشرقي"، الأعداد ٨،٩، ٢٠٠٢.

- بيلياكوف ف. ف. اللاجئون الروس في مصر في عام ١٩٢٠. "الأرشيف الشرقي"، العدد ١٠، ٢٠٠٣.

- بيلياكوف ف. ف. "الولع بمصر" في روسيا في القرن التاسع عشر- مطلع القرن العشرين تقاطع العصور. الإصدار ٤. موسكو، ٢٠٠٣.

- بيليـاكوف، فـلاديمير. الولـع بمـصر. "المجموعـة الـشرقية"، صيف ٢٠٠٣.

- بيلباسوف ف. أ. تاريخ يكاتيرينا الثانية. برلين، ١٩٠٠.

- بوفـكالو أ. ظهور الروس الأرثونكس في أفريقيا "آسيا وأفريقيا اليوم"، العدد١، ٢٠٠٣.

- مخطوطة حربية للأسطول الروسي. موسكو، ١٩٤٨.

- بولشاكوف، أندريه. المقبرة ٢٠٩٧ ج. من مـذكرات أمـين متحـف الآثار. "المجموعة الشرقية"، خريف ٢٠٠١.

- بوزينكو، سيرجي. العلمين. قصيدة و رواية. موسكو، ١٩٦٣.

- بريم، الفريد. رحلة في شمال شرق أفريقيا. موسكو، ١٩٥٨.

- بوربون، فابيو، ولافـانيو، إنريكو. الأرض المقدسة. فلسطين، سيناء، الأردن. موسكو، ٢٠٠١.

- فـيلتشكوفـسكي س.ن. القرية الملكية. إعادة لطبعـة ١٩١١. سـان بطرسبورج، ١٩٩٢.

- جافريلوفـا، الكسندرا. المقدسات المصرية. بوينوس – أيرس، ١٩٦٠.

- جيلمـان، فـاديم. أ. ف. جـيـفـاجو (١٨٦٠ – ١٩٤٠). أ. ف. جـيـفـاجو – الطبيب، جامع الآثار، عالم المصريات. موسكو، ١٩٩٨.

- ج. ل. كيف يعيش ويعمل إ. ي. بيليبـين. "طـائر النـار"، بـاريس، العدد ٢، ١٩٢١.

- جولدوبين أ. م. ثورة ١٩١٩ المصرية. لينتجراد، ١٩٥٨.

- جولدوبين أ. م. من تاريخ حركة التحرر الوطني في مصر في ١٩٠٦ – ١٩٠٧. "المذكرات العلميـــة لجامعـــة لينتجـــراد الحكومـــة"، العـــدد ٢٨٢. سلسلة "الاستشراق". الإصدار ١١. لينتجراد، ١٩٥٩.

- جوليتسين أ. ق، لوبوخين ف. أ، موكييـــفـــا ن. ب، سابوجـــنيكوف س. أ، دوروف د. ف. مدينة روسية في مصر. "علم السلالات التاريخي".

- جوليتسين ج. ف، جوليتسين س. ف. إيـــفـــان ياكوفـليـفـــيتش بيليبين. موسكو، ١٩٧٢.

- جورياتشكين ج. البحـــث عـــن صـــوفيا. "آســـيا وأفريقيـــا اليـــوم"، العدد ٣، ١٩٩٦.

- جورياتشكين ج. ف. "الطريق المصرف" لمواد صحيفة إيـــسكرا إلـــى روسيا. "بشير جامعة موسكو". السلسلة ١٣. الاستشراق. العدد ١، ١٩٨٧.

- جورياتشكين ج. آخر قنصل عام قيصري في مصر. " آسيا وأفريقيـــا اليوم"، العدد ٥، ٢٠٠١.

- جورياتشكين ج. القنصل الروسي في الإسكندرية "آسيا وأفريقيا اليوم"، العدد ١١، ٢٠٠١.

- جورياتشكين ج. العيادة الروسية في القاهرة. "آسيا وأفريقيـــا اليـــوم"، العدد ١١، ١٩٩٨.

- جورياتشكين ج. ف، جريتسينكو ت. ج، فومين أ. إ. المهجر الروسي في مصر وتونس (١٩٢٠ – ١٩٣٩). موسكو، ٢٠٠٠.

- دانتسيج ب. م. الشرق الأوسط في العلم والأدب الروسيين (ما قبل ثورة أكتوبر). موسكو، ١٩٧٣.

- دراجوروفا ج. ت. في أرض شجرة العليقة الملتهبة. تعليق على كتاب فلاديمير بيلياكوف. "أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار". "داريال"، فلاديقفقاز، العدد ٣، ٢٠٠١.

- مصر القديمة. مجموعة مقالات في ذكرى ف. س. جولينيشيف. موسكو، ١٩٦٠.

- يحورين أ. ز. تاريخ ليبيا. القرن العشرون. موسكو، ١٩٩٩.

- دراسة أفريقيا في روسيا (فترة ما قبل الثورة). موسكو، ١٩٧٧.

- كافيرين ف. بارون برامبيوس. تاريخ أوسيب سينكوفسكي، صحفي، محرر في سلسلة "مكتبة للقراءة". موسكو، ١٩٦٦.

- كازانسكي ب. س. تاريخ الرهبنة الأرثوذكسية في الشرق. موسكو، ٢٠٠٠.

- كمال، محمد مجدي. الطريق الشائك نحو التكوين. مجلة "مشكلات العالم والاشتراكية"، براج.، العدد ٦، ١٩٨٧.

- كاميديان، ميشيل (باريس). النحات فريدمان – كليوزيل (١٨٧٨ – ١٩٥٩). مجلة "نظرة شاملة على الآثار"، العدد ١، ٢٠٠١.

- كابتيريف ن. ف. العلاقات بين بطارقة القدس والحكومة الروسية من القرن السادس عشر إلى القرن السابع عشر والمائة عام الجارية (١٨١٥ – ١٨٤٤). "مجموعة مقالات أرثوذكسية فلسطينية"، الجزء ١٥، الإصدار الأول. سان بطرسبورج، ١٨٩٨.

- كابتيريف ن. ف، طابع العلاقات الروسية بالشرق الأرثوذكسي في القرنين السادس عشر والسابع عشر. سان بطرسبورج، ١٨٨٥. الطبعة الثانية، سيرجييف بوساد، ١٩١٤.

- كارامزين ن. م. تاريخ الدولة الروسية. موسكو، ٢٠٠٢.

- كاتسنيلسون إ. س. لقاء روسيا بمصر (الثلث الأول من القرن التاسع عشر). توت عنخ آمون وزمنه. موسكو، ١٩٧٦.

- كليموف ج. ي. البحث عن طائر النار. موسكو، ١٩٨١.

- كليوتشيفسكي ف. أ. موجز التاريخ الروسي. موسكو، ١٩٩٢.

- كوبيشانوف ي. م. مذكرات الحجاج الروس في الأرض المقدسة باعتبارها مصدرًا لتاريخ العلاقات بين أوكرانيا وأفريقيا المسيحية. "مجموعة مقالات أرثوذكسية فلسطينية"، الإصدار ٣١ (٩٤). موسكو، ١٩٩٢.

- كوفاليفسكي ب. ي. المهجر الروسي. باريس. ١٩٧١.

- كوفاليفسكي ب. ي. المهجر الروسي. إصدار إضافي. باريس، ١٩٧٣.

- كورينلوف ف. س. الحج الروسي القديم. كالينجراد، ١٩٩٥.

- كوروستوفسيف م. أ. خودجـاش س. أ. النشاط الاستشراقي لبورفيري أوسبينسكي. الشرق الأوسط والأدنى. موسكو، ١٩٦٢.

- كراتشكوفسكي إ. ي. صدى ثورة ١٩٠٥ في الأدب الروائي العربي. "الاستشراق السوفيتي"، الجزء ٣. موسكو – لينجراد، ١٩٤٥.

- كودريافتسيف ف. د. كم الساعة في القاهرة؟ موسكو، ١٩٧٦.

- كوبريانوفسكي ب. ف. ، مولتشانوفا ن. أ. الشاعر قنسطنطين بالمونت. سيرة حياته. إبداعه. مصيره. إيفانوفو، ٢٠٠١.

- كوسكوفو. القصر. دليل. موسكو، ٢٠٠١.

- لاندا ر. الثورة الاشتراكية في روسيا والعالم العربي. "آسيا وأفريقيا اليوم"، العدد ١، ١٩٨٧.

- ليكيند أ. أ. ، ماخروف ن. ف. سيفيريوخين د. ي. الفنانون الروس في المهجر. سان بطرسبورج، ١٩٩٩.

- ليونيدوف، فيكتور. الروس على أرض الفراعنة. حول كتاب فلاديمير بيلياكوف "أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار". "أخبار روسية"، ١٦ يوليو ٢٠٠٣.

- ليدوف أ. ن. الأيقونات البيزنطية في سيناء. أثينا – موسكو، ١٩٩٩.

- لوكونين ي. ف. المغرب: أحد مسارح الحرب العالمية الثانية. أفريقيا والحرب العالمية الثانية. موسكو، ١٩٩٦.

– لوكونين ي. ف. "جواز سفر مهين" على ضفاف النيل الشتات الروسي في أفريقيا. م، ٢٠٠١.

– لوكونين ي. ف. التاريخ الحديث للبلاد العربية. موسكو، ١٩٦٦.

– لوتسكي ف، ب. نهضة حركة التحرر الوطني في البلاد العربية في فترة الثورة الروسية الأولى ١٩٠٥ – ١٩٠٧. الثورة الروسية الأولى والحركة الثورية العالمية. الجزء ٢. موسكو، ١٩٥٥.

– ليوبارسكايا أز م. الرحّالة والبحارة الروس في بناء قناة السويس. بلدان وشعوب الشرق. الإصدار الأول. موسكو، ١٩٥٩.

– ماركيز، ماريا وفلورا. "الجيش البولندي الخاص". بمناسبة مرور خمسين عامًا على وفاة فلاديميز بينياكوف. "الفكر الروسي"، باريس الأعداد ٤٣٨١، ٤٣٨٢. أكتوبر ٢٠٠١.

– ماتييه م. إ. ، بافلوف ف. ف. آثار الفن المصري القديم في متاحف الاتحاد السوفيتي. موسكو، ١٩٥٨.

– ميخايلوف، أوليج. كوتوزوف. موسكو، ١٩٨٨.

– مويسييف س. ب. قائمة سفن الأسطول الروسي البخارية والمدرعة (١٨٦١ – ١٩١٧). موسكو، ١٩٤٨.

– دير سانت كاترين. طبعة دير سانت كاترين للرجال. موسكو، ١٩٩٨.

– جسور وكرانيش لينجراد. لينجراد، ١٩٩١.

- ناباتشيكوف، فلاديمير. مصر القديمة في عيون فنان روسي من القرن التاسع عشر. "عالم الشرق"، العدد ٢، ٢٠٠٣.

- نايدا س. ف. الحركة الثورية في الأسطول القيصري. موسكو – لينجراد، ١٩٤٨.

- نيكيتين د. الدير الأرثوذكسي في سيناء. "آسيا وأفريقيا اليوم"، العدد ٦، ١٩٨٨.

- التاريخ الحديث للبلاد العربية. موسكو، ١٩٦٨.

- التاريخ الحديث للبلاد العربية في أفريقيا. موسكو، ١٩٩٠.

- أرلوف، يوهان. رئيس القساوسة. في بطريركية الإسكندرية. "مجلة بطريركية موسكو". العدد ١٠، ١٩٧٨.

- أوستانينكو. المسرح بالقصر. موسكو، ١٩٩٤.

- بابايوانو، يفانجيلوس. دير سانت كاترين. سيناء. ترجمة عن الإنجليزية فلاديمير بيلياكوف. طبعة دير سانت كاترين. (بدون تاريخ (١٩٩٦).

- بيرمينوف ب. ثلاثة مشاهد من تاريخ العلاقات الروسية العربية في القرن الثامن عشر. "آسيا وأفريقيا اليوم"، الأعداد ٧ – ٩، ١٩٨٧.

- بيرمينوف، بيوتر. ابتسامة أبي الهول. موسكو، ١٩٨٥.

- بتروفسكي ن. س. معلومات تاريخية عن مصر القديمة في روسيا في القرون من الحادي عشر وحتى الثامن عشر. زامورروفسكي، فوينيخ. صاحبة الجلالة الأهرامات. موسكو، ١٩٨١.

– بتروفسكي ن. س. ، بيلوف أ. م. بلد جابي العظيم. الطبعة الثانية. لينتجراد، ١٩٧٣.

– بيكول، فالنتين. الطرّاد البحري. نيفيديمكي. موسكو، ١٩٨٧.

– كتّاب المهجر الروسي. موسكو، ١٩٩٧.

– بيتيرسكي ن. أ. ، تشيرنوف ي. إ. صفحات من المجد البحري. موسكو، ١٩٧١.

– بويجينبول م. مقال حول ظهور ونشاط الأسطول التطوعي خلال خمسة وعشرين عامًا من وجوده. أبحاث تاريخية في الملاحة في البحر الأسود. أوديسا، ١٩٦٧.

– بوليان، بافل. ضحايا ديكتاتوريون. عمال الشرق وأسرى الحرب في الرايخ الثالث وعملية ترحيلهم. موسكو، ١٩٩٦. الطبعة الثانية. موسكو ٢٠٠٣.

– رحلة في الأراضي المقدسة. سعيًا لمساعدة الحجاج. موسكو، ١٩٩٧.

– بروكفيف ن. إ. المسيرة: الرحلة والنوع الأدبي. كتاب المسيرات. مذكرات الرحّالة الروس في القرون ١١–١٥. موسكو، ١٩٨٤.

– بياتنيسكي، يوري. سيناء، بيزنطة، روسيا. "تراثنا"، العدد ٥٨، ٢٠٠١.

– ريبيرج ف. ب. الأسرار التاريخية للانتصارات الكبرى والهزائم الغامضة. مذكرات مشارك في الحرب الروسية اليابانية ١٩٠٤، ١٩٠٥. مدريد، ١٩٦٧.

- ريفورماتسكي، إيجور. "لقاء آخر في إلبا". "ترود"، ٢٣ يونيو ٢٠٠١.

- روزينوير س. رحلة غير قانونية. موسكو، ١٩٣٢.

- رومانوف، بوريس. مقدمة لمجموعة مقالات "رحلة إلى الأرض المقدسة"، موسكو، ١٩٩٥.

- روتشتاين ف. أ. احتلال واستعباد مصر. الطبعة الثانية، موسكو، ١٩٥٩.

- روتشتاين إ. من مذكراتي عن أبي. الإمبريالية وكفاح الطبقة العاملة. مجموعة مقالات في ذكرى الأكاديمي ف. أ. روتشتاين. موسكو، ١٩٦٠.

- سيميونوف، أوليج. إيفان بيليبين. موسكو، ١٩٨٦.

- سمورودكين، سيرجي. مدينة صغيرة تحمل اسم إيفان. "سبوتنيك"، يونيو ١٩٩٢.

- سولجينيتسين، الكسندر. أرخبيل جولاج. "العالم الجديد"، العدد ٨، ١٩٨٩..

- سولجينيتسين، الكسندر. مائتا عام معًا. الجزء ١. موسكو، ٢٠٠١.

- سولوفيوف س. س. لغز الطغراء "W" . // مصر القديمة. اللغة – الثقافة – الوعي. موسكو، ١٩٩٩.

- ستادوبيتس، أنا طولي. الروس المصريون. حول كتاب فلاديمير بيلياكوف "أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار". "ترود"، ٢٥ ديسمبر ٢٠٠١.

– ستروفي ف. ف. بمناسبة مائة عام على ميلاد ف. س. جولينيشيف. "بشير التاريخ القديم"، العدد ٢، ١٩٥٧.

– تارتاكوفسكي ب. إ. أشعار بونين والشرق العربي. "شعوب آسيا وأفريقيا"، العدد ١، ١٩٧١.

– تيخوميروف ن. ي. عمارة الضياع في ضواحي موسكو. موسكو، ١٩٥٥.

– تولستوي ن. د. ضحايا يالطا. موسكو، ١٩٩٦.

– توماشيفيتش أ. ف. كلمة عن فلاديمير فيكينتيف (استنادًا إلى مواد أرشيف متحف بوشكين للفنون الجميلة). مصر القديمة: اللغة – الثقافة – الوعي، موسكو، ١٩٩٩.

– أوليانيتسكي ف. أ. القنصليات الروسية في الخارج في القرن الثامن عشر. موسكو، ١٨٩٩.

– فابيرجيه، ى. ك. في ذكرى الذين رحلوا. ب. أ. فريدمان – كليوزيل. "الفكر الروسي"، باريس، ٢٩ مارس ١٩٦٠.

– فابيرجيه ت. ف. ، جورينيا أ. س. ، سكورلوف ف. ف. فابيرجيه وصائغو بطرسبورج. سان بطرسبورج، ١٩٩٧.

– فينجاريت س. إ. فن مصر القديمة في مجموعة متحف الأرميتاج. لينينجراد، ١٩٧٠.

- فورموزوف أ. أ. بوشكين والآثار القديمة: ملاحظات عالم آثار. موسكو، ٢٠٠٠.

- ب. أ. فريدمان - كليوزيل (١٨٧٨ - ١٩٥٩): "أقرب إلى الطبيعة، أقرب إلى الله". "جامع عاديات قديمة"، خريف ٢٠٠٠.

- فرينكل م. "إيسكرا" لينين في مصر. "آسيا وأفريقيا اليوم"، العدد ١١، ١٩٨٨.

- فرينكل م. ي. الثوار الروس في مصر من ١٩٠٦ وحتى ١٩٠٧. "شعوب آسيا وأفريقيا"، العدد ٣، ١٩٨٥.

- خوخلوفا ف. ب. أفريقيا في الحرب العالمية الثانية (مواد ببليوجرافية).. أفريقيا والحرب العالمية الثانية. موسكو، ١٩٩٦.

- خوخلوفا ف. ب. "روسيا الأخرى" في أفريقيا. موسكو، ١٩٩٦.

- خوخلوفا ف. ب. "روسيا الأخرى" في أفريقيا (مواد ببليوجرافية). الشتات الروسي في أفريقيا. موسكو، ٢٠٠١.

- خوخلوفا، فالنتينا. الذين اكتووا بالحرب. أفريقيا في عيون المهاجرين. موسكو، ٢٠٠٢.

- خوخلوفا ف. ب. يوبيل بوشكين ١٩٣٧ والمهجر الروسي في أفريقيا. أفريقيا والقرن الماضي. موسكو، ٢٠٠٠.

- تسيوربا، فسيفولد. جرس الذاكرة. موسكو، ١٩٨٦.

- تشيركاشين، نيكولاي. انفجار سفينة. قصة. شمس بَحرية. موسكو، ١٩٨٨.

- تشيركاشين، نيكولاي. بورسعيد تحتفظ بالسر. "الثقافة السوفيتية"، ٢١ أبريل ١٩٩٠.

- تشوراكوف م. اعتقال البحارة الثوريين الروس في مصر في الأعوام من ١٩٠٧ وحتى ١٩١٣. مجموعة المقالات الأفريقية. التاريخ. الإصدار الأول. موسكو، ١٩٦٣.

- شامي أ. الحزب الشيوعي المصري. موسكو، ١٩٢٩.

- شرباتوف، ج. رمز الحياة. "البرافدا"، ٦ مايو ١٩٧٠.

- شاخفيردوف ج. ج. ب. ف. ليسجافت. دراسة عن حياته ونشاطه العلمي التعليمي. لينينجراد، ١٩٥٠.

- شيفمان أ. ليف تولستوي والشرق. موسكو، ١٩٦٠.

- شومكوف أ. أ. آل سيبرياكوف. سان بطرسبورج، ١٩٩٩.

- شابوف ي. ن. ثلاثة أيام في دير سانت كاترين السيناوي جينادیوس. بمناسبة العيد السبعين لميلاد الأكاديمي ج. ج. "ليتافرين". موسكو، ١٩٩٩.

- شابوف ي. ن. الرحلة العلمية التي قامت من شركة الري عام ١٩١١ إلى مصر. التراث الثقافي لمصر والشرق المسيحي. الإصدار الأول. موسكو، ٢٠٠٢.

- شينيكوف ف. الذكري المجيدة للروس. "آسيا وأفريقيا اليوم"، العدد ٤، ١٩٩٤.

- ياكوفليف أ. النضال من أجل "التسجيل". إضراب بحارة البحر الأسود شتاء ١٩٠٦ – ١٩٠٧. موسكو، ١٩٢٩.

المراجع في اللغات الأوربية

Althauer M., Lunt H.G. An Early Slavonic Psalter from Rus. Harvard. 1978.

Austin, Alexander. Birth of the Army. London, 1943.

Beliakov, Vladimir. Ioann from Antik khania. A Russian Artist in Egypt. "Places in Egypt". July-August 1992.

Beliakov, Vladimir. Egypt in Russia. "Places in Egypt". March-April 1993.

Bibliorum Codex Sinaiticus. B 4-x TOMAX. CTI6.. 1862.

Brin, Morik. Peintres et Sculpteurs de l'Egypte contemporaine Le Caire. 1935.

Brock, Sebastian. A Venerable Manuscript Collection. In: The Monastery of Saint Catherine. London. 1996.

Daumas, Franqois. Alexandre Piankoff (1897-1966). "Bulletin de l'Institut Franqais d'archeologie Orientale. No. 65. Le Caire, 1967.

Dawson, W. Who was who in Egyptology. London, 1972.

Egypt. An Eyewitness Guidebook. London. 2001.

Ferrand, Jacques. Le Princess Obolensky, Paris, 1992.

Flamburiani, Dimitri. Les Russes sur la Terre Egyptienne. Aperqu historique. 2-me Edition. Alexandrie, 1936.

Forsyth, George. The Monastery of St. Catherine at Mount Sinai: The Church and the Fortress of Justinian. In: Galey, John. Sinai and the Monastery of St. Catherine. Cairo. 1985.

Galavaris, George. An Unrivalled Record of the Icon Painter's Art. In: The Monastery of Saint Catherine. London. 1996.

Galey, John. Sinai and the Monastery of St. Catherine, Cairo, 1985.

Graves, Eve. The Monastery of Saint Catherine and the Tradition of Pilgrimage. In: The Monastery of Saint Catherine. London, 1996.

Grigassy Kakosy, Eva. Springtime in Egypt. "The Egyptian Mail", 13 April 1996.

Grossmann, Peter. Die Antike Stadt Pharan, Cairo. 1998.

Jordan, Philip. Jordan's Tunis Diary. London. 1943.

Hughes, Richard. The Monastery of Saint Catherine: a Duality of Natures. In: The Monastery of Saint Catherine. London. 1996.

Kamil, Jill. Coptic Egypt. History and Guide. 2nd edition. Cairo, 1993.

Khokhlova, Valentina. "The First Wave" of Emigration from Russia in the African Continent (a Bibliographer's Notes). In: African Studies in Russia. Yearbook 1997. Moscow. 1999.

La Noblesse de Russia. Tome 2. Paris, 1962.

Lukianoff, Elisabeth, Orthodox Icons and the Collection

of the Monastery of St. George in old Cairo. Second edition. Cairo, 1943.

Manafis K.A. (ed). Sinai. Treasures of the Monastery of Saint Catherine. Athens, 1990.

Mango, Cyril. Justinian's Fortified Monastery. In: The Monastery of Saint Catherine. London, 1996.

The Monastery of Saint Catherine. An Introduction by His Eminence. Archbishop Damianos. Published by the Saint Catherine Foundation. London, 1996.

Oumov, Ivan. Offrande. Poemes. Alexandrie, 1958.

Paliouras A. The Monastery of St. Catherine. Sinai. 1985.

Peniakoff, Vladimir. Private Army London, 1950. 2nd edition. London, 1998.

Piankoff A. Two descriptions by Russian travelers of the monasteries of St. Anthony and St. Paul in the Eastern desert. "Bulletin de la Societe Royale de Geographie d'Egypte". T. XXI. Le Caire. 1943.

Saint Catherine's Monastery. Mount Sinai. Orthodox Pomianyc of the Seventeenth- Eighteenth Centuries. Cambridge. 1989.

Seton-Williams, Veronica, and Stocs. Peter. Blue Guide Egypt. Second edition. London – New – York. 1988.

Shaw, Ian, and Nicholson, Paul. British Museum Dictionary of Ancient Egypt. Cairo, 1996.

Sinai. Byzantium. Russia. Orthodox Arts from the Sixth to the Twentieth Century. London. 2000.

Stavrou T.G., Weisensel P.R. Russian Travelers to the Christian East from the 12th to the 20th Century. Columbus, 1986.

Tarnanidis I.C. The Slavonic Manuscripts Discovered in 1975 at St. Catherine's Monastery on Mount Sinai. Thessaloniki, 1988.

Vikentiev, Vladimir. Wladimir Semionovitch Golenischeff (1856-1947). "Bulletin of the Faculty of Arts". Vol. XIII, part 1. King Fouad 1 University Press. Cairo, 1951.

Volkoff, Oleg V. Comment on visitait-la vallee du Nil: les "Guides" de l'Egypte. Le Caire. 1967.

Volkoff, Oleg V. A la recherche de manuscrits en Egypte. Le Caire. 1970.

Volkoff, Oleg V. Le Caire 969-1969. Histoire de la ville des "Mille et Une Nuits". Le Caire. 1970.

Volkoff, Oleg V. Voyageurs Russes en Egypte. Le Caire. 1972.

Ware, Timothy. The Orthodox Church. New Edition. London, 2001.

Weitzmann, Kurt, The Arts. In: Galey, John, Sinai and the Monastery of St. Catherine. Cairo. 1985.

Weitzmann, Kurt. The History. In: Galey. John. Sinai and the Monastery of St. Catherine. Cairo, 1985.

Weitzmann, Kurt, and Galey, John. The Monastery of Saint Catherine at Mount Sinai, the Icons I: From the Sixth to the Tenth Century. Princeton. 1976.

Weitzmann K. Studies in the Arts at Sinai. Princeton. 1982.

المراجع في اللغة العربية

- الجباخنجي، محمد صدقي. تاريخ الحركة الفنية في مصر. القاهرة، ١٩٧٩.

- المرسي، فؤاد. العلاقات المصرية السوفيتية. ١٩٤٣ – ١٩٥٦. القاهرة، ١٩٧٦.

- الرافعي، عبد الرحمن. مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية. الطبعة الرابعة. القاهرة، ١٩٦٢.

- أوراق مصطفى كامل. المراسلات. القاهرة، ١٩٨٢.

- السعيد، رفعت. تاريخ الحركة الشيوعية في مصر. ١٩٠٠ – ١٩٢٥. الطبعة الخامسة. القاهرة، ١٩٨١.

- بكر، عبد الوهاب. أضواء على نشأة الشيوعية في مصر. ١٩٢١ – ١٩٥٠. القاهرة، ١٩٨٣.

- بهاء الدين، أحمد. أيام لها تاريخ. بيروت، ١٩٧٥.

- بك شقير، نعوم. سيناء وتاريخ العرب. القاهرة، ١٩١٦.

- بيلياكوف، فلاديمير. من ركّاب السفينة "تشيتشيرين". "المجلة السوفيتية"، القاهرة، الأعداد ١١-١٢، ١٩٩٠.

- بيلياكوف، فلاديمير. أيقونات روسية في مصر. "المجلة السوفيتية"، القاهرة، العدد ٢، ١٩٩١.

- كوتساريف، نيكولاي. من ألف عام على الطريق. القاهرة، ١٩٦٧.

- روتشتاين، تيودور (فيودور). تاريخ المسألة المصرية. ١٨٧٥ – ١٩١٠. بيروت، ١٩٨١.

- تاراسوف، نيكولاي. مصر والثورة الروسية. "المجلة السوفيتية"، القاهرة، العدد ١، ١٩٨٧.

- حسني العرابي، محمود. ٨٩ شهرًا في المنفى. ١٩٣١ – ١٩٣٨. القاهرة، ١٩٤٨.

الدوريات

- "الأهرام". القاهرة، ١٩٠٧ (باللغة العربية).

- "الاثنين والدنيا". القاهرة، ١٩٤٦ (باللغة العربية).

- "اللواء". القاهرة، ١٩٠٧. (باللغة العربية).

- "فـوينّايا بيل" ("وقائع الحرب"). باريس، ١٩٥٢.

- "دونيتس نا تشوجـينى" ("ابن الدون في المهجر"). المجلة الأدبية الفنية لفيلق كاديت دونسكوي. الإسماعيلية. الأعداد ٣، ٤، ٦، ٧، ١٩٢٠-١٩٢١،

- "إسماعيلوفسكايا ستارينا" ("ماضـي إسماعيلوفـسكايا"). الإسـكندرية، ١٩٣٠ – ١٩٤٠.

- "إيلوستريروفانّايا روسيا" ("روسيا بالصور"). باريس، ١٩٣٤ – ١٩٣٨.

- "نا تشوجـبينى" ("في المهجر"). سيدي بشر، الإسـكندرية. العـدد ٤، ١٩٢١. العد ١، ١٩٢٢.

- "برافـدا" ("الحقيقة"). موسكو، ١٩١٢.

- "The Egyptian Gazette". Cairo, 1917. 1933.

- "The Egyptian Standard". Cairo, 1907.

المؤلف في سطور

فلاديمير بيلياكوف

- ولد في موسكو عام ١٩٥٠، وتخرج في معهد موسكو للعلاقات الدولية.
- عمل مراسلا صحفيًا لصحيفتي "برافدا" و "ترود" لمدة ١٥عامًا في مصر من عام ١٩٨٦ إلى عام ٢٠٠٠.
- يشغل الآن منصب كبير الباحثين بمعهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم الروسية.

من مؤلفاته

١- أفريقيا تفتح ذراعيها لطائر النار. موسكو، ٢٠٠٠.

٢- مدينة موتى روسية في مصر. موسكو، ٢٠٠١.

٣- مصر طولا وعرضا (دليل تاريخي). موسكو، ٢٠٠٣.

٤- رحلة إلى ضفاف النيل المقدسة (الروس في مصر). موسكو، ٢٠٠٣.

٥- كنوز سيناء. موسكو، ٢٠٠٤.

٦- القاهرة: تاريخ مدينة. موسكو، ٢٠٠٤.

٧- مصر الروسية. موسكو، ٢٠٠٦.

٨- العلمين: الجنود الروس في شمال أفريقيا (١٩٤٠ – ١٩٤٥). موسكو، ٢٠١٠.

٩- مصر في عيون الروس من القرن الخامس عشر وحتى القرن الثامن عشر. موسكو، ٢٠١٣:

المترجم في سطور

أنور محمد إبراهيم

- تخرج في كلية الألسن قسم اللغة الروسية ١٩٧٠. وحصل على درجة الدكتوراه في فقه اللغة والأدب من جامعة موسكو ١٩٨٣.
- رئيس قطاع العلاقات الثقافية الخارجية الأسبق بوزارة الثقافة.

حصل على وسام الشرف من روسيا الاتحادية لجهوده في دعم العلاقات الثقافية بين مصر وروسيا الاتحادية.

ترجم عن اللغة الروسية

١- تطور الفكر الاجتماعي العربي من ١٩١٧ وحتى ١٩٤٧.

٢- العربية السعودية والغرب.

٣- تاريخ القرصنة في العالم.

٤- الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادي والعشرين (بالاشتراك).

٥- نماذج من النقد الروسي الحديث.

٦- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن التاسع عشر.

٧- مسرح الفنان في روسيا وألمانيا (جزءان).

٨- عمارة المسرح في القرن العشرين.

٩- ذات يوم في مصر (شهادات الخبراء العسكريين السوفيت).

١٠- الشرق والغرب صدام أم انسجام.

التصحيح اللغوي : وجيـــه فاروق

الإشــراف الفني : حســن كامــل